لجنة التأليف والترجمة والنشر

معالم تاريخ الإنسانية

تأليف

هـ . ج . ولز

H G. Wells

تعريب

عبد العزيز توفيق جاويد

خريج المعلمين العليا

المدرس بمدرسة مصر الجديدة الثانوية

المجلد الأول

ويتضمن الأجزاء الثلاثة الأولى

الطبعة الأولى

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٧

لجنة التأليف والترجمة والنشر

معالم تاريخ الإنسانية

تأليف

هـ . ج . ولز

H. G. Wells

تعريب

عبد العزيز توفيق جاويد

خريج المعلمين العليا

المدرس بمدرسة مصر الجديدة الثانوية

المجلد الأول

ويتضمن الأجزاء الثلاثة الأولى

الطبعة الأولى

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٧

محتويات الكتاب

معالم تاريخ الإنسانية

قصته والغرض منه

الكتاب الأول

العالم قبل الانسان

صفحة

الكتاب الثانى

تكوين الإنسان

صفحة

صفحة

الكتاب الثالث

المدنيات الأولى

صفحة

الفصل السابع عشر : موالى الأرض والأرقاء والطبقات الاجتماعية والأفراد الأحرار ... ...

فهرس الصور والخرائط

أمام صفحة

كلمة المترجم

ولد المؤلف فى سنة ١٨٦٦ بمدينة بروملى بمقاطعة كنت بإنجلترا، لأب كان يعمل بستانيا ورياضيا محترفا وأم تشتغل قهرمانة بأحد بيوت السراة . تعلم فى مدرسة بروملى ، ثم اشتغل عاملا عند بائع أقمشة ، وأخذ يكافح فى تعليم نفسه بنفسه ، فالتحق بمدرسة ميدهرست الثانوية . وتحول بذلك إلى عالم العلم والأدب ، فأصبح مدرسا مدة من الزمان ، ثم التحق بكلية العلوم الملكية وحصل منها على درجة البكالوريوس وعلى الدكتوراه ، ولم يلبث أن أصبح أستاذا بجامعة لندن .

كان هو وبرناردشو من أقوى المؤثرات فى أوائل هذا القرن يوم أخذت الأوضاع السياسية والدينية القديمة تتداعى وتنهار تمهيدا لتأسيس تلك التى لا تزال فى الصنع حتى يومنا هذا . كذلك ابتدأ ولز حياته الأدبية روائيا يعد هو وبرنارد شو وجولز ورثى طبقة واحدة هى طليعة العصريين .

وأهم رواياته هى رواية كيبس ، وتاريخ المستر بولى وآل ڤيرونكا وتونو بانجاى وعالم وليم كريسولد وغيرها . على أن ولز ما لبث أن تخلف عن زميليه فى فن القصص ، ولم يكن ذلك لجمود لحق عبقريته ، بل لأنه أصبح ميالا ميلا خاصا إلى النظر نظرة شاملة فى ماضى أمور الدنيا وحاضرها .

وكان دائب الاشتغال بالتاريخ عموما وبالقوى العامة التى تصنع التاريخ ، فكان ذلك منحى اتجاهه الفكرى .

ولم يلبث ولز حتى تحول بكل ما أوتى من بلاغة وصدق إخلاص إلى نبى يحذر الإنسانية من الهاوية التى أوشكت أن تتردى فيها ، ويرسم لها سبل النجاة والخلاص .

وظل يكافح فى تدعيم رأيه بالكتب والمقالات حتى وافته منيته فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٦ .

* * *

ولقد تعشقت هـ . ج . ولز من زمن بعيد ، بما كنت أطالع له أو عنه من نتف هنا وهناك فى مختلف الموضوعات العلمية والتاريخية وتطبيقاتها الاجتماعية والأدبية ، التى تقع تحت عين القارىء العام فيما يقرأ له ولغيره . فأدركت أنه رجل فذ بل نبى مرسل بقولة

الصدق فى المسائل التى جعلت أساسا للفكر والتنظيم من بدء الزمن إلى يومنا هذا . وكان أكثرها يتضمن فى الواقع عناصر الشرور التى بكت منها الإنسانية ولا تزال تبكى .

على أن عجبى لإهمال شأن هذا الرجل عندنا نحن المصريين وبالأحرى نحن الشعوب الشرقية العربية والإسلامية ، وفراغ ديواننا الأدبى والعلمى من تراثه لم يكن مما لا أجد له جوابا . لأننا جميعا عشنا محجوبين عن معرفة قالة الحق إجمالا ، والمفصحين عن الصدق عامة ، لئلا يترتب على العلم بما نجهل تنبّه تضيع بسببه مصلحة من يرون سعادتهم فى دوام شقاوتنا . بيد أن خفقات القلوب لدى عظائم الأمور التى تكشفت عنها الحربان الأخيرتان ، وما تواتر إلى آذاننا وعيوننا من أقوال المتناحرين وتخرصاتهم ، قد نبهتنا نحن ناشئة هذه الناحية المركزية من الدنيا ، إلى خطر ما حُملنا عليه أبد السنين ، بل القرون الماضية . وقامت نهضة قومية عامة كان من عناصر حياتها إذاعة الحقائق ، وتبصير الشعوب بما يراد بها .

ولما كنت أحد هؤلاء بحكم الزمن ، فقد رأيت من واجبى أن أساهم فى تدعيم هذه النهضة بما هو فى استطاعتى . ذلك بأن أضع بين أيدى الناشئة كتابا رائده الصدق والإخلاص من وضع ذلك الكاتب الذى أعطى روحى وعقلى مشكاة أستنير بها فى هذه الدنيا التى يريدون أن يطفئوا فيها نور الحق بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المغرضون .

وكأنما أحست روح صاحبه بمقصدى فدفعت إلى يدى نسخة من أجلّ كتبه هو كتاب « معالم تاريخ الإنسانية » لتحفزنى إلى الشروع فى نقله . فشرعت على الفور ولى من حبى للرجل وتقديرى لفضله ، ما قوانى على نقله ومتابعة العمل فيما يتيسر لى من كل ليل وكل نهار .

ولقد راعنى أنى رأيت له طريقة فذة فى التأليف والتبويب والعنونة ، تختلف عما ألفناه . وأعجبنى فى الرجل أنه يتناول الماضى كأنما هو كتاب يقلب صفحاته بوعى ، ويطالع حوادثه بإمعان ثم لا ينقلها لنا كما وجدها ، كما يفعل غيره من المؤلفين ، بل يتصفحها لنا ويدلى إلينا بما تأثرت به نفسه من أحداثها . ولا يكاد يذكر هذه الأحداث نفسها إلا لماماً . وراقنى أنه صاغ الكتاب وقد تمثل الناس أمة واحدة اتجهت جهودها منذ الأزل للعمل على الخروج من البداوة إلى أمثل الحضارات . فالعالم عنده أشبه بقرية عظيمة يرى أعمال الناس فيها ويردها إلى مصادرها ولا يهز مشاعره منها موكب أهم لديه من موكب الساعين إلى المدنيّة .

بدأت أنقل الكتاب إلى العربية متوفرا عليه ، فإذا بى وجها لوجه أمام تلك العقلية

الحلوة الرهيبة منبعثة من أسلوب يتعمد فيه كاتبه الإغراب ، إلزاما منه للقارىء بإعمال فكره وإمعان تأمله .

ظللت أعمل فى الكتاب سنوات أربعا ، قاسيت فيها ما قاسيت من الجهد المضنى ومن قصور القواميس الإنجليزية العربية ، ولم يسعفنى إلاّ مراجع المفردات التى استحدثها المجمع اللغوى ، فاستعملتها على كره كثير من القراء لها . ولكنى لم أخرج فى هذا عن دأب المؤلف نفسه . ولعلى قد يسرت بعملى هذا ذيوع تلك المفردات التى لا شك أن من شأن جدتها نبو القارئ والسامع عنها . فأمست بهذا حية بما يوضحها من الموضوع الذى استعملت فيه . وإذا علم القارىء أن الكتاب يتناول شتى موضوعات العلوم والفنون ودقائقها ، لم يفته أن يرى قدر ما يستفيد الأدب العام من ظهور هذه المفردات فى كتاب جليل القدر كالذى نحن بصدده .

على أنى بعد هذا أشعر بسعادة لا حد لها على كل ما أنفقت من الأعوام فى نقله . فقد كان سرور العلماء والأدباء الذين علموا بنقله وطالعوه تمحيصا ، أو كانت لهم يد فى تهوين مشقته ، يملأ قلبى معهم حمداً لله وشكرا بما أرضيت وما سددت من ثغرة فى ديواننا الأدبى .
ولشد ما كان اغتباطى حين كان بعض أساتذة الجامعة يقول إن من لم يقرأ هذا الكتاب جاهل بالتاريخ وإن وصل فيه إلى الأستاذية .

ولن تجد فى هذا القول مبالغة إذا أنت راقبت المؤلف حين يركز اهتمامه لا فى الحروب والملوك بل فى خطوات تقدم البشرية بين تلك المعالم ؛ وفى أحجار الزوايا التى نهضت عليها الحضارات . فهو على الدوام ممسك بناقوس يدقه لافتا نظرك إلى كل جديدة تظهر فى هذا الوجود ، ويكون لها أثر فى دفع موكب المدنية قدما . فهو يطرب لظهور الكتابة فى المعابد لاعتبارها حدثا من أكبر احداث التاريخ . ويسعده أن يذكر لك الورق الذى هو كذلك حدث من أحداث المدنية الكبرى . ويزهى أن يقرر اختراع المطبعة لأنها هى عمود المدنية الفقرى الذى يشتد به أزرها . وهو يتكلم عن نشأة الزراعة فى مصر وبابل ، لأن نشأة الزراعة حدث جليل من احداث الإنسانية السائرة إلى مجامع الحضارة . وهو يتتبع الإسكندر هازئا به وبجيوشه مستخفا بكل ما أتاه هو ونابليون وغليوم وغيرهم وما فعلو من إراقة الدماء وتبديخ الأمم فى حروب أضاعوا فيها جهودا لم تفد منها البشرية شيئا كثيرا .

ثم إذا بك ترى المؤلف يقف مكبرا مهللا مستبشرا لنشوء حضارة البحر المتوسط عند

المصريين والإغريق والرومان . ثم يتواصل العالم ويتعارف ، وإذا بآسوكا ملك الهند يرسل إلى الإسكندرية بعثة بوذية . وإذا بالمؤلف أيضا يقف طويلا إزاءه وإزاء أحد براطرة الهند ، وهو يدعو مللها وأجناسها المتعددة إلى التعاضد والتكافل صاهرين بذلك محلهم فى وطن واحد وسلطان واحد . ثم إذا بمخترعات القرن التاسع عشر وما تلاه تترادف وتزيد أواصر الترابط بين الناس جميعا حتى عاد استقلال الأمم وانعزالها ضربا من المحال بل مجلبة للمضرة .

وقد أصدر ولز كتاب معالم التاريخ هذا وكتابين آخرين أحدهما سماه (علم الحياة) والآخر سماه (جهود البشرية ورفاهيتها وثروتها) بالتعاون مع طائفة من العلماء . وقد قصد من إصدارها أن تكون أساسا من المعلومات يقيم عليه كل مواطن فى هذا العالم أسس تفكيره فيما حوله من شئون الحياة والسياسة والاقتصاد . والكتاب يقع فى أجزاء ثمانية ، يتناول الأول منها نشأة الكون ومبتدأ الحياة ، والثانى تكوين الإنسان ونشوئه وارتقائه وأجناسه البائدة والباقية واللغات البشرية ، ويتحدث الثالث عن المدنيات القديمة ونشوء الكتابة والأديان والطبقات الاجتماعية والحركات الفكرية وهى التى يضمها هذا المجلد الذى يعد فى الواقع مقدمة للتاريخ الحق الذى سيأتى به الجزء الرابع حاملا تاريخ الإغريق ومن عاصرهم ، والخامس وبه تاريخ الرومان والأمم التى عايشتهم ، والسادس محتويا تاريخ المسيحية والإسلام ، والسابع عن القرون الوسطى ، والثامن بمثابة سجل لأحداث العصر الحديث وشرح لما بين ظهرانينا من نظريات علمية وسياسية واقتصادية .

وفيه بث المؤلف رسالته للبشرية كافة . وهى الرسالة التى ظل أربعين سنة من حياته يبشر بها ويدعو إليها وينافح عنها ، والتى تقوم على مبادىء أخذ الناس يتكلمون عنها منذ الحرب الأخيرة . وأهم هذه المبادىء منع الحروب الذى لا بد للوصول إليه من التقارب بين الناس جميعا ، وذلك بتقريب الأديان بعضها من بعض ، وتوزيع الثقافات توزيعا متعادلا بين الشعوب كافة ، ويوحد مستوى الثقافة بين شعوب العالم أجمع ، ورفع راية الديموقراطية ، وتوطيد دعائمها توطيدا يجعلها الأداة الفعالة للحكم ، وإزالة الفوارق بين الأجناس والعناصر والألوان ، وقطع دابر الاستعمار ، وإنشاء حكومة عالمية تكفل التوافق بين الشعوب ، وإيجاد التنسيق الاقتصادى الذى يجعل المواد الخام فى متناول الجميع ، لا حكرة لفئة من الشعوب دون سائر شعوب العالم .

على أنى مهما أسهبت للقارىء فى وصف آراء الكاتب وأمنياته الجميلة ، وما رسمه لعالمنا التعس من صور خلابة يؤمن بها ويدعو إليها ، فما أنا بمستطيع أن أبلغ به درجة اتصاله

الشخصي بالمؤلف نفسه . فلأخل بين القارىء وبين الكتاب عسى أن يفيد منه ما أفدت . وهذا أقصى أمنيتي .

على أنه لا يفوتني أن أسجل عاطفة شكرى العميق إلى أستاذى العالم الجليل محمد شفيق غربال بك وكيل وزارة المعارف لما أبداه نحو هذا الكتاب من اغتباط به ورعاية له وكذلك إلى حضرات أعضاء لجنة التأليف الموقرة ، وبخاصة الأستاذين الجليلين أحمد أمين بك وأحمد عبد السلام الكردانى بك على كريم ترحيبهم بهذا الكتاب واهتمامهم بطبعه ونشره تقديرا منهم للغاية الثقافية السامية التى توخاها المؤلف العظيم .

كما أقدم شكرى لجميع من عاونونى بالعمل فيه . ولا سيما للأستاذين الكبيرين أحمد نجيب هاشم مدير البعثة العلمية المصرية بواشنطون وأحمد خاكى مدير المعهد الثقافى المصرى بلندن لما بذلا من وقتهما وجهدهما وعلمهما فى مراجعة الترجمة وتقويمها .

مصر الجديدة فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٧ — عبد العزيز توفيق جاويد

مقدمة المؤلف

معالم تاريخ الانسانية

قصته والغرض منه

١ — كيف حدث أن كون الكتاب .
٢ — طريقة كتابة المعالم .
٣ — فى بعض ما حذف منه وما أضيف إليه .

---

١ – كيف حدث أن كوّن الكتاب

كتب هذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩١٨ — ١٩١٩ ونشر فى أجزاء مصورة ثم روجع مراجعة عناية وتمحيص وطبع ثانية بشكل كتاب سنة ١٩٢٠ ، ثم أعيد النظر فيه إعادة قاسية ، كما أعيد تنظيمه توطئة لطبعة جديدة فى يناير سنة ١٩٢٣ ثم أعيد إصداره فى طبعة منقحة زيدت زيادة وافرة فى سنة ١٩٢٥ ، وهى لا تزال تباع ، ثم صدرت كذلك طبعة جديدة تماما أضيف إليها مواد كثيرة رأى مراجعتها مرة أخرى لطبعة سنة ١٩٣٢ .

كانت هناك فى سنة ١٩١٨ دواع متعددة تدعو الكاتب أن يدلى بدلوه فى كتابة تاريخ للعالم ، فقد كانت تلك السنة خاتمة سنى الحرب وأثقلها على الناس وأكثرها رفعاً للحجب عن عيونهم . كان الإملاق الذى لم يألفه الناس يغشى كل مكان . وكان الأسى والحداد يملأ كل فؤاد . وكانت قصة الموتى والمشوهين قد بلغت الملايين عداً . وأحس الناس أنهم وصلوا إلى الذروة من الأزمة المستحكمة فى شئون العالم . إذ كان قد تملكهم الملل والتقزز حتى أصبحوا وليس فى استطاعتهم أن يقدروا ما خبأه لهم القدر من احتمالات معقدة ، فلم يكونوا يعرفون أهم قادمون على نكبة فى المدنية أم هم مقبلون على فاتحة عهد جديد للمجتمع الإنسانى ، وكانوا ينظرون إلى مثل هذين الأمرين البديلين اللذين كان العالم يتأرجح بينهما بعين ملؤها البساطة والاستخفاف ، بيد أنهم كانوا معتصمين بحبل الأمل . وكانت هناك مناقشات هائلة فيما يمكن أن تصل إليه التنظيمات الجديدة فى عالم السياسة ، وفى المعاهدات الدولية لمنع الحرب وفى عصبات الأمم وعصبات الشعوب . كان كل إنسان يفكر فى جميع الدول على السواء أو قل إنه كان — على الأقل — يحاول ذلك . ولكن سادهم جميعا شعور بأن ضروريات المسائل

التى ألقيت فجأة ، وبشكل محزن ، على عواتق الديموقراطيات فى العالم لم تكن مفهومة فهماً كافيا . وتساءل الجميع قائلين : كيف حدثت كل هذه الأحداث ؟ كذلك كان الناس يتساءلون محاولين أن يسبروا أغوار ما وراء المنازعات التى كانت تدور حول سراجيفو (وقصاصة الورق البلجيكية) حتى يصلوا إلى أسباب للأمور أوسع مضطرَبا وأقدم عهدا . ماذا كانت هوادى هذا النزاع الذى قام حول الرين ؟ ولماذا كان له ذلك الأثر الذى عم العالم قاطبة ؟ ولماذا أصبحت اليابان التى كانت منذ نصف قرن مضى بلادا خيالية شعرية جميلة ، وأسطورة من أساطير الفن الركيك ، وأرضاً من أراضى المسرحيات الغنائية المضحكة تكاد تبعد عنا بعد الكواكب السيارة — لماذا أصبحت سفنها الحربية تجوب الآن البحر الأبيض المتوسط ؟ ولماذا ذهبت القيصرية الروسية كأنما كانت حلماً من الأحلام ؟ وماذا كانت حقيقة تركيا ؟ ولماذا كانت للقسطنطينية تلك الأهمية العالمية الكبيرة؟ ثم ماهى الامبراطورية؟ وكيف بدأت الامبراطوريات؟ وما الذى حول ألمانيا من مجموعة دويلات متفرقة إلى قوة وعزيمة عدوانية موحَّدة جعلت نصف العالم فى فرق من الطاقة الألمانية ؟ ولقد حاول كثير من الرجال والنساء أن يتذكروا المعلومات القليلة التى تلقوها فى أيام دراستهم القصيرة فوجدوا فى زوايا سحيقة من ذاكرتهم قائمة مملة تكاد تكون منسية بأسماء بنى جلدتهم من الملوك أو رؤساء الحكومات . فحاولوا أن يقرأوا عن هذه الأمور شيئا فوجدوا أنفسهم فى بحر عباب من الكتب . واكتشفوا أنهم عُلموا التاريخ من وراء غمامات الوطنية التى تتجاهل كل شىء إلا وطنهم . فلما رفعت الغمامات أصبحوا فى ضياء وهاج تعشى له عيونهم . وكان من أشق الأمور عليهم أن يحددوا القيم النسبية للأمور التى يدور حولها البحث . وكانت جماهير غفيرة من الناس ، أو بمعنى أوضح ، كل من أوتوا حظاً من الذكاء فى العالم ممن لم يتخصصوا فى تعليمهم — كانوا يحاولون ، إما بإرادتهم أو بغير إرادتهم أن يتفهموا أمور العالم بصفة عامة . فكانوا فى واقع الأمر يرتجلون لأنفسهم معالم للتاريخ ينشئونها لاستعمالهم الخاص .

وليس مؤلف هذا الكتاب مؤرخاً محترفاً بأى حال ؛ ولكنه شرع يكون لنفسه معالمه التاريخية الخاصة منذ أن ابتدأ حياته العلمية . وكان دائب الاشتغال بالتاريخ عموما وبالقوى العامة التى تصنع التاريخ . فكان ذلك منحى اتجاهه الفكرى . فهو مذ كان يدرُس العلوم احتفظ بدفتر دون فيه مذكرات لمطالعاته التاريخية . وكان أول ما أصدره من القصص قصة : (آلة الزمان ، سنة ١٨٩٤) وهى نظرة خيالية عن اتجاه مصير البشر ؛ وقصة (عندما يصحو النائم) وهى مبالغة جذابة تصور تطورات مدنيتنا الحاضرة . وكان كتابه « المتوقعات » سنة ١٩٠٠ محاولة لمناقشة بعض ما كان محتملا من نتائج الأمور الجارية .

واستمر المؤلف فى عدد عديد من كتبه أمثال « البحث الفاخر » و « النار الأبدية » برسم صورة تخطيطية لمعالم تاريخية صغيرة ، وكانت نتيجة ذلك أن وجدته تلك اليقظة الفكرية التى نشأت عن الحرب العظمى موطنا توطنا خاصا أن ينظر نظرة شاملة إلى ماضى الأمور ، وحاضرها إن لم تكن قد وجدته نازعاً لذلك نزوعاً خاصا . فكان قبيل ابتدائه العمل فى هذه (المعالم) مشغولا حينا من الدهر بشئون تسويات ما بعد الحرب ، ومشروع عصبة الأمم . وذلك فى وقت لم يكن المرحوم الرئيس ولسون قد تملك بعدُ هذا الاقتراح . وكان مثل هذا العمل يتضمن بالضرورة اشتراك المؤلف فى الجدل وفى تنظيم اتحادات الدعاة وجمعياتهم . وقد أظهرت المناقشات التى دارت فى تلك الجماعات ظهورا جليا ما لفكرة المرء عن الماضى من أثر بالغ فى حوادث النشاط السياسى . قل لى ربك : ما هى نواحى النشاط السياسية للرجل إلا أن تكون التعبير بالعمل عن فكرته عن الماضى ؟ وكان الذين يفكرون فى مشروعات لعصبة الأمم على خلاف فيما بينهم لأن فكرتهم عن عالمهم كما كان وعن العالم الماضى كما غبر وعن العالم المستقبل كما يمكن أن يكون — كانت فكرة مبهمة مهوشة تخلو من التجانس . ثمة بعض المعلومات الدقيقة المحكمة إحكاما خارقا للعادة — كانت تبدو مختلطة بكثير من هذه الفروض العامة عن التاريخ وهى فروض بلغت الغاية من البساطة والسذاجة . وقد رأى المؤلف أنه يجدر به أن يزيد مجموعته من الخرائط والمذكرات وأن يجعل مطالعاته أكثر انتظاما مما كانت عليه وأن يوضح لنفسه عددا من النتائج التاريخية كانت فيما سبق غامضة عليه غاية الغموض . وما أن استقر رأيه على هذا القرار حتى أصبح جليا لديه أن فى استطاعته أن ينتج أثراً أجل فائدة إذا هو وسع مفكراته الخاصة عن أشكال التاريخ الرئيسية وحولها (إلى ما يشبه التقرير العام) ويقارب (الكتاب القريب المتناول) ؛ ليستفيد منه الرجال والنساء الأكثر منه شغلا ، أو الذين تلهيهم أمور أخرى عن أن يستمروا فى نضال لا طائل تحته آخر الأمر — فانتحى هذا المنحى وبذلك تجنب أن يصطرع ودساتير مستحيلة التنفيذ لاتحادات دولية غير محتملة الحدوث . وكان كلما فكر فى مشروع كتابة ملخص للمعلومات الموجودة عن مركز الإنسان فى الزمان والمكان تبين أنه مشروع عسير غير أنه جذاب لا يستطيع التخلى عنه . ففكر فى أول الأمر أن يسطر استعراضاً عاماً للوحدة الأوربية أى ما يشبه الملخص لقيام النظام الرومانى وسقوطه ، ولبقاء فكرة «الامبراطورية» بأوربا بقاء إصرار وعناد ، وللمشروعات المختلفة لتوحيد العالم المسيحى . ولكن سرعان ما اتضح له أن بداية الأمور الحقيقية لا تبدأ فى روما ولا فى أرض الميعاد Judea وأنه ليس فى الإمكان قصر القصة على العالم الغربى . وأن كثيرا من الأمور لم يكن

فى الواقع سوى فصل متأخر من مسرحية أكبر منه وأعظم . وإذا بالقصة تحمله من ناحية إلى البدايات الآدمية ، ما بين غابات أوربا وسهولها وبين آسيا الغربية ، وتحمله من الناحية الأخرى إلى مراحل المدنية الأولى فى مصر وأرض الجزيرة ، وفى تلك الأراضى التى تغمرها المياه والتى تبدو كأنما كانت يوما عامرة بالسكان فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وعندئذ أخذ يدرك كيف قلل مؤرخو أوروبا فى قسوة عجيبة ، من شأن خطر مرتفعات آسيا الوسطى ، ونصيب الثقافات الفارسية والهندية والصينية فى مسرحية الجنس البشرى . وأخذ يتضح له يوما بعد يوم كيف أن الماضى البعيد لا يزال ماثلا فى حياتنا ونظمنا ، وكيف أننا لا نستطيع أن نفهم إلا قليلا ، النتائج السياسية أو الدينية أو الاجتماعية التى نشهدها اليوم ، ما لم نكن نفهم بعض الفهم مراحل المجتمع الإنسانى الأولى . وهـذا يتضمن شيئا من فهم أصل الإنسان . وهكذا أخذت المعالم تتمدد وتوسع نفسها كلما أمعن المؤلف فيها تفكيرا . ثم اعترت المؤلف بعض الزمان نوبة من التردد ، إذ هاله هذا العبء الذى كان يتسع لحظة بعد أخرى حتى ليكاد يقارب كتب الملاحم حجماً . وأخذ يسائل نفسه : أليس هذا العمل أجدر بمؤرخ منه برجل كان كل همه أن يكتب مقالات فلسفية أو روايات خيالية ؟ ولـكن لم يبد أن هناك مؤرخا واحدا كان سطحيا فى تأليفه (أم أقول رحب الذرع بالحد اللازم) ولا قليل العمق إلى القدر اللازم أيضا ، بحيث يغطى المضمار الفسيح الذى انطوى عليه هذا المشروع .

والمؤرخون فى عصرنا هذا أعظم ما يكونون تشربا بالروح المدرسية[1] ، فإنهم يخشون الهفوات الصغيرة أكثر مما يخشون عدم التماسك بين المقدمات والنتائج ، وهم دائماً فى فرق من أن يخطئوا فى أحد التواريخ ، أكثر مما يخافون إسناد قيمة خاطئة لبعض أشياء لا تستحقها . والواقع أن من الحق والصواب أن يكون الحال كما ذكرنا ؛ وأنه يجب فى هذا العصر الذى تحمله السرعة قدُماً ، أن يكون هناك طبقة كاملة من العلماء المتفانين فى العلم يكون واجبها الاحتفاظ بمعيار محتم من المعايير المحكمة الضبط . ولـكن هذه المعايير العالية الممتازة بالدقة التفصيلية ، تقطع علينا سبيل الرجاء فى أن نلجأ إلى المؤرخين نلتمس عندهم ما هو مطلوب هاهنا . ولن يكون مثل هـذا الأمر لديهم مهمة جذابة شائقة بل هو على العكس من ذلك مجلبة للكثير من الضيق والعناء . فإن على المرء أن يطلب عندهم المادة التاريخية محشودة مكدسة وليس النتائج المرتبة أو المتجمعة . وهم فى واقع الأمر يتحفوننا الآن بمجلدات عديدة تكتبها أيد متنوعة وتتجلى فيها وجهات نظر مختلفة وفيها تنوع فى الروح والغاية يبهج النفس ويلذ الفؤاد وهى كلها مصنفات عظيمة نبيلة لها جليل القدر والنفع للطلاب . ولـكن

(١) scholastic : المدرسانية .

هذه المؤلفات الجليلة — إنما هى من ناحية الأغراض اليومية للقارئ العام الذى يشق طريقه فى الحياة — شىء لايقل فى رهبته وعسر الاسترشاد به عن موسوعة ضخمة متعددة الأجزاء .

وقد ظهرت بالفعل فى أمريكا كتب كثيرة نافعة صغيرة الحجم تبحث فى التاريخ العام ، أخص بالذكر منها كتاب التاريخ القديم والحديث من تأليف روبنسون وبريستد . وأمثاله من كتب هاتون وبستر ، و د . م . وست . ولكن هؤلاء الكتاب جميعاً جعلوا غايتهم المدرسة والكلية — لا القارئ العام . وكذلك كتاب « الماضى الحى » الذى ألفه ف . س مارفين F. S. Marvin فإنه رسالة جديرة بالاعجاب تبحث فى التقدم الفكرى وإن كان يحوى القليل من الحقائق الجوهرية . فلو تقدم أحد ثقاة المؤرخين المعترف لهم بالتبريز فى فنهم وأعلن عزمه على وضع خلاصة تاريخية عامة لكان فى ذلك نكبة على صيته العلمى ولو أن ذلك العالم قطع على نفسه مثل هذا العهد لما أمكنه تنفيذه ولانتظر القارئ العام سنين عديدة قبل أن يحظى به . فأما كاتب هذا الكتاب فإن مركزه باعتباره بعيداً بطبعه وبمحض اختياره عن الاحترام العلمى ، بُعدَه عن لقب الدوقية ، قد مكنه أن يلذ الجمهور بالتاريخ دون أقل تضحية بالكرامة والمكانة ، ودون أن يتعرض لما يتعرض له الثقاة من المؤرخين من نقد خصومهم . وكان من أسعد مزاياه أنه يضايق الآخرين وهو منيع صعب المنال . إذ كان فى فيافى الأدب بدويا رحالا وطنه الفضاء العظيم المحيط به ؛ لا يعرف لنفسه أكرم من اسمه ، ولا يحس فى دخيلة نفسه شرفا أعلا من شرفه . ولهذا أو ذاك من العلماء أن يثور لأن المؤلف أهمل إهمالا شنيعاً ، هذه أو تلك من الحقائق الثمينة ؛ التى يختص بها ذلك العالم نفسه ويحتكرها دون غيره . فذلك أمر لا يعنى المؤلف فى قليل ولا كثير . فهو يستطيع دون أن تخالط وجهه حمرة الخجل أن يرتشف من المؤلفات القيمة والمواد العادية القريبة المتناول ، فلم يكن هناك قط ما يلزمه أن ينسب إلى نفسه إكتشافات مبتكرة أو وجهات نظر مبتدعة . بل كان واجبه الأهون من ذلك أن يجمع وينظم ويحدد النسب ، بين أجزاء وأدوار مغامرة الجنس البشرى العظيمة ، ثم يدون ذلك . فهو لم يضف إلى التاريخ شيئاً ، أوهو يؤمل — على الأقل — أنه لم يضف شيئاً إلى التاريخ وإنما هو قد حول مجموعة ضخمة من المواد إلى مهضوم هين سهل . وبعض تلك المواد جديد طارف . فعل كل هذا بوصف كونه كاتباً شعبياً يرعى احتياجات أمثاله من المدنيين العاديين .

ومع ذلك فإن الموضوع كان من الجلال إلى حد أن أى معالج له بالغاً ما بلغ تواضعه لا يستطيع أن يفقده ما هو عليه من آيات الكرامة والجلال . فإذا كانت هذه « المعالم » تبدو

فى بعض الأحيان مجهَّدة هزيلة أو بتراء ناقصة نقصاً مستوجباً للأسف ، فإنها فى بعض الأحيان الأخرى تظهر كأنما قد خططت ودونت نفسها بنفسها . وأن وراء هذا الكتاب لخفايا عميقة لايسبر غورها ، منها : لغز النجوم وامتداد الزمان والمكان امتدادا لا يعرف له معيار يقاس به ... ثم تبدأ الحياة وهى تناضل فى طريق الإحساس والوعى وتجمع القوة وتدخر العزم خلال ملايين من السنين وخلال بلايين لاتعد من حيوات الأفراد حتى تصل إلى ماهى عليه العالم الآن من حال معقدة مشوشة ، وهى مليئة بالمخاوف قدر ماهى زاخرة بالآمال والفرص فترى الإنسان ينهض من البدايات التى كان فيها وحيدا إلى ماتراه فى عصرك الحاضر من بزوغ فجر التآخى بين الإنسانية فى العالم كله . ونلحظ كل النظم الإنسانية وهى تنمو وتتغير . إنها لتتغير الآن أسرع منها فى أى زمان مضى . وينتهى استعراضك لهذه الأحداث بعلامة استفهام هائلة . فما الكاتب إلا دليل يوصل القارئ فى نهاية المطاف إلى الحافة الحاضرة ، تلك الحافة التى تتحرك دائما إلى الأمام ، وهى طلائع أمور تسير قُدُما فى طريقها ، ثم يقف ويهمس فى أذنه : « ها هو تراثنا » . ولعله من السخف أن ندعى أن هذا الكتاب يزيد عن مجرد عرض عابر لأول رؤية للحقيقة التى تكاتفت على رفع النقاب عنها خلال مئة السنة الأخيرة جهود كثيرة جبارة انفقها علماء طبقات الأرض Geologists والسلالات البائدة Palaeontologists — وعلماء الأجنَّة Embryologists وجميع أنواع علماء الطبيعة والمنقبون عن التاريخ القديم وعلماء بحث السلائل البشرية Ethnologists ومميزاتها — وعلماء اللغة والباحثون التاريخيون . ولم تكن دراسة التاريخ قبل قرن من الزمان تتجاوز الا كباب على التهام ما فى الكتب . فأما فى يومنا هذا فليس للمؤرخ المعتمد فى دراسته على الكتب وحدها إلا أن يتبوأ — كارها أو متأذيا — منزلة المصنف الذى يضيف إلى مجموعة العلم بمعناه العام بعض وثائق مشكوكا فى قيمتها .

وكتابنا هذا يروى قصة الاستعراض العام لهذه الصورة الضخمة . والمؤلف يرى — بأقصى ما فى وسعه من جهد ومقدرة أن هذه هى الحال التى عليها تلك الصورة فى يومنا هذا . ولكنه يكتب فى حدود دائرته الخاصة وحدود زمانه . فهذا الكتاب يختص به عصرنا هذا فحسب ، ولا ندعى له الخلود فهو القصة العابرة للحوادث ، ولا مفر من أن يلحق هذا الكتاب فى طبعته الحديثة الجديدة سنة ١٩٣٠ بطبعاته السابقة إلى خزانة الكتب القديمة حيث يبليها جميعا مايعلوها من تراب . ولسوف تتولى أيد جديدة أوسع مواهب وأعظم حيلة وأغزر علما ، كتابة معالم جديدة فى أساليب أرق وأجمل . وانما كتاب « المعالم » الذى يفضله

المؤلف كثيراً على كتابه هذا ، هو الكتاب الذى سيصدر سنة ٢٠٣٠ والذى يتمنى لو قرأه . وربما أكب على صوره ورسومه .

فلو وقعت فى أيدينا ، بمعجزة من المعجزات ، نسخة من معالم التاريخ لسنة ٢٠٣٠ فلا شك عندى فى أننا جميعا سنهتم بالصور العجيبة التى فى فصوله الأخيرة فنقف حيالها وحيال ما يصحبها من فنون مبهوتين . فما أعجبها من حوادث ! وما أعجبه من تقدم لايكاد العقل يصدقه ! وأخيراً سوف يرجع كاتب هذه السطور على الأقل إلى الفصول الأولى ليرى القدر الذى تبقى من القصة المروية هاهنا .

والراجح أن تكون الهيئة العامة للقسم الأول ماتزال فى معظمها كما هى لم تتغير ولكن لاريب أن مئات من التفاصيل المجهولة الآن ، سوف تلقى نوراً مرشداً حينذاك . وسوف تكون هناك أيضاً مكتشفات طريفة رائعة فى الجماجم والأدوات والمدن المطمورة وآثار شعوب مفقودة أو مغمورة لا يدرى العالم عنها الآن شيئا . وربما كانت قصص الصين والهند أدق عند ذاك وأبين ، وربما تغيرت فى جوهرها ، وربما زادت معارفنا عن آسيا الوسطى ، ثم عن أمريكا قبل كولمبس . وسوف يظلّ شارلمان وقيصر شخصيتين عظيمتين فى التاريخ . وربما انحطت نسبياً قيمة جبابرة الزمان القريب أمثال نابليون .

٢ — طريقة كتابة المعالم

كان الغرض الأكبر من مراجعة الكتاب فى هذه المرة الحاضرة جعله أيسر فهماً وقراءةً . وقد سبق أن بين المؤلف كيف أنه نشأ من مذكرات وخرائط ، وهاهو ذا يعترف الآن حين يرجع إلى الطبعات الأولى وهى الطبعة الأولى التى ظهرت فى أجزاء ثم أولى طبعاته فى شكل كتاب سنة ١٩٢٠ بأن كتاباته لا زالت تحتفظ بطابع المذكرات ، وهناك مواد كثيرة غير مهضومة ولا متجانسة كانت موضوعة فى الهوامش السفلى وكانت فيه إلى ذلك روايات كثيرة مبهمة ، فيها الكثير من التحفظ . وكان عرض الحقائق بداخله أحياناً شىء من الاضطراب . وتلك نتيجة طبيعية للطريقة التى اتبعها المؤلف فى إنشاء الكتاب . فإنه استعان بأربع مساعدين كبار واتخذ منهم مستشارين له فى مطالعاته ومراجع معلوماته وهم السير راى لانكستر ، والبروفسور جلبرت موراى ، والسير هارى جونستون ، والمستر ارنست باركر .

هذا إلى أنه استعان بمشورة كثير من الرجال الممتازين بسمة الاطلاع بصفة خاصة

فى هذا الموضوع أو ذاك . وفى هذه الناحية أو تلك . فأسدى إليه السير دينيسون روس والمستر جرانمر باينج ، والمستر س . ن . فو أكبر المعونة فى الموضوعات الخاصة بآسيا الوسطى والصين . وتكرم عليه المستر شارلس سنجر بالكثير من المعلومات القيمة عن القديميات (الكلاسيكيات) . وكان الأستاذ ج . ل . مايرز مرجعاً ثميناً فى تاريخ آثار البحر الأبيض القديمة ، والمستر فيليب جود الله مستشارا فى تاريخ أوروبا السياسى فى القرن الثامن عشر وفجر التاسع عشر ، وهكذا دواليك . ولم يكن المستر ج . ف . هوراين بما له من عبقرية فى الجغرافيا السياسية والاقتصادية مصورا للكتاب قدر ما كان شريكا لى فى تأليفه . وهناك الكثيرون ممن تفضلوا بعلمهم وضحوا بوقتهم بسخاء وبلا مقابل . وفى الطبعات السابقة قوائم مليئة بتلك الأسماء حتى ليتردد المرء بين الاعتراف بالفضل وتوريط الأصدقاء .

ابتدأ المؤلف بأن راجع كل فصل على حدة ونسخت من كل فصل نسخ عديدة ، أرسلت إلى كل من رأى المؤلف الاستعانة بهم فكتبوا عليها . وعلقوا وألهبوها نقداً ، كل حسبما يهوى . ثم جلس المؤلف وقد تطهرت نفسه واستنارت ، جلس بين هذه النسخ الكثيرة التى نالت منها يد المحو والإضافة والبتر كل منال ، فقرأها وكتب الفصل من جديد . وأخيراً أرسلت مسودات الطبعة إلى كبار المساعدين وغيرهم ممن يهتمون بالعصر المدروس فى الفصل .

بهذه الطريقة ضمنّا صحة الأسماء والتواريخ وما إليها . وقد احتفظ المؤلف بشخصيته ، فاحتجز لنفسه كل حقوقه فى حرية الحكم على الأشياء التى يكون المدار فيها على الرأى ، أما فى الموضوعات التى يكون مدارها الحقيقة والواقع ، فقد اتبع بغاية الدقة والأمانة رأى نخبة العلماء الذين استأنس بهم . وكانت نتيجة ذلك إدخال ألوان عديدة من قضايا الجدل ، أضيفت إلى الهوامش المزدحمة ، كما أضيفت إلى نفس مادة الكتاب . ومثال ذلك أنه اعتدى على البروفسور جلبرت موراى فى المقارنة التى عقدها بين الصفات الخلقية والعقلية للآثينى العام العادى ومثيله اللندنى . والمؤلف وإن كان قد أباح للكاتب العطف على الآثينى ، فانه احتفظ بحقه بأن يحكم على الثانى على طريقته هو الخاصة . وكانت هناك كذلك صفحة أو ما يقارب الصفحة ملئت بالجدل بين المؤلف والأستاذ موراى والمستر باركر حول سلامة تربية المستر جلادستون ، وثمة اختلافات أخرى فى الرأى مع المستر باركر ويرى الكاتب أن عظمة نابليون الأول ليست إلا خرافة وحشية لا أساس لها فى عالم المادة والحقائق . وهو يرى أن الوقائع والحقائق تتكلم عن نفسها بنفسها وسترونها فى هذا الكتاب فى موضعها

وحجمها النسبي الخليق بها . فقد كان الرجل من طراز موسوليني ودرجته وكانت عقليته أدنى من عقلية نابليون الثالث . بيد أن المستر باركر لم يستطع أن يقبل هـذه الحقيقة فـكتب إلى المؤلف يقول : « ا كتبني مناقضاً لرأيك » وقد كان . فدونت أقواله فى الهامش . وكانت نقطة الضعف فى السير هارى جونستون أو بالحرى نقطة قوته المفرطة — تنحصر فى شذوذه فى كتابة الأسماء التاريخية المشهورة بطريقته الخاصة وإن كانت طريقته تلك صائبة كل الصواب . فهو يصر على أن يكتب : شيليموه Shelemoh بدل سولومون Solmon — و Ibrim بدل Hebrews — وهى كلها ألفاظ تبدو عسيرة مربكة للقارئ العادى . وقد أثمرت هذه الخلافات فـكانت هوامش للـكتاب .

وكانت تلك الهوامش مسلية للمؤلف وأصدقائه يتناقلونها فـكاهات عائلية . ولم يكن بد من هذه الهوامش ما دامت أسماء المسـاعدين الأربعة الأول تزين الصفحة الأولى من الـكتاب إلى جوار اسم المؤلف نفسه . إذ كان فى وجودها سند أى سند لاسمه . كما كان فيها ما يشبه الضمان . ولـكن تلك الهوامش كانت مربكة مزعجة ومتعبة لغالبية القراء . فإن الهوامش والمراجع والمؤهلات إن هى إلا أمور تلزم الـكتب المؤلفة للطلاب . فأما فى هـذه « المعالم » فهى فضل لا تدعو الحاجة إليه ؛ أوقل إن فيها (والمؤلف يعترف لك صراحة) شيئاً من الادعاء . وهو فى هذه الطبعة يحل مساعديه الأربعة الأول من كل تبعة أخرى . ولا ينسى لهم جميل ما أسدوا ولذلك حذفت أسماؤهم من الصفحة الأولى التى بها عنوان الـكتاب ، وكأنّ المؤلف استطاع أن يستغنى عن الأربعة الذين أرشدوه إلى بر السلامة ، بعد إذ تمـكن هؤلاء أن يقودوا السفينة فى يم مضطرب خطر وفى مسالك ملتوية حتى أوصلوه إلى مرفأ أمين يحس فيه الحرية والثقة . وبعد هذه المعونة ، وبعد أن أحس هذه الحرية استطاع أن يبسط هذه القصة العظيمة وأن يوضحها وأن يولى كل ناحية من نواحيها ما هى جديرة به من التقدير . ولولا فضلهم لما تسنى له أن يقصها على الناس بهذه الحرية والبساطة والوضوح .

هـذه هى المرة الخامسة التى أعيد فيها طبع الـكتاب إعادة كاملة . وكانت الطبعة الأولى المجزأة موضع فحص شديد قام به قرابة مئة ألف قارئ قرؤا كل فصل بإمعان ودقة ، وتكرم الـكثير منهم بالتعليقات ، وبإصلاح بعض الهفوات وبإثارة موضوعات شائقة . وكانت كل رسائلهم توضع موضع الرعاية المنظمة فعادت على الطبعة الأولى الصادرة بشكل كتاب بأعظم النفع فى تفاصيلها . وانطلقت هذه الطبعة أيضا إلى جمهور غفير من القراء ؛ إذ صدر منها فى أمريكا وحدها ما يربو على ربع مليون من النسخ . وأنتجت هذه بدورها محصولا وافراً من

الاستدراكات . كما أثارت تلك الطبعة أيضا تعليقات قيمة وظهرت بسببها نشرات نقدية عديدة . وكانت الطبعة الثانية له بشكل كتاب سنة ١٩٢٣ هي الطبعة الثالثة التي استفادت أجل الفوائد بذلك الامتحان الثاني العظيم الذي مر به الكتاب سنة ١٩٢٠ . وقد أعيد في الطبعة الثالثة تنظيم الفصول من جديد فضلا عن مراجعة التفصيلات . وقد ظل المؤلف وقتا طويلا يحس أن حديثه عن الشعوب الآرية قد سبق موضعه ، وأنه قد قلل من شأن الشعوب غير الآرية في تطور المدنية . فعدل بناء على هذا ترتيب الفصول الأولى ، لكي يصلح هذا الوضع . وكذلك أدخل حديثا أوفى عن لنكلن Lincoln والحرب الأهلية الأمريكية . وتضمنت طبعتنا الحالية إضافات ومراجعات أخرى، وظهرت تمام التطهير من الهوامش وما إليها من استطرادات؛ فزاد الكتاب وضوحا وطلاقة وأصبح أحكم تداعيا وتسلسلا منه في كل الطبعات التي سلفت . وزال منه الجدل والمنازعات التي كانت تدور بين مساعدي المؤلف . حتى أصبح (وذلك كل مأمول المؤلف) أبعد ما يكون عن كتاب للطلاب ، وأضحى في بساطة ووضوح ، كتاباً في معالم التاريخ .

ولا يداخلن قارئ هذا الكتاب أي ريب من صحة الوقائع والأسماء والتواريخ التي تذكرها له بعد الذي مر فيه من مآزق هذه التمحيصات والمراجعات . ذلك بأن الكتاب قد نقد نقدا قاسيا ؛ ولكن أحدا من الناقدين لم يوجه سهماً واحدا نحو دقته العامة . حتى المستر بيلوك ذلك الخصم المكين الراسخ العلم ، قد اعترف له بهذه الميزة . وكانت كل المآخذ والاعتراضات تدور حول الأهمية النسبية التي نالها ذلك الجزء أو ذاك ، وإلى تأثير هذه الثقافة أو عظم شأن تلك . ويثور ضدي بعض علماء القديميات لإهمالي هوميروس والناحية الجمالية من الحياة اليونانية إهمالا نسبياً وإن كان الحديث عن العلم اليوناني وافيا غير منقوص، وإن كان موضوع التطور العقلي الإغريقي يعالج في الكتاب بوصف كونه دورا أساسياً من أدوار تطور الإنسانية . وهناك فئة كبيرة من أهل الرأي ممن يرون العالم خلال الأشكال اللاتينية ، ويأخذ منهم الحنق كل مأخذ حتى لمجرد ذكر اتساع الأثر النسبي للنظم البيزنطية والفارسية والصينية مثلا . فروما لا تزال تتخذ سمة عدوانية في نقد هذا العصر وأدبه ولا تزال تحاول التقليل من شأن الأمم غير اللاتينية وتضييق ما لها من مجال في الصورة التي نرسم . فأما الغلاة من أصحاب الرأي الحر فإنهم يضيقون ذرعا بقبول فكرة أن المسيح كان شخصا حقيقيا ، ويتصايح المسلمون محتجين ويتسخط الشيوعيون لأن تعاليم ماركس Marx ولينين Lenin لم تجعل أساس البحث في هذه القصة كلها . وكثير من الناس ممن يفكرون تفكيرا

مادياً قد ساءتهم تلك الأدلة المجتمعة المتراصة التي تثبت تسلسل الإنسان تسلسلا حيوانيا محضاً ، فهم يرون أنه لو صح هذا لكان فيه أكبر مضيعة للأخلاق والروح المعنوية بين الناس . فكان لا بد للمؤلف أن يصادف مثل هذه الألوان من النقد . ولم يكن لديه من سبيل يتجنب به أو يرضى به كل هذه المطالب .

ويدرك المرء عندما يلتقي بمثل هذه الوجهات والاعتراضات أن لدى كل إنسان تقريباً نوعا مضمرا من معالم التاريخ متضمنا في ذهنه وذلك عنده هو التفسير الفعال لعالمه ولموضعه من هذه الدنيا ، وهو في كل هذا يرفض هذا الرأي ويفترض ذاك ، وقد يقدر كتابنا هذا بنفس المعايير التي اصطنعها لنفسه وقد يقيسه بما يكون قد سلف له من المعتقدات التي تقبلها والتي تختفي وتبدو في نفسه وقد يكون في هذا أسمحيا واسع الصدر . ومن الطبيعي أن يكون للمؤلف هو الآخر وجهة خاصة به بل من الطبيعي أن يميل كل الميل إلى ناحية من الرأي . ولكن أين يجد القارئ كاتبا ليست له هذه الصفة التي تميز شخصيته ؟ وكيف يكون هناك أي معالم للتاريخ ليست فيها نزعة خاصة إلى أمور بعينها ؟ فهنا ، كما هو الحال في أي كتاب إخباري ووصفي ، ينبغي للقارئ أن يتذكر مثلما ينبغي للقاضي والمحلف أن يتذكرا دائما ، أثر الخصائص الشخصية لكل شاهد في البيانات التي يدلي بها معبراً عما رأى . وكل ما يدعيه الكاتب ها هنا إنما هو أن الشاهد قدّم بأقصى ما تسمح كفايته ، بياناً علميا عادلا صادقا ، عن وجهة نظره في ذلك المشهد العظيم مشهد الزمان والأقدار الذي تكشفت له خبيئته .

٣ — في بعض ما حذف وما أضيف

كانت هناك بعض مواطن النقد للكتاب في طبعاته الأولى فيما ترددت بشأنه الشكوى ، كثيراً من أن تطور الفنون وخاصة تطور الموسيقى قد أهمل ولم يعن به . وكانت قصة كسب الإنسان للمعرفة والقوة الاجتماعية موضع إسهاب جسيم يذكر . بيد أننا لم نكد نذكر شيئاً عن بحث الإنسان المقصود عن الجمال . وقد شرعنا الآن في محاولة يقصد بها تدارك ما فات ، فأضيفت أقسام كثيرة سجلنا فيها كيف بدأ الفنان والشاعر والكاتب الخيالي في سماء الحياة الإنسانية . ومع ذلك فإن حدود أي تاريخ للموسيقى أو أي فن آخر هي غاية في الضيق : فربما يلحظ الإنسان ظهور أشكال جديدة وطرائق جديدة وآلات جديدة ولكن الوسيلة الوحيدة لإدراك الفن الخائل إنما هي في أن تسمعه أو تراه أو تقرأه . وليست كتابة قوائم بأسماء أساتذة الفن ودررهم اليتيمة ، وأن نمكن قارئينا من التشدق بالأسماء الضخمة ،

ليس كل ذلك جزءاً من غايتنا من هذا الكتاب .

وزاد فى ضرورة إضافة ما أضيف ، ما كشفه الباحثون من حفائر جديدة . والحق أن من العسير على الكاتب فى عصرنا هذا أن يجارى « الجاروف » فى سرعته . فمنذ أن نقح كتاب العالم لآخر مرة تمت أعمال شائقة جدا فى شمال الهند وسومر وفى آسيا الوسطى وفى الصين . وتم رفع اللثام عن «السينان ثروپوس » وهم أدهش نوع من أنواع (شبه الإنسان) . والسينانثروبوس هم الجواب الكامل الشامل على من خالفوا داروين وناقضوا رأيه فى شأن « الحلقة المفقودة » ، قبل خمسين سنة . وزيادة على ذلك كان من الضرورى أن نمحص من جديد ما كتب عن الحرب العظمى ؛ وأن نعيد تنظيم بعض أجزاء القسم الخاص بما بعد الحرب ونكبتها من جديد . إذ كانت هذه هى أضعف أجزاء الطبعات السابقة : وذلك لأن آمال ذلك العصر بما فيها من انفعال وتشدد كانت قريبة العهد إلى حد يخرج الكاتب عن اتزانه وتحفظه . كان هناك نقص فى التناسب بين هذه الخاتمة وبين سائر الكتاب . فقد أنذرتنا بسوء العاقبة خطب المستر لويد جورج وتقلبات الكفاح الإرلندى ، ومحاضرات بعض قواد الجيش المغمورين فى مؤسسة الخدمة المتحدة . حتى داخل الموضوع شيء من روح كتابة النشرات الصغيرة ، كما داخله أيضاً شيء من روح المشايعة والتحزب . والآن ، وقد مضت أربعة عشر عاما على الحرب ، وبعد أن قام المؤلف برحلة عظيمة فى مجال تفكير خصصه لنفسه وإن كان مجالا يتسع ويميل على الدوام إلى الاستقرار ، فإن المؤلف يعتقد فى نفسه القدرة على أن يضع هذه السنين الأخيرة فى صورة أدق وأكثر ضبطاً . ومن ثمة فقد قضب هذا الجزء الأخير تقضيباً قاسياً وبذلت فيه محاولة جديدة لإنتاج تحليل أصح من الأول فى التعبير عن آمال العالم . ولم يكن لزاما على الناس أن يرددوا الفكر ثانية فى نواحى المجال السياسى فحسب ، فإن طبيعة المشاكل المالية والاقتصادية فى العالم باتت الآن أوضح منها قبل أزمة سنة ١٩٢٩ ، واستدعى هذا بالطبع مراجعة جديدة دقيقة .

وهناك إلى جانب كتاب العالم ، كتابان إذا جمعا وإياه كون الثلاثة الدائرة الكاملة لأفق « النظرة المحدثة إلى الحياة » — وهما (كتاب علم الحياة) وهو خلاصة للأفكار والحقائق البيولوجية لمؤلفه ج . ب . ولز ، وجوليان س . هكسلى بالتعاون مع مؤلف هذا الكتاب — ثم كتاب (جهود البشرية ورفاهيتها وثروتها) وهو نظرة شاملة للمعرفة الاقتصادية والاجتماعية .

الكتاب الأول
العالم قبل الانسان

الفصل الأول
الأرض بين الفضاء والزمان

---

١ — عظم اتساع فكرة الناس عن الفضاء والزمان

قبل أن نبدأ تاريخ الحياة يجدر بنا أن نقول شيئا عن ذلك المسرح الذى أديرت عليه مسرحيتنا وعن الأفق الذى مثلت فى أحضانه .

فنى خلال القرون الأخيرة زادت معلومات الناس عن العالم المرئى الذى يسكنونه زيادة عظيمة ممتازة ، وحدث لهم فى الوقت نفسه نوع من النقص فيما لشخصياتهم من قدر وخطر فقد عرفوا أنهم أجزاء فى كلٍّ أوسع مدى وأطول استدامة وأعظم عجباً مما كان أسلافهم يظنون أو يحلمون .

فإن الأرض تبدو للعقل المتوحش البدائى ، كأنما هى كل الوطاء المسطح للعالم وأن السماء هى من فوق الأرض قبة تسير فيها الشمس والقمر والنجوم . ثم تعود أدراجها ، تسير من جديد قافلة خلال دورة غامضة أو سرداب تحت الأرض . وقد ظل فلكيو بابل والصين يعتقدون أن الأرض مسطحة ، حتى بعد أن قضوا قروناً عدة فى مراقبة النجوم . وكان العلماء الأغريق أول من استطاع أن يدرك بوضوح شكل الأرض الكروى ، بيد أنهم لم يفهموا مع ذلك أن الكون عظيم جدا نسبياً ، فقد كانت كرة الأرض عندهم مركز الوجود ، وكانت الشمس والقمر والكواكب والنجوم الثابتة تدور حولها فى هيئة كرات بللورية بوصفها مركزاً لهن جميعا . ولم يستطع العقل الإنسانى أن يتقدم عن هذه الفكرة قيد شعرة إلاَّ فى القرن الخامس عشر عند ما زكن (كوپرنيكوس Copernicus) زكنته العجيبة التى قال بها أن الشمس هى المركزوليست الأرض . ولم تحظ وجهة نظر كوپرنيكوس بالقبول العام حتى

جاء (جاليليو) فى مفتتح القرن السابع عشر ، فأدخل ما أدخل من التقدم على التلسكوب .

ويحدد التطور الذى حدث فى التلسكوب طوراً جديداً فى الفكر الإنسانى — كما يحدد نظراً إلى الحياة فى ضوء جديد . ومن الخوارق العجيبة أن الإغريق — على ما كان لهم من أذهان نشيطة نفاذة ، لم يدركوا قط احتمالات الميكروسكوب أو التلسكوب ، فلم يستعملوا العدسة بتاتاً . ومع ذلك فانهم كانوا يعيشون فى عالم عرف فيه الزجاج وعملت منه أشكال جميلة مدى مئات من السنين ، وكان فى متناول أيديهم قنانى وقوارير من الزجاج لابد أنهم لمحوا خلالها الأشياء مشوهة ومكبرة ، ولكن العلم فى بلاد اليونان كان حرفة الفلاسفة يتناولونه بطريقة استكبار ارستقراطية ، وكانوا كلهم رجالاً يأنفون أن يتعلموا العلم من هؤلاء العمال البسطاء ممن يشتغلون بصناعة الجواهر والمعادن والزجاج . لانستثنى منهم سوى أفراد قلائل من أمثال النابغة « أرشميدس » ، و « هيرون Hiero » .

والجهل أول قصاص الكبرياء . فقد كان الفيلسوف خلواً من المهارة الآلية ، وكان الصانع صفر الوفاض فى التربية الفلسفية — وتُرك الجمع بين الزجاج والفلك إلى عصر آخر جاء بعد ذلك بما يربو على ألف سنة من الزمان . وقد تقدم التلسكوب وعلم الفلك معاً منذ عصر جاليليو ، ورفع عن أعماق الفضاء كل ما كان يحجبه من غياهب الجهل والإفتراضات الفاسدة ، فجاءت الفكرة القائلة بأن الشمس مركز الكون بعد فكرة قوامها أن الدنيا هى صاحبة هذه المنزلة . ونحن نعرف الآن أن شمسنا لا يمكن أن تدخل فى عداد أكبر النجوم حجماً ، فهى لا تزيد على أن تكون إحدى النيرات الصغرى .

ولقد فك التلسكوب الخيال الإنسانى من عقاله فكان كأن لم تصل إلى مثل أثره أية آلة أخرى ، وإن كان هناك جهاز آخر جدير بأن يقرن إلى أثر التلسكوب الموسع ذلك هو المطياف Spectroscope محلل الطيف الشمسى الذى تطور مما استكشفه فرون هوفر Fraun-Hofer صانع الزجاج سنة ١٨١٤ ؛ فلقد طالما رأى الإنسان أقواس قزح منذ استقر على ظهر البسيطة ، ولكن من ذا الذى كان يستطيع أن يخبره أن هذه الأشرطة الملونة كانت تحمل له فى ثناياها وعداً بأنه سوف يستطيع يوما أن يحلل النجوم ؟ ولكن المطياف (الإسبكتروسكوب) يستقبل الأشعة من أى مصدر ضوئى ويمررها خلال منشورات ويفرقها إلى أشرطة تشبه قوس قزح . وعند الفحص نتبين أن فى هذه الأشرطة الضوئية خطوطاً مستعرضة [1] من الضوء والظلمة ، تتغير تبعا للحرارة والتركيب الكيماوى لمصدر الضوء ، ولما يعترض الضوء فى مسيره إلينا من بخار حتى ليستطيع الرجال فى عصرنا هذا أن يجلسوا فى

---

(١) Transverse

مراصدهم مطمئنين ، يدرسون تركيب النجوم ويأخذون درجات حرارتهـا ، بينما هى تبعد عنا بلايين لا تحصى من الأميال .

فالستار الذى كان يحجب الهوة السحيقة التى تمثل أبعاد النجوم عنا لم يُزح إلا فى القرون الثلاثة الأخيرة . وأحدث من هذا كله معرفتنا بالعمر الزمانى الهائل للكون الذى نعيش فيه ، فلم يكن بين الشعوب القديمة من بدا عليه أنه استطاع أن يكوّن أية فكرة عن مدى العصور الهائلة التى مر فيها الوجود إلا الفلاسفة الهنـود وحدهم . وأما فى العالم الأوروبى إلى ما قبل وقتنا بنيف وقرن ونصف من الزمان ، فكانت آراء الناس عن مـدى الزمان الذى مكثته الأشياء قصيرة قصراً يدعو إلى الدهشة والعجب : فقد جاء فى كتاب « فى التاريخ العام » أصدرته شركة من شركات بيع الكتب فى لندن سنة ١٧٧٩ أن العالم خلق سنة ٤٠٠٤ ق.م وأنه بالضبط (وهى دقة طريفة) خلق إبان الاعتدال الخريفى ، وأن تكوين الإنسان توج عملية الخلق ، إذ تمّ فى عدن على نهر الفرات على مسيرة يومين من البصرة بالضبط ... ! ! وكانت الثقة بهذه المعلومات قائمة على تفسير حرفى أكثر مما ينبغى لرواية الكتاب المقدس وقلّ من يقبل هذه الرواية الآن بوصفها بيانات مسلم بها حتى بين أصدق المؤمنين بوحى هذا الكتاب .

وكان لعلم الجيولوجيا ثم لعلم الباليونتولوجيا « دراسة الكائنات البائدة[(١)] » بصفة خاصة الفضل الأوفى فى اختراق الحجب الزمنية وفى النفاذ من ذلك (الأمس الصغير) الذى لا يكاد يبلغ ستة آلاف سنة إلى آلاف الآلاف من أشباه ذلك الأمس . ولقد لوحظت مجموعتان كبريان من الحقائق مراراً وتكراراً ، وهما تقحمان نفسيهما قبالة أنظار الناس قبل القرن الثامن عشر بزمان بعيد ، وكانت أولى تينك المجموعتين مارآه النـاس فى أنحاء لا تحصى من المعمورة من سموك عظيمة مكشوفة من الصخور الطبقية لا يمكن أن تكون تجمعت إلا خلال أحقاب طويلة من الزمان ، وأن هذه الطبقات كانت فى كثير من الأحيان مقوسة وملتوية بطريقة تدل بلا شك على وجود قوى جبارة تعمل مدى أحقاب مديدة من الزمان . وكانت المجموعة الثانيـة تتبين للناس من وجود (حَفريّـات fossils) تشبه العظام والجماجم والأجزاء الصلبة من أنواع لا تزال موجودة ، وإن كان ذلك الشبه غـير تام . ولم تبدأ دراسة هذه الطبقات والحفريات دراسة منظمة إلا إبان القرن الثامن عشر ولم يذع بين الناس العلم بقدر هذه التراكمات وكنهها الحقيق وهو الذى يدعونه باسم « سجل الصخور » إلا فى القرن التاسع عشر . وقام كفاح عظيم يستهدف إثبات صحة ذلك السجل ، ويناهض المعتقدات القديمة الراسخة فى نفوس أولئك الذين كانو يعتزون بتفسير الكتاب المقدس تفسيراً حرفياً ، ودخل الحومة كثيرون ممن لا يزالون إلى اليوم على قيد الحياة ، وأخذوا يناضـلون فى سبيل

(١) Palaeontology

تحرير العقل البشرى . وتغيرت الصورة المرئية للبشرية ، واستطالت رويداً رويداً . فمنذ مئتين من السنين لم يكن خيال الجنس البشرى ليمتد إلى أكثر من ستة آلاف سنة ، ولقد تم اليوم رفع تلك الستارة أيضاً ، وأصبح الناس ينظرون خلفهم إلى ماض سحيق يمتد مدى عشرات ومئات من ملايين السنين .

٣ — الأرض والفضاء

سنلخص لك الآن تلخيصاً موجزاً جداً كل ما هو معروف عن أبعاد العالم . لقد ثبت لنا أن أرضنا إنما هى كرة تدور ، وهى وإن بدت لنا ضخمة هائلة ، فهى لا تزيد فى حقيقة أمرها عن مجرد نقطة من المادة فى فضاء أعظم وأوسع منها . فأما الفضاء فهو فى معظمه فراغ . وتوجد على أبعاد عظيمة فى هذا الفراغ مراكز تتوهج حرارةً وضوءاً ، هى (النجوم الثابتة) وهى كلها تتحرك فى الفضاء رغم أن اسمها هو النجوم الثابتة . ذلك أن الناس ظلوا أزماناً مديدة لا يدركون حركتها . وهى تبلغ من الضخامة حداً كبيراً ، وتبعد عنا بعداً هائلا يجعل حركتها غير مدركة ، فلا يكاد الإنسان يحس حركتها ظاهرة له إلا خلال آلاف السنين . ولقد تبين من مصورات النجوم التى قام المصريون بعملها منذ عشرات القرون أن هيئة أبراج مجموعات النجوم قد تغيرت تغيرا جسيما جداً ، فتحركت بعض النجوم حركة يمكن قياس مقدارها ، ومع ذلك فنحن لا نزال نستعمل الاصطلاح القديم المهين (النجوم الثابتة) لملاءمته لنا فى تمييزها عن « الكواكب السيارة » . وهذه النجوم الثابتة بعيدة عنا إلى حد أنه على الرغم من ضخامة حجمها ، فإنها تبدو مجرد نقط من الضوء تتفاوت فى بريقها وإن نظرنا إليها خلال أقوى التلسكوبات . والقليل منها على ذلك يبدو عند ما ندير إليه التلسكوب فى شكل ملتويات وسحب من الدخان البراق ، هى ما نسميه بالسديم Nebulae ، وهى لا تزيد عن أنفاس أو بقع قوامها مادة نيّرة تمتد بلايين الأميال ، وبلغ بعدها عنا حدا يجعلنا لا ندرك حركتها وإن انتقلت من مكانها ملايين الأميال .

ولقد عرف العلماء حديثاً جداً أن فى الفضاء أيضا عدداً من (الأجسام القاتمة) ؛ هذا إلى سحائب من مواد معتمة ، لبعضها حجم ضخم هائل . وما كنا نحن لنعرف شيئاً عن وجودها لولا أنها تحجب عنا النجوم المضيئة التى من خلفها . بيد أن هنالك مع ذلك نجما قريباً منا قرباً يجعله أشبه شىء بكرة ضخمة من اللهب ، وهذا النجم هو الشمس ، وهى فى طبيعتها مماثلة للنجوم الثابتة ولكنها تختلف فى هيئتها عن النجوم الأخرى لأنها أقرب منها جميعا قرباً لا يدع مجالا للمقارنة ، ولأن قربها مكن الناس من أن يعلموا شيئا من طبيعتها ، ومتوسط

بعدها عن الأرض هو ثلاثة وتسعون مليوناً من الأميال ، وهى كتلة من المادة الملتهبة قطرها ٨٦٦٠٠٠ ميل ، وحجمها يعادل حجم أرضنا مليوناً وربع مليون مرة . والكثير من النجوم الثابتة أضخم منها كثيراً .

وهذه الأرقام عسيرة بالطبع على الأخيلة ، فلو صوبت إلى الشمس قذيفة من مدفع مكسيم ، واحتفظت فى سيرها بسرعتها عند خروجها من فوهة المدفع ، لاستغرقت فى وصولها إلى الشمس سبع سنين . ومع ذلك فإنا نقول إن الشمس قريبة جداً وذلك بالنسبة إلى ما نعرفه من أبعاد النجوم . فلو أن الأرض كانت كرة صغيرة قطرها بوصة واحدة لكانت الشمس كرة ضخمة قطرها تسع أقدام . ولكانت وحدها ملء حجرة نوم صغيرة . ونحن نعرف الآن أنها تدور حول محورها ، ولكنها لما كانت مكونة من سائل متوهج ، فإن منطقتيها القطبيتين لا تسيران بنفس السرعة التى يسير بها خط استوائها الذى يدور سطحه فيما يقرب من خمسة وعشرين يوماً . وسطحها الذى نراه مكون من سحب من أبخرة معدنية متوهجة ، والغلاف الجوى الذى يحيط بالشمس على درجة من شدة الحرارة تجعل الحديد والنيكل والنحاس والقصدير فيها فى حالة غازية . فأما مادون ذلك السطح فإننا نعرفه على سبيل التخمين ليس غير .

وتدور حول الشمس مع أرضنا ، وعلى مسافات عظيمة ، أجسام أخرى معينة مشابهة للأرض تسمى الكواكب السيارة . وهى تسطع فى السماء لأنها تعكس ضياء الشمس . وقربها منا ييسر علينا أمر إدراك حركتها غاية التيسير، فهى من ليلة إلى أخرى تغير مواقعها بالنسبة إلى النجوم الثابتة . ويحسن بنا أن نفهم جميعا كيف أن الفضاء خلو من كل مادة . فلو فرض ، كما قلنا ، وكانت الشمس كرة ضخمة قطرها تسع أقدام لكانت أرضنا بالنسبة لها كرة قطرها بوصة واحدة وعلى بعد ٣٢٢ ياردة من الشمس أى مايزيد على سدس الميل فيستغرق قطع مابين الكرة الصغيرة وأختها الضخمة ٣ ½ دقيقة تقطع بخطى سريعة . عندذاك لا يزيد جرم القمر عن نقطة فى حجم الحصة تبعد عن الأرض ثلاثين بوصة . وتكون هنالك نقطتان متشابهتان جداً أقرب إلى الشمس منهما إلى الأرض وهما كوكب عطارد Mercury والزهرة venus — أولها على بعد ١٤٢ ياردة وثانيهما على بعد ٢٣٢ ياردة . وتأتى بعد الأرض كواكب المريخ mars والمشترى Jupiter وساتورن Saturn وأورانوس ونبتيون وهى تبعد عن الشمس ٤٨٨ و ١٦٧٢ و ٣٠٦٧ و ٦٠٦٩ و ٩٦١٦ ياردة على التعاقب . وعند ذلك يكون نبتيون على مسيرة ساعتين من الشمس ، ويكون هناك أيضا عدد بعينه من نقط

أخرى أصغر من الأولى كثيراً جداً تتطاير بين هذه الكواكب ، أخص بالذكر منها عدداً يسمى بالنجيمات Asteroids تدور مابين المشترى والمريخ . وأحياناً نعثر على نفس صغير من البخار والعثير المتفاوت فى درجة ضيائه زيادة ونقصاناً ، حين يدفع بنفسه إلى المجموعة الشمسية قادماً من الفراغ الذى لاتكاد تكون له نهاية من خلفه . فثل هذا النفَس هو مانسميه بالمذَنَّب Comet (وكل ماعدا ذلك من الفضاء حولنا وبالقرب منا وإلى مسافات شاسعة لايمكن قياسها ، يدعى مواتاً خالياً من الكائنات) ويكون بعد أقرب نجم ثابت إلينا (على أساس المقياس المصغر الذى جعلنا فيه الأرض كرة قطرها بوصة والقمر نقطة قدر الحمصة) يكون بُعد ذلك النجم ٤٠ ألف ميل . وطبقا لهذا المقياس المصغر أيضاً تكون غالبية النجوم الثابتة التى نراها فى السماء على بعد يتراوح بين عشرات ومئات الألوف من الأميال فى مجموعتنا المصغرة هذه .

ولنرجع بالقول الآن إلى الأرض ، فإن قطر عالمنا يقل قليلا عن ٨٠٠٠ ميل — وسطحها مجعد مخشوشن أبرز أجزائه الخشنة هو الجبال ، وعلى الوهاد من سطحها غشاء شفاف من الماء يكون المحيطات والبحار ، وهذا الغشاء المائى الشفاف يصل إلى خمسة أميال فى أعمق أجزائه ، أى أن عمق أعمق المحيطات إنما هو خمسة أميال ، وهذا شىء ضئيل جداً إذا قورن بكتلة العالم . وحول هذه الكرة غشاء رقيق من الهواء هو الغلاف الجوى . وكلما ارتقينا فيه بمنطاد — أو صعدنا خلاله جبلاً فوق مستوى الماء قلت كثافة الهواء باستمرار حتى ليصل إلى حد لايستطيع المرء معه أن يبقى على قيد الحياة . ولا يكاد يكون هناك هواء على ارتفاع ٢٠ ميلا . وأعلى ارتفاع يستطيع أن يرقاه طائر يقارب أربعة أميال ، إذ يقال إن عُقاب الكندور Condor يستطيع أن يجاهد حتى يصل إلى ذلك المرتقى ، بيد أن غالبية الطيور الصغيرة والحشرات التى تؤخذ فى الطائرات والمناطيد تفقد وعيها على مستوى أقل من ذلك كثيراً . كما أن أقصى ماوصل إليه أى مرتاد للجبال هو ارتفاع يقارب خمسة أميال .

وقد حلق الانسان بالطائرة إلى ارتفاع يربو على أربعة أميال ، كما وصلت بعض المناطيد بما فيها من رجال إلى مايكاد يقارب سبعة أميال ، ولكنهم دفعوا ثمن ذلك آلاما جثمانية مروعة ، كذلك أرسلت مناطيد صغيرة للتجارب لا تحمل رجالاً بل آلات تسجيل فوصلت إلى ارتفاع يقارب ٢٣ ميلا . ولا توجد الحياة على الأرض فى غير المئات القليلة العليا من الإقدام من القشرة الأرضية ، وفى غير البحر والمستويات الدنيا من الهواء التى تقل عن أربعة أميال .

ولسنا ندرى شيئاً عن وجود أية حيـاة ، فيما عدا ما نراه من حياة فى هـذه الأغشية الرقيقة حقا : أغشية الماء والهواء المحيط بكوكبنا ، وعلى قدر ما وصل إلى علمنا . يبدو سائر الفضاء إلى الآن كأنما هو خال من الحياة . وقد تباحث رجال العلم فى إمكان وجود الحياة ، أو عملية مشابهة لها ، على نظائر الأرض من الـكواكب ، أمثال الزُهَـرَة والمريخ ، ولـكنهم يشيرون مجرد إشارة إلى احتمالات حولها يكتنفها كثير من الشكوك .

٣ — ما عمر الأرض ؟

تحدثنا عن الأرض والفضاء بما فيه الـكفاية . فلننظر إلى الموضـوع من ناحية الزمان . ويستطيع الفلـكيون والجيولوجيون والمشتغلون بدراسة الفيزيقا Physics أن يدلوا إلينا ببعض المعلومات عن أصل الأرض . وهم يرون أنه منذ عصور بعيدة خلت ، كانت الشمس كتلة ملتهبة دوّارة من المادة ، ولم تكن قد تركزت بعد فى شكل مركز للحرارة والضوء ، كما كانت أكبر بكثير مما هى عليه الآن ، هذا إلى أن سرعتها كانت أعظم بكثير مما هى اليوم ، وأنها تناثرت منها أثناء دورانها السريع قطع طارت فأصبحت الـكواكب . فأرضنا هى إحدى تلك الـكواكب . وقد انقسمت الـكتلة الملتهبة التى كانت منها مادة الأرض أثناء دورانها إلى كتلتين كانت إحداها وهى الـكبرى هى الأرض ، وكانت الثانية — وهى الصغرى — هى القمر الميت الساكن . ويقدم إلينا الفلـكيون براهين مقنعة تثبت زعمهم بأن الشمس والأرض والقمر وكل هذه المجموعة كانت حينذاك تدور بسرعة تعظم كثيرا سرعتها الحالية ، وأن أرضنا كانت بادئ ذى بدء شيئا ملتهبا لم تكن الحياة لتستطيع أن تحيا عليها . وهم يلزموننا بأن نؤمن بأن الشمس وإن كانت لا تزال متوهجة ، فأنها أبرد بكثير مما كانت عليه ، وأنها تدور أبطأ كثيراً مما سلف ، وأنها مستمرة فى برودتها وفى بطئها . وهم يظهرون لنا كذلك أن سرعةَ الأرض تتناقص وسوف تستمر فى تناقصها . ومعنى هـذا أن اليوم عندنا يتزايد شيئاً فشيئاً وأن الحرارة فى مركز الأرض الباطنى تتشعع بالتدريج . وإذن فقـد جاء حين من الزمان لم يكن فيـه اليوم الواحد ليزيد عن نصف أو ثلث ما هو عليـه الآن ، حين كانت شمس مستعرة بالحرارة وأعظم حجما بكثير من شمسنا الحالية تدور — ولا شك — بشكل ملحوظ ظاهر للعين (لو أن هنـاك عينا ترقبها حينذاك من مطلعها إلى مغربها وهى تسير فى كبد السماء) . وسيأتى الزمان الذى يصبح فيه طول اليوم معادلا لطول عام من أعوامنا ، وتصبح فيه الشمس الآخذة فى البرودة وقد خَبَت أشعتها — واقفة وسط السماء لا تكاد تحيد عن مكانها .

وربما يتساءل بعض القراء قائلا : ما عمر هذا العالم ؟ وهــذا سؤال استرعى انتباه عدد عظيم من الناس فى الزمن الأخير ، وقد تدرجت التقديرات الأولى ، وكان التفاوت بينها عظيما بادئ الأمر حتى أوشكت اليوم أن يتفق عليها . فإن علماء الفلك والرياضة الذين يبنون تقديراتهم على معدّل البرودة التى تسير عليها الأجرام السماوية وعلى طرق الإشعاع المختلفة والتغير الذرى ، يقدرون عمر الأرض منذ أن أصبحت جسما منفصلا عن الشمس بألفى مليون من السنين ، كما يقدرون قرابة ثلاثمائة مليون سنة من الزمن منــذ أن تكونت عليها الحياة على أية هيئة ملحوظة الــكثرة . فأما عمر الشمس بوصفها نجماً فإنه يقدر بما يقارب خمسة ملايين مليون سنة .

ويقول السير جيمس جينز فى كتابه « الــكون المحيط بنا »(١) « إن الأرض سوف تستمر فى الغالب لمدة مليون سنة أخرى ، تنخفض بعدها درجات حرارتها فى المناطق الاستوائية إلى مستوى الدرجات القطبية . ولما كان الإنسان لم ينقض عليه إلا ثلاثون ألف سنة أو أقل بوصفه كائناً اجتماعياً متزناً ، فإن هذا يتيح له فرصة لا نهاية لها لــكى يصل إلى العلم والقوة ، وربما أمكنه أن يجعل نفسه سيدا للزمان والفضاء قبل أن يصل إلى ذلك الحد زمان بعيد .

---

(١) Sir James Jeans "The Universe aroundus"

الفصل الثانى

سجـــل الصخور

---

١ — أولى الـكائنات الحية

لسنا ندرى على وجه التحقيق كيف ابتدأت الحياة على سطح البسيطة . ولقد ارتأى علماء البيولوجيا فى هذا الشأن آراء وتخمينات ، ويكاد يكون مجمعا عليه فيما بينهم أن الحياة ابتدأت فى مياه ضحلة دفيئة تغمرها أشعة الشمس ، وربما كان ذلك فى برك ومستنقعات تمتد على شواطىء البحار الأولى ، وربما اتخذت فى ابتدائها شكل مادة مخاطية Slime أو شكل نوع مما هو دون الحياة ، وتدرجت فى بطء وبهيئة غير محسوسة حتى اتخذت لنفسها صفات الحياة المميزة . وليس على ظهر البسيطة فى الوقت الحاضر ذلك الصنف من الظـروف ، الـكيماوى منها والفيزيقى ، الذى تستطيع الحياة أن تبدأ منه بالطريقة التى نعقلها نحن . لا شك أنه لا تحدث الآن بدايات جـديدة للحياة . بيد أنه من الممكن أن نستخرج من المواد غير العضوية مواد مخاطية وأغشية تكاد تـكون صورة تقليدية لتركيب الأجسام الحية بل لامتدادها ونموها ، فإن كانت بداية الحيـاة أمراً طبيعيا خالياً من المعجزات فسوف يأتى يقينا ، ذلك اليـوم الذى يستطيع فيه العلماء أن يقلدوا بدءها ويعيدوه . فحتى يستطاع إجراء ذلك فلا ريب أن هذا الموضوع سيظل إلى حد معين — موضع الحدس والتخمين .

فمن الناحية الأولى ، لئن كان كثير من علماء البيولوجيا ، مقتنعين بأن الحياة ظهرت تحت الظروف اللازمة لها بشكل طبيعى لا مناص منه ، يشا كل ما يحدث من ظهور الثلج عندما يبرد الماء تحت الضغط العادى إلى ما دون درجة الجمود ، فإن هناك من الناحية الأخرى قوما يضارعون الأولين فى الذكاء ولهم وجهـة نظر مضادة لوجهة الأولين . وليس ينتظر منا أن نقضى فى هذه القضية بحكم .

فإن فـكرة أن الحياة قد ابتدأت بوصفها عملية كيميائية فيزيقية أتت بحكم طبيعة الأشياء والضرورة دون تدخـل أى عامل معجز إنما هى فـكرة ترفضها كثير من العقول المتدينة . بيد أن ذلك الرفض ربما يرجع إلى تبلبل تلك العقول أكثر مما يعود إلى روح لا دينية فى الفـكرة

نفسها . وهم يرون إلى حد ما أن الحياة هى الروح ، وينسبون كل أنواع الصفات الخلقية إليها ، ويضمون إليها ضد : (المادة الموات) .

غير أنه من العسير أن نفهم لِمَ يرى الناس الحيوان الرخو والفطر السام أوالقملة أو النمو السرطانى الطفيلى فى لحاء الشجر : لِمَ يرون أن لهذه جميعا ولعمليات تكوينها طريقة خاصة ذات أسرار عجيبة هى فى نفسها « أسمى » من الطريقة المنظمة التى تكونت بهـا مجموعة من البللورات أو جوهرة من الجواهر أو لوحة من الرخام المجزع أو الأشكال البـديعة التى تبدو فيها الأمواج تحت الشمس ، أوالرمال المتموجة حين تذروها الريح ؟ لماذا ينحاز صانع الـكون إلى أشياء دون أخرى ولماذا يفرق بين ما هو جماد وبين ما يكاد يكون جمادا ؟

كان الغلاف الجوى أكثف كثيراً أيام بداية الحياة ، وكثيراً ماحجبت الشمس غمامات متراصة من السحاب ، وكثيراً ما كانت العواصف تظلم وجـه السماء — وكانت أرض ذلك الزمان التى كانت تعبث بها قوى بركانية عنيفة فتدفعها إلى أعلى دفعا ، أرضاً جرداء لا نبات فيها ، إذ لم يكن هناك تربة عليها ، وكانت عواصف المطر التى لا تنقطع تنهال عليها انهيالاً ، وتحمل الأنهار والسيول أحمالا ضخمة من الرواسب إلى عرض البحار لتصبح أوحالاً تجمدت فيما بعد ، فأصبحت اردوازاً وصخورا ورمالا ، تجمعت فأصبحت حجراً رملياً .

وقد درس الجيولوچيون كل ما تجمع من هـذه الرواسب ، كما وجدوها بشكلها الحالى الذى تخلف من أقدم العصور إلى أحدثها . ولا شك أن أقدم تلك الرواسب هى أشدها تشوها وتغيراً ، وأكثرها تأثراً بالبلى . وليس فيها الآن أى أثر محقق للحياة .

وربما كانت أشـكال الحياة الأولى صغيرة لينة فلم تترك لنا أى شاهد يدل على وجودها ، ولم تتمكن هذه الأحياء من ترك حفريات بعد موتها ، إلاّ عندما كوّن بعضها لنفسه هيا كل ومحارات من الـكلس وغـيره من المواد الصلبة ، وبذلك تركت أثراً يثبت وجودها فى السـجل الذى نفحصه . وكتب الجيولوجيا هى فى معظمها قصة الحفريات التى توجد فى الصخور ، وشرح للترتيب الذى توجـد فيه طبقات بعد طبقات من الصخور ممتدة الواحدة فوق الأخرى . ولابد ان أشـد الصخور توغلاً فى القدم قد تـكوّن قبل أن وُجد على سطح الأرض أى بحر قط ، عند ما كانت حرارة الأرض أشـد من أن تسمح بوجود بحر على وجهها . وعنـد ما كان المـاء ، الذى هو البحر فى وقتنا هـذا ، غلافاً جويا من الأبخرة المختلطة بالهواء ، وكانت الطبقات العليا من الجو ملبدة بالغيوم ، ومنها كان يتساقط المطر ساخناً على مادونه من صخور ، فلا تلبث أن تنقلب سريعاً إلى بخار قبل أن تصل إلى تلك الصخور المتوهجة بزمن بعيد . وتجمدت مادة العالم المنصهرة تحت هذا الغلاف البخارى مكونة أول الصخور . ولا بد أن هـذه الصخور قد تجمدت فأصبحت أشـبه شىء

بالكعكة من فوق مادة وهاجة سائلة دونها — على النحو الذى يحدث فى الحمم Lava التى أخذ يبرد ، ولابد أنهذه قدظهرت بادىء أمرها فىهيئة القشرات والأحجار المحروقة المتماسكة Clin kers . ولابد أنها قد مرت عليهـا أحداث من الانصهار والتبلور ، قبل أن تصل إلى درجة من السماكة تجعـل جودها أمراً مستديماً . ويطلق اسم (النيس الأساسى Fuindamental Gneiss) على مجموعة عظيمة من صخور متبلورة تدخل تحت ذلك الجنس ، تـكونت فىعصر بعد عصر فىالوقت الذى كان فيه شباب الأرض قدقارب نهايته ، ولا بد أن مناظر العالم إبان تـكون هذا النيس الأساسى كانت أقرب إلى باطن تنور كهربائى منها إلى أى شىء آخر نراه على ظهر البسيطة فى وقتنا هذا . وبعد عصور طويلة أخذ البخار الذى فى الجو يتـكثف ويسقط قدما إلى الأرض ويتدفق فى آخر الأمر على هذه الصخور البدائية القديمة الساخنة فىصورة جداول من الماء الساخن . لاتلبث أن تتجمع فى المنخفضات مكونة البرك والبحيرات والبحار الأولى . وإلى هذه البحار حملت الجداول التى تسير على وجه الصخور كثيراً من التراب والجزيئات وألقتها فيها مكونة طبقة من الرواسب . وتجمع هـذا الراسب فيما يسميه الجيولوجيون : الطبقات Strata وتـكونت الصخور الطبقية أو الرسوبية الأولى . ثم هبطت تلك الصخور الأولى فى منخفضات وغطتها أخرى — ونالها من الاضطرابات البركانية الشىء الـكثير من اللىّ والرفع والتمزيق ، كما نالها مثل ذلك من جراء الضغط الداخلى الذى كان يندفع كالمد الجارف من خلال قشرة الأرض الصخرية . فنحن نرى هذه الصخور الرسوبية الأولى وهى ماتزال تظهر على سطح الأرض هنا وهناك ، إما لأنها لم تغطها طبقات أخرى أولأنها تعرت بعد أحقاب سحيقة من تغطيتها بسبب زوال الصخورالتى جاءت فغطتها فيما بعد . وتوجد مسـاحات عظيمة من هـذا النوع فى كندا على الأخص ، نجدها مشقوقة وملتوية ومصهورة انصهاراً جزئياً من جديد ، ثم نراها عادت ثانية إلى تبلورها الأول ثم صلبت وانضغطت فأصبحت كما هى معروفة ظاهرة . وهى لا تحوى أثراً واحداً للحياة .

ويطلق عليها العلماء فى العادة اسم « الصخور الآزوية » Azoic (أى التىلاحياة فيها) . ولـكن لـما كان بعض هـذه الصخور الرسوبية الأولى محتويا على مادة تسمى « الجرافيت أو الرصاص الأسود » ، كما يوجد فيه أوكسيد الحديد بنوعيه الأحمر والأسود ، ولـما كان الناس يزعمون أن هـذه المواد يحتـاج أمر انتاجها إلى نشاط الـكائنات الحية ، وهو أمر لاندرى إن كان حدث أم لا ، فإن بعض الجيولوجيين يميل إلى تسمية هذه الصخور الرسوبية الأولى بالأركية (Archaeozoic) (أى التى فيها الحياة البدائية جداً) ، وهم يعتقدون أن

صور الحياة الأولى كانت فى مادة حية هلامية لم يكن لها محار أو هيا كل عظميّة أو أى نوع من تركيب مماثل يمكن بقاؤه بعد مماتها فى شكل حفرية مميزة واضحة ، وإنما بقى لها أثرها الكيمياوى الذى كان سبباً فى ترسيب الجرافيت وأوكسيد الحديد . وهذا ولا ريب مجرد حدس . وهناك على الأقل احتمال يعادل هذا فى القوة ، مداره أنه فى أيام تكوّن الصخور الآزوية لم تكن الحياة قد بدأت .

وفوق هذه الصخور الآركية ، أو متداخلة فيها ، تأتى صخور أخرى لا شك فى قدمها ، وقد عبث الزمان بها وهى تحوى فعلا آثاراً للحياة . وهذه البقايا الأولى من أبسط الأنواع ، فهى بقايا نباتات بسيطة تسمى الطحالب Algae ، ولها أثر يشبه الأثر الذى تتركه الديدان فى مسيرها فى طين البحر . هذا إلى هيا كل مخلوقات دقيقة جدا تسمى حيوانات متشععة Radiolaria ، وهذه السلسلة الثانية من الصخور تسمى بالصخور البروتيروزوية Proterozoic (أى التى تحوى مظاهر الحياة الأولى) وتدل على عصر طويل فى تاريخ العالم .

ومن فوق الصخور البروتيروزوية تمتد سلسلة أخرى وجدت محتوية عدداً جسيما وأضربا[١] كثيرة من آثار الكائنات الحية فهناك أولا ، ما يدل على وجود أنواع متعددة من الأسماك الدرقية وأبى جلمبو وما إليه من الأشياء الزاحفة والديدان ، والأعشاب البحرية وما شاكلها ، ثم أنواع عديدة من الأسماك . وكذلك تبدو لأول مرة نباتات وحيوانات برية ، وتعرف هذه الصخور بالصخور (الباليوزوية) Paleozoic (أو صخور الحياة القديمة) وهى تميز حقبة هائلة كانت فيها الحياة تنتشر فى بطء وتؤدة وتتزايد وتتطور فى بحار عالمنا هذا ، فلم يكن يحدث فى الدنيا خلال عصور طويلة ، وإبان العصر الباليوزوى الأول ، سوى تكاثر مثل هذه المخلوقات السابحة والزاحفة فى الماء . فكانت هناك مخلوقات تسمى بالتريلوبيت Trilobites وهى أشياء زاحفة تشبه نوعا من (الحيوانات القشرية) أو السوس الكبير Wood-iice ، وربما كان لها علاقة بأبى جلمبو الضخم الأمريكى الذى يعيش فى زماننا هذا . وكذلك كانت هناك عقارب بحرية سادت ذلك العالم القديم ، بلغت أفراد أنواع معينة منها تسع أقدام طولا . وكانت تلك هى أعلى أصناف الحياة رتبة ، وكانت هناك أنواع مختلفة جمة العدد من طبقة من الحيوانات الرخوة تسمى (برا كيوبود Brachiopods) وأصناف من حيوانات نباتية مغروسة ومتصلة بعضها ببعض ، وأعشاب مرسلة تتموج فى الماء .

ولم يكن كل ذلك منظرا جميلا للحياة يستثير منا الخيال ، فلم يكن هناك شىء يستطيع أن يجرى ، أو يطير ، أو حتى يسبح فى سرعة أو مهارة . ولولا ما لحجم بعض المخلوقات من ضخامة

---

(١) أضرب ج ضرب : Variety

لما اختلفت تلك الحياة كثيراً ، بل ولقلت أنواعاً — عما يجمعه الطالب من إحدى البرك فى يوم دافئ ، من أنواع الكائنات الحية ليقوم بفحصها تحت المجهر .

تلك هى الحياة فى البحار الضحلة إبان عشرين — أو ربما مئة مليون سنة أو تزيد قليلا فى ذلك العصر الباليوزوى القديم . وظاهر أن الأرض كانت خلال تلك المدة قاحلة قفراً . فنحن لا نرى فيها أثراً أو أية إشارة للحياة على البر : فكل ما كان يعيش فى ذلك الزمان كان يعيش تحت الماء ، إما جلّ حياته أو كلها . وانقضت عصور يهز طولها الخيال هزاً عنيفاً ، كان كل ما على البسيطة من حياة هو ما ذكرنا . وقبل ذلك الوقت استمرت الأرض تدور حارة قفراً خلواً من الحياة مدى ملايين السنين .

وبين المدة التى تكونت فيها هذه الصخور (الباليوزوية السفلى) التى كانت عقارب البحر والتريلوبيت تتبوأ فيها مكان الإمارة وبين عصرنا الحاضر ، مرت عصور لا تكاد تدخل تحت حصر ؛ تمثلها على الأرض طبقات وكتل من الصخور الرسوبية . فهناك أولاً الصخور (الباليوزوية العليا) ويميز الجيولوجيون من فوقها قسمين عظيمين : فيتلو الصخور الباليوزوية الصخور الميسوزوية ، أى (صخور الحياة الوسطى) وهى مجموعة هائلة من الصخور الحاوية للحفريات وربما كانت تمثل مائة مليون من الأعوام مرت سراعاً . وهى تحتوى ثوبا عجيبا من بقايا الحفريات ومن عظام الزواحف الجبارة وما شابهها . ثم يتلو هذه : الصخور الكاينوزوية Cainozoic — أى صخور الحياة الحديثة — وهى السفر الثالث العظيم من أسفار تاريخ الحياة وهو سفر لم يتم بعد فصولا : الطمى فيه والرمل اللذين حملتهما أنهار العالم إلى البحر بالأمس فغطت بهما العظام وقشر السمك وحراشفه وطمرت بهما الأجسام وعفت بهما على الآثار التى ستغدو كلها حفريات تمثل الكائنات التى تعاصرنا — الطمى والرمل فيه هما آخر ما سطره القدر من صفحات التاريخ .

فتلك العلامات والحفريات الموجودة فى الصخور ، بل تلك الصخور نفسها هى أولى الوثائق التاريخية . وتاريخ الحياة الذى فك الناس ألغازه ، وما يزالون يفكون ألغازه يسمى « سجل الصخور » . ولا يتخيلنّ القارئ أن هناك أى أثر للعناية الضرورية المألوفة فى تنظيم السجلات ، عندما يسمعنا ندعو هذه الصخور سجلا وتاريخاً . فإن الأمر يقتصر على مجرد أن أى شىء يحدث فى العالم يترك من خلفه (بعض الأثر) ولكننا لا نفهمه إلا إذا كنا من الذكاء يسمح لنا أن نلحظ معناه .

أضف إلى ذلك أن صخور العالم ليست طبقات مرتبة إحداها فوق الأخرى ، حتى يسهل على

الإنسان جهد قراءتها ، فهي لاتشبه الكتب ولا الصفحات في أية مكتبة ، بل هي ممزقة مهلهلة ، مقطوعة أو مدفونة هنا وهناك ، وقد زالت معالمها فهي أقرب شيء بإدارة رتبت ترتيبا سيئا بعد أن أصابتها على التوالي نوازل من القذائف ، أو عبثت بها يد احتلال عسكري معاد ؛ أو نالت منها يد السالبين ؛ أو صدعها زلزال ؛ أو أصابها شرر فتنة من الفتن ، واشتعلت بها النيران .

لبث الناس يطأون سجل الصخور ذاك وهم لا يشعرون به مدى أجيال لا تحصى . وكانت الحفريات معروفة عند الاغريق الإيونيين في القرن السادس قبل الميلاد وتناقش فيها (ايراتوس ثنيز Eratosthenes) وغيره بالاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد ، وهو نقاش لخصه استرابون (Strabo) في كتاب الجغرافيا الذي ألفه (؟سنة ٢٠ — ١٠ ق.م.) وكان الشاعر اللاتيني أوفيد (Ovid) ملما بها ، بيد أنه لم يفهم طبيعتها فزعمها أول جهود القوة الخالقة وأبسطها — كذلك لحظها كتاب العرب في القرن العاشر الميلادي . وكان ليوناردو دافينشي ، وهو ممن عاشوا في زمن قريب جدا هو مفتتح القرن السادس عشر (١٤٥٢ — ١٥١٩) من أوائل الأوروبيين إدراكا لمغزى الحفريات الحقيقي ، ولكن لم يقم الإنسان بسلسلة أبحاثه ومحاولاته المتصلة لحل ألغاز تلك الصفحات الأولى من تاريخ العالم إلا في المائة والخمسين سنة الأخيرة من الزمان .

٢ — الانتخاب الطبيعي وتغير الأنواع

لم نحصل في الفصل السابق على تعريف واضح للحياة . وربما كان من المستحسن أن نسطر لك بعض حقائق معينة عن هذا الشيء الحديث ، الذي كان يزحف في المياه الضحلة ومناطق الطين المعرضة للمد والجزر في العصر الباليوزوي الأول ، والذي ربما اقتصر أمره على كوكبنا وحده في كل هذا الفضاء الهائل بأكمله .

فللحياة مظاهر عامة بعينها تميزها عن كل الأشياء التي لاحياة فيها ، أيا كانت تلك الأشياء . فبين الكائنات الحية اليوم فروق أدعى ماتكون إلى العجب والدهشة . بيد أن جميع الكائنات الحية ، ماضيها وحاضرها ، تتفق في امتلاكها « مقدرة معينة على النماء » ، وكل الكائنات الحية « تتغذى » وكل الكائنات الحية « تتحرك » من مكانها بينما هي تأكل وتنمو ، وإن لم تزد الحركة عن انتشار البذور في التربة أو امتداد الأغصان في الهواء . زد على ذلك أن الكائنات الحية تتكاثر ، فهي تنتج أشياء حية أخرى مشابهة لها إما بالنماء ، ثم

الانقسام أو بوساطة البذور أو الأبواغ Spores أو البيض . إلى غير ذلك من وسائل إنتاج الصغار . فالتكاثر من مميزات الحياة . وما من كائن حى يبقى حياً إلى الأبد . والظاهر أن هناك « حداً » لنماء كل صنف من أصناف الكائن الحى . وقد يحدث أن ينمو الفرد ثم ينقسم انقساما تاما إلى فردين جديدين — كما هو الحال فى الأشياء الدقيقة البسيطة مثل الحبيبات[1] الميكروسكوبية الحية المسماة بالأميبا . وربما عاد ذانك الفردان إلى الانقسام بدورهما ، ويعيش كثير من المخلوقات بغلاف خارجى ثم إذا هى تنقسم انقساما كلياً إلى عدد من أجسام أو خلايا أصغر منها وهى أبواغ[2] لا تلبث أن تخرج من غلافها أو تتناثر ثم تنمو إلى ما كان عليه حال أسلافها . فأما بين الكائنات الأكثر تعقيداً فليس التكاثر فى العادة تقسيما على مثل هذه السهولة وإن كان الانقسام يحدث فعلا حتى فى حالات خلائق كثيرة يبلغ من كبرها أن ترى بالعين المجردة . بيد أن القاعدة السارية على جميع الكائنات الكبرى تقريباً هى أن الفرد ينمو حجماً إلى حد معيّن وقبل أن يصبح ثقيلا ضخم الجثة يقف نماؤه ويأخذ حجمه فى التناقص . وعند مايصل إلى أقصى حجم له ينضج ثم يأخذ فى إنتاج الصغار . وهذه إما أن تولد حية أو ينقف عنها بيض . ولكن لا ينتج الصغار جسمها كلهُ إذ لايقوم بهذا العمل إلا جزء منه . وبعد أن يعيش الفرد وينتج النسل ردحاً من الزمان تراه يهرم ويموت ، وهو يفعل ذلك خضوعا منه لنوع من الضرورة .

وتنطبق هذه الأمور على النبات انطباقها على الحيوان ، وإن لم تصدُق على ما يخلو من الحياة من أشياء . أجل إن الأشياء الخلو من الحياة أشباه البلورات تنمو ولكن ليست لها حدود تحدد نموها وحجمها ، وهى لا تتحرك من تلقاء نفسها ، وليست بها حركة داخلية . فإذا تكونت البلورات يوما ، فلمها تظل لا يداخلها تغير أمد ملايين عدة من السنين .

وليس هناك تكاثر لأى شىء غير حى . وإنما يؤدى نمو الأشياء الحية وموتها وتكاثرها على هذا النمط إلى نتائج عجيبة غاية فى العجب . وتُشابه الصغار التى ينتجها الكائن الحى آباءها إما مشابهة مباشرة وإما بعد المرور فى أطوار انتقال وتغيرات متوسطة ، وذلك مثلما يحدث من تحول اليسروع[3] إلى فراشة . ولكنها لا تحمل قط شبه آبائها بالضبط ولا هى فيما بينها متشابهة تماما . إذ لا بد من وجود فرق طفيف نسميه نحن (بالفردية) Individuality . فألف من الفراشات فى هذا العام قد ينتج فى العام القادم عدداً أكبر من هذا بكثير . وتبدو لنا هذه الأخيرة مشابهة أسلافها تمام الشبه تقريباً ، ولكن لا بد لكل واحدة منها من وجود نفس ذلك الفرق الطفيف . ومن العسير علينا أن نرى الفردية

(١) Blobs الحبيبات . (٢) الأبواغ Spores . (٣) Caterpillar اليسروع .

فى الفراشات ، لأننا لا نلاحظها ملاحظة دقيقة جدا . ولـكن من اليسير علينا أن نراها بين الناس . فجميع الرجال والنساء فى العالم الآن قاطبة ينحدرون من رجال ونساء العالم سنة ١٨٠٠ م . ولـكن ما من واحد منا الآن يشبه تمام الشبه أى واحد فى ذلك الجيل الزائل . وما عساه يصدق على الرجال والفراشات يصدق على كل أنواع الـكائنات الحية ، وينطبق على النبات كما ينطبق على الحيوان ؛ فـكل نوع يغير كل فردياته فى كل جيل . وهذا القول يصدق على المخلوقات الدقيقة التى احتشدت فى العالم وتوالدت وماتت فى بحار العصور الاركيوزوية والبروتيروزوية ، صدقَه على الناس فى هذا العصر . فـكل نوع من أنواع الـكائنات الحية يموت بغير انقطاع ثم يعود فيولد من جديد فى صورة حشد من الأفراد الجدد .

فتأمل إذن ما لا بد أن يحدث لجيل جديد من أى نوع من أنواع الـكائنات الحية : فإن بعض الأفراد سوف يكون أقوى من سائرها وأصلب عوداً وأحسن استعدادا للنجاح فى الحياة فى ناحية ما ، وسيكون بعضها الآخر أضعف أو أقل استعداداً ، وليس بمستبعد أن يصيب الحظ أو الصدفة بعض حالات خاصة مفردة بعينها . ولـكن الذى يحدث بصفة عامة هو أن يعيش من الأفراد أحسنها استعداداً ، وأن تنمو وتتكاثر ، كما يحدث فى العـادة أن يهوى الأضعف ويوطأ بالأقدام ، إذ يكون أقل مقدرة على الحصول على القوت وعلى مقاتلة عدوه ومواصلة حياته . وعلى ذلك فى كل جيل كما ترى ، يندفع النوع المنتقى إلى أعلى ، وتطرد غالبية الضعفاء وغـير اللائقين ويسلم بالأفضلية للقوى الأنسب . وتسمى هـذه العملية « الانتخاب الطبيعى » أو « بقاء الأصلح » وإن كان اسم « بقاء أصلح الائقين » أكثر دقة وضبطا .

ويترتب على حقيقة كون الأشياء الحية تعيش وتنتج وتموت أنه مادامت الظروف المحيطة بأى نوع ثابتة لم تتغير ، فإن صلاحيته تزداد اكتمالاً شيئا فشيئا ، فى تلك الظروف كلما تجددت الأجيال . بيد أن الظروف لاتبقى على حالها . فـكل نوع يعيش فى ظروفه على شىء من القلق .

ذلك بأن التكيف ناقص على الدوام بل هو فى بعض الحالات شديد النقص . ومما يعين الحياة على الملاءمة بين نفسها وبين مستلزمات الظروف أن تبدو الفينة بعد الفينة أشياء جديدة فى التركيب ، وهى فروق فجائية ملموسة تسمى (بالنشوء أو التحولات الفجائية أو الطفرات) ، وهى فروق تزيد كثيراً عن الفرق العادى الفردى ، وقد تـكون هذه الطفرات (التحولات الفجائية) عبئاً على الحيوان أثناء كفاحه فى سبيل الحياة ، وقد تساعده ، وقد لاتؤثر قط فيما يعرض للحيوان من ظروف الحياة ومصادفاتها . فترى الانتخاب الطبيعى ينبذها فى الحالة

الأولى — وتراه يرحب بها ويشجعها فى الثانية ، بينما ترى الصفة فى الثالثة تنتشر فى نوع بأكمله لايعترضها معترض ، وتمثل مظاهر لاهى بالمفيدة ولا هى بالضارة ، بل هى تغير ذاتى تلقائى (Spontaneous) . ولسنا حتى الآن ندرى للطفرات سبباً ، وكل ما نعرفه هو أن الحياة تواصل التجريب على هذا النحو وأن تجاريبها تدخل فى مُنْخُل الانتخاب الطبيعى بغية الموافقة على التعديل وتثبيته مرة — وترك الأمر على حاله أخرى — أو إزالته فى ثالثة . والظاهر أن الطفرة نفسها إنما هى عملية تأتى بمحض الصدفة . فربما تصيب الطفرة حاجة الوقت الماسة ، وربما تكون خروجا عقيما عن السياق لايناسب المقام . وربما كانت تغيرا سخيفا ، وهو فى الحالة الأخيرة ينتج « أحد عجائب المخلوقات » التى تموت . وهو فى الحالة الأولى ينتشر فى أفراد النوع وطريقة انتشاره التى شرحها الأب (ماندل) أطول من أن يحتملها المقام . ويراها القارىء واضحة الشرح فى كتاب (علم الحياة)[١] ، وهو رفيق هذا الكتاب .

ولنفرض مثلا أن هناك حيوانا صغيرا ذا فراء لونه بنى مبيضّ يعيش فى أرض مريرة البرد تتعرض على الدوام للثلج المقيم ، فإن أفراده التى تحمل أثقل الفراء وأشده بياضا ، أقلها تأذيا بالبرد وأقلها تعرضا لأنظار أعدائها ، وأقلها ظهورا لفرائسها حين تخرج باحثة عنها . فسيزداد فراء هذا النوع غزارة وينصع بياضه فى كل جيل جديد حتى يصل إلى حد لا تجدى معه الاستزادة من الفراء الأبيض .

وتصور الآن تغيرا فى المناخ يدخل الدفء إلى ذلك الإقليم ويمحو منه الثلوج ، جاعلا المخلوقات البيضاء شديدة الوضوح فى معظم أجزاء السنة وجاعلاً الفراء الثقيل عبئاً على حامله ؛ فكل فرد يحمل فى فرائه ظلا من اللون البنى مع خفة فى شعره يجد نفسه صاحب مزية ، وكل فراء أبيض ثقيل يكون كَلاً وعائقاً لصاحبه . فترى الانتخاب الطبيعى يستمسك ويرحب بكل ما يلائمه من طفرات تنشأ فى عصور المحن والنوازل ، ولا بد أن يُقتلع الأبيض وأن يتغلب الأسمر فى كل جيل . فإذا حدث هذا التغير فى المناخ بسرعة عظيمة جداً ولم تصادفه طفرات ملائمة فإن النوع يبيد . ولكن إذا ظهرت طفرات من صنف مساعد وتهيأ لها الزمن الكافى للانتشار بين النوع انتشاراً كبيراً ، فإن النوع وإن مر عليه بعض الزمان العسير ربما استطاع أن يكيف نفسه جيلا فجيلاً ، وهذا التغير والتكيف يسمى (تعديل الأنواع) Modification of Species

وربما لم يحدث هذا التغير فى المناخ فى كل الأرض التى يسكنها النوع . وقد يحدث

---

(١) The Science of Life راجع المقدمة .

فى جانب واحد من جوانب أحد خلجان البحر العظيمة أو يحدث فى ناحية واحـدة دون الأخرى من نواحى سلسلة جبال أو ما شابهها من الفواصل . فربمـا ينحرف تيار دفئ فى المحيط (كتيار الخليج) ويسير مدفئا جانبا من الحاجز دون الآخر تاركا الآخر يقاسى البرد . وعند ذلك يستمر النوع فى الجهة الباردة حتى يصل إلى أقصى غايته من ثقل الفراء والبياض ، بينما هو فى الجهة المقابلة متعدّل متجه إلى اللون البنى وإلى خفة الغلاف .

ولسوف تصحب هذه التغييرات تغيرات أخرى فى نفس الوقت فيما يرجح : فقد تشجع الظروف فارقاً فى المخالب هاهنا ، وتحاربه هناك ، لأن نصف النوع يداوم النبش فى الثلج بحثاً عن طعامه بينما النصف الآخر مستمر فى الهرب من أعدائه فوق الأرض السمراء . ومن الراجح أيضا أن تنتج فروق المناخ ، فروقا فى الطعام الذى يمكن الحصول عليه ، وهذا يرجّح فروقا فى الأسنان والجهاز الهضمى ، وربما حدثت تغيرات فى غدد العرق والدهن فى الحيوان تبعاً للتغيرات التى أصابت الفراء ، وهذه بدورها تؤثر فى أعضاء الإفراز فى الجسم ، وفى كل كيمياء البدن الداخلية ؛ وتؤثر بالتبعية فى كل تركيب المخلوق . وربما جاء الوقت الذى يصبح فيه هذان الصنفان المنفصلان لهذا النوع الذى كان فيما مضى نوعاً واحـدا ، بعيدى الشبه بسبب تراكم الفروق الفردية وفروق الطفرات ، إلى حد أن يصبحا نوعين مختلفين يمكن تمييز أحدهما عن الآخر . ويسمى مثل هذا الانقسام فى النوع على طول الأجيال إلى نوعين أو أكثر (تفريق الأنواع[1]) ويجب أن يعلم القارئ علم الوضوح عند ما تقدم إليه هذه الحقائق الأولية عن الحياة ، وعند ما تقدم إليهحالات النمو والموت والتناسل مع التغير فىالفرد والطفرة ، فى عالم دأبه التغير ، أن الحياة لا بد لها من أن تتغير على هـذا النحو ، و « أن لا بد » من حدوث تعديلات وتفريقات بين الأنواع . و « أن لا بد » من اختفاء أنواع قديمة ، ومن ظهور أخرى جديدة . ولقد اخترنا لك ها هنا مثـلا حيواناً مألوفاً ولـكن ما يصدق على الحيوان الفرائى بين الثلج والجليد يصدق على الحيـاة بأجمعها ، كما هو صادق على الهلاميات الطرية Jellies والبدايات البسيطة التى كانت تسبح وتزحف مئات الملايين من السنين بين مستويات المد وفى مياه البحار البروتوزوية الدفيئة الضحلة . كانت كلها فى حال من التبدل والطفور . وكانت تعيش فى عالم من التغيرات يستحثها على كثير من تبديلاتها وطفراتها .

ولا بد أن تكون قد تعدلت وتنوعت تلك الحياة المبـكرة التى عاشت فى ذلك العالم المبـكر ، عندما كانت الشمس المحتـدمة تشرق وتغرب فى ربع الوقت الذى تستغرقه الآن ليس غير ،

---

(١) Siffentiation of Species

وعندما كانت البحار الدفيئة تصب مدها العظيم على الشواطىء الرملية والطينية المحيطة بالأراضى الجبلية ، وعندما كان الهواء غاصا بالسحاب والبخار ؛ كما لا بد أن تكون الأنواع قد تطورت بسرعة عظيمة ، وربما كانت الحياة عند ذاك سريعة قصيرة شأن الأيام والسنين ، وكانت الأجيال التى كان الانتخاب الطبيعى ينتقيها يتبع أحدها الآخر فى تعاقب سريع .

تسير عملية الانتخاب الطبيعى فى الإنسان أبطأ منها فى أى مخلوق آخر ، فإن الأوروبى الغربى العادى ليستغرق عشرين سنة أو تزيد قبل أن يكتمل نموه ويتناسل ، بينما ترى الجيل الجديد فى معظم الحيوانات يؤدى واجبه فى سنة أو أقل .

ومع ذلك فيرجح أن النماء والتناسل كانا أمراً لايستغرق سوى ساعات قليلة وجيزه ، بل دقائق قليلة سريعة ، فى أمثال الكائنات البسيطة الدنيئة التى ظهرت فى البحار الأولية . وتبعاً لهذا لابد أن تكون تعديلات الأنواع وتفريقاتها سريعة سرعة عظيمة ، وكانت الحياة قد تطورت آنفا أضرباً عظيمة من كائنات ذات أشكال متباينة تباينا كبير قبل أن شرعت فى ترك آثارها فى الصخور . وعلى ذلك فإن سجل الصخور لا يبدأ بأية مجموعة من تلك الأشكال الوثيقة الصلة بعضها ببعض التى انحدرت منها كل المخلوقات التالية والموجودة الآن : وإنما هى تبدأ فى (البحر) حيث مثلت كل الأقسام الرئيسية (لمملكة) الحيوان تقريباً . فالنباتات كانت من قبل نباتات كما كان الحيوان حيوانا .

وكانت البراكيوبود تحتل من قبل أصدافها وهى تأكل من أنواع الطعام نفس ما يأكله اليوم أنواع المحار ، وتزحف العقارب المائية الكبيرة بين أعشاب البحر وتتكور التريلوبيت كورا ، ثم تنتشر وتمرق مروق السهام . ويرجح أن كان ذلك الطين القديم غنيا بالأحياء من أنواع « الانفيوزوريا » Anfusoria[1] أعنى النقيعيات وما إليها ، غنى يشبه ما نجده فى أى قطرة من قطرات مياه البرك فى يومنا هذا . وكانت فى المحيطات كثرة من الكائنات الدقيقة : شبه الشفافة Translucent[2] والتى كثيرا ما كانت متألقة (فوسفورية الوميض Phosphorescent) ، على أن الأرض فيما يعلو المد العالى كانت ما تزال على ما نظن قفرا حجرياً لا أثر فيه للحياة .

(١) Anfusoria .

(٢) Translucent

الفصل الثالث

الحيـــاة والمنـاخ

١ — الحياة والماء . النباتات المائية .
٢ — أقدم الحيوانات البرية .
٣ — لماذا يجب أن تتغير الحياة على الدوام .

---

١ – الحياة والمـاء

وجدت الحياة حيثما امتد سيف البحر ، وسارت تلك الحياة فى المـاء ومع الماء وعلى الماء وبجوار الماء ، وكان الماء موطنها ومثواها ووسطها الذى نعيش فيه ، وكانت بها إليه حاجة عظمى جوهرية .

ولا بد أن تكون بدايات الحياة الشبيهة بالهلام تهلك كلما خرجت من الماء كما يجف السمك الهلامى ويهلك على شطوط بحارنا فى وقتنا هذا ، وكان هذا الجفاف أشد الأشياء فتكا بالحياة فى تلك الأيام . ولم يكن لنسيجها بادئ الأمر ما يقيها شره . ولـكن فى ذلك العالم المـكون من البرك وشآبيب المطر والبحار الضحلة والأمداد[1] ، كان أى تبدل يمكن الـكائن الحى من أن يصمد ويحتفظ برطوبته أثناء ساعات الجزر أو الجفاف يقابل بالتشجيع من جميع ظروف ذلك الزمان . ولا بد أن خطر التخلف على الشاطىء كان محدقا بالـكائنات الحية على الدوام على حين بينما اضطرت الحياة من الناحية الأخرى أن تلتزم القرب من الشواطىء والسواحل والمضاحل ، لاحتياجها إلى الهواء (المذاب بالطبع فى الماء) وإلى الضوء .

فلا يستطيع مخلوق أن يتنفس ، ولا يستطيع مخلوق أن يهضم طعامه بغير المـاء . ونحن نتكلم عن تنفس الهواء ، على حين أن ما تفعله كل الـكائنات الحية هو أن تستنشق الأوكسجين مذاباً فى الماء . فالهواء الذى نستنشقه نحن أنفسنا يجب أن يذاب بادئ بدء فى رطوبة رئاتنا . ويجب أن يحول طعامنا إلى سائل قبل أن يمكن تمثله . فأما الحيوانات المائية التى تعيش تحت أطباق الماء على الدوام فإنها تحرك خياشيمها المعرضة للماء تمام التعريض والتى بها تتنفس ، ثم تستخلص الماء الهواء المذاب فيه . ولـكن المخلوق الذى يتعرض أية مدة من الزمان خارج الماء يجب أن يكون له فى جسمه وجهازه التنفسى ما يقيه شر الجفاف . فقبل أن تستطيع أعشاب البحر أن تنسحب

---

(١) جمع مد .

من البحار (الباليوزوية الأولى) إلى خط الشاطىء المعرض للمد والجزر ، تحتم عليها أن تكوّن لنفسها جلدا خارجيا أصلب وأخشب مما لهـا يحفظ عليها رطوبتها . وقبل أن يستطيع سلف العقرب المائية أن يعيش إذا تخلف عن المد ، تحتم عليه أن يكوّن لنفسه غلافا ودرعا لوقايته . والراجح أن التريلوبيت كونت غطاءها الخشن ، وتكورت كوراً ، ولم يكن هذا بقصد وقاية أحدها من الآخر أو من أعدائها ، إذ أن حمايتها من الجفاف أهم وأعظم . وعندما تظهر لنـا الأسماك ، وهى أول الحيوانات الفقرية قاطبة — بمجرد انحدارنا من الصخور (الباليوزوية) يتجلى لنا أن عددا منها قد تكيف بحيث أصبح قادرا على أن يواجه خطر الجنوح (الشحوط) أوالتخلف المؤقت ، وذلك بوقايته خياشيمه بالأغطية . والآن أخذت الأعشاب والنباتات التى كانت تكيف نفسها لظروف يتعاور عليها المد والجزر ، تنقل نفسها إلى منطقة أسطع ضياءً . والضوء شيء ضرورى وثمين جـدا لدى كل النباتات . فـكل تطور فى تركيبها من شأنه أن يجعلها صلبة وينهض بها فى وجه الضوء حتى تستطيع أن تقف منبسطة ممتدة الأطراف بدلاً من أن تنقبض وتنكمش عندما ينحسر الماء عنها — يكون ميزة عظيمة لها ، وهكذا نجدها تتطور منتجة الألياف Fibres والدعامة التى تعتمد عليها وبداية (الألياف الخشبية) . وكانت النباتات الأولى تتناسل بالأبواغ الطرية أو الأمشاج[١] النصف الحيوانية التى كانت تُطلق فى الماء ويتولى توزيعها الماء ، ولم يكن لها من مكان تنتقل فيه إلا تحت الماء . وكانت النباتات الأولى مرتبطة بالماء كما أن معظم النباتات الدنيا الآن مرتبطة بالماء بحكم ظروف دورة حياتها . وكانت ها هنا أيضا ميزة عظيمة فى هذه الحالة تترتب على انتاج الأبواغ لبعض وسائل الوقاية من الجفاف وتدرعها بهـا ، وهذا يساعد على حدوث التناسل دون الانغماس فى الماء . وما إن استطاع نوع من الأنواع أن يفعل ذلك حتى تهيأ له أن يعيش ويتناسل وينتشر فوق مستوى حد المياه العالى ، سابحا فى الضياء ، بعيدا عن منال لطمات الأمواج وصدماتها . وتدلنا الأقسام الرئيسية التى تميزت بها النباتات الـكبرى وتفصلت فصولا ، على المراحل التى تحررت بها الحياة النباتية من ضرورة الانغماس فى الماء بتطور السند الخشبى وظهور وسيلة للتناسل ، تزداد قوتها شيئاً فشيئاً على مقاومة الجفاف وتتحداه . ولا تزال النباتات الدنيا أسيرة الماء فلا بد للطحالب الدنيا moss من العيش فى الرطوبة ، بل إن تطور أنواع السرخس[٢] يحتاج فى أدوار بعينها من حياته إلى البلل الشديد . وقد وصلت النباتات العليا فى تحررها من الماء حدا يمكنها من البقاء

(١) Gametes : أمشاج (٢) Ferns : السرخس

والتناسل ولو لم يكن فى التربة التى دونها إلاّ قليل من الرطوبة . فكأنها بذلك قد حلت بصفة نهائية مشكلتها فى المعيشة خارج الماء .

وقد تمت جوهريات هذه المشكلة ومستلزماتها إبان آماد (العصر البروتوزوى) الماثلة وأيام العصر الباليوزوى الأولى ، على طريقة التجريب والمحاولة التى تتبعها الطبيعة . ثم شرعت أضرب من نباتات جديدة تخرج أفواجا فى بطء وكثرة عظيمة من البحر ومن على الأرض المنخفضة ، وإن استمرت ملازمة أثناء انتشارها البرك والمستنقعات ومسارب الماء .

وربما لم يكن هناك نفس الفرق الواضح الموجود الآن بين نباتات البحر ونباتات المياه العذبة ، إذ الراجح أن البحر كان أقل ملوحة مما هو الآن .

٢ — أول الحيوانات البرية

تلت الحياة الحيوانات حياة النباتات . فما من حيوان برى اليوم فى العالم وما من نبات برى إلا كان تركيبه فى مبدأ الأمر تركيب كائن يسكن الماء قد كيفته تعديلات الأنواع وتفريقها وفقا لدواعى الحياة خارج الماء . وقد تم هذا التكيف بطرائق مختلفة عديدة ، فأنت واجد فى حالة العقرب البرية أمشاط الخياشيم فى سلفها العقرب البحرية البدائية وقد غارت فى الجسم لكى تجعل الرئة فى حرز من التبخر السريع . فأما خياشيم ذوات الدرقة Crustaceans من أمثال أبى جلمبو التى تجرى متعرضة للهواء فإن لها ما يحميها من زوائد غطاء الخياشيم التى فى محار ظهرها أو درقتها . وقد نشأت فى أسلاف الحشرات أجهزة هى أكياس هوائية وأنابيب هوائية تسمى بالقصبات الهوائية : (Tracheal tubes) وهى التى تحمل الهواء إلى جميع أجزاء الجسم قبل أن يذاب . فأما فى الحيوانات الفقرية البرية فإن خياشيم أجدادها من السمك ، قد أضيف إليها أولا — ثم استبدل بها أخيرا — نمو صندوق من ناحية البلعوم ، هو مثانة السباحة الرئوية البدائية . وما زالت تعيش إلى يومنا هذا أسماك طينية بعينها ، تمكننا من أن نفهم جليا الطريقة التى استطاعت بها الحيوانات الفقرية البرية الخروج من الماء . وتوجد هذه المخلوقات (وأضرب لك مثلا السمك الأفريقى ذا الرئة) فى المناطق المدارية ، التى بها فصلان : فصل الأمطار الغزيرة وفصل الجفاف الذى تصبح فيه الأنهار أكثر شىء شبها ببرك من الطين المجفف . فى أثناء الفصل المطير تسبح تلك الأسماك وتستنشق الهواء بخياشيمها ، بفعل كل الأسماك الأخرى ، وعندما تأخذ مياه النهر فى التبخر تدفن الأسماك نفسها فى الطين ويبطل عمل خياشيمها ، ويستبقى المخلوق حياته حتى تعود المياه ، بابتلاع الهواء الذى يدخل إلى مثانةالسباحة فيه . وعندما يدرك جفاف الأنهار السمك الاسترالى ذا الرئة

فى البرك الآسنة ، وعندما تأجن المياه وتخلو من الهواء تراه يطفو إلى السطح ويلتقط الهواء . ويفعل برغوث الماء[١] فى البرك نفس هذا الفعل .

فهــذه المخلوقات لا تزال باقية فى مرحلة الانتقال ، وهى نفس المرحلة التى عندها تحررت أسلاف الحيوانات الفقرية العليا من حالة اقتصارها على العيش تحت الماء .

ولا تزال أنواع البرمائيات[٢] من ضفادع وسمنــدر المـاء والتريتون أى غول المـاء ... الخ تظهر فى تاريخ حياتها مراحل عملية التحرر هــذه . وهى لا تزال تعتمد على الماء فى تناسلها . ولا بد لها من وضع بيضها فى مياه ينالها نور الشمس — وفى الماء يجب أن يكون موضع تطورها . فإن لأبى ذنيبة الصغير[٣] خياشيم خارجية متفرعة تتموج فى الماء ، ثم ينمو عليها غشاء للخياشيم مكوناً غلاف الخياشيم . ثم يبــدأ فى استعمال رئتيه وتذوى خياشيمه وتختفى ، على حين تبدو أرجله ويندمج فيه ذيله . ويستطيع أبو ذنيبة أن يعيش تحت الماء على الدوام كما تستطيع الضفدعة البالغة أن تقضى سائر أيامهــا فى الهواء ، غير أنها تتعرض للموت غرقا إذا بقيت تحت الماء باستمرار . وفإذا صعدنا درجات الوجود إلى مستوى الزواحف وجدنا « البيضــة » وهى التى يحميها من التبخر قيضها الصلب . وتنتج هذه البيضة صغارا تتنفس برئتيها من أول لحظة تلى نقفها . فـكأن الزواحف تسابق النباتات ذات البذور فى تحررها من ضرورة قضاء أية مرحلة من مراحل دورة حياتها فى الماء ، ولـكنها ربما غرقت إذا بقيت فى الماء دون أن تخرج إلى الهواء .

وتعطينا صخور العصر الباليوزوى المتأخر فى نصف الـكرة الشمالى المواد اللازمة لسلسلة من الصور لهذا الانتشار البطىء للحياة فى البر . وقد كان هذا العصر من الوجهة الجغرافية عصر مناقع وبحار ضحلة أشد ما تكون ملاءمة لهذا الغزو . ويجوز أنه لم يكن هناك بعد بحار كمحيطات هذا الزمان فى عمقها . وبعد أن استحوذت النباتات الجديدة على القدرة على أن تحيا الحياة الهوائية الجديدة تطورت تطورا ممتازا فى كثرته وتنوعه . ولم تكن هناك بعدُ نباتات ذات زهور بالمعنى الحق ، ولا أعشاب ولا أشجار « نافضة » : تنفض عنهــا أوراقها فى الشتاء — بل كانت النباتات الأولى مكونة من سراخس شجرية عظيمة وأنواع من ذنب الحصان[٤] هائلة — أو حزازيات Cycads ضخمة وما قاربها من النباتات .

---

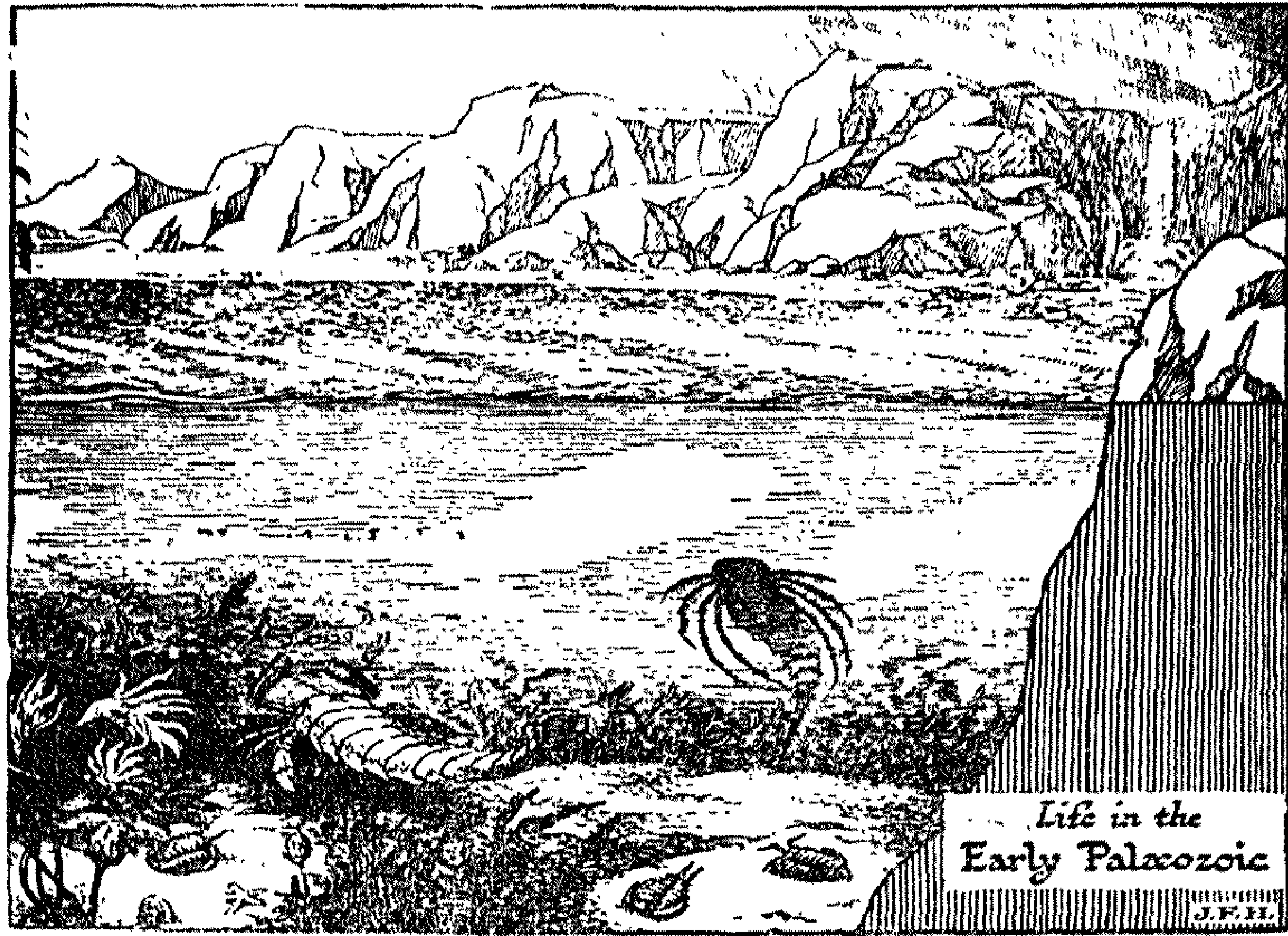
(١) newt : برغوث الماء : سمندر الماء   (٢) Amphibia : برمائيات : قوازب

(٣) Tadpole : أبو ذنيبة   (٤) Equisetums :

وقد اتخذ الكثير من هذه النباتات صورة الأشجار الضخمة الساق التى بقى عدد وافر من جذوعها فى صورة حفريات إلى يومنا هذا . وكان بعض هذه الأشجار يربو على مئة قدم طولا ، وكانت تنتسب لفصائل وعائلات اختفت من العالم الآن — وكانت تقف بسيقانها فى الماء ، ولا شك أن قد كان فى هذا الماء خليط غليظ من الطحالب الطردية والكمأ الأخضر[1] والفطريات Fungoid growths التى قل أن تركت خلفها آثارا واضحة . والبقايا الكثيرة المعجونة بعضها فى بعض لهذه الغابات المتكونة فى المستنقعات تكوّن فى الوقت الحاضر أعظم وأهم مناطق حقول الفحم الحجرى فى العالم .

وكانت الحشرات الأولى تزحف وتنزلق وتطير بين ظهرانى هذا النبات البدائى الفاخر الكثيف . كانت مخلوقات صلبة الأجنحة وذات أربعة أجنحة ، غالباً ما كانت كبيرة ، إذ كانت أجنحة بعضها تبلغ القدم طولا . وكانت هناك رعّاشات عديدة Dragon flies بلغ امتداد أجنحة واحدة منها ، وجدت فى حقول الفحم البلچيكية — ٢٩ بوصة . كما كانت ثمّ كذلك أضرب عظيمة من الصراصير الطيارة ، وكثرة من العقارب وعدد من العناكب الأولى ، وكانت أعضاء الغزل فيها معدومة أو بسيطة ، حتى إنها لم تكن تنسج بيتها البتة ، أو كانت تنسج بيتاً غاية فى البساطة . وظهرت قواقع البر (الحلزون) كما ظهرت أيضا أول درجة معروفة من درجات أجدادنا على الأرض ، وهى الأمفيبيا (البرمائى) . وبينما نحن فى صعودنا المستويات العليا للسجل المتأخر للعصر الباليوزوى نجد عملية التكيف الهوائى قد تقدمت حتى بلغت مرتبة ظهور الزواحف الحقة بين أنواع البرمائيات الكثيرة المتعددة . وكانت الحياة البرية فى العصر الباليوزوى الأعلى حياة غابات دائمة الخضرة تنمو فى المستنقعات خلواً من الزهور والطيور وطنين الحشرات العصرية . فلو أمكن حمل إنسان إلى تلك المناقع النضرة ، فالراجح أن يفزعه سكونها ، فهو لا يسمع هناك غير خرير الماء ، أو حفيف الريح بأوراق الشجر ، أو دوى شجرة تهوى إلى الأرض . وكأنما كل شىء فى حالة توقع وانتظار ، وتبدو الأشجار والنباتات أشبه بطحالب مضخمة منها بأية شجرة يعرفها — ولم يكن هناك أى ضوار برية قط . فكانت البرمائيات (الأمفيبيا) المتمرغة فى الوحل والزواحف البدائية أعلى المخلوقات التى أنتجتها الحياة حتى ذلك الحين . ولم تكن أية واحدة منها قد وصلت بعد إلى حجم عظيم جداً ، وأية أرض بعيدة عن الماء أو أعلى من مستوى الماء كانت ما تزال قاحلة تماما وخالية من الحياة . ولكن الحياة تدأب على الخروج جيلا بعد جيل زاحفة من مياه البحر الضحلة التى اكتنفتها منذ بدايتها .

(١) Gneen Slime : الكمأ الأخضر : المخاطى الأخضر .



(١ — ١) الحياة فى الحقب الباليوزوى المبكر ، يلاحظ مشابهتها العامة ، مع تفاوت الأحجام ، للأحياء الميكرسكوبيه فى البرك صيفا

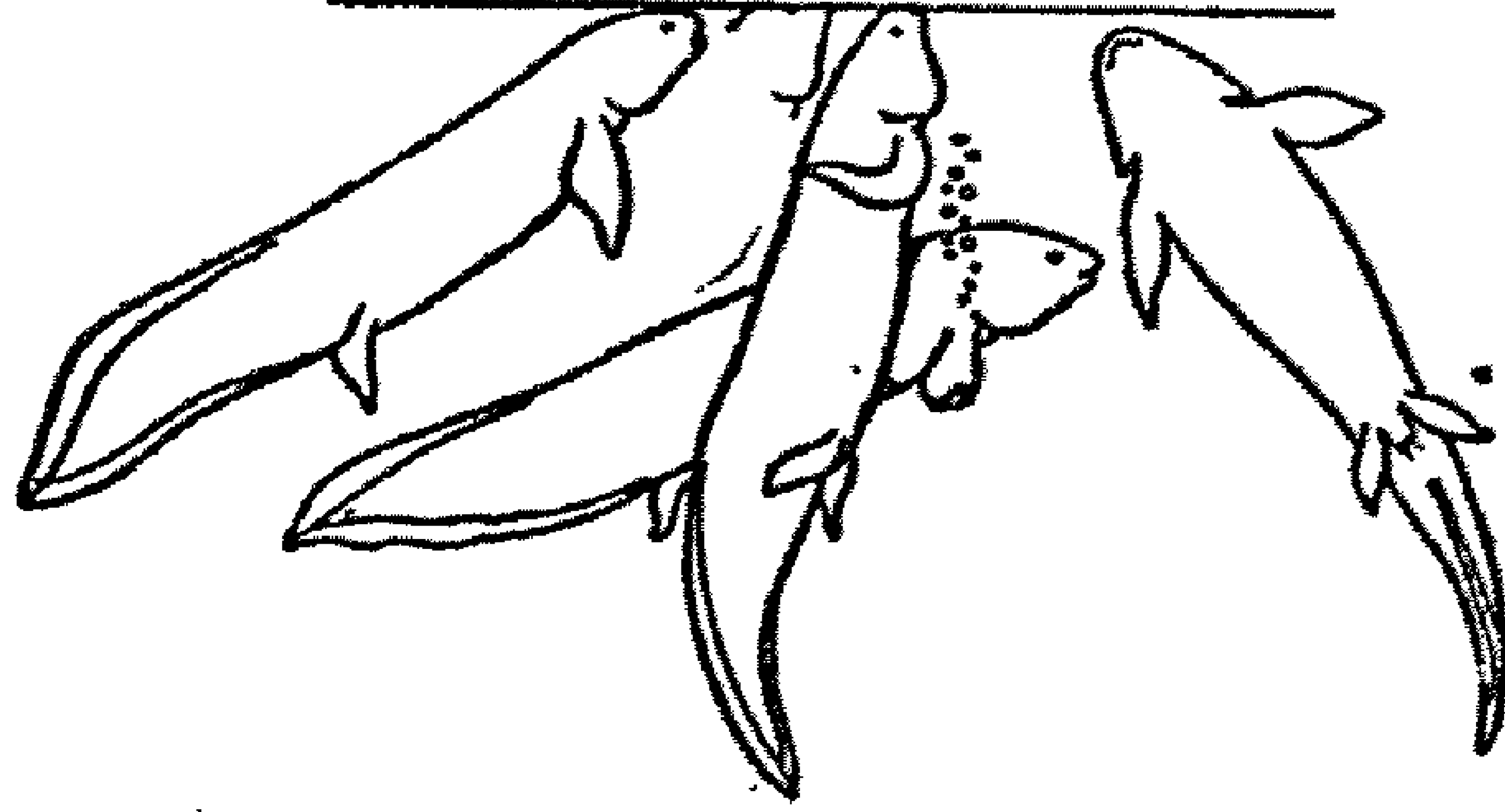
صخور جرداء ، عديمة الحياة فلا طحلب ولا لاشين

ريم أخضر بمستوى المد والجزر

لا توجد فقريات



(١) صورة تخيلية للحياة الباليوزوية المبكرة . وهى شبيهة بالحياة الميكرسكوبية بمياه البرك



(٢) السمك الرئوى الأسترالى يتنفس الهواء الجوى



جو بخارى

أشجار سرخسية وطحالب مهوسة وأشجار شبه صنوبرية

لا توجد نباتات زهرية

(٣) الحياة فى الحقب الباليوزوى المتأخر

إحدى غابات المستنقعات فى العصر الكربونى ، وترى فيها الحياة زاحفة من الماء . وتظهر فيها حشرة كالرعاش ، وكان بهذه المستنقعات برمائيات مثل السمندل الهائل والسمندر بل حتى زواحف بدائية

٣ — لماذا يجب أن تتغير الحياة على الدوام

يشبه سجل الصخور كتابا عظيما عبثت به يد العابثين فى غير ما حرص أو عناية. فكل صفحاته ممزقة بالية ممحوة المعالم، والكثير منها مفقود فقداناً تاما. فأما معالم القصة التى نرسمها لك رسما إجماليا فقد جمعت جزءاً لجزءاً بغاية البطء المضنى، فى بحث لا يزال أبتر ولا يزال مطردا. وتعطينا الصخور الكربونية Carboniferous أو (حقول الفحم) منظراً يمثل أول امتداد عظيم للحياة فوق الوهاد البليلة، ثم يتلوها صفحات للصخور البرمية Permian ممزقة (هى آخر الصفحات فى العصر الباليوزوى) وهى تحفظ القليل من معالم الأرض فى عصرها. ولم يبدأ التاريخ فى الظهور ثانية بشكل سمح كريم إلا بعد فترة طويلة من الزمان. فالصخور البرمية تسجل عصرا من عصور الخشونة والدمار فى تاريخ العالم. فهى علامة عصر الانتقال من العصر الباليوزوى عصر السمك والبرمائيات إلى العصر الميزوزوى الذى فيه الزواحف. ويجب ألا يغرب عن البال أن تغيرات عظيمة فى المناخ كانت تحدث على الدوام، وكانت فى بعض أحيانها تبعث الحياة وتنشطها، وفى بعض أحيانها الأخرى تعوقها وتعترض سبيلها. فكل نوع من أنواع الكائنات الحية لا ينى عن تكييف نفسه تكييفاً لا يزال يزداد فى دقته اقتراباً من ظروفه التى تتغير على الدوام. فليس للتكيف نهاية. بل هناك على الدوام حاجة ماسة تتجه إلى التغير.

وإنا لنجد مع ذلك مخلوقات بعينها من ذوات التركيب الدنئ قد كيفت نفسها منذ القدم وفقا للظروف البسيطة الشائعة حولها، تكييفا بلغ منتهاه حتى لم يدخل عليها بعد ذلك أى تعديل عظيم، ولم تتعرض للاندثار أو لاستبدال غيرها بها. فهناك مثلا سمكة محارية صغيرة تدعى اللينجولا lingula، مهيأة لحياة غامضة راكدة فى البحار الدفيئة. فهذا الجنس قد لبث دون أى تغير ظاهر مدى كل السجل الجيولوجى بأكمله.

ويرينا الجيولوجيون من الناحية الأخرى مجموعات من الحفريات يمكن الإنسان أن يتتبع فيها تعديلات فى مدى لا يزيد على ألف سنة، حدثت مع تغير المناخ ونوع الطعام والأعداء.

ولا بد لنا من أن نورد لك هاهنا بعض إيضاحات لهذه التغيرات المناخية التى لا تزال تحدث على سطح الأرض، فهى ليست تغيرات دورية، بل تقلبات بطيئة من الحر والبرد. إذ ينبغى للقارئ ألا يظن أن تاريخ العالم المناخى إنما هو قصة برودة بسيطة بناء على ما يعلمه من أن الشمس والأرض كانتا يوما ما كتلة مستعرة من نار، فإن باطن الأرض لا يزال،

ولا شك ، حاراً جداً حتى يومنا هذا ، بيد أننا لا نشعر على السطح بأى شيء من تلك الحرارة الباطنية ، فإن الحرارة الباطنية لم يعد يدركها أحد على سطح الأرض منذ أن تجمدت الصخور أول مرة ، وذلك فيما عدا ما نعرفه عن البراكين والينابيع . وإنك لتجد حتى فى العصر الآزوى أو الاركيوزوى آثاراً فى الصخور التى غطاها الجليد وأبلاها ، فى أشياء أخرى : وهى تدل على فترات من البرد الشديد . وكانت أمثال هذه الموجات الباردة دائمة الحدوث فى كل مكان متماورة هى وظروف أميل إلى الدفء . ومرت بالأرض فى كل نواحيها آماد ممطرة عظيمة ، وآماد جفاف عظيمة . وهى كلها تعود إلى تقلبات فلكية وأرضية تمتاز بشدة اضطرابها ، فلسنا بمتعرضين لها هاهنا .

ووفاقاً لهذا نعرف من السجل الصخرى أن قد جاءت آماد طويلة أصابت فيها الحياة الانتشار والتكاثر ، يوم تدفقت وتزايدت وتغيرت ، كما مرت عصور خشنة مهلكة صحبها إبادة عظيمة وفناء للأنواع Species والأجناس Genera والفصائل Classes كما صحبها أن تعلم كل من بقى من الكائنات حياً دروساً قاسيات .

والراجح أن الفترات الدفيئة كانت بالنسبة إلى العصور الباردة أطول أمداً . والظاهر أن عالمنا الحالى يخرج الآن من عصر مديد من المحن والظروف المتطرفة داخلته بعض التقلبات . وربما أصبح بعد نصف مليون من السنين عالماً لاشتاء له زاخراً بالأشجار والنبات حتى فى الأصقاع القطبية . ولسنا فى الوقت الحاضر على يقين من صدق هذه النبوءة ، ولكن يحتمل أن يصبح فى إمكان الجنس البشرى مع زيادة المعرفة لديه ، أن يرسم خططه لآلاف من السنين مقبلة ويلاقى بها التغيرات القادمة .

الفصل الرابع

عصر الزواحف

١ — عصر الحياة فى الوهاد .
٢ — التنين (الأفعوانات) .
٣ — الطيور الأولى .
٤ — عصر محنة وفناء .
٥ — أول ظهور الفراء والريش .

---

١ — عصر الحيـاة فى الوهاد

نعلم أن البلولة والدفء وظروف المناقع الضحلة التى مهدت السبيل لتراكم المواد النباتية تراكما عظيما ، والتى انضغطت وحفظت لنا تلك النباتات محنطة فأصبحت الآن فحما حجرياً ، نعلم أن هذه الظروف عمت معظم العالم مدى مئات الألوف من السنين . حقاً أن قد أتت على الأرض بعض فترات باردة ولـكن أمدها لم يستمر زمناً طويلا يمكنها من إبادة النباتات . ثم حانت نهاية ذلك العصر الطويل ذو النباتات النـاضرة المنحطة الدرجة ، ويلوح أن قد انقضى زمن مرت فيه الحياة على الأرض فى فترة جدب وإمحال عم العالم كله . وإذا أطلقنا القول على عواهنه سمينا هذا باسم الجزء الأول من تاريخ هذا الـكوكب .

وعندما تستأنف القصة سيرتها الأولى فى آخر العصر الباليوزوى بعد فترة الاحتباس هذه ، نجد الحياة مقدمة على عصر جديد زاخر بالثراء والانتشار والسمة . وقد تقدم النبات تقدماً عظيماً فى إدراكه فن الحياة خارج الماء . هذا وبينما كانت النباتات الباليوزوية التى فى حقول الفحم تنمو وماء المستنقعات يترقرق فوق جذورها ، كان نبات العصر الميزوزوى يحتوى منـذ مستهل بدايته على أشجار (حزازية) تشبه النخيل وأشجار (صنوبرية) تنمو فى الأرض الوطيئة . كانت كلها نباتات أرضية لا شك فيهـا تنمو فى تربة أعلى من مستوى الماء . ولا شك أن المستويات الدنيا للأراضى الميزوزوية كانت مغطاة بغياض السرخس العظيمة وبالشجيرات الملتفة ونوع من جماعات الأشجار المستأجمة . ولـكن لم يكن هناك بعدُ أى أعشاب ، ولا أى نجيل أرضى turf ، أو كلأ (السيف الأخضر) ولا أية

نباتات ذات أزهار قط كبرت أو صغرت . والراجح أن العصر الميزوزوى لم يكن عصر نباتات جد زاهية الألوان، ولا بد أن كانت فيه نبـاتات خضراء فى فصل المطر ودكناء وأرجوانية فى فصل الجفاف ، ولعلها لم تكن تقارب فى جمالها جمال الغابات والأحراش الحالية : فلم تكن هناك زهور باسمة ، ولا ألوان زاهية فى الخريف قبل سقوط الأوراق ، إذ لم يكن هناك بعدُ سقوط للأوراق .

فأما ما يعلو المستويات الدنيا فـكان لا يزال مجدباً ، ولا يزال عاريا ، ولا يزال معرضاً لما يقوم به الريح والمطر من تعريةٍ وتحاتٍ دون أى عامل من عوامل التلطيف .

وينبغى للقارىء عندما يسمعنا نتكلم عن الصنوبريات والحزازيات فى العصر الميزوزوى أن لا يُصور فى ذهنه أشـجار الصنوبر والشربين firs التى تكسو حدور الجبال العالية فى عصرنا هذا — بل يجدر به أن يفـكر فى الأشجار الدائمة الخضرة التى تنمو فى الوهاد . إذ كانت الجبال ماتزال جرداء مواتاً لاحياة فيها .

وكان اللون الوحيد فى الجبال هو لون الصخور الجرداء المماثل للألوان التى تجعل المناظر البرية بمنطقة الـكولورادو المصرية فاتنة خلابة .

وبين هذا النبات المنتشر قدماً فى السهول الدنيا كانت الزواحف تزداد ازدياداً عظيماً فى العدد والأضرب . وقد أصبحت عند ذاك حيوانات أرضية تماماً فى كثير من الحالات . وهناك الآن وجوه فروق تشريحية كثيرة تميز الزاحف عن البرمائى . وكانت هذه الفوارق تنطبق وتصدق بين تلك الزواحف والبرمائيات التى عمت فى الزمن الـكربونى للعصر الباليوزوى العلوى ، بيد أن الفارق الأساسى الذى يفرق بين الزواحف والبرمائيات والذى يهمنا فى هذا السفر التاريخى ، هو أن البرمائى يجب أن يعود إلى الماء ليبيض فيه ؛ وأنه فى مراحل حياته الأولى يجب أن يعيش فى الماء وتحت أطباق الماء ، بينما الزاحفة من الناحية الأخرى ألغت كل مراحـل أبى ذنيبة من دورة حياتها أو بمعنى أدق فإن مرحلة أبى ذنيبة تنتهى قبـل أن يغادر الصغار قشر البيضة . وقد خرجت الزواحف من البحر نهائياً وعاد بعضها إليـه ثانية كما عاد فرس البحر وكلب البحر Otter من بين الثدييات . على أن هذا استطراد آخر للقصة — أو قل إنه تفصيل وتعقيد لها لسنا بقادرين على أن نوليه عنايةً كبيرةً فى (موجزنا) هذا .

وكما قلنـا ، لم تنتشر الحياة فى العصر الباليوزوى إلى أكثر من وديان الأنهار ذات

المناقع وحافات المستنقعات البحرية Lagoons وما إليها . فأما فى العصر الميزوزوى فإن الحياة كانت ما تزال آخذة بأسباب الاعتياد على الهواء — وهو الوسط الأكثر خفة — وكانت تجر أذيالها فى إقدام إلى أعلى السهول وإلى سفوح التلال والآكام . وجدير بطالب تاريخ الإنسانية ومستقبل الجنس البشرى أن يعى ذلك ويتذكره . فلو أن شعلة من الذكاء لا يحملها جسد ، ولا معرفة لها بالمستقبل هبطت إلى الأرض ودرست الحياة إبان العصر الباليوزوى المبكر ، لاستنتجت استنتاجاً منطقياً سليما أن الحياة محصورة فى الماء حصراً تاماً ، وأنه لا أمل أمامها فى الانتشار على الأرض ، ولكنها مع ذلك وجدت لنفسها إلى الأرض منفذاً . وربما استمرت تلك الشعلة الزائرة على يقينها أيام المدة الباليوزوية المتأخرة : فزعمت أن الحياة لم تكن بمستطيعة أن تخطو إلى أبعد من حافة المستنقع . ويجدها (أى الشعلة) العصر الميزوزوى ما تزال ترسم حدوداً للحياة أضيق بكثير من الحدود التى ترسم الآن . وهكذا فإنه بالرغم من أننا نلحظ اليوم كيف أن الحياة والإنسان لا يزالان يحدهما ارتفاع قدره خمسة أميال من الهواء ، وعمق فى البحر ربما كان ميلا أو ما يقاربه ، فليس لنا أن نستنتج من هذا التحديد الحالى أن الحياة لن تنتشر فوراً عن طريق الإنسان إلى الخارج وإلى أعلى وأسفل حتى تبلغ بالعيش مدى لا يستطيع أحد اليوم تصوره .

وأقدم ما عرف من الزواحف كان حيوانات ذات كروش عظيمة وأرجل ليست بالقوية جداً ، فهى وثيقة الشبه بذوى قرباها من البرمائيات . وهى تتمرغ كما يتمرغ التمساح إلى يومنا هذا . ولكن سرعان ما شرعت فى العصر الميزوزوى فى الوقوف والمسير بقوة على أرجلها الأربع ، وأخذ العدد الجم من أقسامها العظيمة يقيم توازنه معتمداً على ذيله وأرجله الخلفية على طريقة تقارب ما يأتيه (الكانجارو) فى هذا الزمان وذلك لكى تتفرغ الأطراف الأمامية لإمساك الطعام . فإن عظام أحد أقسام الزواحف الشهيرة وهى مما كانت لها عادات ذوات الأربع ، ومما بقيت لقسم منه بقايا جمة فى رواسب العصر الميزوزوى المبكر فى أفريقيا الجنوبية والروسيا — تُظهر من الخصائص المميزة ما يقترب بها من خصائص هيا كل الثدييات ، ويسمى هذا القسم باسم (ثريو مورفا) أى الشبيهة بالوحوش بسبب مشابهته هذه للثدييات (أى الوحوش) . وكان نوع التمساح قسما آخر منها ، بينما تطور فرع آخر متجها إلى سلاحف البر والبحر (الترسة[1] اللجأة) .

فأما البليزوزور The Plesiosaurs — والايختوسور Ichthyosaurs — فإنهما

---

(١) Turtles

مجموعتان لم تتركا ما يمثلهما فى الحيوانات التى تعيش الآن وكان زاحفين هائلين عادا إلى البحر وعاشا فيه عيش الحيتان ، وقد بلغ طول واحد من أكبر أفراد البليزوزور ثلاثين قدماً من طرف الأنف snout إلى نهاية الذيل — وكان نصف هذا الطول فى رقبته . وكان الموزاسور Mosasaurs مجموعة ثالثة من السحالى البحرية الكبيرة الشبيهة بخنزير البحر Porpoise . ولكن كانت أكبر المجموعات وأكثرها تنوعا بين هذه الزواحف فى العصر الميزوزوى مجموعة مختلفة تسمى بالدينوصور Dinosaurs وصل الكثير منها إلى ضخامة هائلة جداً ولم يبلغ أى حيوان من العظم ما بلغته هذه الدناصير العظمى وإن كان البحر لا يزال يستطيع أن يرينا من أصناف الحيتان مخلوقات تضارعه عظماً . وكان بعض هذه — وهى أعظمها — حيوانات من العاشبات[1] ، وكانت ترعى على نبات السمار والحلفاء راتعة بين أشجار السرخس والشجيرات ، أو أنها كانت تقف وتمسك بالأشجار برجليها الأماميتين وهى تلتهم أوراقها التهاما . وكان بين هؤلاء مثلا الديبلودوكس كارنيجى Diplodocus Carnegii وكان طوله أربعاً وثمانين قدماً . على أن الجيجانتيزور Gigantosaurus الذى اكتشفته بعثة ألمانية سنة ١٩١٢ بين صخور أفريقيا الشرقية أضخم بكثير إذ بلغ طوله مايربو على المئة قدم . ولا تزال تظهر عظام أضخم من هذه .

وكان لهذه الوحوش العظيمة الضخمة أرجل ، وهى تصور فى العادة واقفة على أرجلها تلك ، غير أنه من المشكوك فيه جداً أن يكون فى مقدورها حمل كتلة جسمها على أرجلها خارج الماء . وعظامها تنتهى بغضاريف ، ولذا فليست مفاصلها كبيرة القوة . فما دامت هذه الوحوش المهولة طافية فى الماء أو الطين كان فى إمكانها مواصلة حياتها على أحسن وجه . فقد كان الدينوصور العادى الكبير يجعل نصفه الأسفل الضخم وأطرافه السفلى الجسيمة تحت الماء على الدوام تقريباً ، أو طافية فيه على الدوام تقريباً ، فأما رقبته ورأسه وطرفاه العلويان ، فكانا أخف كثيراً فى تركيبهما — ولذا فالراجح أن هذه كانت مرفوعة عن الماء .

والتيرانوصور[2] هو أحد أصناف الدينوصور الجديرة بالذكر . وهو بين الزواحف نظير لفرس البحر ولكن له قرناً يشبه قرن الكركدن .

وكان هناك أيضاً عدد من اللحمات (آكلات اللحم) يفترس هذهالعاشبات (آكلات العشب) — والظاهر أن التيرانوصور من بين هؤلاء جميعاً بلغ أقصى ماوصلت إليه « البشاعة » بين الكائنات الحية قاطبة . وكانت بعض أنواع هذا الجنس تبلغ أربعين قدماً من

(١) Herbivorous : العاشبات

(٢) Tyrannosaurus : تيرانوصور

أنفها إلى نهاية ذيلها . وظاهر أنها كانت تحمل جسمها الهائل مُقعية على منوال «الـكانجارو»: أى على ذيلها وأرجلها الخلفية . ولعلها كانت تشب بأجسامها إلى أعلى — بل أن بعض الثقات يعتقد أنها كانت تقفز فى الهواء . فإن كانت الحال كذلك فلا بد أن كانت ذات طراز عجيب حتى ليكاد حديث الفيل الطيار تكون أقل من هذا استثارة للدهش والعجب . والأرجح من هذا بكثير أنها كانت تخوض وهى نصف مغمورة بالماء خلف حيوان « الصوريان Saurians » العاشب الذى يعيش فى المستنقعات . وربما كانت تقضى على فرائسها فى مضايق ومنبسطات من المـاء تشبه متسعات (نورفولك) أو الإفرجليدز Everglades بفلوريدا .

٢ — التنين (الأفعوانات)

كان من بين التطورات الخـاصة فى طراز الزواحف الدينوصورى ، طراز من مجموعة مخلوقات خفيفة ، طامرة متسلقة ، طورت بين الأصبع الرابع وجانب البدن غشاء يشبه غشاء الخفاش ، كان يستعمل فى الانزلاق من شجرة إلى أخرى على نفس المنوال الذى يتبعه السنجاب الطيار . كانت هذه السحالى الخفاشية هى البتيرودا كتايل Pterodactyls وهى غالباً ما توصف بأنها زواحف (طيّـارة) . وكثيراً ما رسم العلماء صوراً لبعض مناظر العصر الميزوزوى حاوية لها وهى محلقة حائمة منقضة فى طيرانها ، ولـكن ليس لعظام صدرها (هراب أى حيزوم — Keel) كالذى لعظام صدر الطير لتتصل به عضلات تبلغ من القوة حداً يؤهلها لتحمل الطيران طويلا . ولا بد أنها كانت تمرق مروق الخفاش . ولا جرم أن قد كان بينها وبين الأفعوان التقليدى شبه مضحك . وأنها كانت تلعب دور الطيور الشبيهة بالوطواط فى آجام العصر الميزوزوى . وهى وإن كانت شبيهة بالطيور فلم تـكن طيوراً ولا أسـلافاً للطيور : إذ كان تركيب أجنحتها مخالفاً تمـام المخالفـة لتركيب أجنحة الطيور ، ولم يزد على كونه يداً ذات أصبع طويل يصحبها غشاء ؛ على حين كان جناح الطـائر شبيها بذراع ينمو الريش على حافته الخلفية ، ولم يكن لهذه التيرودا كتيل أى ريش حسبما وصل إلى علمنا حتى الآن . فالريش إنما هو تركيب فى الجلد ، مخصص جد التخصص ، تطور إلى شكله الحالى مرة واحدة فى تاريخ التطور الذى عانته الحياة .

٣ — الطيور الأولى

وهناك مخلوقات أخرى شبيهة بالطير حقا ، كانت أقل ذيوعاً بكثير فى ذلك الزمان — وكانت الأجناس الأولى منها تطمر أيضا وتتسلق — والأجناس المتأخرة تسف قرب الأرض وتطير .

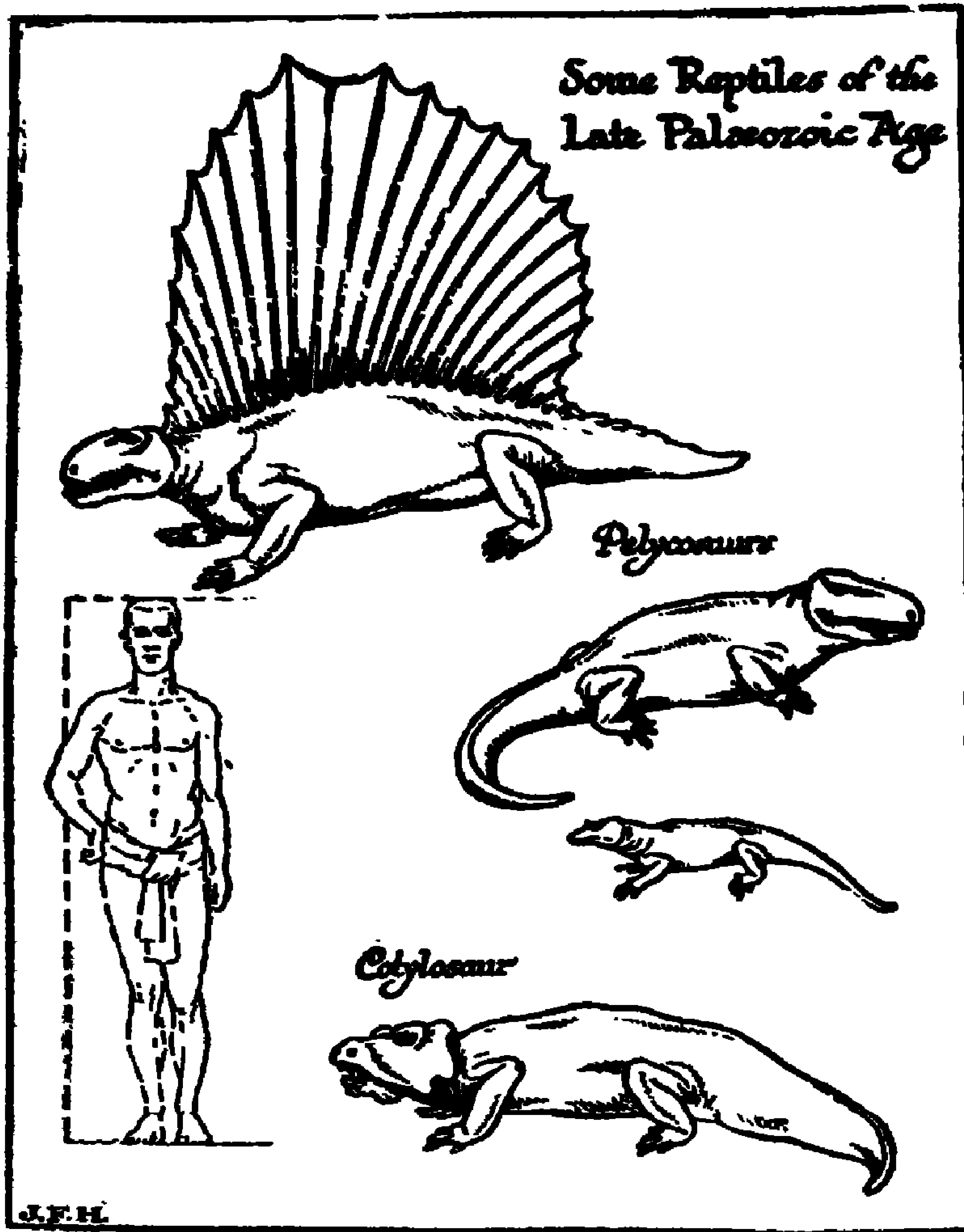
وكانت هذه الطيور فى مبدأ أمرها — كما أجمعت جميع ثقات المصنفات — زواحف تحولت إلى طيور حقيقية عندما أصبحت فلوسها (قشورها) وهى زواحف ، سعفاً كسعف النخل ، طويلا معقداً بدلا من أن تظل قشوراً ، وتم ذلك أخيراً بانتشار الريش انتشارا كبيرا وانقسامه . والريش هو الغلاف المميز الخاص بالطيور ، وهو يكسب الطير قوة على مقاومة الحر والبرد أعظم بكثير مما يكسبه إياها أى غلاف خارجى آخر ، اللهم إلا أثقل الفراء . ففى مرحلة مبكرة جدا مكن هذا الغطاء الريشى الجديد بل هـذه الحيلة الجديدة التى اتفقت للحياة بطريق الصـدفة أنواعاً كثيرة من الطير أن تغزو مجالا كانت التيرود اكتيل معدة له أسـوأ إعداد . فاتجهت الطيور إلى صيد البحر — إن لم تكن بالفعل قد بدأت به قبـل غيره — وانتشرت شمالا وجنوباً متجهة إلى القطبين متجاوزة حدود الحرارة المقامة للزواحف الحقيقية — ولا تزال توجد إلى يومنا هذا بين الطيور البحرية فى بحار المنطقة القطبية الشمالية والجنوبية ، طيور أشكالها هى أشد ما يكون الطير بدائياً فى صورته . ولا يزال علماء الحيوان يجدون فى مناقير هذه الطيور المائية دون غيرها آثارا باقية لأسنان زالت معالمها تمام الزوال من مناقير سائر الطيور .

ولم يكن لأقدم نوع معروف من الطير وهو الأركيوبتريك Archaeopteryx منقـار بل كان له صف من الأسنان فى فك يشبه فكاك الزواحف . وكان له ثلاثة براثن فى مقـدم طرف جناحه وكان ذيله أيضا غريب الشأن . فريش الذيل فى كل الطيور الحديثة مركب فى زُمك قصير متماسك عظمى .

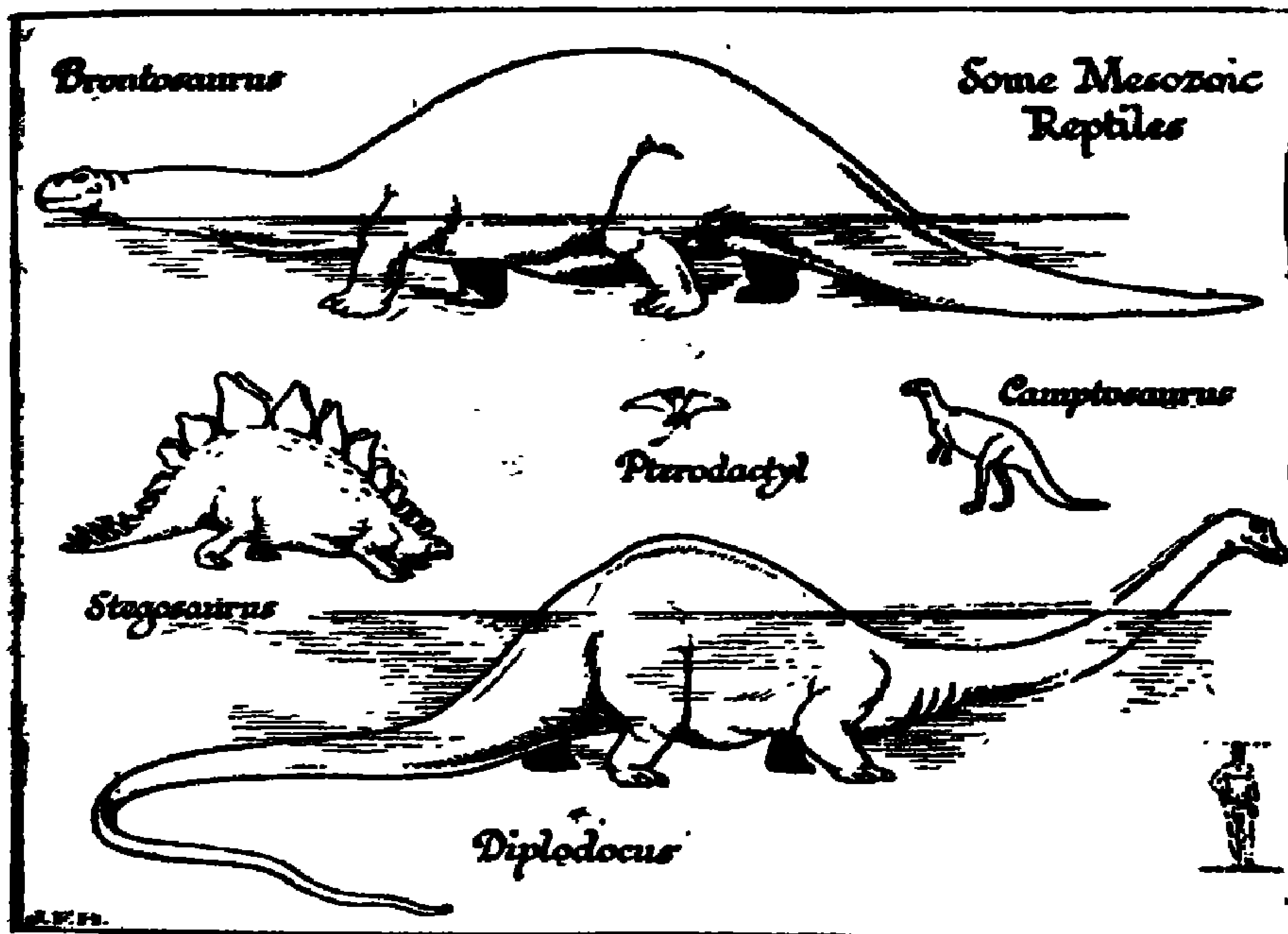
وللأركيوبتريك ذيل عظمى طويل له صف من الريش فى كلا جانبيه . ومحتمل جدا أن غالبية هذه الطيور الأولى لم تطر البتة ، وأنه كانت هناك طيور قبل أن يكون هناك طيران . فمثلا كان يوجد الهسبرورن Hesperornis أحـد الطيور الشديدة القدم ولم يكن له أجنحة البتة . ولـكن ما كاد الريش يتطور خفيفاً قوياً وسهلا فى الانتشار حتى صار ظهور الجناح أمراً متروكا للزمن فقط .

٤ — عصر محنة وفناء

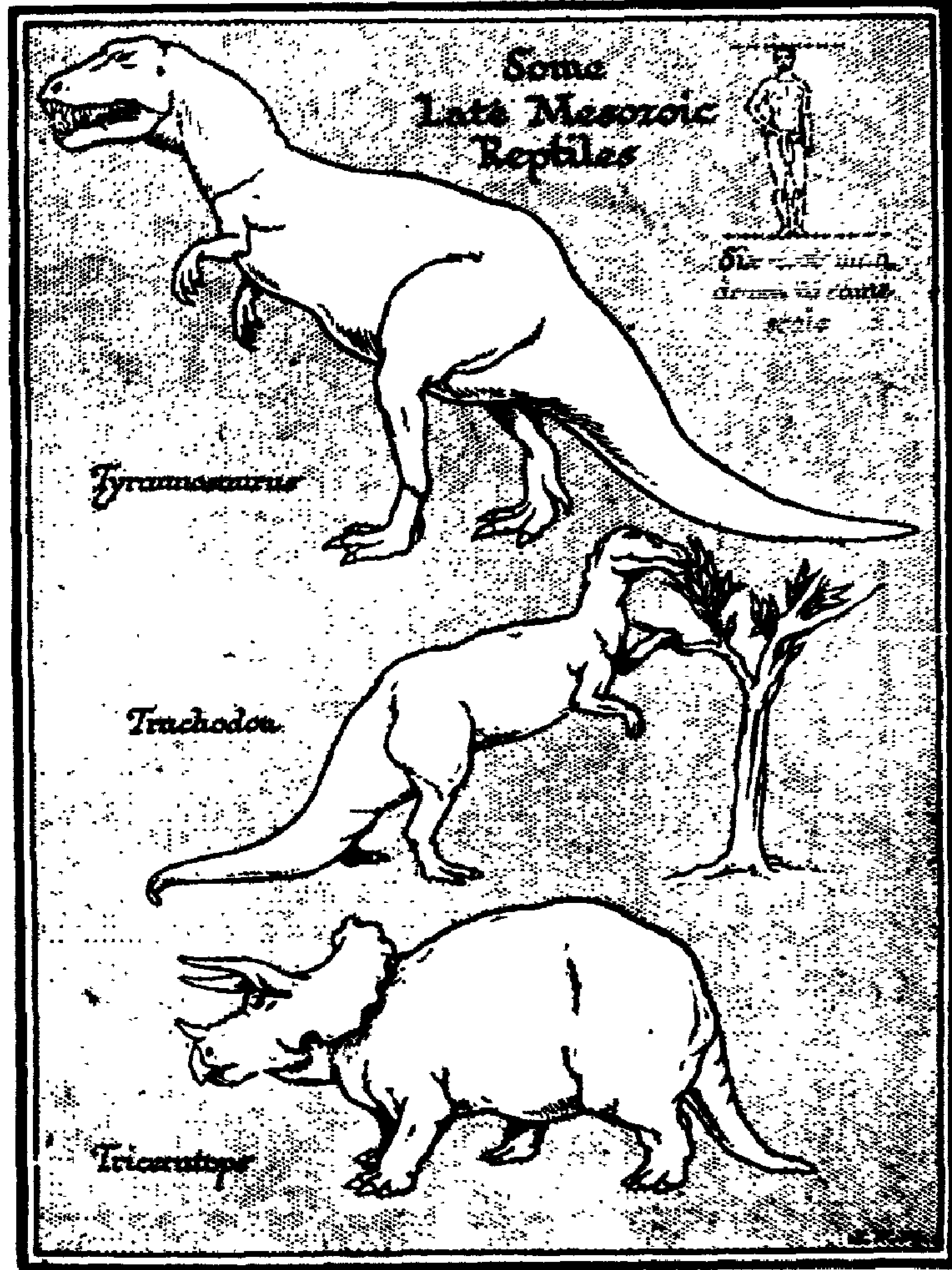
هذه الحقبة الطويلة ، حقبة الحياة الميزوزوية ، أى هذا السفر الثانى من كتاب الحياة ، إنما هى فى الواقع قصة عجيبة لحياة الزواحف مزدهرة مثمرة . ولـكن بقى علينا أن نقص عليك أدهش أحداث القصة وأدعاها إلى العجب . فنحن نجد كل هذه الضروب من الزواحف التى



(٤) بعض زواحف الحقب الباليوزوى المتأخر (طول الرجل ٦ قدم)



(٥) بعض زواحف الحقب الميزوزوى (طول الرجل ٦ قدم على نفس مقياس الرسم)



(٦) بعض زواحف الحقب الميزوزوى المتأخر (طول الرجل لرجل ٦ قدم)

ذكرناها لك ما تزال مزدهرة لا ينازعها منازع حتى طبقات أشد الصخور الميزوزوية تأخراً . فليس فى البقايا التى تبقت لنا من عالمها أى أثر لعدو أو منافس لها . ثم ينقطع اطراد السجل ، ولسنا ندرى أمد الزمان الذى يمثله ذلك الانقطاع وذلك الاطراد . وربما كانت هناك صفحات كثيرة ضائعة فى هذا الموضع ، وهى صفحات ربما مثلت لنا بعض التغيرات الطوفانية الجارفة فى ظروف الكرة الأرضية . وعندما نجد على الأرض بعد ذلك آثاراً كثيفة لنبات البر وحيواناته نجد ذلك الحشد العظيم من أنواع الزواحف قد ذهب . وهى فى غالب أحيانها لم تترك من ورائها عقباً — ذلك أنها « محيت محوا » ففنيت التيرودا كتيل تمام الفناء ، ولم يبق من البليزوصور والاختوصور فرد واحد حيا . وقد ذهبت « الموزاصور » ولم يبق من السحالى إلا اليسير الطفيف ، أكبرها حجماً الضباب monitors التى تعيش فى الهند الشرقية الهولندية . فأما جماهير الدينوصور وأنواعه المختلفة فإنها اختفت من الوجود ولم يبق على قيد الحياة إلى ما بعد ذلك من الزمان بكميات كبيرة ، غير التمساح والسلحفاة والترسة (اللجأة سلحفاة الماء) ويحل محل كل هذه الأنماط البائدة فى الصورة العالمية التى تزيح الستار عنها على أثر ذلك حفريات العصر الكاينوزوى — حيوانات أخرى ليست ذات لحمة وثيقة بزواحف العصر الميزوزوى وليست منحدرة ولا ريب من أى من الأنماط السائدة فى ذلك العصر . فإن نوعاً جديداً من الحياة قد ساد العالم . ولامجال للريب فى أن هذه النهاية التى أصابت الزواحف والتى تبدو فجائية فى بابها إنما هى أعجب الانقلابات وأشدها استثارة للدهشة فى تاريخ الأرض بأجمعه ، قبل مجىء الجنس البشرى . والراجح أنها ذات علاقة بانتهاء أمد طويل ذى حرارة دفيئة متعادلة التوزيع ، وابتداء عصر جديد أشد وأقسى : الشتاء فيه أكثر برودة وأشد وقعاً ، والصيف فيه أقصر أمداً وأشد حراً .

وكانت الحياة فى العصر الميزووى سواء فى ذلك الحيوانية والنباتية منها — مكيفة وفقاً لظروف الدفء ، فلا تستطيع أن تقاوم البرد إلا قليلا . ومن الناحية الأخرى كانت الحياة الجديدة قادرة قبل كل شىء على الصبر على تغيرات عظيمة فى درجات الحرارة .

ولم يقتصر الأمر على أن الزواحف بهيئتها التى كانت عليها ، لم يكن لها فرو أو ريش يحدث تعادلا فى الظروف الحرارية ، بل إن تركيب قلوبها لم يكن مكيفا للاحتفاظ بدرجات حرارة عالية تقيها ما حولها من البرودة .

ومهما يكن شأن الأمور التى أدت إلى إبادة زواحف العصر الميزوزوى فالراجح أنها كانت

تغيراً عميق الأثر فعلا ، إذ حاق بالحياة فى البحار محنة أحدثت مثل ذلك التبديل السريع . وكان استهلال الزواحف وانتهاؤها على البر حدثا يضارع استهلال (الأمونيت Ammonites) ونهايته وهو ضرب من المخلوقات يشبه سمك البحار القديمة[١] . ويعرف معظم الناس جيد المعرفة محارة الحلزونى[٢] الضخم ، الذى يبلغ قطره فى بعض الأحيان قدمين أو أكثر . وهناك جمهور كبير وأضرب متنوعة من هذا « الأمونيت » فى كل سجلات هـذا العصر الميزوزوى الصخرية . وهناك مئات من الأنواع زادت تنوعاً قرب نهاية العصر الميزوزوى وأنتجت أنماطاً ضخمة مبالغاً فيها . وعندما يعود السجل سيرته الأولى نجد هذه أيضا قد اختفت ، ولم تترك قط أى بقايا تدل عليها . وربما مال بعض الناس ، فى شأن الزواحف وما يتعلق بهـا ، إلى الدفع بأنها أبيدت لأن الثدييات التى حلت محلها نافستها وكانت أصلح منها للبقاء . ولـكن لا يمكن أن يصدق شىء من هذا القبيل على « الأمونيت » إذ لم يحل محلها حتى اليوم أى كائن ، فإنها ذهبت وكفى .

وقد سمحت لهـا ظروف مجهولة بأن تعيش فى البحار الميزوزوية ، ثم طرأ تغير مجهول ، ربما كان هزة أو كبوة أصابت تعاقب الأيام والفصول المنظم — فجعلت حياتها أمراً مستحيلا . ولم يبق إلى وقتنا هذا جنس واحد من أضرب « الأمونيت » الـكثيفة العدد ، وإن بقى لدينا جنس واحـد منعزل وثيق الصلة جداً بهـذه الأمونيت هو « النوتيلوس اللؤلؤى Pearly Nautilus ويجـدر بنا أن نلحظ أنه يوجد فى ميـاه المحيطين الهندى والهادى الدفيئة .

فأما عن الثدييات وقيامها بمناضلة الزواحف الأقل صلاحية واستبدادها إياها ، وهو كفاح يتكلم عنه الناس أحياناً ، فليس هناك أقل دليل على مثل هذا التنافس المباشر بينهما . فإذا حكمنا معتمدين على ما نعرفه اليوم من بينات السجل الصخرى ، كان لنا داع أكبر وأقوى يحملنـا على الاعتقاد بأن الزواحف هلـكت فى بادئ الأمر بطريقـة لا يمكن تفسيرها — وأنه حدث فيما يلى ذلك من الأزمان وبعد انقضاء وقت عسير جدا مرت به كل الحياة على الأرض — أن تطورت الثدييات وانتشرت لتملأ العالم الحالى عندما عادت الظروف إلى مجراها الطبيعى .

ولسنا نعرف شيئاً عن أسباب هذا الانقلاب الذى أصاب ظروف الأرض . وقد قلنا فى قسم سابق إنه لو كان قطب الأرض عمودياً على مسطح مدارها لما حدث تغير فى الفصول .

(١) وهو المسمى Squids

(٢) Coiled Shells المحار الحلزونى

ولنفرض الآن أنه فى الجزء الأول من تاريخ العالم لم يكن خط الاستواء مائلا أو كان قليل الميل جداً نحو المدار ، فعند ذلك تكون عندنا نفس الظروف المتعادلة التى يظهر أن حيوان العصر الميزوزوى ونباته يدلان عليها . فلو فرضنا بعد ذلك أن عاملا مجهولا زحزح محور الدوران إلى ماهو عليه الآن من الانحراف ، فان تعاقب الصيف والشتاء والحر والبرد يحدث على الفور فى كل أنحاء الأرض وتضطر الحياة إلى تكييف نفسها تكييفاً جديداً أو تفنى . وقد هلكت غالبية الزواحف وهلكت لاشك (الأمونيت) وأنواع جمة من المخلوقات الأخرى ولم تعد إلى الحياة كثرتها ووفرتها إلا على سبيل التمهل . ولكن لم يستطع بعد إنسان أن يأتينا بفكرة عن تلك القوة التى استطاعت أن تنحرف بعالمنا الدوّار على هذا النحو . ولسنا ندرى شيئاً عن الرجفات والهزات والكبوات التى أصابت المجموعة الشمسية فى سالف الزمان . فنحن نتخبط بين الحدس والتخمين . ولعل قذيفة هائلة معتمة قد جاءت من الفضاء الخارجى تهوى بين الكواكب فحركت كوكبنا عن موضعه — بل ربما اصطكت به ووجهت كل مجرى النشوء والارتقاء وجهة جديدة .

فإن قذائف صغيرة من هذا الطراز لا تنفك تصيبنا : وهى تأتى طائرة إلى جونا وتشتعل بحرارة سرعة اندفاعها فى الهواء ثم تحترق . تلك هى النيازك أو الشهب ، وغالب هذه الشهب يحترق ويذوى قبل أن يصل إلى الأرض ؛ ولكن كثيراً منها قد وصل ولا يزال يصل إلى الأرض . وبعض الموجود منها فى متاحفنا يبلغ قطره أقداماً عدة .

وربما جاء واحد منها كبير الحجم إلى حد أجاز له أن ينتج مثل هذا التغيير الذى زعمناه ، ولكن هذا خروج إلى جادة الظن الصِّرف والتخمين المحض المجرد ، فلنعد إلى ما كنا فيه من حقائق .

٥ — أول ظهور الفراء والريش

أكانت هناك ثدييات فى المدة الميزوزوية ؟ لاشك أن قد كانت هناك ثدييات . بيد أنها صغيرة مغمورة نادرة . وليس لدى الباليونتولوجيين ، أى علماء الكائنات البائدة ، ما يقولونه فى هذا الصدد إلا الزهيد الطفيف . ويدأب الجيولوجيون فى أناة وصبر وثبات على جمع الشواهد الجديدة والوصول إلى نتائج أقرب وأتم . فقد تنكشف طبقة جديدة فى أى لحظة من اللحظات فتكشف الستر عن حفريات تلقى ضوءاً على هذا الموضوع وتمحو هذا السؤال — ولا مرية أن الثدييات ، أو أسلاف الثدييات لا بد أن تكون قد عاشت طوال

العصر الميزوزوى بأكله . وكان هناك فى نفس الفصل الأول الذى افتتح به سفر السجل الخاص بالعصر الميزوزوى نفس تلك الزواحف التريومورفية Theriomorphous التى أشرنا إليها آنفاً . وقد عُثر فى العصر الميزوزوى المتأخر على عدد من عظام الفك الصغيرة ، وهى ثديية تماماً فى خصيصتها .

ولكن ليس هناك أى أثر ، أو أى عظم ، يدل على أنه قد عاشت فى العصر الميزوزوى أية ثدييات عاصرت الدينوصور ورأته بعينها . والظاهر أن الثدييات الميزوزوية أو الزواحف الشبيهة بالثدييات (إذ الواقع أننا لانعرف على وجه التحقيق من أى الصنفين كانت) إذ هى جميعاً حيوانات صغيرة حقيرة مغمورة ، من حجم الفيران (والجرذان) أقرب إلى عائلة حقيرة من الزواحف تدوسها الأقدام ، منها إلى فصيلة خاصة مميزة . والراجح أنها كانت تبيض وأنها كانت تنتج بالتدريج وعلى غاية البطء والتمهل غلافها الشعرى الخاص بها والمميز لها . كانت تعيش بمنآة من متسمات المياه المظيمة ، وربما حلت لها النجاد الموحشة كما يفعل قرد المرموت Marmots فى وقتنا هذا — والراجح أنها كانت تعيش بمنجاة من الدينوصور آكل اللحوم ؛ وربما كان بعضها يسير على سيقانه الأربع وربما اعتمد البعض فى مسيره على ساقيه الخلفيتين وتسلق بمساعدة الأماميتين — فإنها كونت جزءاً من الحفريات على طريقة متباعدة ومن آونة لأخرى ، إلى حد أن الصدفة لم تكشف لنا بعد عن هيكل عظمى واحد بأكله فى كل السجل الطويل الذى تحويه الصخور الميزوزوية ، لم تكشف الصدفة هيكلا واحداً نراجع عليه كل هذه الأحداث ونعرف صائبها من خاطئها .

هذه التريومورفات الصغيرة التى هى أسلاف الثدييات أنتجت لنفسها شعراً ، والشعر إنما هو فلوس مستطيلة مخصصة لغرض بعينه ، مثله فى هذا مثل الريش . وربما كان الشعر مفتاح خلاص الثدييات الأولى مما أحاق بها . وإذ أنها كانت تقضى حياتها على هامش الوجود بعيداً عن المناقع والدفء ، فقد طوّرت لنفسها وقاء خارجياً ، يعد فى المحل الثانى من ناحية قوة احتفاظه بالدفء (أو المقدرة على مقاومة الحر) بعد الزغب والريش الذى تكتسى به طيور المنطقة القطبية الشمالية . وهكذا صمدت الثدييات كما صمدت الطيور خلال عصر الخطوب الذى انقضى بين العصر الميزوزوى والكانيوزوى والذى هلكت فيه غالبية الزواحف الحقيقية . فكل الخصائص الهامة التى كانت تتميز بها نباتات وحيوانات البر والبحر التى اختفت مع نهاية العصر الميزوزوى كانت من طراز قد كيف نفسه لمناخ متعادل ولمناطق ضحلة ذات مستنقعات . فأما خلفها أخو العصر الكاينوزوى فقد أعاره الشعر والريش « قوة مقاومة

لدرجات الحرارة المتفاوتة » وهى قوة لم تكن لتملكها أية زاحفة من الزواحف ، وبمساعدتها أصبح أمامها مجال فسيح يعظم ما وصل إليه أى حيوان من قبل .

كان مجال الحياة فى العصر الباليوزوى الأعلى قاصراً ، فى الغالب ، على المياه الدفيئة أو المناقع الدفيئة والأرض المبتلة بالماء . فأما مجال الحياة فى العصر الميزوزوى ، كما نعرفه ، فكان قاصراً على المياه وعلى مناطق الوديان الوطيئة نوعاً ، وتحت ظروف حرارية متعادلة .

ولكن وجدت فى كل من هذين العصرين أنماط تمد مجال الحياة بغير إرادتها إلى ماوراء الحدود المألوفة ، حتى إذا عمت العالم عصور ظروفها الحرارية متطرفة كانت هذه الأنماط التى تعيش على الهامش هى التى تبقى وترث القسم االذى خوى من السكان فى العالم .

وربما كان هذا أعم ما نستطيع أن ندلى به إليك عن قصة السجل الجيولوجى وهى قصة مجالها مطرد الاتساع : تبدو فيه ثم تختفى : فصائل وأجناس وأنواع من الحيوانات ، ولكن المجال يستمر فى الاتساع ، وهو لا ينفك يتسع . ولم يحدث قط أن كان للحياة مجال على مثل الاتساع العظيم الذى عليه مجالها اليوم .

والحياة الآن ممثلة فى الإنسان تعلو فى الجو علواً لم تصل إليه من قبل . ويمتد مجال الإنسان الجغرافى من القطب إلى القطب ، وهو ينزل تحت أطباق الماء بغواصاته ويسبر ظلمة أعمق البحار الباردة الخالية من الحياة ، وهو يكتهف الكهوف فى باطن مستويات للصخور عذراء لم تمسسها من قبله يد وينفذ بفكره وعرفانه إلى مركز الأرض — بل يتسامى ببصره إلى أقصى النجوم .

ومع ذلك ترانا لا نجد فى كل ماخلفه لنا الزمن الميزوزوى أى أثر أكيد يدل على أسلافه. ولا بد أن قد كان أسلافه مع أسلاف جميع الثدييات المتصلة به مخلوقات نادرة مغمورة متباعدة حتى لم تكد تترك أى أثر بعدها بين البقايا الكثيرة التى بقيت عن الوحوش التى كانت تتمرغ طروبة فى الهواء المشبع بالبخار ، وعلى النبات الرطيب الطرى فى المستنقعات الميزوزوية — أو كانت تزحف أو تعامر أو ترفرف فوق سهول الأنهار العظيمة فى ذلك الأوان .

الفصل الخامس

عصر الثدييات

١ — عصر جديد من عصور الحياة . ٣ — عصر نمو المخ والعقل .
٢ — بدء ظهور التقاليد وتوارثها فى العالم . ٤ — عودة العالم إلى العسر ثانية .

١ — عصر جديد من عصور الحياة

يبتدئ القسم العظيم الثالث من أقسام السجل الجيولوجي — وهو الكاينوزوى الذى رسمنالك عنه صورة بسيطة فى مفتتح الفصل الثانى — والعالم يشبه من الناحية الفيزيقية العالم الذى نعيش فيه اليوم شبهاً كبيراً . والراجح أن اليوم كان فى مبدأ الأمر لا يزال قصيراً قصراً ملموساً . ولكن المناظر الطبيعية أصبحت جد عصرية فى هيئتها . وكان المناخ بالطبع يتعرض عصراً فعصراً لتغيرات لا تنتهى ولا ينقطع منها الاضطراب . فمنذ أن ابتدأ العصر الكاينوزوى تقلبت على المناطق المعتدلة الحرارة الآن ، أدوار من حرارة عظيمة وبرد شديد وجفاف متطرف وربما تكون قد حدثت تغيرات فى سطح الأرض والمناظر البرية . فلئن داخلها شيء من التغيير ، فلم يكن تغييراً يباعد ما بينها وبين صورة هذا الجزء أو ذاك من العالم اليوم .

فبدلاً من الخزازيات والسكوانيات[1] والصنوبريات العجيبة فى العصر الميزوزوى فإن أسماء النباتات التى تظهر فى قوائم الحفريات تتضمن البتولا Birch — والزان Beech وشجرة عيد الميلاد Holly وأشجار الزنبق Tulip واللبلاب Ivy والصمغ الحلو Sweet Gum — وأشجار خبز الفاكهة . فأما النخيل Palms فكان عند ذاك فى غاية الأهمية. وقد تطورت الزهور إلى جانب النحل والفراشات . وإذن فنحن قد وصلنا إلى عصر الزهور . وقد ظهرت النباتات المزهرة واضحة جلية من زمن بعيد فى صخور العصر الميزوزوى المتأخرة ، أعنى الصخور الطباشيرية الأمريكية . وأصبحت تزين كل حدب وصوب . وأخذ العشب يصبح حقيقة عظيمة من حقائق العالم . نعم قد بدت أنواع بعينها من العشب فى العصر الميزوزوى المتأخر ولكن لم تأت سهول العشب والنجيل إلا مع الزمن الكاينوزوى . إذ انتشرت على عالم كان من قبل أجرد صخرياً .

(١) السكوانيات من شجر ولنجتونيا تنسب إلى « سكوا » مخترع أبجدية الشيروكى

افتتحت تلك المدة بأمد طويل من الحرارة العالية . ثم برد العالم . وقد صحب مستهل هذا الجزء الثالث من أجزاء السجل (أى هذا العصر الكاينوزوى) تقفع هائل فى القشرة الأرضية ؛ كما صحبه تكوين السلاسل الجبلية . فجبال الألب والأنديز والهيملايا هى كلها سلاسل جبلية كاينوزوية . وإذا نحن توخينا الدقة جعلنا فى خلفية صورة العصر الكاينوزوى المبكر بركاناً ثائراً أو ما يقاربه . ولا بد أيضاً أنه كان عصر زلازل شديدة .

ويقسّم الجيولوجيون العصر الكاينوزوى إلى أقسام عظيمة معيّنة — نرى من المناسب أن نذكرها لك ها هنا وأن نشير إلى مناخها : فيأتى الأيوسين Eocene أولاً (ومعناه فجر الحياة الحديث) وهو عصر حرارة غير عادية . وينقسم فى باطنه إلى الأيوسين القديم والحديث . ثم يأتى الأوليجوسين Oligocene (ومعناه القليل من الحياة الحديثة) وفيه كان المناخ لا يزال متعادلاً . فأما الميوسين Miocene (أى الذى فيه الأنواع الحية ما تزال أقلية) فهو العصر العظيم الذى تكونت فيه الجبال ، والذى أخذت فيه الحرارة العامة فى الهبوط . وفى البلايوسين Pliocene (أى الذى تعيش فيه الأنواع أكثر مما تبيد) كان المناخ فى أكثره على حاله الراهنة ولكن بظهور البلايوستوسين Pleistocene (أى صاحب الغالبية العظمى من الأنواع الحية) ابتدأت حقبة طويلة ظروفها متطرفة ، هى حقبة العصر الجليدى العظيم امتدت فيها الثلاجات من القطبين باتجاه خط الاستواء ، حتى تغطت انجلترا بالجليد حتى نهر التاميز .

ثم تلتها بعد ذلك مدة انتعاش جزئى استمرت إلى زماننا ، وربما كنا نقرب الآن من دور أدفأ — وربما أصبح عالمنا بعد نصف مليون من السنين أسطع شمساً وأبهج للعيش مما هو الآن .

٢ — بدء ظهور التقاليد وتوارثها فى العالم

ظهرت فى الغابات وأخذت تتعقب العشب على سهول العصر الأيوسينى أضرب كثيرة وعدد وافر من الثدييات .

ويحسن بنا قبل أن نستطرد إلى أى وصف لهذه الثدييات أن نبيّن لك — على سبيل التعميم — ماهية الثديية :

فقد حدث تطور متزايد مطرد فى الحيوانات الفقرية منذ ظهور هذه الحيوانات فى العصر الميزوزوى المتأخر حالما انسابت الأسماك الأولى إلى البحر أسراباً . وما السمكة إلا حيوان فقرى يتنفس بخياشيمه ولا يستطيع أن يعيش إلا فى الماء . وربما وصف البرمائى بأنه سمكة

أضافت إلى تنفسها بخياشيمها قوة استنشاق الهواء بوساطة مثانة العوم عند بلوغها كمال نموها، وبأنها طورت أيضا أطرافاً لها خمس أصابع تقابل ما فى السمك من زعانف . وأبو ذنيبه يظل ردحاً من الزمن سمكة تسكن الماء ، ثم يصبح بالتطور مخلوقاً برّيا . فأما الزواحف فهى مرحلة أعلى من مراحل هذا الانفصال عن الماء ، بل هى فى الحقيقة برمائى زالت عنه صفته البرمائية ، وهى تمر فى مرحلة أبى ذنيبه الخاصة بها (أى فى مرحلة السمكة) وهى فى البيضة ، ولا تستطيع البته أن تتنفس تحت الماء كما يفعل أبو ذنيبه .

وما الثدييات العصرية إلا نوع من الزواحف قد طور حول جسمه غلافا واقيا فعالا خاصا هو الشعر . كما أنه يحتفظ ببيضته داخل بدنه حتى ينقف عنها وبذلك ينتج صغاراً حية فهو « ولود » يلد صغاره أحياء ثم يعنى بها حتى بعد ولادتها ويغذيها بأثدائه زمناً قد يطول وقد يقصر . وبعض الزواحف — نذكر منها بعض الأفاعى على سبيل المثال — ولود لا تبيض ، ولكن ليس منها من يلازم صغاره كما تفعل الثدييات الحقيقية . فكل من الطيور والثدييات التى نجت من جميع العوامل والقوى المهلكة التى قضت على زواحف العصر الميزوزوى ، تلك الطيور والثدييات التى عاشت وتسلطت على العالم الكاينوزوى يجمعها الأمران الآتيان :

أولا — وقاء يقيها تقلبات الحرارة — أبعد فى وقايتها أثراً مما أنتجه أى تغيير لحق نمط الزواحف .

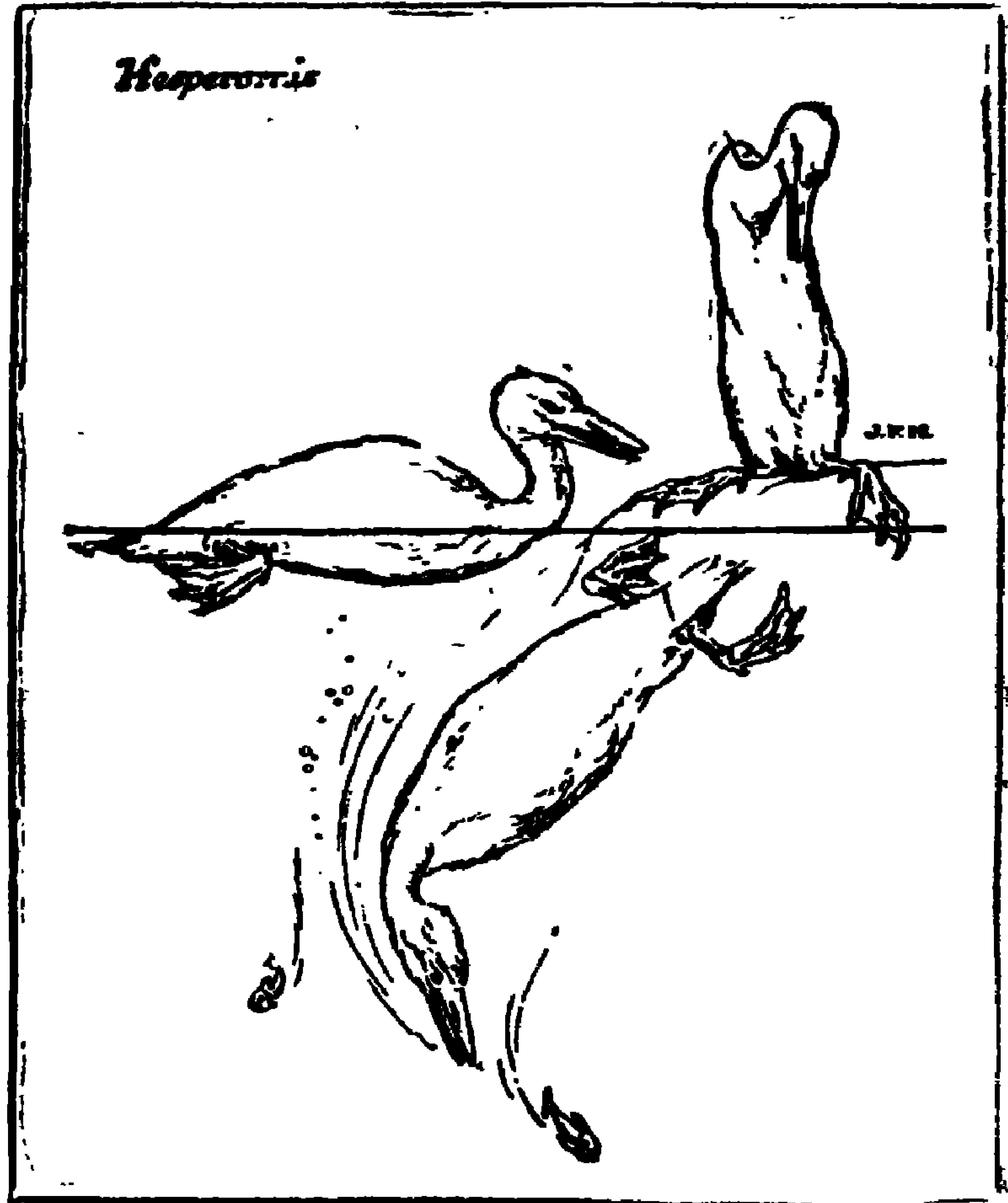
ثانيا — عناية خاصة منها ببيضها لوقايته من البرد ، فالطير من ناحيته يقى بيضه بالحضانة ، والثديى بالاحتفاظ بالصغير فى بطنه وعيله إلى رعاية الصغار مدة معينة بعد النقف أو الميلاد — والزواحف العادية لا تهتم قط بنتاجها بالموازنة بالثدييات .

وواضح أن الشعر كان أقدم مميز للثدييات يفرق بينها وبين سائر الزواحف وهناك من يشك فى أن زواحف الثريومونت التى طورت الشعر فى العصر الميزوزوى الباكر كانت ولودا Viviparous ولا يزال ثدييان يعيشان إلى يومنا هذا لا يقتصران على عدم إرضاع صغارهما فحسب ، بل يبيضان — وهما : الأرينوثورخوس Ornithorhynchus والأخيدنا The Echidna وكان هناك فى العصر الأيوسينى عدد من أشكال مقاربة لهذين .

وهذان المخلوقان وإن كانا لا يرضعان صغارهما يفرزان سائلا مغذيا من غدد متناثرة على الجلد فى جانب البطن . بيد أن الغدد ليست مجموعة إحداها إلى الأخرى مكونة أثداء لهـا حلمات للرضاعة — كما هو الحال فى الثدييات الأخرى — بل تبضّ المادة عندما تكون الأم راقدة على ظهرها فيرتع الصغار فوق جلدها المندى — وإذن فهى البقية الباقية مما كان — على



(٧) التيرودا كيل : (يلاحظ الأصبع الخامس المطول فى جناحه)
الأركيوتريك : (أقدم الطيور المعروفة)



(٨) الهسبرورن (طير الماء الزاحف غير المجنح)

الأرجح — مخلوقات أوفر عددا وأشد تنوعاً ، مخلوقات بيّاضــة ذات شعر ، وهي زواحف وطامرات ومتسلقات وعدّاءات متشمرة ، تضم الأسلاف التي كانت في العصر الميزوزوى والتي جاءت منها كل الثدييات الموجودة الآن ، مرتفعة حتى تشمل الإنسان . ومع كل هــذا فربما عثرنا في أي وقت ، داخل إحدى طبقات الصخور التي تبعد اليوم عن منال أيدينا ، على أمثلة من هذه « الحلقات المفقودة » .

وإذا شئنا أن نصوغ الحقائق الأساسية المتعلقة بالإنتاج في الثدييات بعبارة أخرى : قلنا إن الثديي حيوان عائلي — وتتضمن العادة العائلية إمكان حدوث نوع جــديد من استمرار الخبرة في العالم . وعليك الآن أن تقارن بين إحــدى السحالى (العظايا) في حياتها التــامة الانقطاع عما سواها ، بحياة أي نوع من الثديي ولو كان على غاية الانحطاط . فليس لدى تلك السحلية أي استمرار عقلي متصل بأي شيء آخر عدا ذاتها ، فهي عالم من الخبرة قائم بذاته مستقل بنفسه ، يعيش لخدمة أغراضه وغاياته، على حين يلتقط الثديي من أمه باليمنى مايسلمه لنسله باليسرى . فــكل الثدييات فيما عــدا الجنسين اللذين ذكرناهما آنفا — كانت قد وصلت قبل العصر الأيوسيني الأدنى إلى هذه المرحلة التي تعتمد فيها الصغار على غيرها وتقلد ما سواها قبل البلوغ — وكانت كلها مع شيء من التفاوت بينها مقلدة لغيرها في شبابها حاملة استعداداً لقدر طفيف معيّن من التربية . وهي جميعها قد نالت من أمها قدراً معيناً من الرعاية والمثل الذي يحتذى بل نالت شيئا من التوجيه ، نالتها باعتبارها جزءا من تطورها . وهذا القول يصدق على الضبع والــكركدن صدقه على الكلب والإنسان . والتفاوت في قابلية التعلم كبير هائل ، ولــكن لا يستطيع أحد أن ينكر حقيقتي حماية الصغار وقابليتهم للتعلم في طور الحداثة .

ومهما يكن المدى الذي تصل إليه الحيوانات الفقرية فإن هذه الثدييات الجديدة بمالها من ميل حتمته صفتها الولودة إلى حماية الصغار ، وهذه الطيور بمالها من ميل إلى الحضانة وحماية الصغار ، تُدخِــل في مقتبل العصر الــكاينوزى شيئاً جديدا في قصة الحياة الآخذة في الانتشار هو : الميل إلى الاجتماع (الترابط الاجتماعى) وهو الإضافة التي أضيفت إلى تلك الغريزة الصلبة غير المرنة غريزة « التقاليد » والجهاز العصبي اللازم لتلقى التقاليد .

وجميع المســتحدثات التي تضم إلى تاريخ الحياة ، تبدأ بداية وضيعة جدا . فإن مقدار الأوعية الدموية المزودة بها مثانة العوم في سمك الطين في أنهار السيول في العصر الباليوزى الأدنى ، والتي مكنتها من أن تحتمل فصل الجفاف ، كانت تبدو حينذاك ولا شك لزائر كوكبنا الذي لا جسد له (وهو شعلة العقل التي تصورناها في فصــل سابق) حقيقة جانبية

قليلة الأهمية جدا ، فى ذلك العالم القديم الزاخر بالقروش المظيمة والأسماك المدرعة ، وعقارب البحر والحواجز المرجانية والأعشاب البحرية التى فتحت الطريق الضيق الذى صعد منه حيوان البر الفقرى إلى مراقى التسلط والغلبة . وربما بدت له سمكة الطين عند ذاك لاجئاً مشوّقاً يفر من عدوان الأحياء التى يعج بها البحر . ولـكن ما كادت الرئة تظهر فى عالم الأحياء حتى أخذ كل نوع من أنواع ذوات الرئات يحسّن رئته .

وكذلك شأن ما حدث فى العصر الباليوزوى الأعلى ، فإن شروع بعض البرمائيات فى فقدان صفاتها البرمائية بتأخرها فى نقف بيضها ، ما يكاد يبدو إلا مجرد استجـابة للخطوب الداهمة التى كانت تهدد صغيرها أبا ذنيبه . ومع ذلك فإن هذا الأمر قد مهد لجمهور الزواحف الظافرة فى العصر الميزوزوى غزو الأرض الجافة إذ فتح وجهـة جديدة متجهة إلى حياة برية حرة قوية ، تسير فيها كل الحيوانات الزاحفة .

وهذا التدريب الذى يمارسه الولود الحادب على أولاده والذى مرت فيه أسلاف الثدييات أثناء عصر المهانة والمصاعب التى مرت بها ، قد أثار فى العالم استمراراً جديداً للوعى لم يبـدأ الإنسان نفسه أن يقدر مغزاه إلا فى العصر الحاضر .

٣ — عصر نمو المخ والعقل

يتمخض العصر الأيوسينى منذ بدايته عن عدد من أنماط الثدييات . وإنك لتشهد بعضاً منها وهو يتفرع أنواعاً فى اتجاه ما وترى بعضها ينحو منحى آخر ، بينما بعضها يكمل نفسه ليصير من العاشبات ذوات الأربع . وبعضها يقفز ويتسلق الأشجار . ويتجه البعض الآخر إلى الماء ليسبح . ولـكن الأنماط جميعها تستثمر تطور المخ عن غير وعى منها . والمخ هو آلة القوة الجديدة ، قوة الوعى وقابلية التعليم . فمن الممكن أن يسمى عصر الزهور هذا ، عصر الطيور والثدييات ، وهو العصر الـكاينوزوى . ويمكن أن يسمى أيضا عصر العقل النامى . توجـد فى الصخور الأيوسينية بعض أسلاف أولى صـغيرة للحصان (Eohippus) ، وجمال صغيرة وخنازير وتابيرات أولى (Early Tapirs) وقنافذ أولى وقرده وليمورات وكيسيات Opossums ولحمات . فـكل هذه كانت إلى حد ما أجداداً للأشكال الحية ، وكان لها كلها أمخاخ أصغر كثيراً بالنسبة إلى ممثليها الأحياء . فهناك مثلا حيوان قديم قريب الشبه بالـكركدن (الذى يعيش معنا الآن) إسمه التيتانوثريوم Titanotherium حجم مخه لا يزيد على عشر حجم مخ الـكركدن الحالى . وليس الأخير بأى حال من الأحوال هو المثال

الكامل للتلميذ اليقظ المطيع . ومع ذلك فإن قوة ملاحظته وقابليته للتعلم تبلغ عشرة أضعاف ما كان لسلفه ، وتنطبق هذه الحقيقة على كل الفصائل والعائلات التى تعيش حتى يومنا هذا فكل الحيوانات الكاينوزوية كانت تقوم بهذا الأمر جميعاً وبلا استثناء تحت إلحاح ضرورة تممها جميعاً . فكانت كلها تنمى العقل . وكان هذا تقدماً متماشياً بعضه مع بعض فى جميع الأحياء سواء ، فنى نفس الفصيلة أو العائلة التى تعيش اليوم تجد المخ فى العادة يعادل من خمسة إلى عشرة أضعاف ما كان لدى السلف الأيوسينى .

وقد أظهر لنا العصر الأيوسينى سلسلة من الوحوش العاشبة ليس لها ممثل يعيش الآن ومثالها الوينتاثير Uintatheres والتيتانوثير Titanotheres وقد طردتها أشكال عاشبة Graminivorous أشد تخصصاً حين كان العشب ينتشر فى العالم . ثم جاءت أسراب كبيرة من الكلاب البدائية تتعقب مثل هذه الوحوش ، كان بعضها يعادل الدب فى حجمه ، وجاءت القطاط الأولى ، أخص منها بالذكر السيميليدون Smilodon وهى مخلوق صغير تبدو عليه سمة الشراسة ، له أنياب تشبه السكاكين — والببر الأول ذو السن السيفية — وقد قدر لها أن تتطور منشئة أشياء أعظم منها — وتُظهر لنا رواسب العصر المايوسينى فى أمريكا أنواعاً عديدة من الجمال ، منها جمال الزرافة ذات الرقاب الطويلة ، والجمال الغزلانية واللامات والجمال الحقيقية . وتبدو أمريكا الشمالية فى معظم زمن العصر الكاينوزوى كأنما كانت على اتصال سهل بآسيا ، فلما أن فصل بين إقليمى القارتين العظيمتين أخيراً ثلاجات العصر الجليدى الأعظم ، ثم مضيق بيرنج Bering فيما بعد ، بقيت آخر الجمال فى العالم القديم كما بقيت اللاما فى العالم الجديد . وتظهر فى العصر الأيوسينى أول أسلاف للفيلة فى أفريقيا الشمالية على صورة مخلوقات ذات فنطيسة طويلة Snout ، فأما خرطوم الفيل المميز له فإنه لم يبزغ فى العالم إلا فى العصر المايوسينى وأخذ يطول على كر الدهور .

٤ — عودة العالم إلى العسر ثانية

دأب العالم الدوار على حركته حول الشمس خلال حياة ملايين عديدة من الأجيال الحيوانية ، ثم أخذ مداره — ولعله كان مستدير الشكل تقريباً إبان أيام العصر الأيوسينى المبكر المتعادلة المناخ — ينجذب فى بطء وتمهل بفعل جاذبية الكواكب الخارجية الدوارة ، ويتخذ شكلا أقرب إلى الإهليليجى . وأخذ محور دورانه ، وكان يميل إلى مستوى مداره

كما تميل سارية السفينة فى مسيرها فى البحر نحو الماء يزداد انحرافه قليلا قليلا قليلا بدرجات غير محسوسة وكان أقصى حد الصيف فيه ينحرف فى كل عام ، مبتعداً قليلا عن الحضيض حول مساره .

تلك أمور توافه فى كرة قطرها بوصة تدور على مدى ٣٢٢ ياردة من شمس متأججة قطرها ٩ أقدام خلال بضعة ملايين من السنين . وتلك تغيرات لو تسنى لها على كوكب نبتيون فلكى سرمدى خالد يلحظ الأرض من عصر إلى عصر لخفيت عليه ولم يشعر بها . ولكنها كانت أحداثاً جساماً عميقة الأثر لو نظر إليها من وجهة نظر حياة الثدييات المتكاثفة فى العصر الميوسينى . إذ طفقت الأشتية تصبح فى جملتها عصراً فعصراً أكثر برداً وأشد عسراً وأطول أمداً ، إذا قورنت بالأصياف . وكانت الأصياف تتقاصر من عصر إلى عصر . وكان ثلج الشتاء يتلكأ فى الربيع فى كل قرن عن سابقه بمعدل ثابت . وكانت الثلاجات فى الجبال الشمالية تتقدم بوصة فى هذه السنة وتتراجع نصف بوصة السنة التالية ثم تتقدم مرة أخرى بضعة بوصات .

وينبئنا سجل الصخور عن ذلك البرد المتزايد ، ولكن المايوسينى كان زمناً معتدل الحرارة . وكان كثير من محبى الدفء من الحيوانات والنبات قد انصرف عن خطوط العرض المعتدلة . ثم أخذ الثلج يتقدم متوغلا فى المناطق المعتدلة من الأرض بضع أقدام أو بضع بوصات تقدماً أقل استمراراً وتمدداً .

وتظهر على المسرح فى العصر البلايوستوسينى (Pleistocene) أنواع حيوان المنطقة القطبية من أمثال ثور المسك والماموث الصوفى والكركدن الصوفى واللمنج Lemming . وكان الجليد يتقدم فوق أمريكا الشمالية وفوق أوربا وآسيا على السواء . واستمر تقدمه مدى آلاف من السنين ، ثم أخذ يتأخر آلاف سنين أخرى ليتقدم بعدها من جديد . وظلت أوربا حتى سواحل البلطيق وبريطانيا حتى نهر التيمس ، وأمريكا الشمالية حتى مقاطعة نيوانجلند جنوباً — وفى الوسط حتى مقاطعة أوهايو جنوبا ، مغمورة بالثلاجات أجيالا عدة . إذ سُحبت من المحيط حجوم هائلة من الماء فاعتقلت فى هذه الأغطية الثلجية المدهشة ، حتى لقد أحدثت فى المستويات النسبية بين البحر والبر تغييراً عم العالم . وتعرت من الماء مساحات فسيحة من الأرض عادت اليوم ثانية فأمست فى قعر المحيط .

ولا يزال العالم يلقى عن نفسه ، رويداً رويداً ، بعض أثقال آخر موجة من موجات سلسلة

من البرد . فإنه ليس آخذاً فى الدفء بهيئة منتظمه ثابتة . وإنما حدثت فيه ولا تزال تحدث تقلبات . وتوجد إلى الآن مثلا بقايا لأشجار البلوط النامية فى المستنقعات قبل ألفين أو ثلاثة آلاف من السنين فى اسكتلندا ، على درجات عرضية لا تستطيع أن تعيش فيها فى الوقت الحاضر حتى أشجار البلوط (المجعومة) الواقفة عن النمو . وربما استمر هذا التغيير غير المحقق نحو الدفء ، وربما لم يستمر . فنحن لاندرى على كل حال .

وأول مرة نجد فيها شكلا نستطيع أن نميز فيه مايشابه شكل الإنسان ، تجىء فى حدثان ما كان يعترى الأرض من إزدياد ونقصان الصقيع والثلج ، فى العصر الجليدى : ذلك أن عصر الثدييات قد بلغ الأوج فى مناحى الجليد والخطوب والإنسان على السواء .

الكتاب الثاني

تكوين الإنسان

الفصل السادس

قرد وأشباه إنسان وإنسان

١ — أصل الإنسان .
٢ — أول أثر للمخلوقات الشبيهة بالإنسان .
٣ — شبه الإنسان الهيدل برجى .
٤ — شبه الإنسان البلتدونى .

---

١ — أصل الإنسان

كان موضوع أصل الإنسان وعلاقته بالحيوانات الأخرى مثار جدل ونقاش شديد طيلة السنوات المئة الأخيرة . والرأى السائد بين العلماء هو أن الإنسان انحدر من أسلاف أدنى منه مرتبة ، شأنه فى هذا شأن سائر الثدييات ، وأنه والقردة الكبيرة ومنها الشمبانزى والأورانج يوتانج Orang-Otang والغوريلا كان لها جميعاً يوماً ما جد مشترك وأن هذا الجد قد تطور من أشكال أدنى منه أيضاً أى من نمط من أنماط الثدييات القديمة كان بدوره منحدراً من زاحفة ثريومورفيّة وتلك بدورها أيضاً من سلسلة من البرمائيات وهذه أيضاً من الأسماك البدائية . وترتيب قائمة النسب هذه قد بُنى على مقارنة مشرّح الإنسان بمشرح غيره من الحيوانات الفقرية وتثبته كذلك الأدوار العجيبة التى يمر فيها جسمه جنيناً قبل ميلاده ، إنه يبتدئ كأنما قد هيىء ليكون سمكة مزودا بشقوق طولية للخياشيم وقلب وكليه تشبه ما لدى السمك. ثم يمرفى أدوار تذكرك بالبرمائيات وبالزواحف ثم هو يحمل لنا ذكرى تركيب الثدييات الدنيا. إذ أن له ردحاً من الزمان لذنباً . وهو لا يتسم بصفته الإنسانية حتى فى إبان تطوره الفردى بل لا يزال يكافح سعياً إلى الإنسانية وهو يستذكر القردة فى عشرات من أشياء صغيرة لا نفع له من ورائها ، تتمثل فى شعره وفى اتجاه الشعر على أطرافه .

ولقد صيغ الإنسان فصار إلى هذه الحالة التى نراه عليها اليوم من القوى والمواهب والآمال خلال ملايين وملايين من أفراده مرت فى الحياة تباعاً ، فانتقل بذلك من حال كان فيها مجرد

حركة أو هزة فى الماء إلى ما ترى من حال . وهو ذا يواجه بعزم ووعى متزايدين مصائر جنسه البشرى التى لا تعد ولا تحصى . وكاتب هذا الكتاب من أتباع هذه الفكرة عن أصل الإنسان إذ هى فى نظره فكرة قوية الأساس متينة البنيان . ولكن جدير بنا أن نتذكر أن موضوع تسلسل الإنسان الحيوانى لا يزال ينكره بغاية الشدة الكثير من الرجال المقتدرين بل كثير من رجال العلم . فإن حكومة ولاية تينيسى مثلا قد بلغ من تمام إقتناعها بعكس هذه النظرية أن منعت تدريسها فى جميع مدارسها وكلياتها . وظاهر أن الغرض من ذلك كالغرض من إغفال ذكر فضائح العائلة !! وفى أثناء المحاكمة التى حدثت فى ديتون عقب ذلك الحظر وضعت معلومات وحجج المستر وليم جاننج بريان (الذى تابع فى الرأى نموذجه العظيم مستر جيفرسون) فى الميزان إزاء العالم البيولوجى بأكمله ! ! وقد يدفع بعضهم أحيانا أن هيئات دينية مختلفة وخاصة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية تعترض على هذه الفكرة التى تنسب الإنسان إلى التسلسل عن إسلاف حيوانية ولكن لا يبدو أن يكون هذا هو مدار الأمر . فإن أحداً لم يكل إلى الكنيسة الكاثوليكية بفكرة أن الإنسان قد خلق خلقاً خاصاً ، أكثر مما عهد إليها القول بفكرة أن العالم مسطح أو أنه المركز الذى تدور حوله الشمس . ولقد تصور الناس زمناً ما أن هذه إنما هى تعاليم الكنيسة ولكن هذا كله أمر أزيح عنه الغموض أزاحة مستوجبة لتمام الرضا . ويخالف كثير من المؤمنين هذا الرأى العلمى إذ أنهم يحسون أنه أكرم لهم أن يعتقدوا بأن الإنسان سقط من أن يعتقدوا بأنه ارتفع ولكن إعتراضهم لا يفيد كنيستهم بشىء على الجملة . وواجب المؤرخ أن يعالج الأمر لا من حيث لياقته بل من حيث حقيقته . والواقع أنه لا توجد اليوم أية هيئة مسيحية كريمة تصر على قبول نص الكتاب المقدس قبولا حرفياً دقيقاً ، فمن الخير أن تمنح هذه النصوص من الحريات ما يمنحه الشعر ومجازاته ودواعيه من سعة التصرف وانطلاق السراح . وما دام البيولوجيون (علماء الحياة) لا يصرون على وجود أصل حيوانى لروح الإنسان فلن يكون هناك فى الحقيقة أى خلاف بين العلم والدين فى هذا الصدد . ومع ذلك فليس من العدل أن نتوغل إلى ذكر بيان عن تسلسل الإنسان يخلو من هذه الفكرة الأولية . والكاتب يقول هنا ما يعتقده الصدق والحق وليس من شأنه أن يذكر حجج الخصوم التى لا تبدو فى نظره صحيحة سليمة والتى لا يستطيع هو أن ينصفها .

فمن الممكن فى كثير من الثدييات الكبيرة أن نتبع تسلسل النوع الحى منها بحيث نماشيها خطوة فخطوة حتى نصل بها إلى سلف أيوسينى : ذلك هو الحال مع الفيل مثلا ومع الجمال والخيول . إذ السلسلة فى هذه الأمثلة بالغة غاية الاكتمال . فإن هناك أحشادا من النماذج

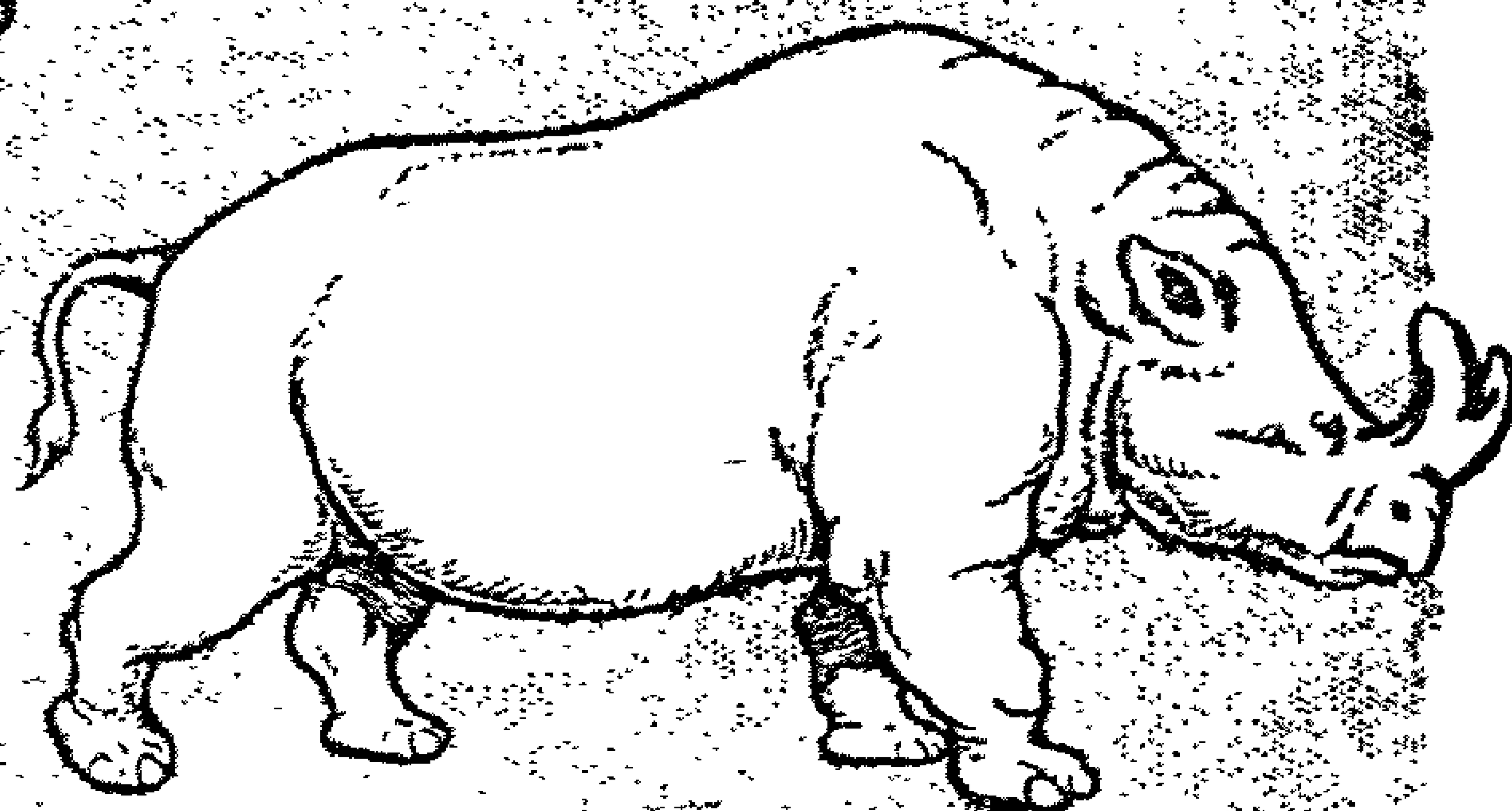
تحوى مظاهر التدرج الوثيق ولكن لابد لنا من التسليم بأن البقايا الباقية فى الحفريات لأسلاف الإنسان نادرة ناقصة ، وأن هناك ثغرات واسعة تنتظر من يسد خلتها . وفى الأيام التى لفت فيها العالم الطبيعى الإنجليزى العظيم شارلس داروين Charles Darwin أنظار العالم إلى هذه المسألة بكتابه « أصل الإنسان » كانت البقايا الإنسانية القديمة التى ترجع إلى ما قبل التاريخ نادرة لا غناء فيها . وكأنما كانت هناك بين الإنسان والقرد العظيم هوة هائلة لا تحيد عن مكانها وأصبحت «الحلقة المفقودة» ، كلمة تتداولها الألسن فى المناقشات العامة . ولم تطل أيدينا آثارا تدل على مخلوقات يبدو عليها أنها وسط بين طرفى تلك الثغرة العظيمة إلا فى عصر حديث جدا . وأدعى كل هذه الآثار إلى الدهشة هى جمجمة تونج Taung التى اكتشفت ١٩٢٤ ثم وصفها العلامة دارت Dart اليوها نسبرجى ، وسلسلة الجماجم العجيبة التى لمخلوق شبه إنسانى هو سينانثروب Sinanthropus والتى وجدت فى بيكين فى زمن أحدث من هذا . وكلا هاتين اللقيتين تبين مخلوقات كانت من وجوه كثيرة فى منتصف الطريق بين الإنسان والقردة . فأسنانها ووعاء مخها ووضعة رأسها وانحدار جبهتها أقرب إلى الهيئة الإنسانية من أى قرد كان وأقرب إلى هيئة القرود من أى جنس إنسانى يحفظه لنا السجل .

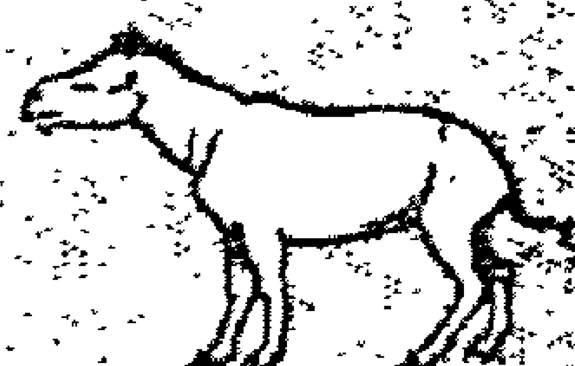
وكثيرا ما يدفع أحدهم مدعيا بأن داروين علمنا أن الإنسان ينحدر من بعض القرود الشبيهة بالإنسان من أمثال الشمبانزى والأورانج يوتانج أو الغوريلا . وبديهى أن هذا الاعتقاد ليس إلا كالقول بأن كاتب هذه السطور ينحدر عن أحد أفراد الهوتنتوت أو أحد الاسكيمو الذى يعادله سنا أو يصغره . ويقول البعض الآخر تنبهاً منه إلى هذا الاعتراض أن الإنسان ينحدر من السلف المشترك الذى يجمعه والشمبانزى والأورانج يوتانج والغوريلا .

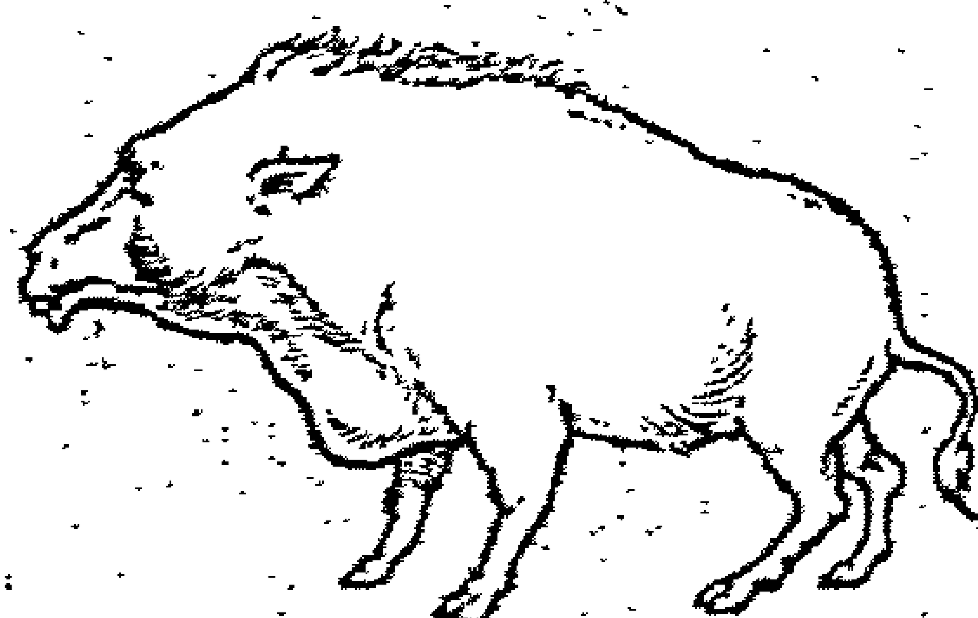
ولقد أعجب بعض علماء الإنسان Anthropologists بنظرية تتساءل عما إذا كان البشر يعودون إلى أصل ثنائى أو ثلاثى فيه يكون الزنج منحدرين من سلف يشبه الغوريلا بينما ينحدر الصينيون من أورانج يوتانج أولى على حين يجىء الجنس الأبيض من سلف يشبه الشمبانزى وهكذا . وبناء على هذه النظرية البراقة يكون الشمبانزى هو الأخ الدنىء للأوروبى وله الحق والأفضلية فى أن يتغدى على مائدته وأن يصاهر خير العائلات (النوردية) أكثر مما للزنجى أو الصينى اللذين هما أبعد صلة ! ! ! تلك أفكار عقيمة مستحيلة لا يجيزها العقل السليم وما نذكرها هنا إلا لتنبذ . وقد كان مفروضاً من قبل أن سلف الإنسان ربما كان حيوانا شجرياً ، ولكن يلوح أن الرأى السارى بين من يملكون حق إعطاء الرأى فى هذا الشأن يغلب فيه الاعتقاد بأنه كان قرداً أرضياً وأن القردة الحالية تطورت فى الناحية الشجرية عن

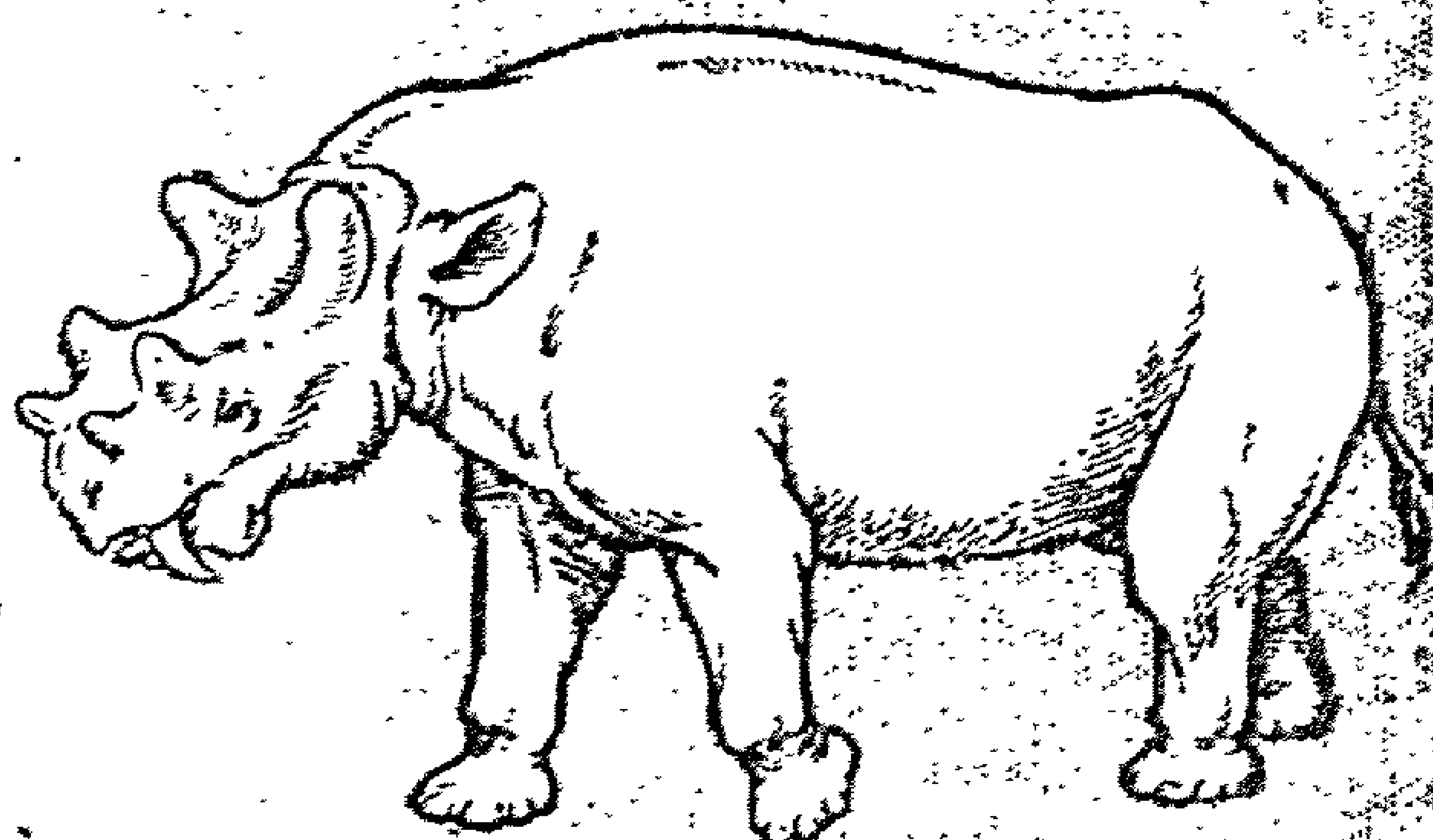
Some Oligocene Mammals

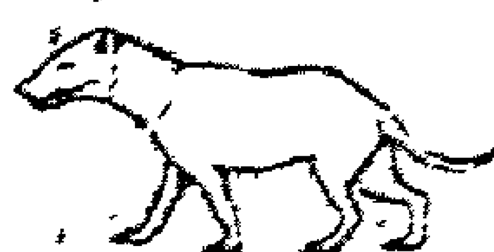




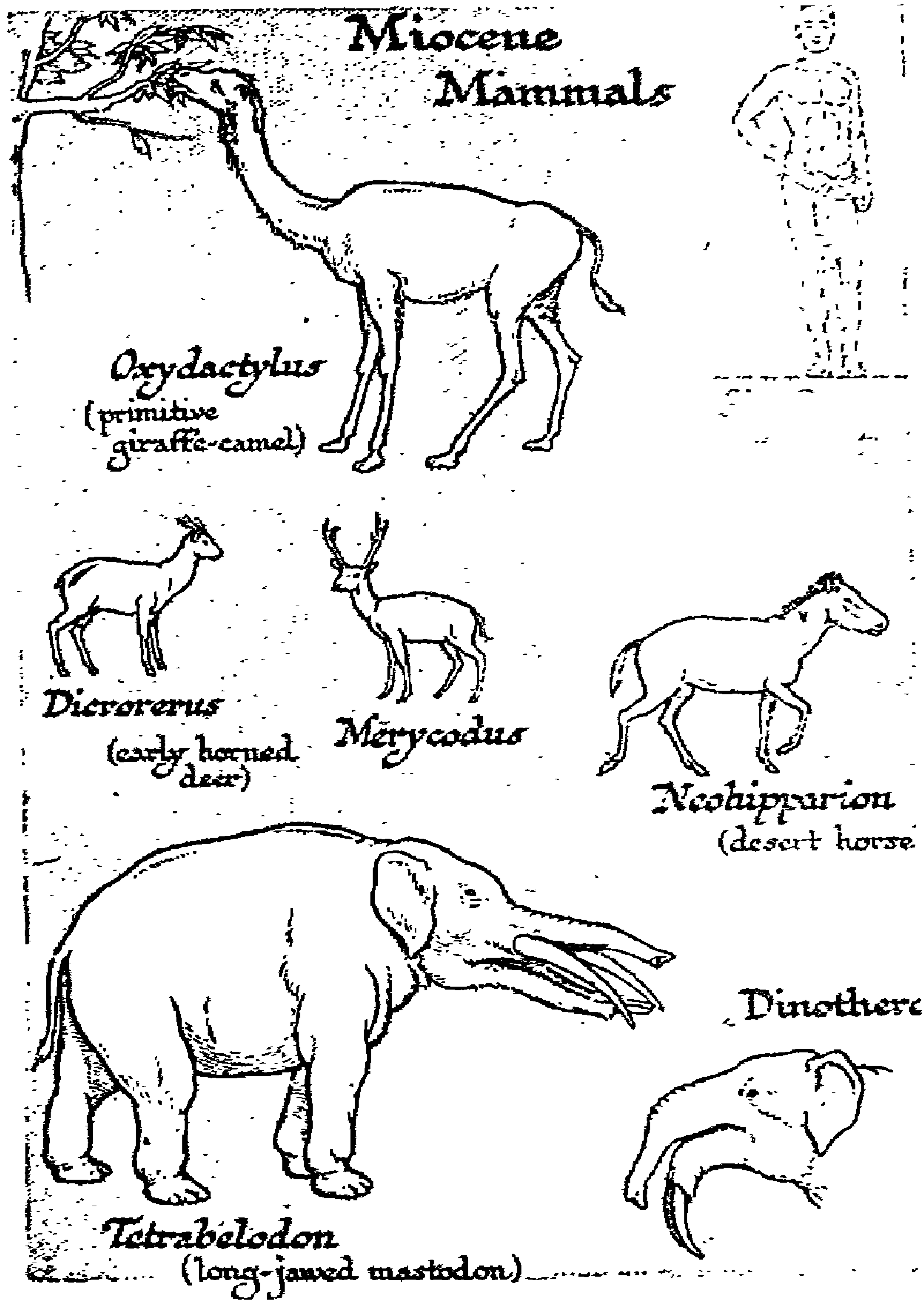








(٩) بعض الثدييات الأوليجوسينية (طول الرجل ٦ قدم)



(١٠) الثدييات الميوسينية (طول الرجل ٦ قدم)

أصلها الذى كان أقل تسلقاً للأشجار . فلو وضعنا هيكل الإنسان المظمى إلى جوار هيكل الغوريلا فإنا نجد التشابه العام بينهما بالغاً من الدقة مبلغاً يُسهّل علينا أن نستنتج على الفور أن الأول يشتق من نمط يشبه الثانى بعملية نمو فى المخ وتهذيب عام ولكن إذا فحص الإنسان عن بعض الفروق فحصاً دقيقاً اتسعت أمامه شقة الإختلاف . ولقد زادت العناية فى المدة الأخيرة زيادة خاصة بوطء القدم . فإن الإنسان يمشى على أصابع قدميه وعقبيه . فإبهام قدمه هو رافعته التى يعتمد عليها فى عملية المشى كما يتبين القارئ ذلك بنفسه إذا فحص بصمات أقدامه على بلاط الحمام ولحظ موقع الضغط عندما تخف وتضعف بصمات القدم . فإبهام قدمه هو أمير أصابع رجليه . على حين ترى أنه فى كافة القرود الكبيرة والصغيرة كانت الفئة الوحيدة التى تطور فيها الإبهام على أية شاكلة مماثلة لطريقة الإنسان هى بعض أصناف النسانيس Lemurs . فالقرد الكبير المعروف باسم البابون Baboon يمشى على قدم مسطحة وعلى مجموعة أصابعه جاعلا إصبعه الأوسط أهم رافع فى رجله على نفس طريقة الدببة . فأما القردة الكبرى الثلاثة فإنها بأجمعها تمشى على الجانب الوحشى (أى الخارجى للقدم) على هيئة تخالف مشية الإنسان كل المخالفة .

ولما كانت القردة الكبرى من ساكنات الغابات فمشيها وليد الصدفة وليست لها خفة القرود بين الأشجار . بيد أنها بحكم عادتها كثيراً ما تكون بعيدة عن الأرض فوق الشجر . وأثقلها وألصقها بالأرض هو الغوريلا . فهى عند ما تكون على الأرض ، غالباً ما تستعمل أطرافها الأمامية وتجرى على عُقَل أصابعها على هيئة أشد ما تكون بعداً عن الهيئة الإنسانية . وأذرعها أطول نسبياً من أذرع الإنسان ولها طرائق فى التسلق مميزة لها . إذ هى تتأرجح بأذرعها أكثر مما تتأرجح القردة ولا تقذف نفسها بقفزة من القدمين شأن القردة إذ ليس لها ذيول تعينها . بل لها طراز للتسلق قد تطور تطوراً خاصاً . ولكن الإنسان يسير على هيئة حسنة ويجرى فى سرعة عظيمة توحى إليك وجود نسب مديد له على الأرض . هذا إلى أنه لا يستطيع أن يحسن التسلق اليوم بل يتسلق وهو على جانب الحذر والتردد .

ومعقول بداهة أن البشير بمجىء الإنسان وأشباه الإنسان وهو الذى سنصفه لك الآن ، كان فى مبتكر الزمن الكاينوزوى وهو الزمن الثالث أو زمن الحياة الجديدة قرداً عداء يعيش معظم عيشه على الأرض ويختفى بين الصخور أكثر مما يتوارى بين الأشجار شأن قرد جبل طارق . وكانت مقدرته على تسلق الأشجار لا بأس بها كما كان يستطيع أن يقبض على الأشياء بين إبهام قدمه وبين إصبعها الثانى (كما يفعل اليابانيون اليوم) ولكنه كان

اتخذ طريق النزول إلى الأرض ثانية جريا على ما سار عليه سلف شجرى أقدم منه عاش فى الزمن الميزوزوى (وهو الزمن الثانى أو زمن الحياة الوسطى) .

زد على ذلك ما يجدر بنا ملاحظته من أن الإنسان لا يستطيع أن يسبح بطبيعته بل لا بد له أن يتعلم السباحة تعلماً ، وكأنى بهذا معبراً ومشيراً إلى تباعد طال أمده بينه وبين الأنهار والبحيرات والبحار . وواضح جلى أنه قلما مات مثل هذا المخلوق فى الماء تحت ملابسات تجعله يخلف عظاما تتحول فيما بعد إلى حفريات .

ويجب علينا أن نتذكر فيما نتذكر من النقائص الكثيرة الأخرى التى تنسب إلى السجل الجيولوجى ، أنه يحتوى بالضرورة على أدلة جمة تدل على الماء وحده أو على مخلوقات المستنقعات أو على مخلوقات سهلة الغرق كثيرته . والراجح أن الأسباب التى تجعل أى أثر من أسلاف الثدييات نادراً صعب المرام نسبياً فى الصخور الميزوزوية هى نفس الأسباب التى جعلت آثار من عسى أن يكونوا أسلافاً للانسان نادرة يعسر العثور عليها نسبياً فى الصخور الكاينوزوية . ويكاد يكون كل ما لدينا من المعلومات عن الانسان الأول مأخوذاً بأسره من بعض كهوف لجأ إليها وترك فيها من بعده أثراً . وكانوا قبل ذلك يعيشون ويموتون فى العراء أو فى الغابات حتى حل العصر البلايستوسينى ذوو الجو المتطرف فاستنفدت أجسامهم أو تحللت تحللا تاماً .

وفضلا عن ذلك فإن أسلاف الإنسان لم تكن فى أى يوم من أيامها جنساً وفير العدد جداً شأنها فى ذلك شأن القردة الكبيرة اليوم . ولم يكونوا مثلا كالخيول البرية أو الغزلان التى تستطيع أن تعيش رعائل وأسراباً ، ويمثلها مئات وآلاف من الأفراد فى كل جيل ، إن لم تمثلها الملايين . ولا بد أن يكون كثير من هذه العاشبات قد ابتلعه الماء أو اجتذبته فيه التماسيح أو قتلت فى الوحل قرب مستقاها ، وبهذه الطريقة تتحول فى سهولة إلى حفريات . وعلى نقيض ذلك تسير القردة الكبرى فرادى أو مثنى مثنى وخلفها طفلها أو طفلاها وهى تتجول فى مساحات فسيحة باحثة عن طعامها وتطارد من ينافسها من أبناء جلدتها ، فهى مخلوقات منفردة يحتاج كل فرد منها لنفسه إلى قطعة أرض . وهى تحتاج إلى طعام من نوع خاص جداً . ومن المشكوك فيه أن يكون فى العالم بأجمعه أكثر من بضع آلاف من أفراد الغوريلا بل قد لا يجاوز عددها بضع مئات . وربما مرت فى العالم منها أجيال بأسرها دون أن يدخل فرد واحد منها فى عداد الحفريات . ولدينا طائفة من الأسباب تحملنا على الاعتقاد بأن سلف الإنسان كان قرداً منفرداً من طراز يشابه تلك . وأنه كان يتجول وحيداً أو فى عائلات صغيرة على مساحات متسعة . ولا شك أن من الجائز أن عشرات

من مثل هذه الأنواع المتقاربة التي تعيش في مثل هذه الظروف ربما انتهت إنتهاء تاماً ولا تكاد تترك بعدها أثراً واحداً . ولهذا ندرت الفرص التي يعثر بها الباليونتولوجيون (علماء الكائنات البائدة) على مثل ذلك الأثر .

ومن الخير أن نتذكر أيضاً أنه ما يزال واجباً علينا أن نفحص سجل الصخور فحصاً دقيقاً وافياً . لأن ذلك السجل لم يدرسه غير أفراد قلائل وفي مدى بضعة أجيال فقط . والواقع أن غرب أوربا هو الذي فحص من هذه الوجهة وحده وربما كان هناك بل الراجح أنه توجد آلاف من الرواسب تحتوي أجزاء وآثاراً من آثار الإنسان وأسلافه مما لا يزال سليما لم تمسسه يد بشر . ولا بد أن تكون أشد الأدلة إثارة وإيضاحاً مخبوءة في آسيا وفي الهند والهند الشرقية أو في أفريقيا ، فأما في أمريكا فإن وجود شيء شبيه إنساني بها يبدو أقل رجحاناً وربما كان ما نعرفه اليوم عن الإنسان الأقدم ضئيلا جداً بالنسبة لما سوف نعرفه قريباً .

ويبدو أن القردة الكبرى والقردة العادية كانت قد داخلها التفريق بين الأنواع عند مقتبل الزمن الكاينوزوي . وهناك عدد من القردة الكبرى في العصر الأوليجوسيني Oligocene والميوسيني Miocene لابد لنا من أن نستكشف علاقة أحدها بالآخر وبقرنائها من أشباه الإنسان التي سنصفها من توّنا . ونستطيع أن نذكر لك بين هذه القردة الدريوبيت Dryopithecus الذي عاش في العصر المايوسيني والذي له فك قريب الشبه جداً بفك الإنسان . وقد وجد في تلال سواليك Siwalik في الهند الشمالية بقايا قردة شائقة جداً يتبين المرء في فصيلتين منها هما السيفابيت Sivapithecus والباليوبيت Palaeopithecus بعض ملامح تكاد تكون إنسانية . ولا بد أن نوع Propliopithecus البريجوبيت الأوليجوسيني في مصر كان مخلوقاً شائقاً جداً . كان قرداً كبير الشبه بالإنسان صغيراً في حجم القطة الصغيرة ولعله أحد أفراد السلسلة التّوّية لأسلاف القردة الشبيهة بالإنسان التي تعيش اليوم . كما كان أيضاً وثيق القربى بالأصل السلفي الذي نسل منه الإنسان .

والراجح أن كل هذه الحيوانات وكل هذه الأشكال القريبة من الإنسان كانت تستعمل الآلات ويصور لنا شارلس داروين بعض قردة البابون وهو يكسر البندق بالأحجار ويستعمل الأوتاد يزحزح بها الأحجار منقباً عن الحشرات ورسمه كذلك وهو يستعمل العصي والأحجار في الضرب والقذف . ويصنع الشمبانزي لنفسه فوق الشجر نوعاً من الخصاص بلفّه الأغصان بعضها حول بعض . وقد وجدت في طبقة من طبقات العصر الأوليجوسيني في مدينة بونسل Boncelles في بلجيكا أحجار منحوتة ، ظاهر أنها نحتت لتستعمل . ومن المحتمل أن

يكون الميل إلى إستعمال الآلات موجوداً من قبل فى الأسـلاف الميزوزويين الذين يلوح أننا نتحدر منهم .

٢ — أول أثر للمخلوقات الشبيهة بالإنسان

من بين أقـدم آثار بعض المخلوقات الأقوى شبهاً بالإنسان من أى قرد يعيش على الأرض عـدد من قطع الظران والأحجار ، منحوتة ومصوغة صوغاً غليظاً جداً ليسهل إمساكها باليد ، ولعلها كانت تستعمل بلطات يدوية . وكثيراً ما بلغت هذه الآلات الحجرية Eoliths المبـكرة من الخشونة والبساطة حداً آثار حولها جدلا دام زماناً طويلا مداره هل تعـد هذه المنتجات طبيعية أو إصطناعية ؛ وكان المستر هاريس من بين رواد الفـكرة الثانية المتقدمين ، وهو بدال بمقاطعة كنت Kent وأحد أولئك البـاحثين الدقيق النظر المتواضعين المخلصين الذين تدين لهم الجيولوجيا البريطانية بالشىء الـكثير . وفى أول الأمر تناول علماء التاريخ القديم فى عصره آلاته الحجرية ، بالشىء الـكثير من ألوان السخرية والتهكم ولـكنه اليوم يجد من الأوساط العلمية نصيراً له فى الأعتراف بالأصل الشبه الإنسانى الذى تنتمى إليه كثير من نماذجه . ويجب أن نقرن بالفضل معه المستر و. لويس أبوت W. Lewis Abbott الجوهرى بمدينة سانت ليونارد فهو الذى كانت خبرته فى تركيب الأحجار ذات قيمة قصوى إبان تلك المناقشـات . على حين أن أبحاث المستر ريدموير Reid Moir فى رواسب إيست إنجليا East Anglia التى ترجع إلى العصرين البلايوسيني والبلايوستوسيني جاءت عظيمة القيمة والأثر فى علاقتها بالموضوع كله .

ويرجع الجيولوجيون تاريخ أقدم هذه الآلات إلى العصر البلايوسيني فـكأنها جاءت قبل العصر الجليدى الأول . غير أنها توجد أيضاً طوال الفترة الأولى بين عصرى الجليد الأول والثانى . ولسنا نعرف عظاماً أو أى بقايا أخرى فى أوربا أو أمريكا متخلفة عن هذه المخلوقات شبه الإنسانية التى عاشت قبل نصف مليون من السنين ، وهم الذين اصطنعوا واستعملوا هذه الآلات . وهناك مستثنى واحد مشـكوك فيه وهو ضرس وجـد فى حصباء تعود إلى العصر البلايوسيني الأعلى فى سنيك جريك Snake Greek بنبراسكا ويظن بعضهم أنه ينتسب إلى مخلوق أطلقوا عليه إسم الهسبروبيت Hesperopithecus (أى القرد الغربى) وهو مشوه تشويهاً كبيراً وربما لم يكن ضرساً لأى قرد إنسانى إصالة بل لأحد الحيوانات الداخلة فى الحفريات ولـكن وُجـدت فى ناحية ترنل Trinil بجزيرة جاوة

فى طبقات يقال إنها تتفق إما مع العصر البلايوسينى المتأخر أو مع عصر الجليد الأول الأوروبى والأمريكى بعض عظام متناثرة . هذه العظام لمخلوق ربما كان على شاكلة صناع هذه الآلات . وقد وجدت كذلك قمة جمجمة فى منتصف الطريق بين مخ الشمبانزى ومخ الإنسان . ولـكن عظم الفخذ إنما هو عظم مخلوق مهيأ للوقوف والجرى تهيؤ الإنسان ، وله تبعاً لذلك مثل حريته فى استعمال يديه . ولم يكن ذلك المخلوق إنساناً ، وكذلك لم يكن قرداً شجرياً كالشمبانزى . بل كان قرداً يسير على قدميه . وقد سماه علماء الطبيعة (الإنسان القردى السائر Pithecanthropus Erectus) وليس لدينا حتى اليوم عظام متخلفة عن صناع الآلات الأوروبية European Eoliths فنحن لا نستطيع أن نكوّن عنهم صورة إلا على سبيل التوهم والتخمين .

وبينما كان هؤلاء الرجال المبكرون أو أشباه الإنسان أو قل منتحلو الإنسانية من أصحاب الآلات يهيمون على وجوههم فى أوربا منذ أربعمئة أو خمسمئة ألف سنة ، كانت هناك أصناف من الماموث والـكركدن وفرس بحر ضخم الجثة وكلب ماء هولة وجاموس برى Bison وماشية برية تعيش كلها فى عالمهم . وكان هناك أيضاً خيول متوحشة . وكانت النمور ذات الأسنان الحسامية[١] كثيرة العدد . وليس هناك أى أثر يدل على الأسود أو النمور الحقة فى أوروبا فى ذلك الزمان . بيد أنه كانت هناك دببة وقنادس Otters وذئاب وضرب من الخنزير البرى . وربما كان شبه الإنسان المبكر يقوم بدور ابن آوى حيال النمر الحسامى الأسنان فكان يجهز على الأجساد بعد ما يشبع منها الثانى جوعته .

٣ — شبه الإنسان الهايدلبرجى

لا يعرف أول فرد من أفراد النوع الإنسانى المسمى Homo فى السجل الجيولوجى إلا على صورة فلذة من العظم هى عظمة فك . وقد وجدت عظمة الفك هذه فى حفرة تؤخذ منها الرمال بالقرب من مدينة هايدلبرج على بعد ثمانين قدماً من سطح الأرض وهى ليست عظم فك لإنسان بالمعنى الذى نفهمه الآن . بيد أنها إنسانية من كل الوجوه فيما عدا شيئاً واحداً هو أنه ليس بها البتة أى أثر للذقن . وهى أضخم من عظم فك الإنسان . ويرى العلماء أن ضيقها من الخلف لم يكن ليعطى اللسان براحاً يساعده على النطق الواضح البين . وهو ليس عظم فك قرد إذ أن أسنانه إنسانية وقد سمى هذا العظم الفكى باسم Homo Heidelberqensis أى الرجل الهايدلبرجى أو باسم Palaeoanthropus Heidelbergensis حسب التقدير

(١) Sabre Toothed Tiger الببر (النمر) السيفى الأسنان

الذى كوّنه العلماء المختلفون عن درجة إنسانيته أو شبه إنسانيته . وكان يعيش فى عالم لا يبعد كثيراً عن العالم الذى كان فيه شبه الإنسان السابق له ، صاحب الآلات الأولى . والرواسب التى وجدت فيها تلك العظمة تدل على أنه قد وجد معها فى العالم أفيال وخيول وخراتيت وجاموس برى وضرب من الإبل وما إليها . ولكن النمر الحسامى الأسنان كان آخذاً فى الزوال كما كان الأسد آخذاً فى الانتشار فى أوروبا . وآلات هذه الفترة وهى المعروفة بالفترة (الشيليانية Chellean) تمتاز بتقدمها تقدماً جسيما جداً عن مثيلاتها فى العصر البلايوسينى وهى جيدة الصنع على أنها أضخم كثيراً من أى آلات إنسانية حقيقية . وربما كان لرجل هايدلبرج جسم كبير جداً وأطراف أمامية كبيرة تتناسب مع حجم الفك العظيم ، وخصيصته ، وربما كان مخلوقاً مشعراً غريب المنظر غير إنسانى فى هيئته .

٤ — شبه الإنسان البلتدونى Piltdown

علينا أن نقلب صفحات السجل مدة ربما امتدت مئة ألف سنة بحثاً وراء ما يلى ذلك من بقايا أى شىء إنسانى أو شبه إنسانى . ثم تنكشف لنا فى طبقة تنسب إلى عصر ما بين الجليد الثالث Interglacial الذى يظن أنه ابتدأ منذ مائة ألف سنة ودام خمسين ألفا — أجزاء مهشمة لجمجمة كاملة . والطبقة مكونة من حصباء ربما كان الماء حملها من طبقات حصبائية أقدم منها . وربما كانت أجزاء هذه الجمجمة قديمة قدم العصر الجليدى الأول . وتدل البقايا العظمية التى كشفت بمدينة Piltdown بمقاطعة ساسكس Sussex على مخلوق ما زال يصعد من درجة شبه الإنسان صعوداً فى غاية البطء والتدرج .

وقد وجدت أول قطع عثر عليها من هذه الجمجمة فى حفرة كانوا ينقلون منها زلطاً لرصف الطرق فى ساسكس . ثم تواصل التنقيب فى أكوام ذلك المحجر حتى عثر على تلك الجمجمة جزءاً جزءاً وحتى أمكن ضم أجزائها بعضها للبعض . وهى جمجمة سميكة ، أسمك من أية جمجمة يحملها أى جنس إنسانى يعيش ، ولها سعة مخية وسط بين سعة مخ (الإنسان القردى السائر) والإنسان . وقد سمى هذا المخلوق باسم إيون تروب Eoanthropus أى الإنسان الفجرى . ووجدت فى نفس هذا المحجر أسنان لكركدن وفرس بحر وعظمة ساق غزال بها بعض حزوز ربما كانت مواضع قطع . وقد وجدت كذلك أداة عجيبة مصنوعة من عظم الفيل تشبه فى شكلها المضراب . ووجدت أيضاً بين هذه البقايا المتناثرة عظمة فك ظن فى بادئ الأمر — وكان هذا الظن طبيعياً — أنها تنتسب إلى الإنسان الفجرى . ولكن

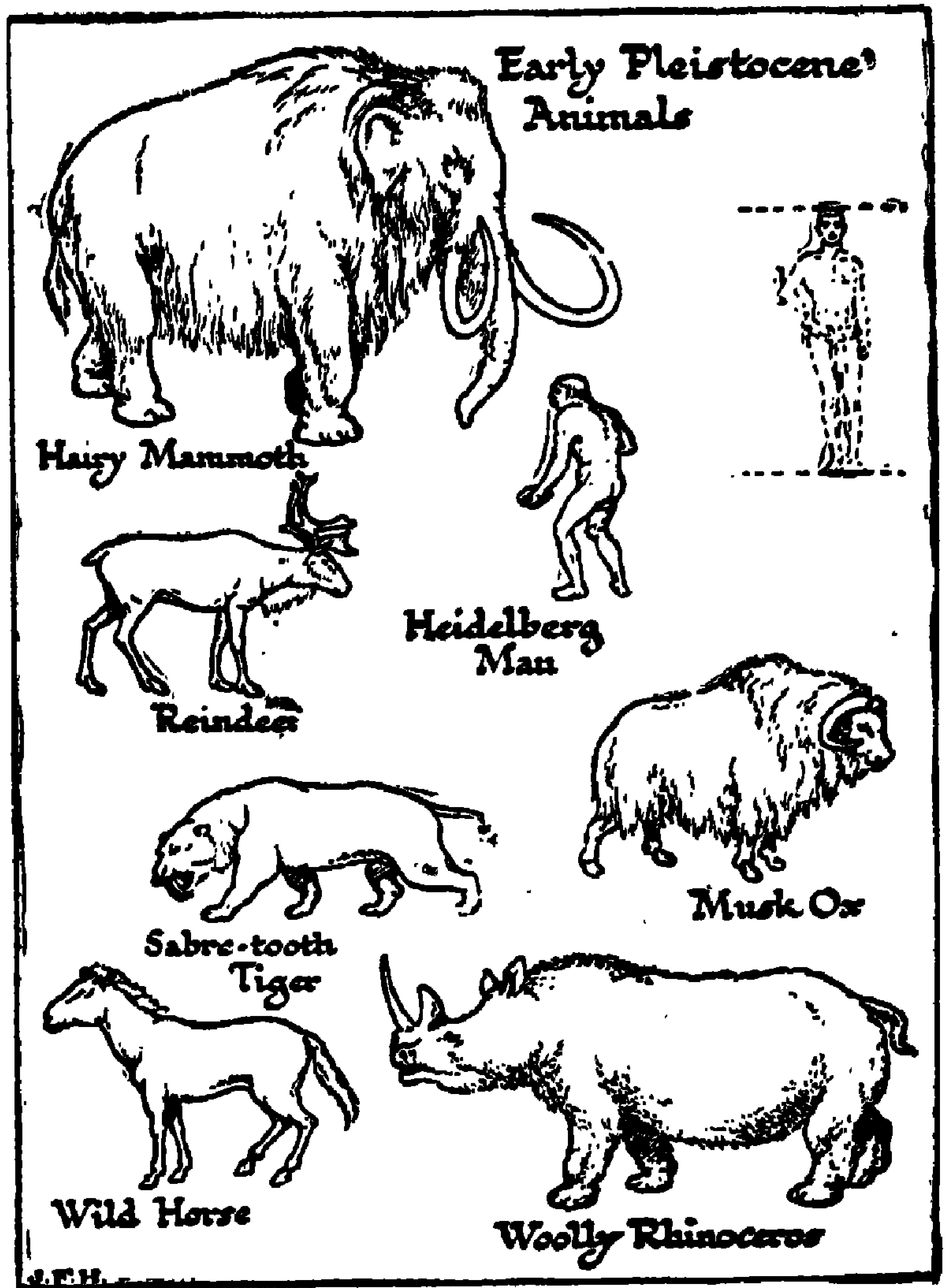
عدل العلماء عن هذا الرأى فيما بعد ورجعوا أنهـا عظمة أحد الشمبانزى فإنها تشبه عظام الشمبانزى شبهاً عجيباً . ولـكن السير آرثر كيث أحد الثقات العظام فى هذه المسائل ينسبها بعد تحليل واف شامل فى كتابه (قِدم الإنسان) بطبعته الحديثة ١٩٢٥ إلى نفس الجمجمة التى وجدت معها . وهى بوصف كونها عظمة فك تقل فى خصيصتها الإنسانية كثيراً عن الرجل الهايدلبرجى الأقدم منها عهداً . على أن الأسنان أقرب شبهاً من بعض الوجوه إلى أسنان الإنسان الحالى .

وقد حملت عظمة الفك السير آرثر كيث على الظن بأن الرجل الفجرى ليس مخلوقاً يمكن وضعه موضع سلف الإنسان المباشر وذلك على الرغم من تلك الـكنية التى يحملها وهى الإنسان الفجرى . كذلك هو لا يمكن أن يكون فى درجة وسط بين الرجل الهايدلبرجى والرجل النياندرتالى الذى سنصفه لك من توّنا والسير آرثر يرى أنه لا يتصل بسلف الإنسان الحقيق إلا بقدر ما يتصل الأورنج بالشـمبانزى . فهو فرد من أفراد عدد من أنواع القردة العدّاءة الشبه الإنسـانية التى كان لها ذكاء يفوق ذكاء القردة ولئن لم يكن منحدراً من تلك السلالة الإنسانية الملـكية فقد كان على كل حال يمت بصلة رحم وثيقة تجعله عديلا لها .

وبعد تلك البارقة التى لاحت لنا بهذه الجمجمة لا يعطينا السجل مدى قرون طويلة كثيرة العدد إلا آلات من الظران مطردة التجويد . ولقد ذهبت كل عظام المخلوقات التى صاغتها كما ذهبت كل الأشياء الخشبية والجلدية التى كان صانعوها يستعملونها . فنى كل شىء منها وذهب هباء . وكان لا بد من أن يعفّى النسيان على آثاره لولا هذه الأحجار . ومن أعجب تلك الأشكال شكل فى هيئة نعل ذى وجهين أحدهما مكسور بطرقة واحدة والآخر مشغول . ويستطيع الأركيولوجيون (علماء القديم) أن يميزوا مع إستمرار الزمان بالسجل محكّات (مكاشط) ومخارز ومُدى وخناجر وأحجاراً معدة للقذف وما إليها .

والتقدم فى هذه الآونة أسرع وأنشط إذ يبدو على شـكل البلطة اليدوية تحسن واضح ملحوظ فى مدى قرون قلائل . ثم يتلو ذلك عدد كبير من البقايا . وكان العصر الجليدى الرابع آخذاً فى الصعود إلى أقصى ذروته . وقد أخذ الإنسان يتجه إلى الـكهوف ويترك آثاره فيها . فقد وجدت بقايا إنسانية فى كرابينا **Krapina** بكرواتيا وفى نياندرتال بالقرب من دوسلدورف وفى اسباى **Spy** وهى جماجم وعظام لمخلوق لا شك فى إنسانيته . فنى زمان ما يرجع إلى خمسين ألف سنة خلت أو أكثر ظهر الرجل النياندرتالى المسمى كذلك باسم **Homo Antiquus** أو **Homo primigenius** وهو كائن إنسانى مقبول تماما . وليس

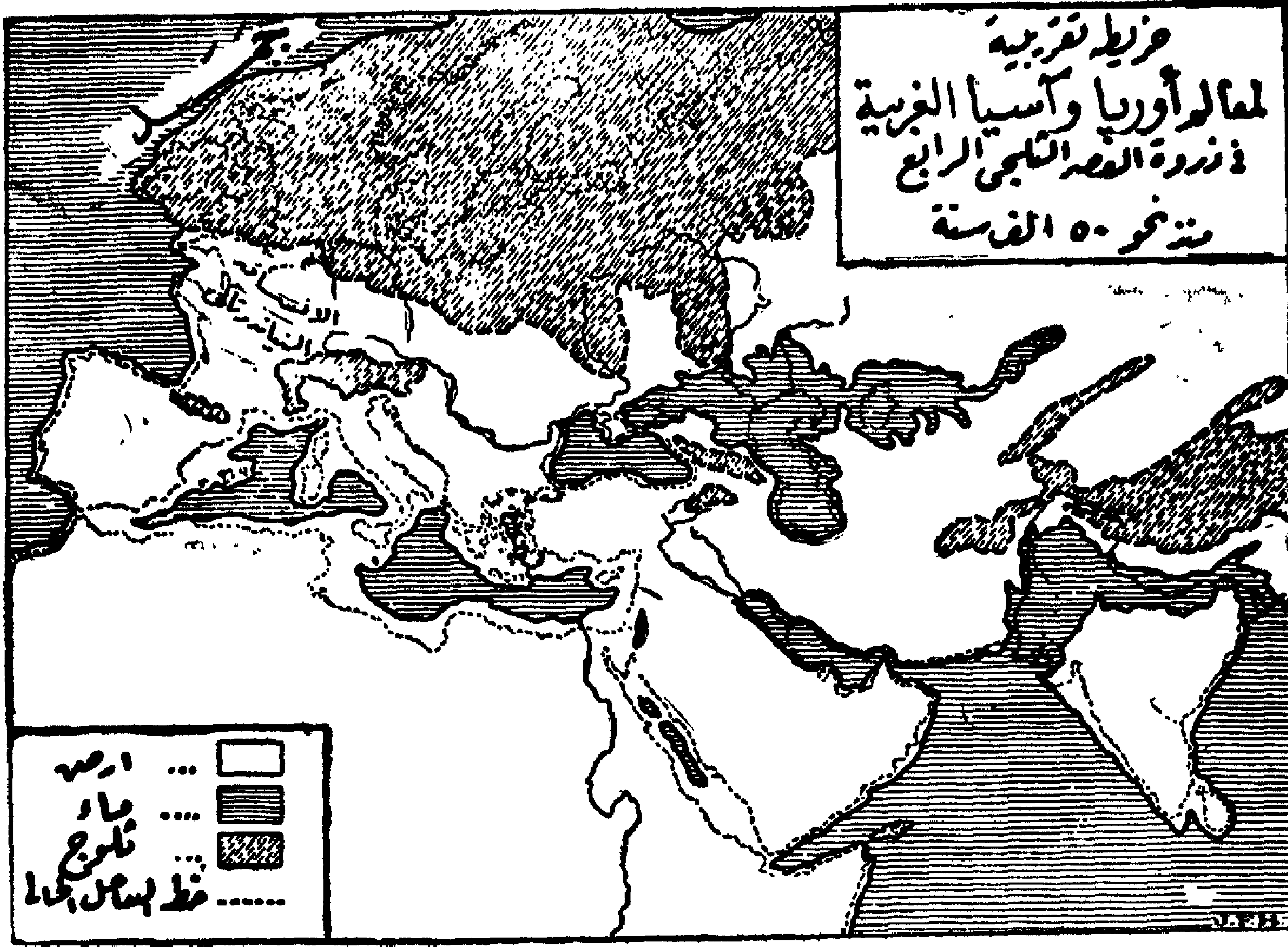
إبهامه معادلا فى مرونته واستعمالاته لإبهام الإنسان . وكان ينحنى إلى الأمام . إذ لم يكن يستطيع أن يحمل رأسه منتصباً كما يفعل الناس اليوم . ولم تكن له ذقن وربما لم يكن يستطيع النطق والكلام . وكانت هناك فروق غريبة بين مينا أسنانه وأسناخها والفضاء الذى فى لبها وبين أسنان كل من يعيشون اليوم من الناس . كان غليظ التركيب بل لم يكن فى الواقع من النوع الإنسانى بالضبط . ولكن لامشاحة فى نسبته إلى الجنس الإنسانى Genus Homo ولم يكن ولا شك منحدراً من الإنسان الفجرى (الايونثروب) ولكن عظم فكه يشبه عظم الفك الهايدلبرجى شبها يجعل من الممكن أن يكون الرجل الهايدلبرجى من نفس دمه وجنسه وإن يكن أثقل منه حركة ووزناً وأسبق منه بألف قرن خلت .



(١١) حيوانات العصر البلايوستوسيني المبكر وهى المعاصرة لأقدم أنواع الإنسان (قبل ظهور الإنسان الحق)
يلاحظ الرجل الهايدلبرجى والماموث الشعرى وغزال الرنة وثور المسك والنمر السيفى الأسنان والحصان الوحشى والخرتيت الصوفى (الرجل الحق بطول ٦ قدم)



(١٢) الإنسان القردى


خريطة تقريبية
لمعالم أوروبا وآسيا الغربية
في ذروة العصر الثلجي الرابع
منذ نحو ٥٠ ألف سنة
أرض
ماء
ثلوج
خط الساحل الحالي

(١٣)

الفصل السابع

الرجال النياندرتاليون — جنس بائد

« العصر الباليوليثى المبكر »

---

١ — العالم منذ خمسين ألف سنة

كانت معالم أوروبا وآسيا الغربية إبان عصر (ما بين الجليدى الثالث) مخالفة جداً لما هى عليه الآن وفى مستطاع علماء طبقات الأرض أن يلحظوا الفروق الإجمالية بين العصرين . ونحن نورد لك هنا خريطة لما وصلوا إليه من إستنتاجات . فقد كان هناك مساحات فسيحة عظيمة تقع فى غرب أوروبا وشمالها الغربى هى الآن تحت مياه المحيط الأطلسى . وكانت حينذاك أرضاً جافة . فكان البحر الإيرلندى وبحر الشمال وديان أنهار . وكان يتقدم من فوق هذه المساحات الشمالية ، ثم يتراجع ، ثم يتقدم من جديد: بساط عظيم من الجليد كالذى يغطى جرينلاند الوسطى فى أيامنا هذه . وسحب هذا البساط الهائل الذى كان يغطى منطقتى الأرض القطبيتين أجراماً هائلة من مياه المحيط فانحط تبعاً لذلك مستوى البحر وانكشفت مساحات عظيمة من الأرض هى اليوم مغمورة بالماء مرة أخرى . وربما كان متسع البحر الأبيض واديا عظيما منخفضاً عن مستوى البحر العام . وربما كان مناخ حوض البحر المتوسط مما ينسب إلى المناخ البارد المعتدل . فأما منطقة الصحارى الواقعة فى جنوبيه فلم تكن حينذاك صحراء تترامى فيها الصخور التى تصليها الشمس ناراً حامية ، وتنبسط الرمال التى تذروها الرياح، وإنما كانت قطراً خصباً كثير المياه . وكانت تمتد فيما بين بُسُط الجليد فى الشمال وبين جبال الألب ووادى البحر المتوسط فى الجنوب برية جرداء كان مناخها يتغير من الشدة إلى الاعتدال والدفء . ثم تعصف به عوامل الشدة من جديد طوال العصر الجليدى الرابع .

وكانت تجول فى هذه البرية التى هى اليوم سهل أوروبا الأعظم حيوانات كثيرة متنوعة . كانت هناك فى أول الأمر أفراس بحر وخراتيت وماموث وأفيال وكان النمر الحسامى الأسنان يتناقص آخذاً فى الإنقراض ، ثم لما أن أخذ الجو يشتد برداً كف فرس البحر وتبعته الحيوانات الأخرى المحبة للدفء عن التوغل كثيراً نحو الشمال واختفى النمر الحسامى الأسنان اختفاء تاماً وأصبحت الماموثات الصوفية والخرانيت الصوفية وثور المسك والجاموس البرى والثور الوحشى أى الأوروك Aurochs وغزال الرنة حيوانات شائعة . وأخلى النبات المعتدل مكانه لنبات أكثر ملاءمة للجو القطبى . وقد امتدت الثلاجات جنوبا حتى أقصى أوج العصر الجليدى الرابع (قرب خمسين ألف سنة خلت) ثم تراجعت من جديد .

وفى الفترة السابقة وأعنى بها عصر (ما بين الجليدى الثالث) كانت تجوس خلال الأرض أعداد بعينها من مجموعات عائلية صغيرة من الناس (أعنى من الإنسان النياندرتالى) . وربما من شبه الانسان الملقب بالرجل الفجرى على أنهم لم يتركوا من ورائهم شيئاً يشهد على وجودهم إلا آلاتهم الظرانية(١) ولكن ربما كان هناك بعض الأنواع الأخرى التى تصنع الآلات والتى ليس لدينا مما يثبت وجودها غير بعض الشبهات . والراجح أنهم كانوا يستعملون أيضاً عدداً جماً وأضرباً متنوعة من الآلات الخشبية ولعلهم كانوا تعلموا بمعالجتهم الخشب شيئاً كثيراً عن أشكال الأشياء واستعمال الأشكال المختلفة وهى معرفة طبقوها فيما بعد على الحجر ولبس فى وسعنا الآن شىء إلا الإعتماد على الحدس والظن فى شأن أشكال تلك الأدوات واستعمالها .

ولما بلغ الجو أقصى درجات برودته أخذ رجال نياندرتال وقد عرفوا من قبل فيما يبدو إستعمال النار ، يطلبون الإستتار تحت صفائح الصخور ويكتهفون الكهوف وبذلك يتركون من بعدهم آثاراً . وكانوا قد إعتادوا حتى ذلك الحين أن يجثموا إلى جوار النار فى العراء بقرب مورد الماء ، ولكنهم بلغوا من الذكاء حداً أتاح لهم أن يكيفوا أنفسهم والظروف الجديدة القاسية . فأما أشباه الإنسان فالظاهر أنهم لم يثبتوا إصالة إزاء ويلات (العصر الجليدى الرابع) ذلك أن أخشن أصناف الآلات تختفى من الوجود على التو .

ولم يقتصر الأمر على الإنسان إذ يتجه صوب الكهوف يكتهفها بل كان فى هذه المدة أيضاً أسد يسكن الكهوف ودب يقيم فيها وضبع يحذو حذوهما . وكان لا بد

---

(١) الظران : Flints : قطع الصوان المصنوعة على شكل أدوات فى الأزمنة القديمة

للإنسان من دفع هذه المخلوقات إلى الخارج ومن منعها من الدخول إلى تلك الكهوف حيث كان أولئك الرجال الأول يريدون أن يجثموا ويختفوا . ولا ريب أن النار كانت وسيلة فعالة من وسائل الاستبعاد والوقاية . والراجح أن الرجال الأول لم يتوغلوا فى الكهوف إذ لم تكن لديهم وسائل ينيرون بها أعماقها ، وكانوا يدخلون فيها بالقدر اللازم لابتعادهم عن غائلة الجو الخارجى . كما كانوا يختزنون الخشب والطعام فى بعض زواياها . وربما أقاموا المتاريس على مداخل الكهوف . كانت المشاعل كل ما يستطيعون إستعماله من نور للتغلغل فى أعماق الكهوف .

ماذا كان يصيد أولئك الرجال النياندرتاليون ؟ إن كل ما فى وسعهم من أسلحة يقتلون بها أمثال هذه المخلوقات الضخمة من أمثال الماموث أو دب الكهوف أو حتى غزال الرنة حرب من الخشب وهراوات خشبية وتلك القطع من الظران التى خلفوها من بعدهم وهى الآلات . والراجح أن صيدهم العادى كان الحيوان الصغير . ولكن لا شك فى أنهم كانوا يأكلون لحوم الوحوش الكبيرة ما وجدوا إلى ذلك سبيلا . وربما كانوا يترسمون خطاها إذا وجدوها عليلة أو ألفوها جريحة على أثر صراعها مع غيرها وربما نهزوا الفرصة عندما كانوا يجدونها مغلولة فى الوحل أو مأسورة فى الماء أو الثلج . ولا يزال هنود لبرادور يقتلون غزال الكاريبو Caribou عند ما تقع فى مأزق أثناء عبورها مخاضات الأنهار . وقد وجد بمدينة دوليس بمقاطعة ديفون خندق صناعى يظن أنه كان فخاً للفيلة فى العصر الباليوليثى[1] . ونحن نعرف أن جماعة النياندرتاليين كانوا يأكلون فرائسهم حيث تقع . ولكنهم كانوا يحملون العظام الكبيرة ذات النخاع ليكسروها ويأكلوها على مهل ، بدليل أننا لا نجد فى الكهوف إلا القليل من الأضلاع والفقار على حين نجد كميات كبيرة من العظام الطويلة مكسورة ومشققة . وقد استعملوا الجلود يلفونها حول أجسامهم . والراجح أن النساء كن يرتدين الجلود . وإننا لنعرف أيضا أنهم كانوا قوماً يسرين (أى يعتمدون على استعمال أيديهم اليمنى) كالرجال العصريين سواء ، لأن الناحية اليسرى من المخ (وهى التى تستخدم الشقة اليمنى من البدن) أكبر من اليمنى . ولكن بينما ترى أجزاء المخ الخلفية التى تتصل بالبصر واللمس والنشاط البدنى متطورة تطوراً حسناً نجد الأجزاء الأمامية التى تتصل بالتفكير والنطق صغيرة نسبياً . كان ذلك المخ فى حجم مخنا ولكنه كان مختلفاً عنه . ولاشك أن قد كان لهذا النوع من الناس عقلية تخالف عقليتنا جد المخالفة فلم يكن أفرادهم أبسط وأدنى منا مرتبة

(١) العصر الباليوليثى : هو العصر الحجرى القديم

فحسب ، بل كانوا يسيرون فى اتجاه غير اتجاهنا . وربما لم يكونوا يتكلمون قط أوأنهم كانوا نادرى الـكلام . ولم يكن لديهم شىء تستطيع أن تسميه لغة .

٢ — حياة الرجال النياندرتاليين اليومية

يوجد فى كتاب (الإنسان المتوحش البدائى) الذى ألفه ورثنجتن سميث وصف رائع قد أجيد تدبيجه أيما إجادة عن الحياة الباليوليثية . ومنه اقتبسنا الشىء الـكثير مما سنورده فى هذا الفصل . ويفترض المستر ورثنجتن سميث وجود حياة إجتماعية أشد اتساعاً وتجمعاً وتقسيما للعمل أشد تحديداً مما يمكن قبوله وتبريره تمام التبرير ، سيما عند مواجهته بما تلاه من كتابات من أشباه مقالة المستر ج . ج . إتكنسن القيمة الشهيرةعن(القانون البدائى) . وعلى هذا تبدلنا بالقبيلة الصغيرة التى وصفها المستر ورثنجتن سميث مجموعة عائلية تحت إمرة (شيخ مسن) وإن أدخلنا آراء المستر اتكنسن فيما يتعلق بسلوك الشيخ المسن فى صلب هذا الفصل . ويصف المستر ورثنجتن «مجثما» ومثابة للإنسان بالقرب من مجرى ماء ، لأن الإنسان الأول — ولم يكن لديه جرار وما شا كلها من آنية — كان مضطراً ولا شك أن يكون دائم القرب من معين الماء ومن بعض المرتفعات الطباشيرية القريبة التى يستطيع أن يستخرج منها بعض الصوان الذى يستخدم فى توليد النار . إذ كان الهواء قارس البرد وكانت النار ذات قيمة كبرى لأنها إن أطفئت مرة لم يكن أمر إعادة إيقادها بالأمر اليسير . فإن هم أرادوها غير متأججة تركوها فيما يرجح كامنة تحت الرماد . وأرجح وسائل إيجاد النار كانت بتهشيم قطعة من حجر النار بقطعة من الصوّان وسط قليل من ورق الشجر الجاف . وتوجد مخاليط من حجر النار والصوّان فى انجلترا كلما اقتربت الدكادك الـكلسية Gault من الطباشير .

لا جرم أن كانت تلك المجموعة الصغيرة من الناس تجثم بين هشيم السرخس والطحلب وما قاربها من المواد الجافة . ولا بد أن بعض النساء والأطفال كانوا بحاجة أن يدأبوا على جمع الوقود ليقيموا أود النار على الدوام . وهو أمر لا بد أن يصبح تقليداً ما لبث أن نما وترعرع . ثم لا يلبث الصغار أن يقلدوا الـكبار فى القيام بهذه المهمة . وربما أنشأ القوم لأنفسهم فى أحد جوانب المجثم خصاصا خشنة من أغصان الشجر تقيهم الريح .

فإذا انشغل الشيخ المسن أبو الجماعة وسيدها بطرق الصوان إلى جوار النار قلده فى ذلك الأطفال وتعلموا منه استعمال الشظايا الحادة . ولعله كان على بعض النساء أن يبحثن عن قطع صالحة من الصوان . فهن يتصيدنها من وسط الطباشير بالعصى وينقلنها إلى مجثم الجماعة .

ولا بد أن كانت فى المكان جلود . إذ يبدو لنا مرجحاً أن الناس البدائيين أخذوا يستعملون الجلود فى زمن مبكر جداً . والراجح أنها كانت تلف حول الأطفال وتستعمل للرقاد عليها عند ما تكون الأرض رطبة أو باردة . فإذا اشتغلت إحدى النساء بإعداد واحدة من تلك الجلود كشطت باطن الجلد كشطاً جيداً لإزالة ما علق به من اللحم الزائد بوساطة قطع من الظران مهذبة ، ثم هى بعد ذلك تُمَـطّ وتشد وتنشر على العشب مشدودة بأوتاد حتى تجف فى الشمس .

وكان أفراد آخرون من تلك المجموعة الإنسانية يغادرون النار ويتربصون طلباً للطعام . وما يكاد يخيم الليل حتى يجتمع الكل متلاصقين حول النار ويشبونها عالية إذ هى كانت وقاءهم من الدب الجوال وما إليه من الضوارى . وكان الشيخ هو الذكر البالغ الوحيد المكتمل الرجولة فى الجماعة الصغيرة . وكان هناك نساء وغلمان وبنات . وما يكاد الغلمان يصلون حداً من النمو يثيرون به غيرة الشيخ حتى يصطدم بهم وينتهى به الأمر إما إلى دفعهم عن الجماعة أو القضاء عليهم . وربما خرج بعض الفتيات مع هؤلاء المبعدين أو ربما أجمع اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الشبان على أن يعيشوا أحدهم مع الآخر زماناً يهيمون فيه على وجوههم حتى يسقطوا على بعض الجماعات الأخرى فيحاولوا أن يسرقوا منها أنثى . وينتهى بهم الأمر فيما يرجح إلى تنازع أمرهم فيما بينهم . وقد يحدث فى يوم من الأيام ، حين يكون الرجل قد أشرف على الأربعين أو جاوز حدها وعند ما تكون أسنانه قد سقطت ونشاطه قد أخذ يفتر ، أن ينزو عليه أحد الذكور الأصغر منه سناً ويقتله ويتولى الرياسة بدلا منه . وكانت المهلة التى أمام المسنين فى الجثم وجيزة قصيرة لا يلبثون بعدها أن يقضى عليهم . فما يكاد يداخل الضعف جسومهم ويتمشى سوء الخلق فى مزاجهم حتى تحل بهم المتاعب والدمار .

ماذا كانوا يطعمون فى الجثم ؟ .

« يوصف الإنسان البدائى عادة بأنه صائد الماموث الشعرى الكبير والدب والأسد ولكن من أبعد الأمور أن يكون الإنسان المتوحش قد اصطاد قط فى يوم من الأيام حيواناً يزيد فى حجمه كثيراً عن الأرنب الجبلى والأرنب المنزلىَ والفأر البرى بل الراجح أن يكون الإنسان هو الصيد لا الصائد .

كان المتوحش البدائى يجمع بين خلتى أكل العشب واللحم وكان يأكل فيما يأكل البندق وثمر الزان والقسطل الحلو والبندق الأرضى وجوز البلوط وكان أمامه التفاح البرى Crab Apples والكمثرى البرية والكرز البرى والتوت البرى والبرقوق البرى

وعنب الديب ، والنبيراء فاكهة شجيرات الصورب (Sorbs) — والخوخ البرّى وثمار السروْ الحزين (Yew berries) — وثمرة الزعرور ، ثم الجرجير والنبـاتات الورقية — والفطر (Fungi) — ويختار أكبر البراعم الورقية وأطراها ، والنستق (Nostoc ، وهى الخضر التى يسميها القرويون بالنجم الساقط) ، والرزومات (Rhizomes) اللحمية ذات العصـير التى تشبه الهليون (Asparagus) أو الجذور التى تحت الأرض التى للنباتات الشفية وما شابهها إلى غير هذا من لذائذ أخرى فى مملـكة النبات . وكانت أمامه الطيور : بيضها وصغارها وعسل النحل وأقراص العسل يشتارها من خلايا النحل البرى . وكان أمامه السمندل Newto والقواقع والضفادع ولا يزال اللونان الأخيران موضع تقدير الناس العظيم فى نورماندى وبريتانى بفرنسا . وكانت أمامه الأسماك ما بين حية وميتة والمحار وأم الخلول Mussels ساكنة المياه العذبة وكان فى ميسوره أن يمسك الأسماك بيده وأن يجدف مدليا فى الماء ويغوص من أجلها ويتصيدها بالأحابيل . بل كان لا بد واجداً عند ساحل البحر الأسماك والرخويات Mollusca والأعشاب البحرية . ولابد أن كانت يده تمتد إلى الطيور الصغيرة والثدييات الصغرى التى كان يستطيع أن يحصل عليها بقذفها بالأحجار وبالعصى أو بنصب الفخاخ البسيطة لها وكان يستطيع أن ينال الثعبان ودودة الأرض (الدودة النباشة) والجبرى وكان لاجرَم يتناول اليرقات Grubs والحشرات المتنوعة وعذراء الخنافس الـكبيرة واليساريع Caterpillars بأنواعها ولا يزال التمزز باليساريع موجودا فى الصين حتى اليوم حيث تباع فى الأسواق حزما مجففة . ولابد أن قد كانت العظام من أهم مواد الطعام الشديدة التغذية بعد أن تهشم وتحول إلى عجينة خشنة حُبيبية .

وهناك حقيقة ذات أهمية بالغة هى أن الرجل البدائى لم يكن ممن يدقق أو يشدد فى تناول اللحم طازجاً جداً !! إذ أنه لا بد واجده على الدوام ميتاً . فإن وجده شبه منتن لم يمنعه ذلك من أن يستمرئه ويلتذ به . ولا يزال الميل إلى الصيد الشديد النتن أو المتوسط النتن موجوداً إلى وقتنا هذا . فإذا عضه الجوع وألح عليه فإنه ربما عدا فى بعض الأحيان على بعض المستضعفين من أخوانه فأكلهم أو أكل الأطفال المرضى من الضعاف والعميان أو ممن يجده عبئاً ثقيلا عليه فى حياته ولا بد أنه كان على الدوام يبحث بتلهف عن الحيوانات الـكبرى عندما تضعف مُنّتها أو تكون فى النزع فإن لم يجدها مواتية له اكتفى بما يجده منها ميتاً او نصف رميم . ولم يكن لديه كما أسلفنا أى تمنع على الروائح الـكريهة وهى لا تزال ولا اعتراض عليها فى كثير من فنادق القارة الأوروبية حتى اليوم » .

« وكان المتوحشون يجثمون حول نارهم متراصين متقاربين ومعهم الفواكه والعظام

واللحوم الفاسدة . ونحن نستطيع أن نتخيل الرجل الشيخ ونساءه يحركون جلد منا كبهم وحواجبهم وعضلاتهم إذا ضايقهم شيء أو عضهم الذباب أو لسعتهم الحشرات الأخرى . وإنا لنستطيع أن نتخيل منخرى الإنسان الكبيرين اللذين ينمان عن الشم الحاد وهما تكرران الشم السريع للحم المنتن قبل تناوله . وكانت رائحة اللحم الكريهة والروائح الأخرى المتنوعة التى تغثى منها النفس والتى تنسب إلى مرابع المتوحشين غير مكروهة لديهم ولا مستنكرة » .

« ولم يكن الإنسان فى ذلك حيوانا وضيعا إذ أنه لم يعل عن تلك الدرجة أبداً . بل كان كما ترى حيوانا رفيعا . وأيا ما تبلغه منزلته فى أعيننا اليوم من الضعة لقد كان مع ذلك يمثل أرقى ما وصلت إليه مراحل التطور فى مملكة الحيوان فى زمانه » .

وحسب القارئ فيما تقدم هذه الصورة البسيطة لجثم الرجل النياندرتالى . ولكن النياندرتاليين أنفسهم قد تعلموا الشيء الكثير ونالوا قسطا من التقدم قبل أن يعمل فيهم الفناء عمله .

ومهما تكن طريقة تصرف رجال العصر الباليوليثى القديم فى موتاهم فإن هناك أسبابا تحملنا على الاعتقاد بأن الرجل النياندرتالى المتأخر كان يدفن بعض الأفراد على الأقل بين مظاهر الاحترام والتكريم . ومن أشهر الهياكل العظمية . النياندرتالية هيكل لشاب لعله دفن عمدا . وقد أضجع ضجعة النائم وأسند رأسه إلى ساعده الأيمن ووسدت الرأس والذراع على كومة من قطع الصوان رصت بعضها إلى بعض بعناية على شكل وسادة ، وهناك بلطة يدوية كبيرة موضوعة بالقرب من رأسه ومن حوله عظام ثور عديدة محروقة ومشقوقة كأنما أقيمت له وليمة جنازية .

وربما كان هذا الضرب من الرجال يضرب فى الأرض أو يجثم حول نيرانه أو يموت فى أوروبا أمد زمان يربو على مئة ألف سنة . وذلك على فرض أن عظمة الفك الهايدلبرجية تنتمى إلى فرد من ذلك النوع . وتلك حقبة من الزمان هائلة إلى حد يجعل كل ما تلاها من تاريخ جنسنا أمرا قريبا قرب الأمس . وكان هذا النوع الإنسانى وهو يسير فى طريقه الخاصة به يجمع لنفسه بعض تقاليد ضعيفة ويستفيد من ظروفه المحدودة . وكانت جمجمته السميكة تحبس مخه وتضيق عليه . وكان منذ بدايته إلى نهايته خفيض الحاجبين وحشيا .

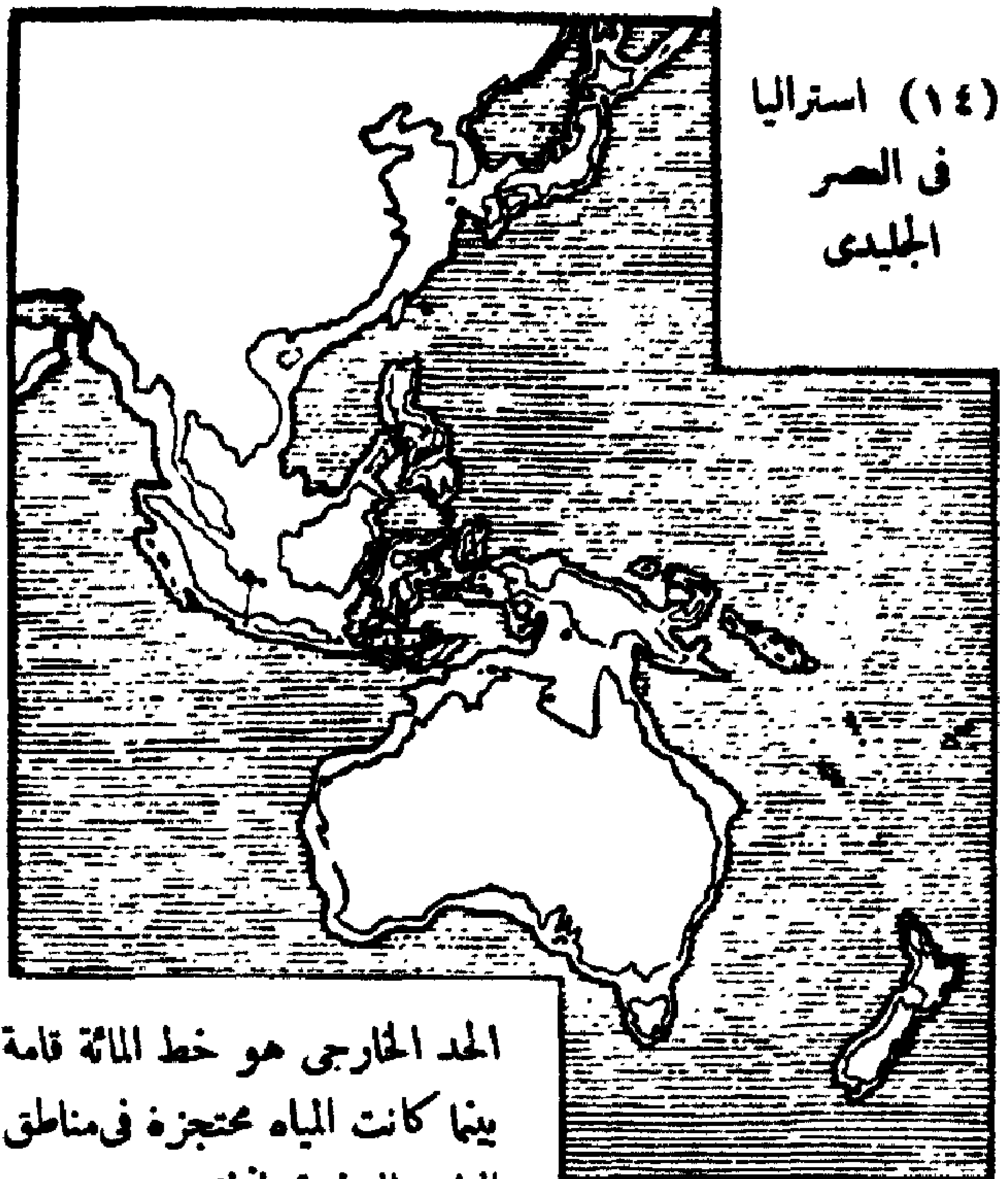
والرأى القائل بأن النوع النياندرتالى نوع بائد لم يتزاوج مع الإنسان الحقيقى رأى يعتقد فيه العلامة أوسبورن Osborn وان لم يشاطره كثير من الكتاب رأيه . فإنهم يرون أن

بعض الجماجم قبل التاريخ إنما هي ثمرة التزاوج Crosses بين الجنس النياندرتالى والأجناس الأخرى ؛ هذا إلى أنهم يتكلمون ويكتبون عن (النياندرتاليين) الأحياء فى معاصريهم من الناس . فإن أحد المشتغلين بالفراسة والملاحظة قد كتب فى الماضى عن وجود مثل هذه الأنماط فى غرب ايرلنده ولاحظها آخر فى بلاد اليونان . فهؤلاء (النياندرتاليون الأحياء) كما يسميهم العلماء لا يحملون خصائص الرقبة أو الإبهام أو الأسنان التى كان يمتاز بها الجنس النياندرتالى السابق للإنسان . فإن للاضراس فى الإنسان الحقيقى مثلا أسناخا طويلة بينما أضراس النياندرتالى (أكثر تعقيداً وتخصصا) . إذ هى سن طويلة ذات اسناخ (جذور) قصيرة وأنيابه أقل شبها بأسنان الكلب من أنيابنا . وواضح أنه كان يتطور فى اتجاه مخالف . ونحن حتى الآن لم نفحص فحصا جيداً منطقة أوروبا الغربية بحثا عن البقايا الباليوليثية وإنا فيما عدا موضع واحد هو كرابينا Krapina فى كرواتيا والجمجمة الغليلية Galilean المستكشفة حديثا ، لندين بكل ما نعرفه عن النوع النياندرتالى لتلك المنطقة .

ولا مراء أن سلف الإنسان الحقيق Homo Sapiens وهو نوع يشمل (التسمانيين) كان وثيق الشبه بالرجل النياندرتالى ونظيراً له . ونحن لم نبتعد عن ذلك السلف بعداً يتيح لنا أن نمحو من أنفسنا الطراز النياندرتالى بل ولا الأنماط شبه النياندرتالية . ووجود أمثال هذه الانماط يثبت أن النوع النياندرتالى (صانع الأدوات الشليانية والموسترية (Mousterian) اختلط بالإنسان الحقيق فى بقاع أوروبا أكثر مما يشهد ذوو الوجوه القردية من الناس بوجود تزاوج بين الإنسان والقرود . أو أكثر مما يثبت أقوام لهم وجوه تشبه الخيل أن هناك عرقا من سلالة الخيل فيمن حولنا من الناس .

٣ — آخر رجال العصر الباليوليثى

عندما اكتشف الهولنديون تسمانيا وجدوا فيها جنسا إنسانيا منعزلا لا يزيد فى تقدمه كثيراً عن هذه الدرجة الباليوليتية الدنيا . ولكن ثقافة العصر الباليوليثى الأدنى كانت قد ترعرعت فى معظم أرجاء العالم فأصبحت نوعا من الحياة أكثر رفعة وأشد تعقيداً وذلك منذ عشرين أو ثلاثين ألف سنة خلت . ولم يكن التسمانيون نياندرتاليين من الوجهة العنصرية Racial إذ تدل أوعية مخهم وعظام أعناقهم وفكاكهم وأسنانهم على انعدام كل صلة لهم بالنياندرتاليين ، ذلك أنهم كانوا قوما من نفس نوعنا . وإن كانوا يمثلون مرحلة شبه نياندرتالية Neanderthaloid من مراحل نشوء وارتقاء Evolution الإنسان الحق. ولا يكاد



(١٤) استراليا
فى العصر
الجليدى

الحد الخارجى هو خط المائة قامة
بينما كانت المياه محتجزة فى مناطق
الثلج القطبية انخفض مستوى
البحر حتى أتاح للانسان الباليوليثى بلوغ تسمانيا



(١٥) الإنسان النياندرتالى



(١٦) الأدوات الحجرية فى العهد الباليوليثى

(كلها تقريبا على مقياس رسم اليد المرسومة)

أدوات العصر الموستيرى وما فوقها هى أدوات الإنســان النياندرتالى أو الشبه إنسان . أما أدوات الصف الأسفل (عصر غزال الرنة) فهى من صنع الإنسان الـكامل . ويلاحظ كبر حجم أدوات الشبه إنسان .

يتسرب الشك إلى أنه فى خلال مئات القرون التى كانت فيها جماعات رجال نياندرتال الصغيرة المتناثرة هى كل من يمثل الجنس الإنسانى فى أوروبا ، كان بنو جنسنا من الرجال الحقيقيين يتقدمون فى حياتهم فى ناحية أخرى من الأرض بخطى موازية لخطى هؤلاء مبتدئين من نفس المرحلة التى انتهى إليها النياندرتاليون والتى احتفظ بها التسمانيون ، فرتفعين بها إلى درجة عالية من القوة والتحصيل والاكمال . ولقد تقاعس التسمانيون عن سائر إخوانهم من بنى الإنسان ، أن كانوا يعيشون فى أحوال راكدة لا استثارة فيها ، وبمعزل عن كل منافسة انسانية أو مثال يحتذى . ومع ذلك فإن بقايا الحفريات القديمة حتى فى هـذا الركن المتأخر من العالم كما يقول السر أرثر كيث Arthur Keith تدل على أن الإنسان قد تقدم . فإن تسمانيي القرن التاسع عشر كانوا أخف حركة وأقل بهيمية من أقاربهم الأقدمين .

٤ — جمجمة روديسيا

وجدت فى صيف سنة ١٩٢١ لقيـة شائقة جداً فى كهف بمزرعة بروكن هل بجنوب أفريقيا . وهى جمجمة ينقصها الفك الأسفل ومعها أيضا عدد من العظام تنتسب إلى نوع جديد من الرجال هم الدرجة المتوسطة بين الرجل النياندرتالى (والرجل الحق) . وسنفيض لك القول فى ذلك النوع . ولم تكن الجمجمة متمعدنة إلا تمعدناً يسيراً . فلا بد أن كان صاحبها حيا قبل زمان لا يزيد على آلاف قليلة من السنين . ولا يزال ترتيب الطبقات فى هذه المنطقة غامضا مبهما . ولعل الرجل الروديسى كان ممن يطارد القردة الإنسانية من طراز التونج . فهذا المخلوق المكتشف حديثا (هذا الرجل الروديسى أو رجل الكهف الروديسى) يُظهر لك بعض أوجه الشبه بالرجل النياندرتالى فى بعض قسماته وفى نفس الوقت لانتبين من بقايا جسمه أى خصيصة من خصائص الرجل النياندرتالى المميزة . ذلك أن وعاء مخه ورقبته وأسنانه وأطرافه من طراز إنسانى بحت . ولسنا نعرف شيئا عن يديه ولـكن حجم الفك العلوى وسطوحه المفصلية تدل على فك سفلى له حجم يزيد على حجم فك هايد لبرج . وللحاجب فيها حواف Brow-ridges كحروف حاجب القردة تضارع فى هيئتها ما لدى الياندرتاليين . ويبدو أن ذلك المخلوق يكاد يكون فردا من أفراد الجنس البشرى له ضرب قردى من الوجوه . ولعله عاش حتى العصر الإنسانى كما كان معاصراً للإنسان الحق فى جنوب أفريقيا . وربما كان مصدر فزع لأطفال الإنسان الحق .

وقد وصلتنا فضلا عن ذلك من أجزاء كثيره فى أفريقيا الجنوبية بقايا للجنس الإنسانى

الحق منهـا جنس البوسكوب وهو قديم جداً وإن كنا لم نستطع بعد تحديد مدى قدمه . وكان لرجال البوسكوب جماجم أقرب إلى البوشمن الأحياء منها إلى أى جنس آخر موجود ولـكنها كانت أكثر سماكة وأكبر كثيرا بل إن لها على التحقيق سعة مخية أكبر من سعة الجماجم الأوربية الحديثة . كانوا شعبا من البوشمن أضخم من الحاليين حجما ولعلهم كذلك أذكى عقولا . وقد يكونون أقدم أنواع الإنسان الحق المعروفة . فبعض الجماجم المكتشفه فى (وادجاك Wadjak) بجزيرة جاوه قبل اكتشاف الأنسان السائر (Pithecanthropus) بقليل ترجع فيما يرجح إلى العصر البلايوستوسينى تبدو كأنها هى القنطرة التى تصل مابين شق المسافة بين رجل روديسيا وسكان استراليا السود Aborigines على حين أن جمجمة تالجى Talgai التى وجدت فى طبقات العصر البلايوستوسينى بكوينزلاند تمثل طرازاً استراليدى Oustraloid يختلف عن طراز الاستراليين السود الحاليين اختلافا أهم مظاهره زيادة فكه عن فكا كهم حجماً

الفصل الثامن

العصر الباليوليثى التالى للجليد

الإنسان وظهور أول إنسان حقيقى

(العصر الباليوليثى المتأخر)

١ — مجئ أناس يشبهوننا .
٢ — جغرافية العصر الباليوليثى .
٣ — خاتمة العصر الباليوليثى .
٤ — لا وجود لأشباه الإنسان فى أمريكا .

١ — مجىء أناس يشبهوننا

عم طراز الرجل النياندرتالى أوربا مدة تقدر على الأقل بعشرات الآلاف من السنين . كانت هذه المخلوقات القريبة من الإنسانية سائدة منتشرة أبان عصور لو قورن بها التاريخ كله لبدا كأن البارحة . وإذا صح أن الفك الهايدلبرجى فك لأحد النياندرتاليين ، وإذا لم يكن هناك خطأ فى تقدير عمر ذلك الفك فإن الجنس النياندرتالى يكون قد عمر مئتى ألف سنة . وفى آخر الأمر أى منذ زمن يتراوح بين أربعين ألف سنة وخمسة وعشرين ألف سنة ويوم راح (العصر الجليدى الرابع) يتجه صوب الاعتدال ظهر على مسرح الحياة الأوروبية طراز إنسانى مخالف ، قضى فيما يبدو على (الرجل النياندرتالى) .

والراجح أن هـذا الطراز الجديد تطور فى جنوب آسيا أو أفريقيا أو فى أراضى تغمرها اليوم مياه البحر المتوسط . ولسوف يزيد علم الناس بمراحله الأولى مع زيادة اكتشاف بقاياه وجمعها وبعد تكاثر الأدلة والشواهد . فنحن لا نستطيع الآن إلا أن نحدس اين وكيف نشأ هؤلاء (الرجال الحقيقيون) الأول ناسلين من بعض الأجداد الأكثر شبها بالقردة خلال العصور البطيئة ، مسايرين فى ذلك أبناء عمومتهم النياندرتاليين . ظلوا يحصّلون خلال مئات القرون : مهارة فى أيديهم وأطرافهم وقوة وضخامة فى المخ فى تلك البيئة التى لا تزال مجهولة وكانوا من قبل قد أصبحوا فوق رجال نياندرتال رقيا وذكاء عندما ظهروا لأبصارنا أول مرة . وكانوا قد انقسموا من قبل إلى قسمين شديدى التميز أو أكثر من قسمين . فهؤلاء النازحون لم يهاجروا إلى أوروبا هجرة بالمعنى الدقيق الذى نفهمه من الكلمة، ولكن لما كان المناخ

يتحسن قرناً بعد قرن فأنهم تتبعوا الطعام والنبات اللذين اعتادوهما وقماً أخذ هذان فى الانتشار فى الآفاق الجديدة التى فتحت أبوابها لهم . كان الجليد قد أنشأ يتراجع وكان النبات قد أخذ يتزايد وكان الصيد الكبير من جميع الأنواع قد شرع يزداد عدده . وأخذت حالات تشبه حالات السهوب وشجيراتها تستجلب معها رعائل عظيمة من الخيل البرية . ويضع علماء الأنثولوچيا (أى علماء الأجناس البشرية وعلاقتها بعضها ببعض وخصائصها المميزة) هذه الأجناس الإنسانية الجديدة فى نفس النوع الذى ننتسب نحن إليه ويضعونها مع كل الأجناس البشرية التالية لها تحت اسم مخصص جامع هو (الرجل الحق) . وكانت لهم أوعية مخ وأيد تامة السمة الإنسانية وكانت أسنانهم ورقابهم من الناحية التشريحية شبيهة بأسناننا ورقابنا .

ونحن الآن على علم بنوعين متمايزين من بقايا الهياكل فى تلك المدة ، أولهما هو الشهير باسم جنس كرومانيون Cromagnon وثانيهما باسم جنس جرعالدى Grimaldi ولكن الغالبية العظمى من البقايا والمعدات الإنسانية التى نجدها تكون على إحدى حالتين : فهى إما غير محتوية على عظام إنسانية أو هى محتوية على عظام غير كافية للاستدلال منها على طرازها الجثمانى المرتبط بها . وربما وجدت أجناس أخرى متمايزة غير هذين . وربما وجدت أنماط متوسطة . وحدث أن عثر لأول مرة فى غار (كرومانيون) على هياكل عظمية كاملة لجنس هام من أجناس هؤلاء الرجال الباليوليثيين الجدد أى هؤلاء الرجال الحقيقيين . ومن ثم نشأت تسميتهم باسم الكرومانيين .

كان هؤلاء الكرومانيون شعباً طويل القامة له وجوه عريضة جداً وأنوف عالية بارزة وأمخاخ كبيرة كبرا يبعث على الدهش فإن سعة مخ المرأة التى فى كهف كرومانيون تفوق سعة مخ الرجل المتوسط العادى اليوم . وقد وجد رأسها محطماً إثر ضربة شديدة . وكان معها فى نفس الكهف هيكل كامل لرجل أسن منها ، يقارب طوله الستة أقدام وحطام هيكل عظمى لطفل وهيكلان لرجلين فى مقتبل العمر .

وكانت هناك أيضاً آلات من الظران ومحارات بحرية مثقوبة كانت تستعمل للزينة ولا شك . فهذا نموذج لأقدم الرجال الحقيقيين ولكن كشف أيضاً فى كهف (جرعالدى) بالقرب من (منتون) هيكلان يرجعان إلى العصر الباليوليتى المتأخر ولكن لهما طرازاً مبايناً للأول مباينة شديدة لما فيهما من خصائص (نجرويدية) تكاد تشير إلى الطراز (النجرويدى) إشارة صريحة . وهما يتجهان فى طرازهما صوب الجنس البسكوبى بجنوب أفريقيا الذى سبق أن ذكرناه لك . وليس هناك من شك أن علينا فى هذه المرة أن نعالج جنسين على الأقل من

الإنسان الحق متباعدين تباعداً عظيما إن لم نكن نعالج أكثر من جنسين على الراجح . وربما جاءا فى وقت واحد ، وربما يكون أفراد الكرومانيون قد ترسموا خطى الجنس الجريمالدى ، وربما كان أحدهما أو كلاهما معاصراً للمتأخرين من النياندرتاليين . ولطائفة عديدة من الثقات فى هذه النقط آراء قوية جداً ولكنها لا تزيد فى معظمها عن أن تكون مجرد آراء . وظهور هاته الشعوب الإنسانية الحقة فى العصر الباليوليثى الذى عقب الجليدى كان على التحقيق قفزة هائلة فى تاريخ الإنسانية . إذ كان لكل من هذين الجنسين البشريين مخ « أمامى » إنسانى ويد إنسانية وذكاء قريب الشبه جداً بذكائنا . وقد سلبوا الرجل النياندرتالى غيرانه ومحاجره . وكانوا فيما يبدو لنا يتفقون مع علماء الأجناس العصريين فى اعتباره نوعا مخالفاً . وعلى العكس من كل الفاتحين المتوحشين الذين يحرزون لأنفسهم نساء الجانب المغلوب ويتزوجون منهن يبدو أن الرجل الحق لم يكن ليرضى بوجود أية علاقة بينه وبين الجنس النياندرتالى : رجاله ونسائه على السواء . إذ لا أثر يدل على وجود أى تخالط بين الأجناس بالرغم من الاعتراف بأن النازلين الجدد (وكانوا أيضاً من مستعملى الظران) أخذوا يركزون أنفسهم فى نفس البقاع التى كان يحتلها سابقوهم .

ولسنا ندرى شيئا عن شكل الرجل النياندرتالى ولكن امتناع هذا التخالط يكاد يفصح لنا عن شدة اكتسائه بالشعر وعظم بشاعته أو وجود غرابة كريهة فى هيئته فضلا عن جبهته الخفيضة وحواجبه التى تشبه الخنفساء ورقبته التى تقارب رقبة القرود وقامته القصيرة . وربما كان — ذكراً أو أنثى — شديد الشراسة إلى حد لا يمكن معه استئناسه . ويقول السيرهارى جونستون فى دراسته موضوع نهوض الإنسان العصرى دراسة شاملة فى كتابه (نظرات ومراجعات) أن الذكريات العنصرية الغامضة الباقية من هذا الوحش الشبيه بالغوريلا ذى العقل الماكر والمشية الحاجلة والأجسام المكسوة شعرا والأسنان القوية والميل أو النزوع إلى أكل البشر فيما يحتمل — ربما كان الأصل فى فكرة الغول فى الشعبيات(١) .

هؤلاء الرجال الحقيقيون فى العصر الباليوليثى الذين حلوا محل النياندرتاليين كانوا قادمين على مناخ أكثر اعتدالا . وهم وإن كانوا يستعملون غيران سابقيهم ومآويهم فقد كانوا يقضون معظم حياتهم فى العراء . كانوا شعباً صياداً ، ويبدو أن بعضهم أو كلهم كانوا يصطادون الماموث والحصان البرى وغزال الرنة والجاموس الوحشى والأوروك (أى الثور الوحشى الكبير Auroch) كانوا يأكلون خيلا كثيرة . فنى مخيم عظيم فى العراء عند سوليوتر Soluetr حيث يبدو أن قد كانت لهم اجتماعات سنوية طوال قرون عدة متوالية ، يقدر

(١) Folklore : الشعبيات : الأدب الشعبي

عدد الخيول الموجودة عظامها هناك بمئة ألف حصان وذلك فضلا عن عظام غزلان الرنة والماموث والجاموس الوحشي . والراجح أنهم كانوا يتتبعون رعائل الخيل وهي من السيسيات الصغيرة الملتحية في تنقُّلها طلبا للكلأ . كانوا دائما على مقربة من حواشي الرعيل حتى لقد أصبحوا يعرفون كل المعرفة عاداته وميوله . ولا بد أن شطرا كبيرا من حياة هؤلاء الرجال كان يُقضى في مراقبة الحيوانات . ولا يزال أمر ترويضهم الخيل واستئناسها موضوعا مفتوح الباب أمام الباحثين . ولعلهم قد تعلموا ذلك تدريجيا مع انقضاء القرون . وعلى كل الحالات فإننا نجد رسوما متأخرة من العصر الباليوليثي تمثل الخيل وفي رءوسها علامات تنوه تنويهـا قويا باللجُم . ويوجد نقش يمثل رأس حصان به شيء قد يكون حبلا من الجلد أو من أوتار العضلات المفتوله . وحتى لو فُرض أنهم روضوا الحصان فإننا نشك في أنهم ركبوه أو أنه كان عندهم ذا نفع كبير بعد استئناسه . وكان الحصان الذي عرفوه سيسيا بريا له لحية تحت ذقنه ، لا يستطيع حمل الإنسان إلى أية مسافة . وليس من المحتمل أن يكون هؤلاء الرجال قد تعلموا بعد طريقة اتخاذ لبن الحيوانات غذاء لهم ، تلك الطريقة التي تكاد تكون غير طبيعية . فلئن أفلحوا آخر الأمر في ترويض الحصان لقد كان هو الحيوان الوحيد الذي يبدو أنهم روضوه ولم تكن لهم كلاب وما كانوا ليستطيعوا الاستفادة كثيرا من أي شاة أو ماشية مستأنسة .

ومما يساعدنا مساعدة عظيمة على إدراك خلة الإنسانية المشتركة بينهم أن هؤلاء الرجال الحقيقيين الأقدمين أنهم كانوا يستطيعون أن يرسموا ، والواقع أنهم كانوا يرسمون رسوما تبعث جودتهـا على الدهشة . كانوا لا شك متوحشين بالغا ما بلغت المعايير التي نطبقها عليهم . ولكنهم كانوا متوحشين فنيين ، يرسمون خيراً من أي جنس خلفهم حتى هوادي التاريخ . فيرسمون وينقشون على جوانب الصخور وعلى جدران الكهوف التي غصبوها من النياندرتاليين . وتهبط البقية الباقية من الرسوم على علماء الأجناس البشرية وهم يعصرون أذهانهم مكبين على العظام والقطع المكسرة — هبوط رسالة صريحة يتلألأ فيها نور يسطع في كل ما حوله من سدفة ظلام وعماية حدس وتخمين . كانوا يرسمون على العظام والقرون المتشعبة وينحتون أشكالا صغيرة .

ولم يكتف هؤلاء الناس الباليوليثيون المتأخرون برسم هـذه الرسوم العجيبة في جودتها والتي أمدتنا بالمعلومات ، لم يكتفوا بهذا وبالمهارة المتزايدة على ممر القرون بل تركوا لنا في قبورهم عدا هـذا معلومات أخرى عن حياتهم . إذ كانوا يدفنون موتاهم . يدفنونهم ومعهم في الغالب الحلي والطعام . وكانوا يستعملون في الدفن قدرا طيبا من الأصباغ ومن الجلي أنهم كانوا

يصبغون الجثة ومن هـذا يستطيع الإنسان أن يستنتج أنهم كانوا يصبغون أجسامهم وهم أحياء . كان الصباغ عظيم الأهمية فى حياتهم . كانوا صباغين راسخى القدم . يستعملون صباغا سوداء وبنية وحمراء وصفراء وبيضاء . ولا تزال الأصباغ التى استعملوها باقية حتى يومنا هـذا فى الـكهوف وعلى سطوح الصخور فى فرنسا وأسبانيا . ولم يظهر واحد من الشعوب الحديثة مثل هذه الميول التصويرية وأقرب الأقربين إليهم هم الهنود الحمر .

وقد استمرت هـذه النقوش والرسوم التى عملتها شعوب العصر الباليوليثى المتأخر مدة طويلة من الزمان . وهى تعرض علينا تقلبات فى الجدارة الفنية تتفاوت بينها مسافة الخلف . وكثيراً ما يكون الرسم فى أقدم مراحله بدائيا كرسوم الأطفال المهرة فذوات الأربع ترسم فى العادة برجل واحدة خلفية وأخرى مفردة أمامية كما يرسمها الأطفال إلى هذه الساعة ، إذ كانت الأرجل التى فى الجهة الأخرى فوق ما يطيقه فن الفنان وربما تكون أول الرسوم ابتدأت كما تبدأ رسوم الأطفال ببعض خدوش يغلب فيهـا العبث وكان المتوحش يخدش بقطعة من الصوان على سطح صخرة ملساء وكان يتنبه إلى بعض الخطوط والحركات Gestures فلا تفوته . على أن منحوتاتهم الصلبة لا تقل فى قدمها عن صورهم الأولى . وتبين الرسوم الأولى عجزهم التام عن تصوير جماعات الحيوانات .

ولـكن مع تقدم القرون ظهر عدد أكبر من الفنانين المهرة ، فالصور التى تمثل الوحوش أصبحت واضحة قريبة الشبه إلى حد يبعث على الدهشة . وكانوا وهم فى ذرى رقيهم الفنى ذاتها لا ينفكون يرسمون فى جانبيات Profiles كالتى يرسمها الأطفال . وكان المنظور اللازم للمناظر الخلفية والأمامية فوق ما فى طوقهم . وكان الماموث والحصان من بين أعم موضوعات تصويرهم فإن كهوف شمال أسبانيا لا تحتوى على رسوم للانسان بل لحيوانات فقط ولـكن توجـد فى شرق اسبانيا صور ترجع إلى الأزمنة المتأخرة من هذه المدة وفيها تظهر بعض صور بشرية . وكان بعض الناس أيضا يصنع تماثيل صغيرة من العاج ومن حجر الصوان . ومن بين هـذه أشكال لنساء بدينات جدا يشبهن نساء البوشمن . وكان النحت الإنسانى فى الزمان القديم الأول ميالا إلى عمل أشكال كاريكاتورية . والاشكال الإنسانية التى يمثلها ذلك النحت هى على العموم أحط بكثير من الدراسات الحيوانية من ناحية القوة والتمشى مع الحقيقة . وبعد انقضاء بعض الزمان زادت الصور التى تمثل الإنسان رشاقةً ، ونقص بعض ما فيها من خشونة . فإن المنقبين عثروا على رأس فتاة من العاج قد أحكم ترجيل شعرها إحكاما . وكان هؤلاء الناس فى مرحلة متأخرة عن هذه يخدشون ويحفرون رسوما على العاج والعظام ، ومن أطرف مجاميع هذه التصاوير

أشكال محفورة حول العظام على هيئة غريبة جـدا . وبخاصة حول قضبان من عظام الغزلان حتى ليستحيل على الإنسان أن يرى الرسم كله دفعة واحـدة . وقد وجدت أشكال اخرى مصنوعة من الطين وإن لم يكن هناك أى شعب يستعمل الفخار فى العصر الباليوليثى .

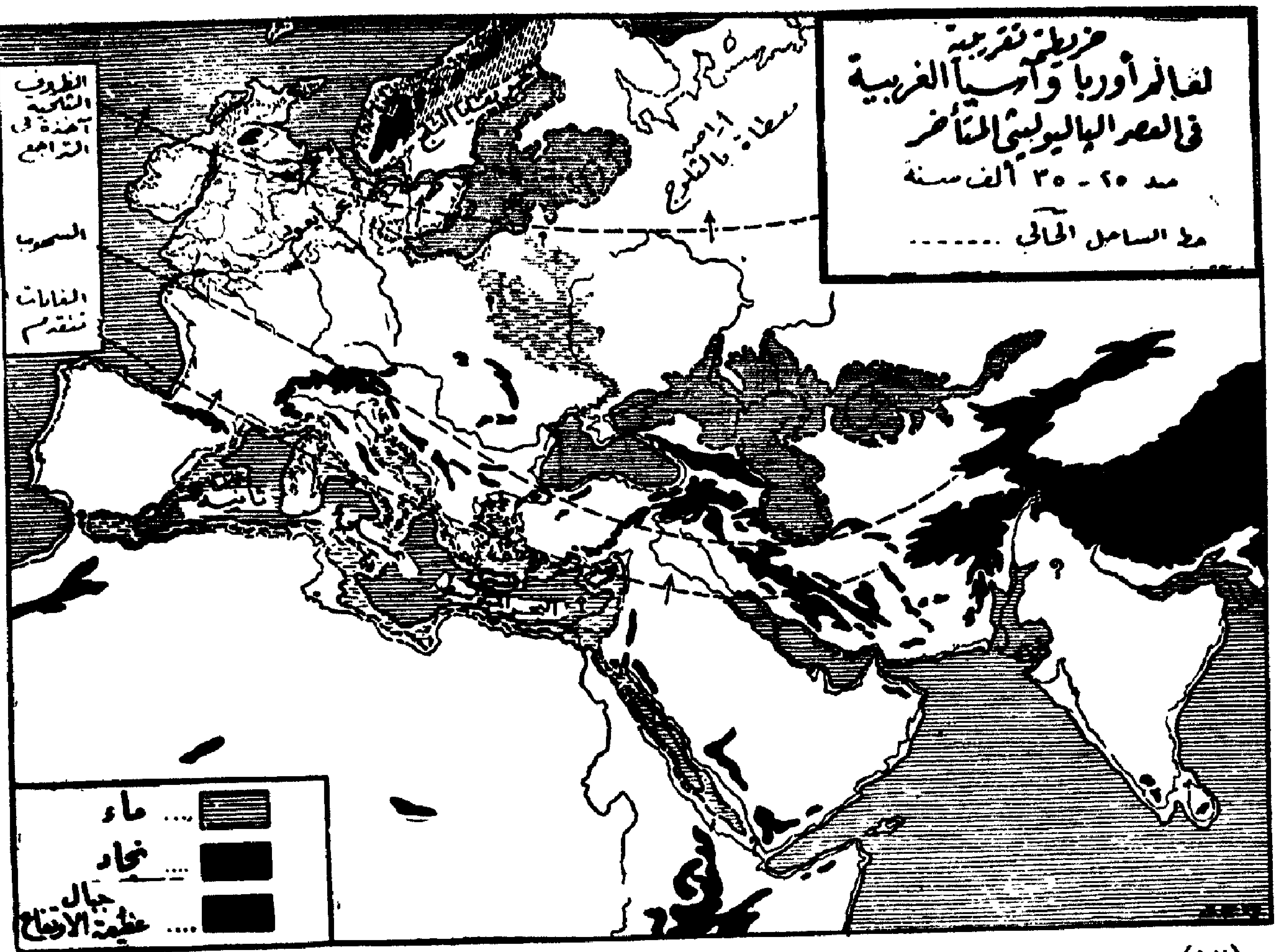
وكثير من هـذه الصور الملونة موجودة فى أعماق كهوف لا ضوء فيها . بل هى غالبا ما تكون عسيرة الدخول . فلا بد أن يكون الفنانون قد استعملوا المصابيح اثناء عملهم . وقد وجدت بالفعل مصابيح ضحلة من حجر الصابون لا بد أنهم كانوا يستعملون فيها الشحم . ونحن الآن فى حيرة تامة من أمر هذه النقوش : فهل كانت رؤية هذه الصور الكهفية بعض مشاعر الطقوس من ناحية ما أو تحت أى الظروف كانت ترى ؟ ومع هذا فالصور فى جنوبى وشرق اسبانيا ليست مرسومة فى كهوف بل على صخور تظللها أخرى ويضيئها نور حسن .

ويميز الأركيولوجيون فى الوقت الحاضر بين ثلاث مراحل رئيسية فى تاريخ هؤلاء الرجال الباليوليثيين المحدثين أى هؤلاء الرجال الحقيقيين فى أوروبا . ونحن نرى لزاماً علينا أن نذكر لك هذه المراحل ها هنا . ولـكن ربما كان من المستحسن أيضا أن نلحظ فى نفس الوقت أن من أشق الأمور وأعوصها علينا أن نتبين فى حالة طبقتين تختلفان مكانا ، أيتهما أقدم وأيتهما أحدث . فربما كنا نتأمل أجناسا مختلفة قد تكون متعاصرة وقد لا تكون ، على حين نظن أنفسنا ناظرين إلى أجناس متعاقبة ، ولا بد للقارئ أن يتذكر أننا ننظر فى مجاميع من المادة صغيرة مفككة لا تزيد فى مجموعها على بضع عشرات .

وأكبر مرحلة يتبينها الخبراء عادة هى (الأورينياكية) Aurignacian أى المأخوذة عن كهف أورينياك . وأشهر مميزاتها وجود آلات من الظران متقنة الصنع وتطور سريع فى الفن وعلى الأخص فى التماثيل الصغيرة والصور الجدارية Wall paintings . وأدعى الكهوف المصورة إلى التقدير ينسب إلى الجزء المتأخر من هذا القسم الفرعى وأعنى به القسم الأول من الأقسام الفرعية الثلاثة التى ينقسم إليها العصر الباليوليثى الجديد .

ويسمى القسم الفرعى الثانى باسم (السوليوترى Solutrian) وهى مشتقة من سوليوتريه Solutré وهو يتميز على الخصوص بجمال وجودة صنف آلاته الحجرية . وبعض نصاله الشبيهة بالمواسى لا يضارعها إلا خير ما أنتجه العصر النيوليثى وإن لم يفقها . وهى بالطبع غير مصقولة ولـكن خير نماذجها تضارع فى رقتها أحسن نصال الصلب وتكاد تطاولها فى حدتها .

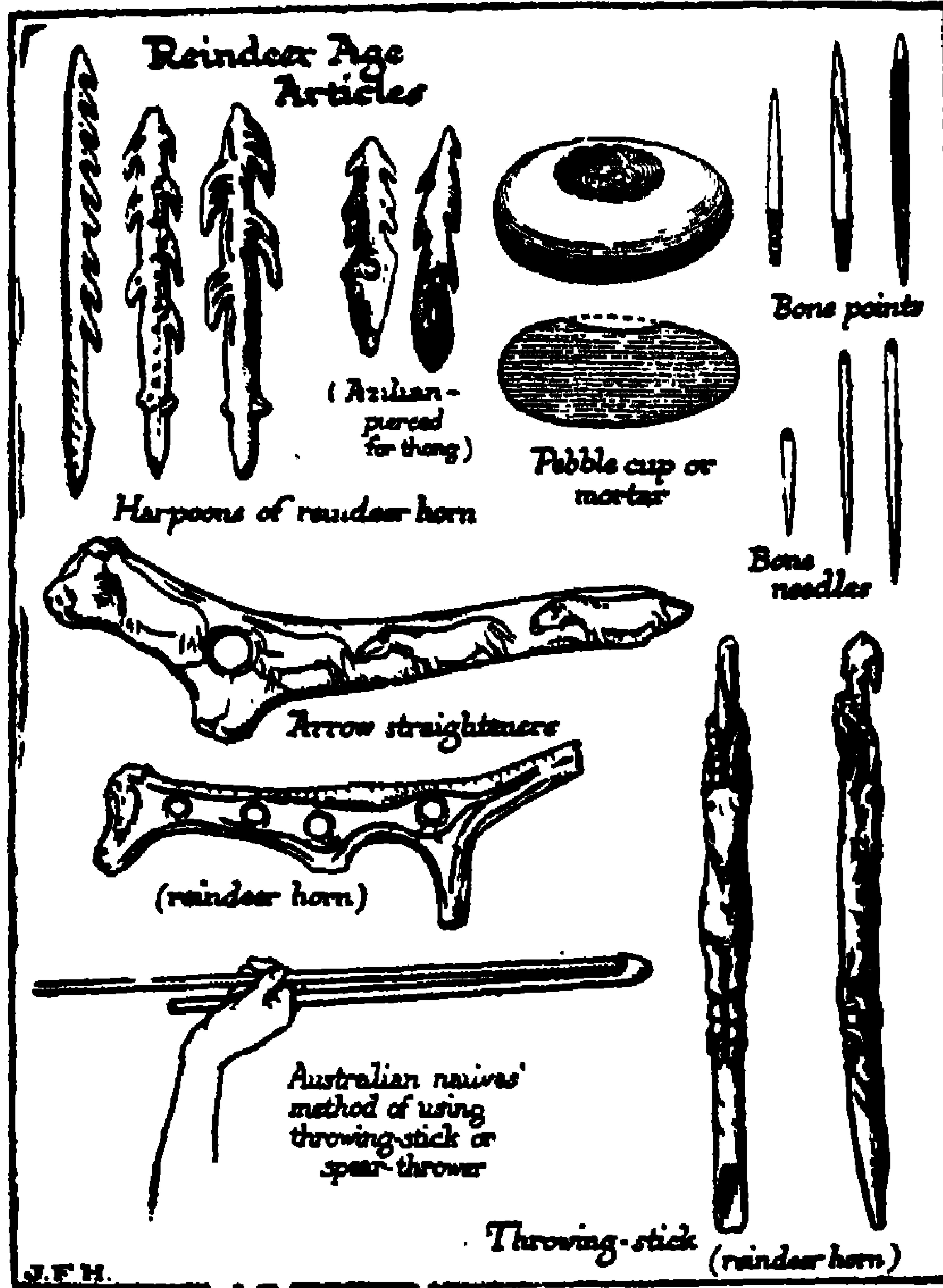
ويبـدو أن قد جاءت آخر الأمر المرحلة المجدلينية نسبة إلى La Madeleine وفيها يتناقص عدد الخيل وغزال الرنة ويبدأ ظهور الغزال الأحمر فى أوروبا . وتصبح الآلات الحجرية أصغر


خريطة تقريبية
لعالم أوروبا وآسيا الغربية
في العصر الباليوليتي المتأخر
منذ ٢٠ - ٣٥ ألف سنة
خط الساحل الحالي ......
الظروف الثلجية آخذة في التراجع
السهوب
الغابات تتقدم
ماء ....
نجاد ....
جبال عظيمة الارتفاع ....

(١٧)



(١٨) الإنسان الكرومانيوني



(١٩) أدوات من عصر غزال الرنة (مصور بمقاييس رسم مختلفة)

حججا كما يوجد هناك كمية عظيمة من الحراب ورءوس الرماح والأبروما اشبهها مصنوعة من العظم.

ولقد يبدو أن صيادى تلك المرحلة الأخيرة الثالثة فى العصر الباليوليثى المتأخر كانوا يستكملون طعامهم المتناقص بصيد الأسماك . والفن المميز لتلك المدة يتركب من رسوم بارزة Reliefs عميقة محفورة على العظام ورسوم من خطوط محفورة على العظام أيضا . وإلى هذه المدة تنتسب الرسوم المرسومة حول العظام . ولقد ارتأى بعض الناس أن هذه النماذج المحيطة بالعظام المستديرة كانت تستعمل فى طبع الأشكال الملونة على الجلد . وبعض ما على تلك العظام من رسم ، خارق للعادة فى جودة صنعته . وينقل باركين حديث دى مورتيليه de Mortillet فى الأبر العظمية فى عصر غزال الرنة (المجدلينى) فيقول أنها تفوق كثيرا غيرها مما كان فى الأزمان المتأخرة حتى التاريخية منها إلى عصر النهضة . فلم يكن لدى الرومان مثلا إبر قط يمكن أن تقاس إلى إبر الحقبة الحديثة المجدلينية .

ويستحيل علينا تمام الاستحالة فى الوقت الحاضر أن نقدّر على سبيل الحدس مدى تلك العصور النسبى ، بل نحن لسنا متأكدين جازمين عن علاقتها النسبية بعضها ببعض . وقد يكون مدى كل منها أربعة أو خمسة آلاف سنة أو تزيد أى ما يربو على ضعف الزمن من بدء الحقبة المسيحية حتى وقتنا هذا . أضف إلى ذلك أن أسس هذا التقسيم تعتمد فى أهم اجزائها على البقايا التى وجدت فى فرنسا وشمال اسبانيا . ولكن عندما نتوغل جنوبا فى اسبانيا وايطاليا وشمال افريقيا لا نعثر بها على شىء يحمل خصائصها المميزة . إذ كان طراز الحياة فى الجنوب مختلفا كما كان هناك طعام مختلف ومعدات مختلفة .

ويبدو أن الظروف قد أخذت آخر الأمر تقلب ظهر المجن وتنقلب انقلابا تاما على هذه الشعوب الصيادة التى أتت فى العصر الباليوليثى الحديث والتى ازدهرت هذا الزمان الطويل فى أوروبا . فإنهم اختفوا من الوجود وظهر بدلهم أنواع أخرى من الرجال آتية من الجنوب والشرق فحلت محلهم ويلوح أن هؤلاء الأخيرين أدخلوا معهم القسى والسهام وكانوا قد استأنسوا الحيوان وازدرعوا الأرض . فانتشرت فى كل اصقاع أوروبا طريقة جديدة للعيش هى طريقة العيش النيوليثية[١] . وزالت من المسرح الأوربى حياة (عصر غزال الرنة) وحياة الرجال الباليوليثيين المتأخرين بعد أن دام حكمهم مدة أعظم بكثير من الزمان الممتد من عصرنا حتى أشد بدايات التاريخ المسجّل قدماً .

وقد يميل بعض الكتاب إلى المبالغة فى الصفات الذهنية والجثمانية التى يستمتع بها

(١) النيوليثى أى العصر الحجرى الحديث

هؤلاء الرجال فى العصر الباليوليثى المتأخر محاولين بهذا أن يخلقوا منهم اعجوبة مدهشة . وإذا نظرنا إلى مجموعهم وجدنا لديهم مواهب عجيبة ولكن قليلا من التأمل يكشف لك فيهم عن نقائص عجيبة أيضا . فإن ذلك التقدم الهائل الذى يظهرونه على من سبقوهم من النياندرتاليين وتلك الموهبة الفنية الخاصة التى كانت لهم يجب ألا تحجب أبصارنا عن ادراك التحديدات الضيقة الشديدة الوضوح فيهم . فإن مخهم كان على الرغم من كبره ذا كيف وصنف ضيق له اتجاه خاص . فكان ادراكهم للأشكال الحيوانية ممتازا خاصا واحساسهم بها مرهفا . ففيهم تجلت الدوافع التى تثير روح الفنان الحق وكانوا من هذه الوجهة كائنات انسانية تامة النماء . على أن نفس هذا الميل إلى التصوير بالألوان والرسم يبديه اليوم البوشمن وهنود كاليفورنيا ورجال استراليا السود فليس ذلك دلالة تدل على عقلية عالية من كل النواحى .

والأثر المتجمع الذى تحدثه رسومهم وصورهم الملونة أثر عظيم جداً ولكن ينبغى لنا الا نخطىء فنجمع كل ماوصلوا إليه جمعاً مزدحماً فى أذهاننا ، كما لو كانت أمورا ظهرت على سطح الأرض فجأة كلمع البرق أو فى فترة من الزمان وجيزة أو كما لو كانت هى الثمرة التى وصل إليها شعب واحد بمفرده . فإن هـذه الأجناس أجناس رجال غزال الرنة ظلت تمتلك كل أوروبا الغربية من غير منازع طوال مدة لاتقل عن عشرة أضعاف الفترة الممتدة بين زماننا وبين أول الحقبة المسيحية . وكانت فى كل هذا الزمان الهائل حرة فى تطوير حياتها وتنويعها إلى أقصى ما تهيؤه لها الظروف المتاحة لها . كانوا على اتصال وثيق بالحيوانات ولكن لم يبد عليهم أنهم استطاعوا أن يتفاهموا مع أى حيوان إلا الحصان . ولم يكن لديهم كلاب ولم يكن لديهم قط حيوانات مستأنسة بالمعنى الذى نفهمه . كانوا يلحظون ويرسمون ويقتلون ويأكلون . ولم يبد عليهم أنهم كانوا يطبخون طعامهم . وربما كانوا يشوطون ظاهرها أو يشتوونها . ولكن لم يكن فى إمكانهم أن يزيدوا على ذلك كثيراً إذ لم يكن لديهم أدوات الطبخ .

ومع أن الطين كان فى متناول أيديهم ومع أن فى السجل عدداً كبيراً من الاشكال الطينية من العصر الباليوليثى فلم يكن لديهم فخار . ومع أنهم كان لديهم أضرب كثيرة من آلات الصوان والعظام فلعلهم لم يصلوا قط إلى استعمال الخشب للمساكن الداعمة وما إليها من البنيات . وهم لم يصنعوا قط البلطات ذوات النصاب الخشبي أو ما يشابهها من أشياء تمكنهم من معالجة الخشب . وإن فى بعض الرسوم لشيئا يشير ولو من بعيد إلى سياج من العصى قد حصر أحد أفراد الماموث . على أننا قد نكون هنا حيال خدوش عملت فيما بعد ذلك من العصور . ولم يكن لديهم مبان بل ليس مؤكداً أن كان لديهم خيام أو خصاص . وربما كانت

لبيهم خيـام بسيطة من الجلود ، فبعض الرسوم يبدو فيها شيء ما يشبه هذه الخيام . ولعلهم لم يعرفوا القوس قط فانهم لم يخلفوا من بعدهم أى رؤوس سهام جيدة . وواضح أن الشك الذى يخامرنا فى استعمال الرجل الباليوليثى فى (عصر غزال الرنة) للقسى لا ينطبق على رجال العصر الباليوليثى أثناء الثقافة (القابسيةCapsian) المتأخرة نسبيا . وربما طفر ذهن القارىء المهمل إلى استنتاج أن هذا الرأى ينطبق على رجال العصر (الباليوليثى) بأسرهم فإن رجال العصر الباليوليثى الأقدمين وهم النياندرتاليون كانوا ولا شـك بلا قسى والراجح ألا يكون لرجال غزال الرنة أى دراية بالرماية والنبال . ويقول بعض الثقات الذائعى الصيت بأن عدداً بعينه من أدواتهم إنما هو أداة مما يقوّم به عود السهام ويثقّـف ، ولـكن هـذا القول لا يعتمد إلا على مثـل الشواهد التى يقوم عليها أمر السهام نفسها لدينا . وربما كانوا يستعملون عصيا مبرية بدل السهام ولم يزرعو الحبوب والخضر أيا كان نوعها وكانت نساؤهم فيما يرجح أصغر حجما من الرجال وتمثلهن التماثيل الصغيرة الأولى على صورة السمن القبيح حتى ليصلن غالبا إلى مستوى البدانة الذى عليه نساء البوشمن فى أيامنا هذه . فهن يسمن من أجل الزواج ولعل هذا كان حال نساء (العصر الحجرى) . كن أصغر من الرجال حجما لأنهن كن ولا شك يأخذن فى الحمل والولادة قبل أن يستكملن نموهن . كانت المرأة البدائية مخلوقا ذليلا خاضعا . وكان هؤلاء الرجال فى العصر الباليوليثى المتأخر يكتسون فيما يبدو بالجلود ان كانوا يكتسون قط . وكانوا يهيئون هذه الجلود ببراعة وإتقان ولمـا قارب العصر نهايته كانوا يستعملون إبرا من العظم ، يستعملونها ولا شك فى خياطة هذا الفراء .

ويستطيع المرء أن يركن وهو على جانب الأمنة والاطمئنان أنهم كانوا يرسمون هـذه الجلود بالألوان بل لقد ذهب البعض إلى الظن بأنهم كانوا يطبعون عليهـا رسوما Designs بوساطة اسطوانات من العظم . ولـكن ثيابهم كانت مجرد لفائف إذ لم نعثر لهم على مشابك أو أبازيم ولم يبد عليهم أنهم استعملوا الأعشاب أو ما شابهها من الألياف فى صنع المنسوجات فتماثيلهم مجردة من الثياب . فقد كانوا لا جرم فيما عدا تدثرهم ببعض الفراء فى الجو البارد شعبا من المتوحشين العراة المنقوشى الأديم . وكانوا فى ناحية نسائهم وفنهم أشبه شيء ببوشمن جنوب افريقيا . وكانوا فى اقتفائهم لقطعـان الغزلان يشبهون هنود لبرادور . ولعلهم من الناحية الجثمانية أقرب الناس إلى هؤلاء الهنود .

عاش هؤلاء الصيادون على السهوب الفسيحة مدى مئتى قرن أو ما يقاربها وهو ما يعادل عشرة أضعاف الحقبة المسيحية . ولعلهم قد فجأهم نمو الغابات الأوربية عندما خفت وطأة المناخ

وأصبح أشد رطوبة . حتى إذا نقص عدد الحصان البرى وغزال الرنة فى أوروبا ونشأ طراز من الثقافة الإنسانية أحـدث مما كان قبلا وله سيطرة على المواد الغذائية تفوق سيطرة من سبقه ، نشأت هناك مقدرة أكثر على التزام الاستقرار . بل يرجح أنه نشأ أيضا تنظيم اجتماعى أوسع ، إذ كان لزاما على رجال عصر غزال الرنة أن يختاروا بين أن يتعلموا طرائق جديدة للعيش أو أن يزولوا من الوجود .

٢ — جغرافية العالم الباليوليثى

من المهم جدا أن ندرك الفروق بين جغرافية عصر (غزال الرنة) وجغرافية العصر الحاضر . فهو موضوع كثيرا مايفوت الباحثين تذكره حتى لقد بلغ الأمر أن يسهو عنه عالم خطير كالدكتور فيرفلد اسبورن فهو يستطيع مثلا أن يكتب عن غزو اسبانيـا بالثقافتين الشاليانية والموستريانية الآتيتين من مصر عن طريق شمال أفريقيا كأنما كان هذا الطريق حينذاك كما هو الآن الطريق الممكن الوحيـد . ويتوغل العـلامة أوبرماير Obermaier إلى أبعد من هذا فهو يبحث ويناقش فى هل وصلت الثقافة الشاليانية من افريقيا إلى اسـبانيا (فوق سطح ضرب بدائى من الأرماث) . فقد كان ذلك الرمث غير ضرورى بتة آنذاك . فان الخريطة التقريبية لأوروبا وغرب آسيا كما كانت قبل ثلاثين ألف سنة (انظر الخريطة ١٧) لتريك لأول وهلة إن اسبانيا لم تكن جزءا موجودا على ظهر الأرض منذ أن نشأ العالم .

وهذه مع ذلك ملحوظة نسوقها لهـذه المناسبة فالنتيجة العامة لهـذا الأمر هى أن هذه الشعوب الباليوليثية كانت تعيش على هامش الحياة بشكل واضح بين . ولسنا نملك بعد النص الرئيسى لسفر القصة الانسانية. فإن حياة الناس فى عصر غزال الرنة انما هى حياة قوم مرابطين على التخوم إذ أنهم كانوا يسكنون على الصخور الجرداء الواقعة شمالى أحسن أراضى العالم . وكان حوض البحر المتوسط واقعاً فى الجنوب والغرب منه . ولا بد أن كانت بقايا معاصرى رجال غزال الرنة مغمورة إلى الأبد فيما يحتمل تحت هذه المياه الزرقاء . والراجح أنهم كانوا أكثر تقدما وأشد خبرة بأمور العالم . فلعل هـذه الوديان العظيمة المحيطة ببحيرتى البحر المتوسط وفى مثلث البحر الأحمر قد أتاحت للتطور الإنسانى ظروفاً بديعة رائعة . وكان أهم مسارح التاريخ الإنسانى منذ عشرين ألف سـنة يقع فى الجنوب الشرقى من الأراضى الفرنسية الاسبانية وهى البلاد الوحيـدة التى تم التنقيب فيها فى قارة أوربا بحثا عن آثار الإنسان الأقدم .

وبفضل مجهودات العلامة أوبرماير المدريدى على الأخص بدأنا نتحقق أنه بينما عم رجال

غزال الرنة فرنسا وشمال اسبانيا ، كان الرجال الذين يضربون فى الأرض فى معظم أجزاء الأراضى الاسبانية وأفريقيا الشمالية ذوى ثقافة مخالفة يسميها العلامة بالثقافة (القابسية) نسبة إلى إسم مكان فى تونس ولم تترسم المرحلة القابسية خطى المراحل الأوروينيا كية والسيوليو ترية والمجدلينية فى فرنسا بل كانت معاصرة لها . وكانت تختلف عنها . وإنّا لنلمس فيها ما ينم عن أحوال اجتماعية أكثر تقدما إلا أنها كان ينقصها القوة التمثيلية التى عليها الفن الشمالى (بما فى ذلك النقوش الباهرة التى فى كهوف آلتاميرا Altamira) ولكنها من الناحية الأخرى قد هيأت لنا عددا عظيما من الصور الملونة التى تمثل بنى الأنسان وهم يشتغلون فى أوجه نشاط متنوعة . وهى فى غالبية أمرها منقوشة على سطوح الصخور وهى تشابه فى مميزاتها وطريقة علاجها كثيراً من الصور القديمة والعصرية التى على الأحجار والتى قام بصنعها قبائل البوشمن فى جنوب أفريقيا . كذلك عثر الباحثون فى إيطاليا أيضا على صور قابسية .

والحياة التى تسجلها الصور القابسية حياة أيسر وألين ، تفيأت ظلال ظروف جوية أكثر ملاءمة مما كان يتفيأه صيادو غزال الرنة فى الشمال ؛ وليست لغزال الرنة ولا للدب ولا للجاموس البرى صور تمثلها . وأهم الحيوانات المصورة هى الغزال العادى والثور البرى . ويبدو فى الصور أيضا رسوم الكركدن والوعل والحمار الوحشى . وفيها يحمل الرجال القسى وهم عراة ولكن معظم الأشكال النسائية تمثل وهى فى المآزر ، والتزين بالريش ممثل فى كثير من الأحوال . وهناك منظر يمثل صيد الخنزير الوحشى ويمثل الآخر طرد النحل البرى من بيوته باطلاق الدخان عليه . وهناك جماعات تمثل فى غالب الظن حفلات الرقص التى تختمها الطقوس . وهناك أيضا أشكال لرجال يلبسون أقنعة تتدلى على رءوسهم وأكتافهم وتمثل الحيوانات . وعندما عرض علىّ العلامة أو برماير عدريد منذ بضع سنين بعض الرسوم المأخوذة عن هذه الصور وجه نظرى إلى ما فيها من ميل غريب إلى تشويه الهيئة الإنسانية مع تمثيل الحيوانات من غير ما مسخ أو تشويه ، بل كانوا يظهرون الحيوان فى أشكال صادقة أمينة يمكن معها تمييز الحيوان . فخصر الإنسان فى الصورة ممطوط على الدوام مضغوط كثيرا وغالبا ما تكون السيقان مضخمة تضخيما كبيرا. ثم تتحول هذه الأوضاع فى الصور التالية إلى ما يكاد يجعل العمل فى رسم الإنسان أمرا هندسيا بيانيا . فلاتصبح الصور صورا وإنما تتحول إلى علم من العلوم .

٣ ـ نهاية العصر الباليوليثى

حدث منذ حوالى اثنى عشر ألف سنة أو أقل قليلا أن أو شكت حياة الصيد التى شملت أوربا زمنا طويلا أن تنتهى تبعا لانتشار الغابات ولتغير عظيم لحق بنوع الحيوان . فاندثر غزال الرنة . ذلك أن الظروف المتغيرة غالبا ما تحمل فى طياتها أمراضا جديدة . وربما تكون قد حدثت أوبئة فى زمن ما قبل التاريخ . حتى ليبدو أنه مضت على فرنسا فترة خلت فيها من كل كائن قبل ظهور السكان الجدد . فأما فى جنوب أوروبا فإن الثقافة القابسية المتأخرة تمر فيما يسميه العلامة أوبر ماير باسم المرحلة فوق الباليوليثية Epipalaeolithic منتقلة إلى المرحلة الأزيلية (نسبة إلى كهف هضبة أزيل) فالصور التى رسمها القابسيون وفق أوضاعهم التى جرى بها عرفهم كانت لاتزال أقرب إلى الهيئة الهندسية فى المرحلة الأزيلية وهناك مجاميع عظيمة من الحصى منقوشة بلمسات من مرقاش نعرف عنها اليوم أنها تمثل طرازا معياريا من الناس والحيوان . وإن لدى قبائل استرالية متعددة فى الوقت الحاضر أحجارا منقوشة شديدة الشبه بهذه يسمونها (أحجار الروح) ويزعمون أنها تحتوى روحا معينة لسلف الميت أو صفات معينة له أو بعض ذلك .

كان هؤلاء القوم الجدد شعبا دقيق القسمات ميالا إلى السمرة وكانوا طلائع جنس انسانى هو جنس البحر المتوسط ذى اللون الأبيض الداكن أى الجنس (الأيبيرى) الذى لا يزال هو السائد فى جنوب أوروبا . وامتدت مجتمعاتهم شمالا مع انتشار الغابات فى مكان السهوب ومع تضاؤل عهد الصيادين منذ ما يقارب عشرة الآلاف أو الاثنى عشرة ألف سنة .

وكانت خريطة العالم قد شرعت تتخذ لنفسها صورة تشبه معالمها الحالية وأخذت مناظر البر وهيئة الأرض والنبات والحيوان تتخذ خصائصها كما هى الآن وكانت الحيوانات التى تم الغابات الآخذة فى الانتشار فى أوروبا هى الغزال الملكى Royalstag والثور الكبير والجاموس الوحشى . إذ ذهبت (الأشكال القطبية) الماموث وثور المسك وباد الثور الوحشى أى الأوروك . ولم يعد له وجود إلا فى الغابات الألمانية حتى زمان الأمبراطورية الرومانية وظل فيها إلى ما بعد ذلك بكثير . ولم يحدث قط أنه استؤنس . وقد جلبت الماشية المستأنسة إلى أوروبا بعد ذلك . وهى من نبعة أخرى . وكان ارتفاع الثور الكبير أحد عشر قدما عند الكتف أى ما يضارع ارتفاع الفيل .

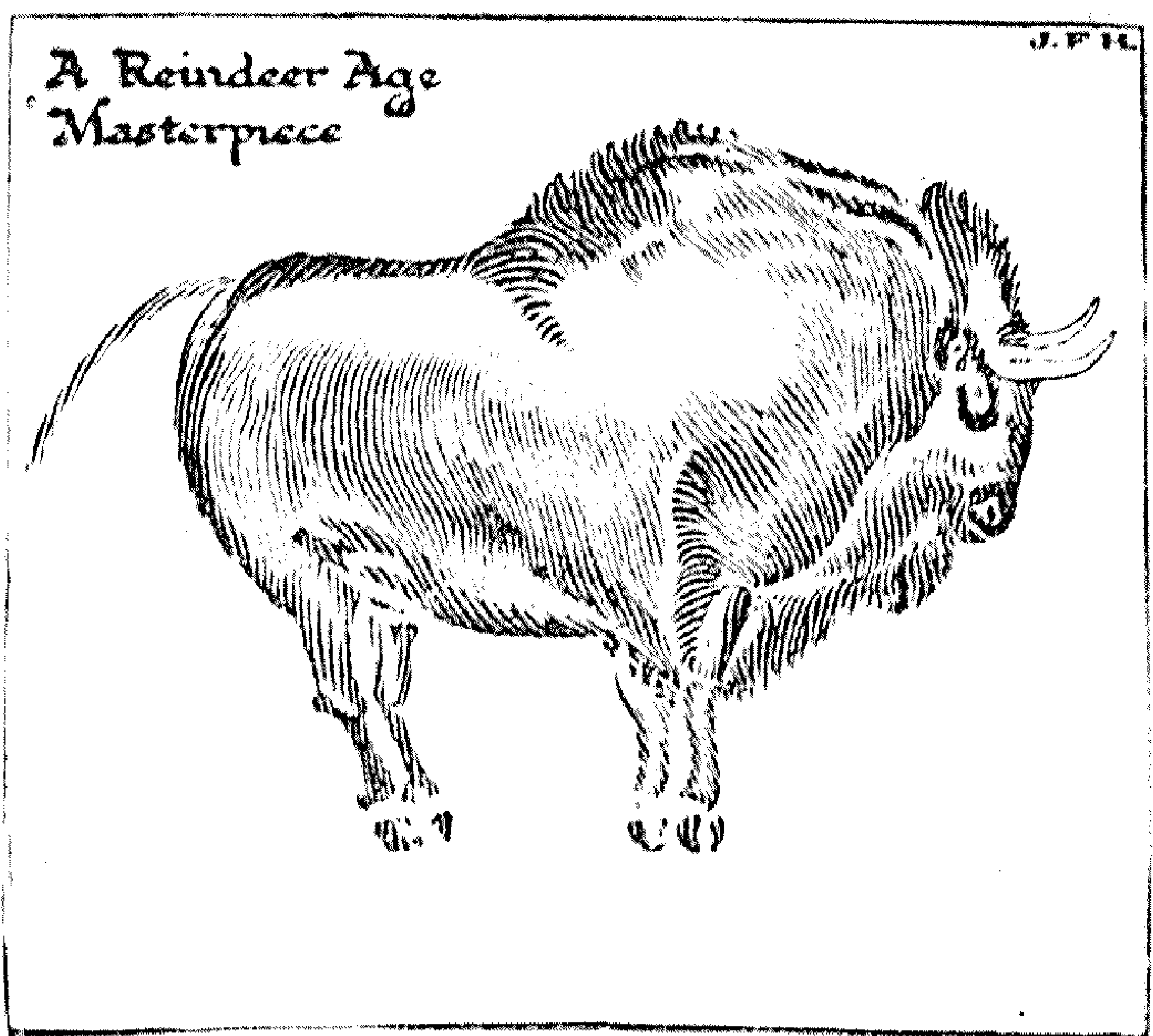
وظلت فى شبه جزيرة البلقان أسود حتى حوالى ١٠٠٠ أو ١٢٠٠ ق . م وكان حجم أسود ورتمبرج Wurtemberg وجنوب ألمانيا فى ذلك الزمان ضعف حجم الأسد المصرى . وكان جنوب روسيا وآسيا الوسطى كثيف الغابات آنذاك . وكانت فى أرض الجزيرة وسوريا أفيال كما كان فى بلاد الجزائر نبات هو نبات المنطقة المدارية الأفريقيه .

وحتى ذلك الحين لم يكن الناس قد تخطوا فى أوروبا شمالا بحر البلطيق ولا الجزائر البريطانية ولكن شبه الجزيرة الاسكندناقيه وروسيا العظيمة أخذت تصبح مناطق ميسورة السكنى للجنس البشرى . وليس فى السويد أو النرويج أى بقايا من العصر الباليوليثى . إذ كان الإنسان عندما دخل هـــذه الأقطار قد سبق فوصل فى تطوره الإجتماعى إلى المرحلة النيوليثية .

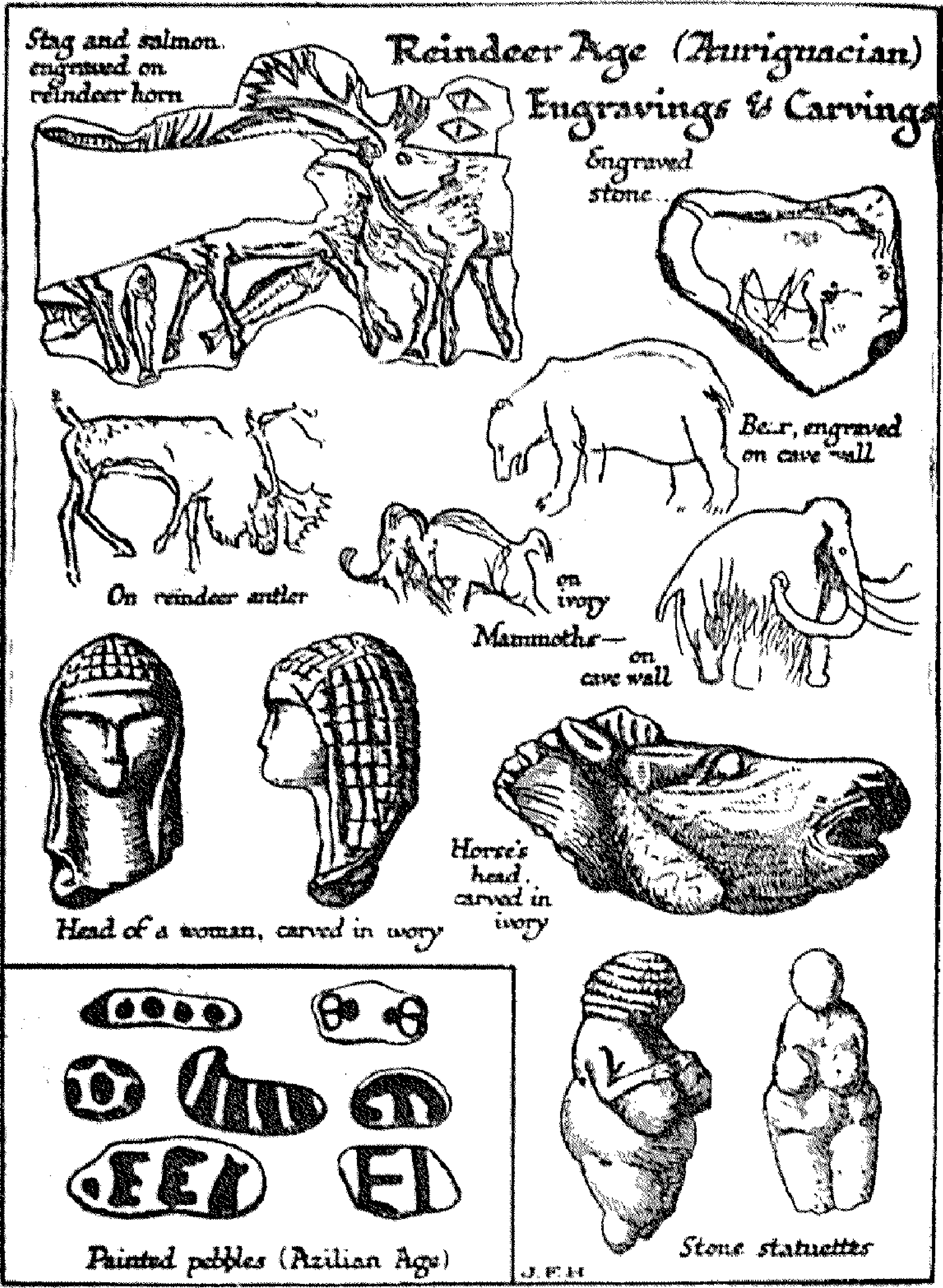
٤ — لا وجود لأشباه الإنسان فى أمريكا

ليس هناك دليل مقنع حقا يدل على وجود الإنسان فى أمريكا قبل نهاية عصر البلايستوسين ويقال أنه وجدت بعض آلات الظران Eoliths فى بعض الأماكن ولكن فى غير كثرة ولعل تحسن المناخ الذى سمح بتراجع صيادى غزال الرنة إلى مجاهل روسيا وسيبريا أثناء تقدم القبائل النيوليثية أماما هو الذى اتاح لهم أن يضربوا عبر الأرض التى يفصلها الآن مضيق بهرنج Bering وبذا وصلوا إلى القارة الأمريكية . ومن ثم انتشروا جنوبا عصرا فعصرا . فلما وصلوا إلى أمريكا الجنوبية وجدوا حيوان الكسلان الجبار Megatherium والجليتودون وكثيراً من المخلوقات البائدة الأخرى وهى فى إبان ازدهارها وكان الأخير ضربا من الأرمديللو هائلا فظيعا خاصا بأمريكا الجنوبية . ويقال أن هيكلا إنسانيا قد وجد مدفونا تحت درقته الهائلة الشبيهة بدرقة السلحفاة . وواضح أن كل البقايا الإنسانية فى أمريكا إنما هى ذات صبغة أمرندية (أمريكية هندية) . ويبدو أنه لم يظهر فى أمريكا أى جنس قديم من أشباه الإنسان . وقد لحظنا آنفا قطعة هى الشاهد الوحيد الذى يثبت نقيض ذلك وهى سن وحيدة مشكوك فى أمرها . فقد كان الإنسان كامل الإنسانية عندما دخل أمريكا إذ كان العالم القديم مهدا لما دون الإنسان من الأجناس . فى مكان ما يقع فيما بين جنوب أفريقيا وبين جزائر الهند الشرقية وبين البحر المتوسط راحت هذه الأجناس — ولم تكن قد اكتملت بعـد — تصوغ مصائرها بينما الأراضى ترتفع وتنخفض وبينما الصحراء تحل محل الغابات والغابات تحل محل الصحارى . وربما كان ذلك فى المكان الذى يمتد فيه الآن المحيط

المندى . ونحن الآن على أن نكرر لك أن البيان عن الرجل الباليوليثى إنما هو بيان جزئى أبتر مستخرج مما هو فى الوقت الحاضر ، المادة الوحيدة التى وصلت إلى أيدينا وهى المادة الأوربية فأما أحداث القصة الرئيسية فكانت يوم كان الرجل النياندرتالى يهيم على وجهه فى أوربا — تجرى مجراها فى بعض المناطق التى لم تحدد بعد والتى لعلها قد غمرها البحر فأبعدها عن متناول البحث والكشف .



(٢٠) تحفة فنية من عصر غزال الرنة
(مصورة بأربعة ألوان فى كهف التاميرا بأسبانيا)



(٢١) نقوش محفورة من عصر غزال الرنة (الأورنيا ك)

			العصر الجليدى الرابع والأخير	الطراز الموستيرى فى الآلات	الإنسان النياندرتالى
نهاية العصر الباليوليثى القديم	٥٠٬٠٠٠ ق.م				
العصر الباليوليثى المتأخر	٣٥٬٠٠٠ ق.م	—	العصر الأورينياكى	آلات جيدة الصنع	—
	—	—	—	تماثيل صغيرة وصور كهوف	—
	—	—	—		—
	—	—	—	—	—
	—	—	العصر السولترى	خير الآلات الباليوليثية	—
	—	فترة السهوب	—		رجال غزال الرنة
	—	—	—	—	—
	—	—	العصر المجدلينى	آلات حجرية أصغر حجما صنانير سمك من العظم عظام محفورة	—
عصر الزراعة	١٥٬٠٠٠ ق.م	عصر انتقال الغابات	العصر الأزيلى	الحصى المنقوش	—
	١٠٬٠٠٠ ق.م		العصر النيوليثى	آلات حجرية مصقولة، رؤوس بلطات رؤوس سهام فخار حيوانات منزلية	
	—				
	—	الأحوال العصرية	العصر البرونزى		الأجناس الموجودة الآن
	٥٬٠٠٠ ق.م				
	م	—	العصر الحديدى	—	—
	١٩٢٠	—	—	—	—

(٢٢) بيان زمنى بالمدة التقديرية للعصور الإنسانية الحقة

الفصل التاسع

رجل العصر النيوليثى فى أوروبا

١ — عصر الزراعة يبتدئ .
٢ — أين نشأت الثقافة النيوليثية ؟
٣ — الحياة النيوليثية اليومية .
٤ — التجارة البدائية .
٥ — امتلاء وادى البحر المتوسط .

---

١ — عصر الزراعة يبتدئ

ابتدأ الدور النيوليثى من أدوار الشئون الإنسانية فى أوروبا منذ عشرة آلاف أو اثنتى عشرة ألف سنة . ولكن الراجح أن الناس كانوا قد بلغوا المرحلة النيوليثية فى الأراضى الواقعة فى الجنوب الشرقى قبل ذلك ببضع آلاف من السنين . ودخل رجال العصر النيوليثى إلى أوروبا فى بطء وأناة قادمين من الجنوب أو الجنوب الشرقى بينما كان غزال الرنة ومتسعات السهوب تنهزم أمام الغابات وأمام الظروف الأوروبية العصرية .

وتتميز مرحلة الثقافة النيوليثية بما يأتى :

(ا) وجود آلات حجرية مصقولة ، وبخاصة (البلطة الحجرية) المتصلة بيد من خشب . وهذه الأداة قد تكون استعملت فيما بعد فى قطع الخشب أكثر من استعمالها فى المنازعات . وهناك أيضا رؤوس سهام كثيرة . ووجود بعض الآلات الصقيلة لا يمنع وجود كميات كبيرة من الآلات الحجرية غير المصقولة . ولكن هناك فوارق فى الصنع بين نفس الآلات غير المصقولة فى العصر النيوليثى وبين مثيلاتها فى المدة الباليوليثية .

(ب) ابتداء نوع من الزراعة واستعمال النباتات والحبوب ، ولكن هناك بادئ الرأى أدلة كثيرة ، تدل على أن الصيد كان ما يزال ذا قيمة عظيمة فى العصر النيوليثى . ولم يكن الرجل النيوليثى فى مبدأ أمره ليرابط إلى جوار زراعته ، بل كان يتناول المحاصيل الخطيفة . أو قل إن نساءه كن يجمعن البذور البرية ثم أصبحن فيما بعد يبذرن المحصولات الخطيفة ، بينما كان الرجل منهمكا فى صيده . على أنه استقر فيما بعد ذلك من زمان .

(ح) صناعة الفخار والطبخ الحقيق . ولم يعد الإنسان يأكل الحصان .

(ء) الحيوانات المستأنسة . ظهر الكلب فى عصر شديد التبكير والقدم .
وكان الرجل النيوليثى قد استأنس الماشية والضأن والماعز والخنازير .
لقد كان صياداً انقلب إلى راع للقطعان التى كان يصيدها فيما غبر من الأيام .

(ه) الضَّفْرُ والغزل .

ونزح هؤلاء القوم النيوليثيون فيما يرجح إلى أوروبا ، على نفس الطريقة التى نزح بها رجال غزال الرنة من قبلهم ، أعنى أنهم انتشروا سعيا وراء ما اعتادوه من طعام جيلا فجيلا ، وقرنا فقرنا ، مع تغيير المناخ . ولم يكونوا من الترحلين ، إذ كان مجال التطور ما زال فسيحا أمام الترحل مثله فى ذلك مثل المدنية . ذلك أن الترحل يضارع المدنية فى حداثة العهد ويضارعها فى كونه حالة متطورة تطورا عاليا .

ولسنا نستطيع فى الوقت الحاضر أن نقدّر ، إلى أى حد كان النيوليثيون من النازحين الجدد ، وإلى أى حد نمّى المنحدرون من القانصين وصيادى السمك فى العصر الباليوليثى المتأخر فنونهم أو اقتبسوها . ويحتمل أن يكون صائدو غزال الرنة قد تراجعوا ، ولكن الشعوب القابسية تطورت من ناحية ، وتعلمت طرائق الحياة الجديدة من ناحية أخرى ، من قوم أكثر منهم تقدما فى الجنوب والشرق .

ومهما تكن النتائج التى نصل إليها فى هذا الصدد فإنا نستطيع أن نقول عن يقين وثقة ، إنه لم تحدث أية ثغرة انفصال كبيرة ، ولم يحدث اكتساح جديد لصنف من أصناف الإنسان ولا حلول صنف آخر مكانه فيما بين زمن ظهور طريقة الحياة النيوليثية وبين زماننا هذا . نعم هناك غزوات وفتوح وهجرات واسعة النطاق وتمازجات Intermixtures ، بيد أن الأجناس فى مجمل أمرها ما تنفك تكيف نفسها وفق الأراضى التى أخذوا يستقرون فيها فى مفتتح العصر النيوليثى . كان رجال أوروبا النيوليثيون من البيض وهم أسلاف الأوروبين المحدثين . وربما كانت لهم بشرة أشد سمرة مما لكثير من أحفادهم ، فلسنا نستطيع أن نجزم بذلك . ولكنا لا نعثر على انقطاع حقيقى فى حبل الثقافة منذ زمانهم حتى عصر الفحم والبخار والآلات المدفوعة بالقوى المحركة التى ابتدأت فى القرن الثامن عشر الميلادى .

وبعد زمان طويل ، ظهر الذهب بين الحلى العظمية وهو فى غالب ظننا أول ما عرف من المعادن ، وظهر معه الكهرمان الأسود والأصفر . والبقايا الإيرلندية قبل التاريخ غنية بصفة خاصة بذخائر الذهب . وربما شرع الناس فى العصر النيوليثى منذ ستة آلاف أو سبعة آلاف

سنة فى استعمال النحاس فى مراكز بعينها ، وأخذوا يصنعون منه آلات على نفس هيئة آلاتهم الحجرية . وكانوا يصبون النحاس فى قوالب مصنوعة على نفس شكل الآلات الحجرية ويحتمل أنهم وجدوا بادئ الأمر النحاس الخالص بطبيعته وصاغوه بالطرْق ، ولا يزال النحاس الخالص يوجد اليوم فى إيطاليا والمجر وكورنوال وأماكن أخرى كثيرة . على أن النحاس الصرف أدنى من الظران مرتبة بوصفه مادة للآلات ، فهو لا يحافظ على حدة شباته .

والنحاس المخلوط بالقصدير (بنسبة لا تزيد على العُشر) أصلب منه كثيرا . واستطاع الناس فيما بعد (ولسنا نستطيع أن نحدد بالأرقام تاريخ ذلك) أن يعرفوا كيف يستخلصون النحاس من خامه . ولعلهم اكتشفوا سر الصهر كما يرى اللورد آفبورى **Avebury** بوضعهم بمحض الصدفة أثفية من خام النحاس ، بين الأثافى الحجرية العادية التى كانوا يجعلون منها حفر النار التى كانوا يستعملونها فى الطبخ .

ويوجد خام النحاس فى عرق واحد مع حجر القصدير **Tinstone** فى الصين وكورنوال وفى مواضع أخرى . ويوجد النحاس فى هنغاريا على الدوام إلى جوار حجر الأنتيمون ، وهكذا استطاع الصاهرون الأول بسبب أمر لعله إلى القذارة أقرب منه إلى المهارة ، أن يصادفوا البرونز الذى هو أصلب وأحسن من النحاس والذى هو سبيكة من النحاس والقصدير . وليس يقتصر أمر البرونز على أنه أصلب فحسب من النحاس ، بل إن الخليط المكون من القصدير والنحاس أسهل انصهارا وأيسر منه استخلاصا . فأما ما يسمونه بالآلات المصنوعة من (النحاس النقى) فإنها تحتوى فى العادة على نسبة صغيرة من القصدير . وما نعرف أن هناك آلات قصديرية قط ، كذلك ليس هناك شواهد كثيرة على أن الرجل الأقدم كان يعرف القصدير بوصفه معدنا منفصلا . وقد وجدت كتلة من القصدير فى رواسب كيمان المساكن السويسرية ، وعرف القصدير فى مصر بوصفه مستورداً أجنبيا أيام الأسرة الثانية عشرة . والقصدير المايوسينى نادر ، وقد عثر الباحثون على أشياء مصنوعة من القصدير فى بلاد القوقاز **Caucasus** (والراجح أن يكون ذلك فى عصر متأخر وإن لم يعرف تاريخه بوضوح) . ومن أعسر الأمور أن يميز المرء بين القصدير والأنتيمون .

وهناك قدر عظيم من البرونز القبرصى الذى يحوى الأنتيمون ، والحق أن قدراً عظيما مما يبدو للرائى قصديرا لهو فى حقيقة أمره أنتيمون . ولقد حاول القدماء أن يحصلوا على القصدير

ولكنهم حصلوا بالفعل على الأنتيمون ظانين إياه قصديرا . وعثر فى أسبانيا على مصنع لأحد سبا كى النحاس قبل التاريخ ، كما عثر على المواد الخاصة بمصاهر البرونز فى نواح أخرى مختلفة . وإن وسائل الصهر التى تكشف هذه المكتشفات عنها الحجب ، لتطابق ما ارتآه اللورد آفبورى . فأما فى الهند حيث يوجد الزنك وخام النحاس جنباً إلى جنب فإنهم عثروا بنفس الطريقة على النحاس الأصفر بمحض الصدفة (وهو سبيكة مكونة من المعدنين) .

وبلغ من ضآلة التغير الذى أحدثه ظهور البرونز فى الأساليب والطرائق أن أمثال هذه البلطات البرونزية ظلت زمانا طويلا تُصب هى وما إليها مما كانوا يصنعون — فى قوالب ، على نفس شكل الآلات الحجرية التى استبدلت بها .

وأخيرا ولعل هذا منذ ثلاثة آلاف سنة فى أوربا وقبل ذلك فى آسيا الصغرى أخذ الرجال يصهرون الحديد : وكان الحديد معروفا قبل ذلك العصر بزمن مديد ، بيد أنه كان جديدا مستخلصا من الشهب . والحجر الشهابى كما يعرف أغلب الناس ، مكون فى معظمه من الحديد والنيكل . وكان الحديد نادراً يستعمل بدل الجواهر أو تتخذ منه مادة سحرية ، وما دام الإنسان يعرف عملية الصهر ، فلا مجال للعجب من حصوله على الحديد . كانوا يصهرون الحديد بالنفخ فى نار من الفحم النباتى ، ويصوغونه بإحمائه وطرقه . وكانوا ينتجونه فى بادئ الأمر قطعا صغيرة نسبيا ، وكان ظهوره بدء عهد ثورة تدريجية فى الآلات والأسلحة ، ولكنه لم يكن كافيا لتغيير الحالة العامة لما يحيط بالإنسان من بيئة وملابسات . وكانت الحياة اليومية (التى كان يعيشها الرجال النيوليثيون الأكثر استقرارا منذ عشرة آلاف من السنين) هى فى معظمها نفس التى كان يحياها الفلاحون فى الأماكن النائية فى كل أنحاء أوربا فى مفتتح القرن الثامن عشر .

يتكلم الناس عن العصر الحجرى وعن عصر البرونز وعن عصر الحديد فى أوربا ، ولكن الشىء الذى يضلل عقولهم ، هو أن نقدم لهم هذه العصور كأنما كانت ، على درجة متساوية من القيمة والأهمية فى التاريخ . وأصدق من هذا تعبيرا أن يقال أنه جاء :

(ا) (عصر باليوليثى مبكر) دام زمانا هائلا .

(ب) (عصر باليوليثى متأخر) لم يستدم عشر زمان الأول ، ثم عقبه :

(ح) (عصر الزراعة) وهو عصر الرجل الأبيض فى أوربا .

وهو الذى ابتدأ فيها منذ عشرة آلاف سنة أو اثنى عشر ألفاً على أقصى تقدير ، والذى كانت المدة النيوليثية فى باكورته ، والذى لا يزال مستمرا إلى يومنا هذا . وقد اقترح ايليوت سميث

Elliot Smith أن يسمى العصر رقم (١) باسم البالياتروبى Palaeanthropic أى (العصر القديم للإنسان) وأن يسمى كل ما تلاه باسم Neoanthropic النيون تروبى أى (العصر الجديد للإنسان).

٢ — أين نشأت الثقافة النيوليثية؟

لسنا ندرى حتى اليوم كما بينا آنفا شيئا عن الإقليم الذى أخذ فيه أسلاف الشعوب النيوليثية الضاربة إلى اللون البنى Brownish يكوّنون أنفسهم وينهضون من مرحلة التقدم الإنسانى الباليوليثية. والراجح أنه حدث فى مكان ما من آسيا الجنوبية الغربية، أو فى بعض المناطق التى يغمرها البحر المتوسط الآن أو يغطيها المحيط الهندى، أنه بينما كان النياندرتاليون على ما هم عليه من شظف العيش فى الجو القارس الذى كان يعم أوروبا الجليدية، طفق أسلاف الإنسان الأبيض يُنمون الفنون الخشنة التى تهيأت لهم فى المدة الباليوليثية المتأخرة. ومضت مئة من القرون أو ما يقاربها، ما برح فيها رجال غزال الرنة يعيشون عيشا لا تقدم فيه نسبيا فوق سهوب فرنسا وألمانيا وأسبانيا، بينما كان القوم المحظوظون والآخذون بأسباب التقدم فى الجنوب الشرقى، قد شرعوا يملكون ناصية الزراعة، ويتعلمون كيف يحدثون التطور فى كل ما يطبقونه من تطبيقات، ويروضون الكلب ويستأنسون الماشية، ثم ينتشرون شمالا حالما خفت وطأة المناخ فى الشمال وأخذ المناخ الاستوائى يتحول قليلا ما إلى مناخ مدارى.

ولا تزال كل هذه الفصول الأولى فى القصة الإنسانية بحاجة إلى من يزيل عنها الحجب. ولعلنا نعثر على المادة اللازمة فى آسيا الصغرى وفارس وبلاد العرب والهند أو شمال أفريقيا، أو عساها ترقد تحت أطباق مياه البحر المتوسط أو البحر الأحمر أو المحيط الهندى. فأما منذ اثنتى عشرة ألف سنة أو ما يقاربها — إذ أننا لا نزال حيال عصر مبكر جدا لا يكاد يسمح إلا بأخشن أنواع التواريخ وأبسطها — فإن الشعوب النيوليثية كانت منتشرة فى كل أرجاء أوربا وشمال أفريقيا وآسيا. كانوا شعوباً يقاربون مستوى كثير من سكان الجزر البولينيزية فى القرن الماضى، غير أنهم كانوا أكثر سكان العالم تقدما.

٣ — الحياة النيوليثية اليومية

من الشائق أن نسوق الآن بيانا موجزا عن حياة الشعوب النيوليثية الأوربية قبل ظهور المعادن. وإنا لنستضىء فى وصف هذه الحياة بمصادر مختلفة. ذلك أنهم كانوا ينثرون قماماتهم

حولهم ، وهى فى بعض الأماكن (كشاطىء الدانمرك مثلا) قد تجمعت فى كومات عظيمة ، تسمى باسم مزابل المطبخ . وكانوا يدفنون بعض أفرادهم ، (وإن لم يكونوا يدفنون عامة الشعب) بعناية وتبجيل عظيمين ، وكانوا يرفعون فوق نواويسهم أكواما هائلة من التراب، فهذه الأكوام هى التلمات التى هى مظهر من مظاهر المناظر الأوربية والهندية والأمريكية فى كثير من الأرجاء إلى وقتنا هذا . وكانوا يقيمون أحجارا عظيمة متصلة بهذه الأكوام أو على انفصال منها وهى (جنادل) يقيمونها إما واحدة بمفردها أو جماعات . ومن أحسن أمثلتها نصبا ستون هينج فى ولتشير وكارناك فى بريتانى ، ولا يزال فى الإمكان تتبع آثار قرامم فى أماكن متعددة من أوربا .

وأغنى مصدر لمعلوماتنا عن الحياة النيوليثية هو سويسرا ، وقد كشف عنه الحجب لأول مرة ذلك الشتاء الشديد الجفاف الذى جاء فى ١٨٥٤ ، ذلك أن مستوى الماء انحط فى إحدى البحيرات انحطاطا لم يسمع به الناس من قبل ، فانكشف الحجاب عن أسس (مساكن الأكوام) قبل التاريخية فى العصر الباليوليثى وعصر البرونز الأول ، وكانت تبنى فى الماضى منيفة على الماء على نسق ما يماثلها من المنازل الموجودة اليوم فى سيليبز Ce ebes وفى أماكن أخرى ، ولم يقتصر الأمر على بقاء أخشاب هاتيك الأرصفة القديمة محفوظة سليمة وحسب ، بل إن عددا كبيرا من الأوانى والحلى المصنوعة من الخشب والعظام والحجر والفخار ثم بعض بقايا الطعام وما إليها — وجدت فيما تحتها من أكوام النبات المتحلل ، حتى لقد استطاع العلماء أن يردوا قطعا من الشبك والقماش إلى سابق عهدها .

وكذلك وجدت أمثال مساكن البحيرات هذه فى اسكتلندا وارلندا وفى أماكن أخرى وتوجد بقايا معروفة مشهورة فى جلاستون برى بمقاطعة سمرست ، وكانت مساكن البحيرات فى ايرلندا آهلة بالسكان منذ الأزمنة قبل التاريخية حتى أيام كان أونييل O'Neil التيرونى يحارب الإنجليز قبل نزول المستعمرين الإسكتلنديين ليحلوا محل الارلنديين فى آلستر Ulster بشمال ارلندا ، إبان حكم الملك جيمس الأول لانجلترا . وكانت مساكن البحيرات هذه ذات قيمة دفاعية عظيمة ، وكان فى السكنى فوق مياه فياضة جارية ميزة صحية عظيمة .

والراجح أن (مساكن الأكوام) السويسرية النيوليثية هذه لم تكن لتؤوى أكبر مجتمعات تلك الأيام . بل كانت منازل فئات صغيرة تتبع نظام الأبوة . ومن الراجح أن كان هناك فى أماكن أخرى من السهول الخصبة وفى الأراضى الريفية الأكثر اتساعا ، مجموعات من

المنازل أكبر بكثير مما فى هذه الوديان الجبلية . وفى ولتشير بانجلترا آثار ترجع إلى مثل مجتمع العائلات الكبير الذى ذكرنا . فإن بقايا الدائرة الحجرية فى آفبورى Avebury بالقرب من ربوة سِلبورى Silbury كانت يوما ما « أبدع البقايا الجندلية فى أوربا » وهى مركبة من دائرتين من الأحجار تحيط بهما دائرة أكبرمنهما وخندق ، وتشغل فى مجموعها أرضا مساحتها ثمانية وعشرون فدانا ونصف فدان . وكان يمتد منها شارعان من الأحجارطول كل منهما ميل ونصف ، ويتجهان غربا وجنوبا على جانبى تل سِلبورى ، وهوأكبر ربوة صناعية قبل التاريخ فى انجلترا وإن اتساع مساحة هذا المركز (الخاص بعقيدة وحياة اجتماعيتين نسيهما الناس الآن تمام النسيان) لتدل على الجهود المتكاتفة والمصالح المشتركة التى تضم جمهورا غفيرا من الناس مهما يبلغ العظم بتناثرهم فوق أراضى غربى انجلترا وشرقيها ووسطها ولعلهم كانوا يجتمعون فى موسم خاص من السنة فى ضرب بدائى من الأسواق . والراجح أن المجتمع بأكمله كان يتعاون فى بناء الأكوام وجر الأحجار . فأما سكان الأكوام السويسريون فيلوح أنهم كانوا يعيشون فعلا فى قرى تعتمد على ذاتها .

وكان سكان قرى البحيرات هؤلاء أكثر تقدماً فى وسائلهم وعرفانهم ، وربما كانوا أشد تأخراً فى الزمان من الشعب النيوليثى الأول الذى كان يجمع روابى المحار المعروفة بمزابل المطابخ ، والموجودة على سواحل الدانيمارك واسكتلندا . فهولاء الناس أصحاب مزابل المطابخ قد يرجعون فى القدم إلى عشرة آلاف سنة ق . م أو أكثر . وظلت مساكن البحيرات فيما يرجح مأهولة على الدوام من سنة ٥٠٠٠ أو سنة ٤٠٠٠ ق . م إلى ما يكاد يقارب الزمان التاريخى . وكان هؤلاء القوم قوم مزابل المطبخ ، من أشد شعوب العصر النيوليثى همجية فكانت بلطهم الحجرية خشنة . ولم تكن لديهم حيوانات مستأنسة عدا الكلب ، وكان من سلالة متوسطة الحجم . ومن جهة أخرى كان لدى سكان البحيرات بالإضافة إلى هذا الحيوان ، الثيران والماعز والضأن ، ثم حصلوا فيما بعد على الخنزير بينما كانوا يقتربون من عصر البرونز .

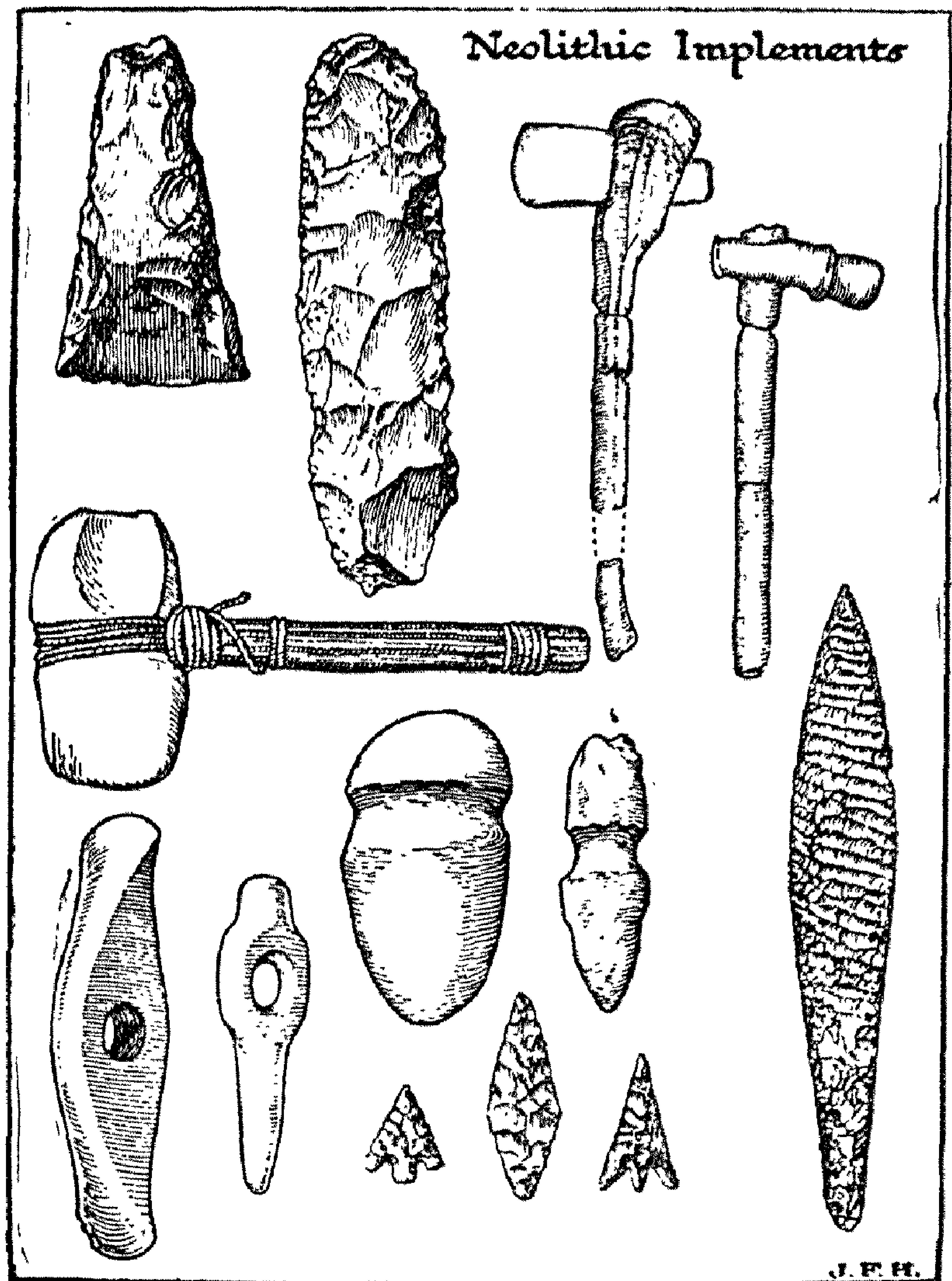
ولا تزال بقايا الماشية والماعز منتشرة بين أنقاضهم ، وإذا راعينا الجو والإقليم المحيطين بهم رجّحنا أن هذه الحيوانات كانت تأوى فى الشتاء فى المبانى التى فوق الأكوام ، وأن الأعلاف كانت تختزن من أجلها . ويرجح أن الحيوانات كانت تعيش مع الناس فى نفس منازلهم ، كما يفعل الناس والحيوان اليوم فى بعض أكواخ سويسرا .

ولعل الناس فى المنازل كانوا يحلبون الأبقار والماعز . ولعل اللبن كان يلعب فى حياتهم الاقتصادية نفس الدور الهام ، الذى يلعبه فى اقتصاديات السويسرى الجبلى اليوم . ولكننا لم نصل بعدُ إلى حد التأكد من هذا الأمر . وليس اللبن طعاماً طبيعياً للبالغين ، فلا بد أنهم عدّوه فى مبدأ الأمر مادة تناولها عجيب . ولعلهم لم يستطيعوا الحصول على مقدار مستمر من اللبن من الابقار والماعز إلا بعد لأى وبعد شىء كثير من استنتاج السلالات . وفى رأى بعض الناس أن استعمال اللبن والجبن والزبد ومنتجات اللبن الأخرى ظهرت فى حياة الإنسان فيما بعد ، عند ما انتقل الناس إلى «الترحل» ؛ على أن الكاتب ميال مع هذا إلى الاعتراف لرجال العصر النيوليثى بفضل اكتشاف عملية الحلب . ولا بد أنهم كانوا يحفظون اللبن إن صح أنهم استعملوه فى أوعية من الفخار (ولاشك فى هذه الحالة أنهم عرفوا اللبن الرائب الحامض أيضاً ، وإن لم يستعملوا جبناً وزبداً جيدى الصنع) ذلك أنهم كان لديهم الخزف وإن كان خزفهم مشغولا باليد شغلا خشناً ، ولم يكن بالخزف الحسن الهيئة الذى تخرجه عجلة الخزاف .

وكانوا يسدون خلة هذا الطعام بالصيد ، فيقتلون ويطعَمون الغزال الأحمر ، والوعل ، والجاموس البرى ، والخنزير البرى . وكانوا يأكلون الثعلب ، وهو لحم حاد النكهة فى الغالب ، وليس مما يقدم عليه أى إنسان فى عالم تكثر فيه الخيرات . وعجيب جداً أن لايبدو أنهم أكلوا الأرنب البرى ، وقد كان طعاماً فى متناول أيديهم . والمظنون أنهم تجنبوا أكله كما يمتنع بعض المتوحشين إلى اليوم عن تناوله فيما يقال ، لأنهم كانوا يخشون أن يجعلهم أكل لحم مثل هذا الحيوان الرعديد جبناء عن طريق العدوى .

ومعلوماتنا عن وسائلهم فى الزراعة قليلة نادرة . إذ لم يُعثر لهم على محاريث أو مناجل . إذ كانت من الخشب فبليت . زرع الرجال النيوليثيون ، وأكلوا الحنطة والشعير والذرة الرفيعة . بيد أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الشوفان والجودار Rye ، وكانوا يحمصون حبوبهم ويطحنونها بين الأحجار ويختزنونها فى أوعية لتؤكل عند الحاجة ، وكانوا يصنعون خبزاً شديد التماسك والثقل ، لأن قطعاً منه مسطحة مستديرة استخرجت من تلك الرواسب وواضح أنه لم تكن لديهم خميرة . وما داموا كذلك فلا شك أنهم لم يعرفوا الشراب المخمر .

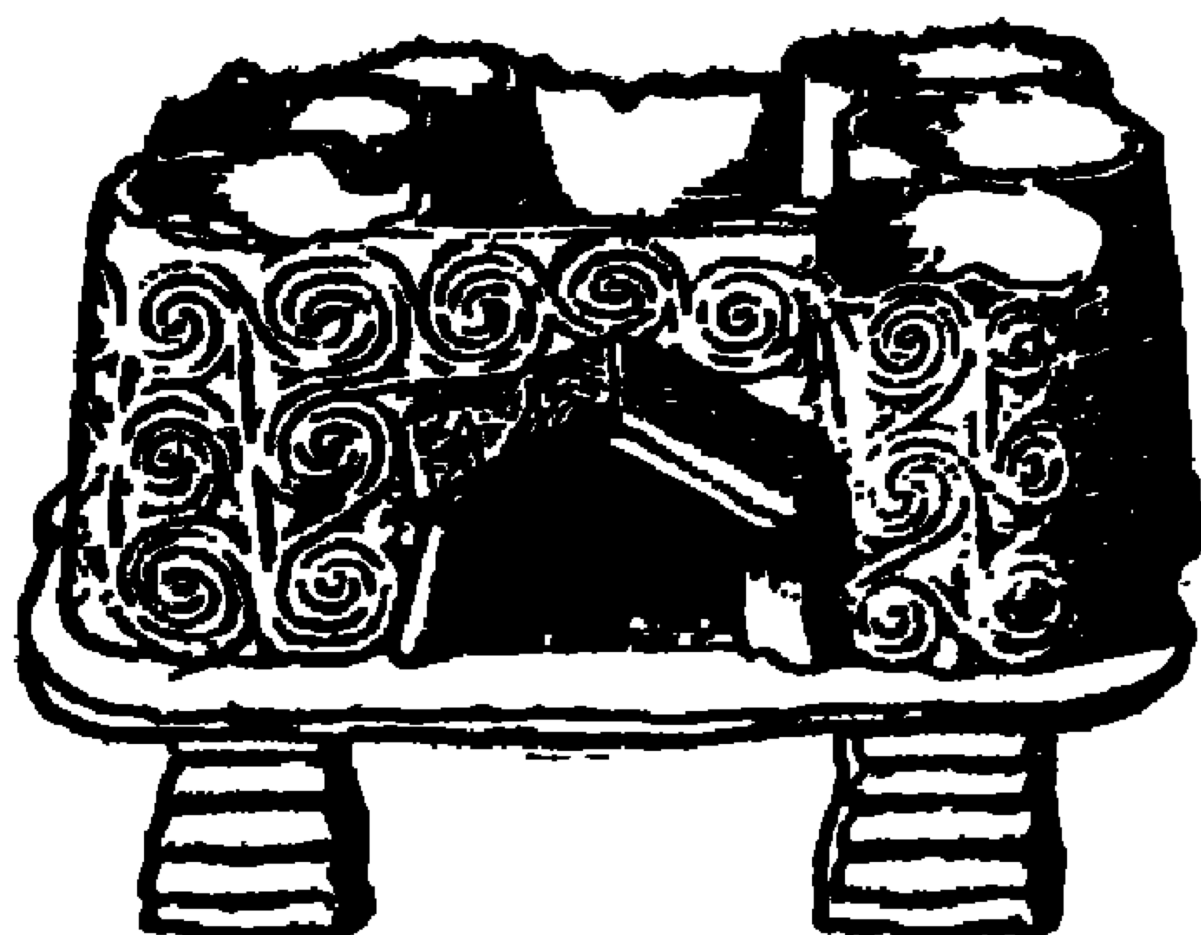
وثمة ضرب من الشعير كان لديهم هو الضرب الذى كان يزرعه قدماء الأغريق والرومان والمصريين . وكان لديهم أيضاً ضرب من الحنطة مصرى ، مما يدل على أن أسلافهم استجلبوا

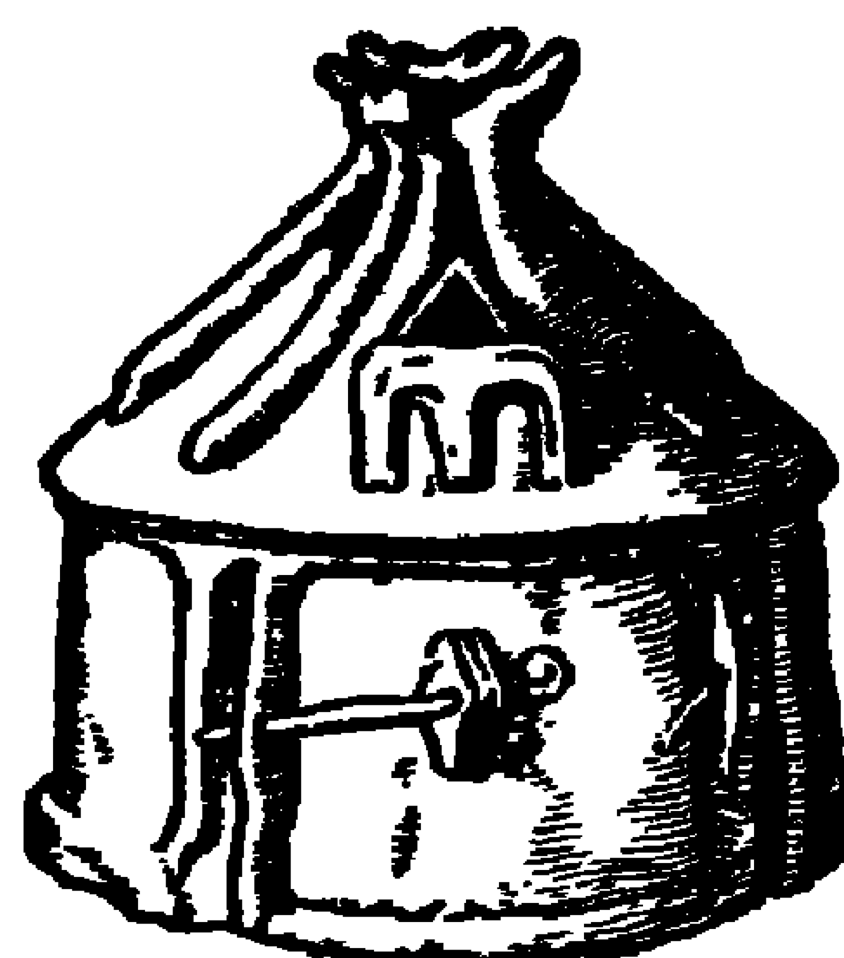


(٢٣) أدوات نيوليثية (مصورة بمقاييس رسم مختلفة) →



(٢٤) فخار من مساكن البحيرات





(٢٥) خوابى كوخية ، لعل اليسرى منها تمثل أحد مساكن البحيرات



(٢٦) تمثال منحوت (منهير) من العهد النيوليثى وهو نقيض
لما عليه الفن الباليوليثى من حرية وقوة

أو اشتقوا تلك الزراعة من الجنوب الشرقى ، فإن مركز انتشار الحنطة كان مكاناً ما فى منطقة البحر المتوسط الشرقى . ولا يزال ضرب برى منه موجوداً فى جوار جبل هرمون . وعند ما كان سكان البحيرات يزرعون قطع الأرض الصغيرة قمحاً فى سويسرا ، كانوا عند ذاك يترسمون خطى الجنس البشرى منذ أيام لا أول لها ، ولا بد أن استجلبت البذور عصراً فعصراً من مركز الانتشار البعيد الذى تحدثنا عنه . فإن الرجال فى أرض الأجداد فى الجنوب الشرقى اضطلعوا من قبل ببذر الحنطة مدة ربما بلغت آلافاً من السنين .

فكل شعوب العالم القديم الذين درجوا إلى المرحلة النيوليثية زرعوا الحنطة وطعموها ، على أنه لا بد أن يكون هنود أمريكا قد طوّروا الزراعة بعد انفصالهم عن أهل العالم القديم . ولم تكن لديهم الحنطة قط ، وكانت زراعتهم هى الأذرة ، أى القمح الهندى وهو حب خاص بالعالم الجديد . وسكان البحيرات هؤلاء أكلوا أيضاً الباسلاء والتفاح البرى الأساسى ، وهو التفاح الوحيد الذى كان موجوداً فى العالم إذ ذاك . ولم يكن الازدراع والانتخاب قد أنتجا بعد تفاحة العصر الراهن .

وكان أهم ما يرتدون الجلود ، على أنهم كانوا أيضاً يصنعون ضرباً خشناً من نسيج الكتان وقد وجدت قطع من ذلك النسيج الكتانى ، وكانت شباكهم مصنوعة من الكتان أيضاً ولم يكن لديهم حتى ذلك الحين أى علم بالقنّب أو حبال القنب وزادت دبابيسهم وكثر حليهم بمجىء البرونز . ولدينا من الأسباب الوجيهة ما يحملنا على أن نعتقد بأنهم كانوا يتخذون من شعرهم مخازن كبيرة ، إذ يرجلونه خصلا كبيرة يمسكونها بدبابيس من العظام أصبحت فيما بعد من المعادن ، وإذا استنتجنا من عدم وجود الصنف الواقعى من النحائت أو المحفورات أو الصور الملونة ، عرفنا أنهم إما لم يكونوا يزينون ثيابهم أو أنهم زينوها بالخطوط المتقاطعة (على طريقة القماش المسمى بالاسكتش) وبالنمرات والتصميمات المتشابكة وما أشبهها من الزخرفة المنتشرة عندهم . وليس هناك أى شاهد يدل على وجود الكراسى أو المناضد قبل ظهور البرونز ، والراجح أن أهل العصر النيوليثى كانوا يجثمون على أرض بيوتهم الطينية ، ولم يكن هناك قطاط فى مساكن البحيرات هذه ، ولم تكن الفيران أو الجرذان قد كيفت نفسها والمساكن الإنسانية ، ولم تكن قوقأة الدجاجة قد أضيفت بعد إلى ما يسمع فى حياة الانسان من أصوات . كما لم تكن البيضة المنزلية قد أضيفت إلى غذائه .

ذلك أن الدواجن وبيض الدجاج كانت إضافات متأخرة فى مطبخ الانسان رغم ذلك الدور الكبير الذى تلعبه الآن فى غذائنا ، وليست الدجاجة مذكورة فى (العهد القديم) كما لم يجر ذكرها فى الياذة هوميروس ، ولكن لاحظ الاشارة إلى البيضة فى (الآية ٦ الاصحاح ٦ سفر أيوب) ، فالدجاج الوحيد فى العالم حتى قرابة ١٥٠٠ ق . م كان من قواطن الاحراش فى الهند وبورما . وقد لاحظ جلاسفيرد Glasfurd صياح ديكة الأحراش فى بياناته الشائقة عن البيور ، ووصفه بأنه البشير الذى لا ينفك يؤذن بطلوع الفجر فى الأحراش الهندية . والراجح أن الدواجن استؤنست لأول مرة فى بورما ، ومنها انتقلت إلى الصين قرابة ١١٠٩ ق . م فقط كما تقول السجلات . وهى قد وصلت بلاد اليونان بطريق بلاد فارس قبل زمن سقراط . وبالمقارنة بالعهد القديم نجد فى العهد الجديد أن صياح الديكة يؤنب بطرس على خيانة السيد .

كان أهم آلات الرجل النيوليثى وأسلحته هو بلطته . وكان ثانيها هو القوس والنشاب وكانت رؤوس سهامه من الظران ، وهى جميلة الصنع ، كان يربطها ربطاً وثيقاً إلى ساق سهمها . والراجح أنه كان يعد الأرض لبذاره بمساعدة هراوة ، أو بمعونة عمود ألصق فيه قرن وعل ، وكان يصطاد السمك بالسنارة أو الحربة ، وكانت هذه الآلات ولا شك ملقاة هنا وهناك فى جوانب البيت ، الذى كانت تتدلى من حيطانه شباك الصيد . فأما الأرضية وهى من الطين ، أو من روث البقر المدوس بالأقدام — على مثال أرضية العشوش فى الهند اليوم . فكانت عليها قدور وخوابى وسلال منسوجة تحتوى القمح واللبن ، وما إليه من طعام . وكان بعض الأوعية والحلل متدليا من عُرى للحبال فى السقف ، وكانت الحيوانات ترقد فى أحد جوانب الحجرة ، وكان وجودها يساعد على تدفئتها شتاء بما لها من حرارة حيوانية . وكان الأطفال يخرجون بالبقر والماعز لترعى ، ويعيدونها فى الليل قبل أن تفتك بها الدببة والذئاب ، ووجود القوس عند الرجل الباليوليثى يرجح أيضاً وجود الآلات الوترية لديه ، وكأنى بالرنين الايقاعى الذى لوتر القوس أمراً يكاد يؤدى إلى ذلك حتما . وكانت لديه أيضاً طبول من الفخار يشد عليها الجلود ، ولعله صنع الطبول أيضاً بشد الجلود إلى جزع شجرة أجوف . والصفارات العظيمة معروفة للناس حتى منذ الزمن الباليوليثى . ولذا فأنت فى حل أن تزعم أن صفارات القصب اختراع مبكر قديم . ولسنا ندرى متى أخذ الانسان فى الغناء ، ولكن من البين أنه كان ينتج الموسيقى ، إذ أنه لما كانت لديه الألفاظ ، فلا ريب فى أنه كان يؤلف الأغانى ، ولعله ابتدأ بارسال صوته على سجيته كما قد يسمع المرء اليوم

مثـل ذلك من الفـلاحين الايطاليين خلف محاريثهم حـين يغنون أغانى بلا ألفاظ . وكان الإنسان يجلس فى داره وقد سجا ليـل الشتاء ، يتحادث ويردد الألحان ، ويصنع بعض الآلات ، معتمداً على حاسة اللمس دون البصر ، وكانت الاضاءة لديه لا بد حقيرة ، وأهمها ضوء النار . ولـكن الراجح أن كانت هناك على الدوام نار موقدة فى القرية آناء الصيف ، وأطراف الشتاء ، إذ كان إيقاد النار يبلغ بالرجال من الجهد حداً لا يسعهم معه أن يدعوها تفلت من أيديهم مختارين ، وقد تحدث فى بعض الأحايين كارثة عظيمة لقرى الأكوام هذه حين تنطلق النار فتحرقها بأكلها . والبقايا السويسرية تحتوى على مايدل على حدوث أمثال هذه الـكوارث .

وكل هذا الذى ذكرنا جمعناه من بقايا مساكن الأكوام السويسرية ، تلك هى خصيصة الحياة الانسانية التى كانت منتشرة فى أوربا ، والتى جاءت مع ظهور الغابات من الجنوب والشرق حـين أخذ غزال الرنة ورجاله فى الزوال ، وواضح أن بين أيدينـا الآن طريقة من طرائق الحياة ، يفصلها واد عظيم من آلاف سنى الاختراع ، عن مرحلتها الباليوليثية الأصلية ، ولسنا نستطيع إلا الرجم بالحـدس فى الخطوات التى نهضت بهـا من تلك الحالة ، ولعـل الانسان انتقل على درجات غـير مدركة من صياد يحوم حول أطراف قطعان المـاشية والشاء الوحشية ومن مُشارك للـكلب فى صيده ، إلى أن أصبح له نوع من الاحساس بملـكية الحيـوانات ، وإلى أن أنشأ بينه وبين منافسه الـكلب مودة وصـداقة .

فتعلم كيف يرد الماشية إذا هامت فى الأرض أكثر ممـا ينبغى . وجعل يحمل عقله الأوسع من عقولها على أن يقودها إلى مرعى أوفر عشبا . ثم هو يظل يدفع بالحيوانات ليحصرها فى وديان وحظائر ، حتى يتحقق من أمكان عثوره عليها مرة ثانية ، وكان يطعمها إذا سغبت ، وبذلك استطاع أن يستأنسها فى بطء ومهل ، وربمـا ابتدأت زراعته مع اختزانه الأعلاف ، فأنه حصد لا جرم قبل أن يبذر . ألم تر إلى الأسلاف الباليوليثيين فى تلك البلاد الأصلية البعيدة المجهولة فى الجنوب الشرق ، كيف ابتدأوا باستكمال ما ينقص الصيادين من اللحم بتناول الجذور والفواكه والحبوب البرية ؟ ومن المشكوك فيه أن يكون الإنسان البدائى فى أى مرحلة من مراحله لحما تماما معتمدا فى طعامه على اللحم فقط .

فإنه ابتدأ فى زمن ما بأن يزرع بشكل قاطع محدد .

ويظهر لنا السير ج . ج . فريزر فى كتابه العظيم (القوس الذهبى) أن من أعجب الأعاجيب

ومن أعظم الحقائق أهمية فى نماء المجتمع الإنسانى أن فكرة البذار كانت مشتبكة اشتباكا لا تنفصم عراه فى الذهن النيوليثى البدائى مع فكرة التضحية الإنسانية . كانت خليطا معقدا فى ذلك العقل البدائى الحلام الذى يشبه عقول الأطفال ذلك العقل الذى كان يصنع الخرافات . وما من سبيل إلى تفسير ذلك تفسيرا معقولا . فى ذلك العالم القديم قبل عشرة آلاف من السنين كانت تقدم أضحية إنسانية كلما حان أوان البذار ، ولم يكن الأمر تضحية بأى شخص وضيع أو منبوذ ، بل كان كما جرى العرف تضحية بشاب مختار أو فتاة مختارة ، وكان المختار فى غالب الأحايين فتى ، يعامل باحترام عميق وتبجيل عظيم حتى ساعة التضحية به . وكان يعد فى غالب أمره (ملكا ربا) كتبت عليه التضحية ، ثم أصبحت كل تفاصيل قتله من بعض الطقوس المقدسة ، التى يقوم عليها الكهول (العارفون) ويقرها ما جرى عليه العرف المتكرر على امتداد العصور .

وهذه التضحية الإنسانية أو بعض أثر يتبقى منها تبدو أنى بلغ الإنسان بدايات الزراعة أو تخطاها .

٤ — التجارة البدائية

لابد أن تكون كل هذه البدايات المبكرة قد حدثت فى زمان قديم جدا وفى أقاليم من العالم ما تزال بحاجة إلى أن تفحصها يد الأركيولوجيين فحصا منتجا فعالا . وكان الرجال النيوليثيون قد تخطوا هذه البدايات منذ أزمان بعيدة وكانوا اقتربوا وأمسوا لا يفصلهم إلا بضع آلاف من السنين من فجر التقاليد المكتوبة ومن تاريخ الجنس البشرى ، الذى لا تزال الذاكرة تعيه . ثم ظهر البرونز آخر الأمر فى الحياة الإنسانية ، فلم يحدث هزة عظيمة أو صدعاً كبيرا ، غير أنه أتاح للقبائل التى سبقت غيرها إلى اكتشافه ، ميزة عظيمة فى الحروب . وكان التاريخ المكتوب قد ابتدأ آنفا قبل أن تدخل الأسلحة الحديدية إلى أوربا لتحل محل البرونز .

وابتدأ من قبل تلك الأيام ضرب من التجارة البدائية ، فكان البرونز والأسلحة البرونزية والأحجار النادرة والصلبة أمثال الكهرمان الأسود والذهب (بسبب إمكان تشكيله وصوغه حليا) والكهرمان بسبب ما له من جمال شفاف وضاء ، والجلود ونسيج الكتان وشباكه — كانت جميعا موضع المقايضة ، أو كانت تسرق وتنقل من يد إلى أخرى فوق مساحات فسيحة من الأرض . ولعل الملح أيضا كان ضمن ما يُتجر به ، ويستطيع الناس أن يعيشوا من غير ملح

ما اعتمدوا على غـذاء من اللحم ، فى حين أن مستهلكى الحبوب من الناس محتاجون إليه احتياج الحيوان العاشب . ويقول المستر هوپف Hopf إنه نشبت حروب مريرة بين القبائل الصحراوية السودانية فى السنين الأخيرة على امتلاك رواسب الملح فى فزان . وفى مبدأ الأمر كانت المقـايضة والابتزاز بالتهديد والجزية والسرقة بالاكراه يتطرق أحدها إلى الآخر على درجات غير محسوسة . فكان الناس يحصلون على ما يشتهون بأية وسيلة استطاعوا .

٥ — امتلاء وادى البحر المتوسط

لقد ظللنا حتى الآن نقص عليك تاريخا بلا أحداث ، تاريخ عصور وآماد ومراحل من التطور . ولـكنا قبل أن نختم لك هذا القسم من القصة الإنسانية ، ينبغى علينا أن نسجل شيئا قد يكون ذا أهمية أولية ، وربما كان فى مبتدأ أمره ذا أهمية محزنة فى تطور الجنس البشرى ، هذا الحادث هو انسياب مياه المحيط الأطلسى إلى وادى البحر المتوسط العظيم .

ويجب أن يتذكر القارئ على الدوام أننا نحاول جهدنا أن نعطيه بيانات واضحة يستطيع أن يتقبلها مرتاحا راضى النفس . على أنه يوجد بالضرورة فى مادة خرائطنا الزمانية وخرائطنا المادية ، التى أوردناها مبينة للجغرافيا قبل التاريخ ، قدر كبير من المـادة يعتمد على مجرد الحدس والرأى . ولقد أرخنا عصر الجليد الأخير وظهور الانسان الحق منذ حوالى خمسين ألفا أو خمسة وثلاثين ألفا خلت من السنين ، وإنا لنرجو القارئ أن يتذكر جيـدا كلمة (حوالى) هذه فقد تكون حقيقة ذلك هى الستين ألفا أو العشرين ألفا من السنين . ولسنا نكتفى فى تقدير هذه المدة بقولنا (منذ زمان بعيد) أو (منذ عصور سحيقة) إذ لا غناء فى مثل هذه العبارات فلن يعرف منها القارئ أنحن نعنى القرون أم الملايين من السنين . فالأرقام خير من ذلك وأدق . وعلى هذا النحو لا تمثل الحقيقة هذه الخرائط التى نوردها وإنما هى تمثل شيئا يشابه الحقيقة . فكانت معالم الأرض تكاد تقارب هذه المعالم أى أنه كان هناك ما يماثل هذه البحار وما يماثل تلك الـكتل الأرضية . على أن كلا من المستر هورابين Horrabin الذى قام برسم هذه الخرائط وكاتب هذه السطور الذى دعاه إلى رسم تلك الخرائط قد آثر أن يلتزم فى الخطأ جانب الخشية والحذر . فنحن لم نصل فى الجيولوجيا إلى الحد الذى يسوغ لنـا أن نمخر عباب المباحث الأصلية فى تلك الشئون ، ولذا نجدنا التزمنا فى البحر خط الأربعين قامة عمقا وفى البر الرواسب الحديثة ، واتخذناهما دليلا يرشدنا فى خريطتنا عن عصر ما بعد الجليد ، وفى الخريطة الخاصة بالحقبة من سنة ١٣٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ق . م على أننا تخطينا هذين الدليلين فى أمر واحـد ،

فإن من المحقق عمليا أنه عند نهاية العصر الجليدى الأخير كان البحر المتوسط مكوناً من حوضى بحرين محوطين بالأراضى لا يتصل أحدهما بالآخر أو يتصلان فقط بنهر سيلى فيضى ، وكان الحوض الشرقى أعذب الحوضين ماء ، بما تغذيه مياه النيل والنهر الأدرياتى ونهر البحر الأحمر ، وربما كان يغذيه كذلك نهر ينصب بين الجبال التى هى الآن الأرخبيل اليونانى خارجا من بحر وسط آسيا ، كان موجودا حينذاك وكان أعظم من كل الأنهار التى ذكرنا بكثير . ويكاد يكون محققا أن رجال العصر النيوليثى جاسوا خلال فردوس البحر المتوسط المفقود .

والأسباب التى تحملنا على تصديق هذا الأمر وجيهة وواضحة جداً . فإن البحر المتوسط لا يزال حتى اليوم بحرا يتبخر ماؤه . فالأنهار التى تصب فيه لا تعوضه عما يفقد سطحه بسبب البخر . وهناك تيار مستمر لمياه تنصب إلى البحر المتوسط من المحيط الأطلسى ، وتيار آخر ينساب خلال البسفور من البحر الأسود . ذلك أن البحر الأسود يتلقى من مياه الأنهار العظيمة التى تنصب فيه ، فوق ما هو فى حاجة إليه . فهو بحر غاص بالمياه فياض بها على حين كان البحر المتوسط بحرا دائم التعطش إلى المياه . ومن ذلك يتضح أنه عندما انفصل البحر المتوسط عن كل من المحيط الأطلسى والبحر الأسود على السواء فلا بد أنه كان بحرا متناقصا وأن مياهه كانت تهبط إلى مستوى أدنى بكثير من مستويات المحيط فى خارجه . وهذا هو حال بحر قزوين اليوم . وهو فضلا عن ذلك أكثر انطباقا على حال البحر الميت .

فإن كان هذا التعليل سليما فلا بد أن كانت هناك أرض حيث تلتطم اليوم أمواج البحر الأبيض المتوسط ولا بد أن كانت هذه الأرض شاسعة ولا بد أن كان جوها معتدلا ملائما . ولعل الحال كان كذلك فى العصر الجليدى الأخير . ولسنا ندرى على وجه التحقيق متى تغيرت هذه الحال فقد نفذ مياه المحيط إلى حوض البحر الأبيض المتوسط . ولكننا نعلم علم اليقين أن قوما من الأزيليين والنيوليثيين كانوا يتقلبون فى أنحاء الوديان والغابات التى اندثرت فيما بعد تحت مياه البحر الأبيض . ثم نعلم علما لا يبلغ درجة اليقين أن بيض العصر النيولوثى الداكنين ربما كانوا قد تقدموا نحو بدايات الاستقرار والمدنية فى ذلك الوادى الذى غمره البحر .

وللمستر و . ب . رايت W. B. Right بعض آراء مثيرة شائقة فى هذا الشأن . فهو يرى أنه كانت فى حوض البحر المتوسط بحيرتان . إحداهما (بحيرة عذبة الماء فى المنخفض الشرقى ، تنصرف مياهها فى البحيرة الثانية التى فى المنخفض الغربى . ومن الشائق أن نتخيل ما لابد أن يكون قد حدث عندما علا مستوى المحيط مرة أخرى نتيجة لتبدد بساط الثلوج ،

فأخذت مياهه تنصب إلى متسع البحر الأبيض المتوسط ، ولا بد أن ذلك الانسياب وكان قليلا فى بادىء الأمر ، قد تزايد حتى أصبح فى النهاية هائلا مروعا ، مع توالى انخفاض النتوء الذى فى قاع المضيق بفعل التحات ومع الزيادة البطيئة فى مستوى المحيط . فلو كانت هناك أى مواد غير متماسكة فى نتوء المضيق ، فلا بد أن تكون النتيجة تفككها تفككا حقيقيا ، ولو أننا تأملنا المدة المديدة التى يستغرقها هذا السيل الهائل العظيم فى ملء متسع هائل كحوض البحر المتوسط ، أدركنا أن هذه النتيجة محتملة الحدوث على كل حال . وربما بدا كل هذا ضربا من أشد أنواع التفكير النظرى امعانا فى الغرابة . على أنه ليس كذلك من كل الأوجه ، إذ أننا إذا فحصنا خريطة كونتورية لقاع البحر عند مضيق جبل طارق ، وجدنا أن هناك واديا عظيما يرتفع من أعماق البحر المتوسط ويخترق المضيق ويسير مسافة ما مكونا خندقا يصل إلى جرف فى قاع المحيط الأطلسى . والراجح أن هذا الوادى أو الخانق تكون نتيجة لانصباب مياه المحيط فى البحر عند نهاية مدة الصرف الداخلى) .

فهذا الامتلاء الذى يرجح حدوثه فيما بين ١٥٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ سنة ق . م وفقا للتقديرات الزمنية الإجمالية التى نستعملها فى كتابنا هذا ، لا بد أن يكون من بين أعظم الأحداث الفريدة فى الزمن السابق لتاريخ جنسنا ، فلو كان التاريخ الأخير هو أصدق الاثنين ، فإن بدايات المدنية الفجة وأعنى بها مساكن البحيرات الأولى والزراعة الأولى ، نشأت فيما يرجح حول تلك البحيرة الشرقية أى ذلك البحر العذب المياه الذى لم يكن ينصب فيه نهر النيل وحده ، وإنما النهران العظيمان اللذان هما اليوم بحر الادرياتى والبحر الأحمر .

وأخذت مياه المحيط تعلو فوق نتوء التلال الغربية المعترضة فى قاع المضيق وتنصب على هذه الشعوب البدائية ، وقد أصبحت تلك البحيرات التى كانت ملاذهم وصديقهم عدوا لهم . فكانت مياهها تعلو ثم تعلو ولا تنخفض قط . فأغرقت مستقراتهم وسارت المياه فى أثرهم وهم يهربون منها مهطعين . وأخذت المياه تنتشر على الوديان . وتدفع بالجنس البشرى أمامها يوما بعد يوم وسنة بعد سنة . ولا بد أن يكون قد أحاط بكثير منهم ذلك الفيض من الماء الملح الدائب الارتفاع ، والذى لم يكن أمام لججه ما يصدها عنهم والذى لم يكن للناس منه عاصم ، كلا بل كان يتقدم أسرع فأسرع ويعلو رؤوس الأشجار ويغطى التلال ، حتى ملأ حوض البحر المتوسط الحالى بأسره ، وحتى احتضن جبال بلاد العرب وأفريقيا . حدثت هذه الكارثة فى ذلك الزمان السحيق ، قبل بزوغ فجر التاريخ المكتوب بوقت طويل .

ولعل ستارا من الماء قد أسدل بذلك على طائفة من أكثر مناظر هذه المسرحية الإنسانية فتنة وجمالا .

الفصل العاشر

الفكر الأول

---

١ — الفلسفة البدائية

قبل أن نواصل الحديث ونخبرك كيف أنه منذ ستة أو سبعة آلاف سنة من الزمان ، أخذ الناس يجتمعون فى المدن الأولى ويكونون شيئاً يزيد على القبائل المتفككة العرى التى كانت حتى ذلك الحين أعلى مجموعاتهم السياسية . لابد لنا من كلمة نسوقها عن الأفكار ، التى كانت تتوالى فى خبيئة تلك العقول التى تتبعنا نماءها وتطورها خلال مدة طولها خمسمئة ألف سنة منذ مرحلة الرجل القرد .

ماذا كان رأى الإنسان فى نفسه وفى العالم أثناء تلك الأيام الخوالى ؟ لم يكن يفكر فى بادئ الأمر فى أى شىء عدا الأشياء التى تهمه مباشرة فلم يكن يشغله بادئ الرأى إلا التفكير مثلا فى طريقة للخلاص من الدب إن اعترض الدب طريقه أو الحصول على السنجاب إذا لقى السنجاب . وهو حتى يوم تطورت لغته إلى حد ما ، لم يكن بقادر إلا على الشىء القليل من التفكير الذى لا يتجاوز نطاق الخبرة الفعلية ، لأن اللغة هى أداة التفكير شأن مسك الدفاتر فى كونه أداة الأشغال ، فهى تسجل وتثبت وتمكن الفكر من الانتقال إلى أفكار تتزايد درجة تعقيدها شيئاً فشيئاً . فهى يد العقل يمسك بها الأشياء ويختزنها لديه .

والراجح أن الإنسان الأول كان قبل أن يستطيع الكلام يرى الأشياء واضحة بينة ، ويقلد ما يرى بغاية المهارة ، ويأتى بالحركات والإيماءات ويضحك ويرقص ويعيش ، من غير إعمال أى فكر عن : أيان جاء ؟ ولماذا يعيش ؟ كان يخشى الظلام لا جرم ، ويخاف الصواعق والحيوانات الكبيرة ، والأشياء الشاذة الهيئة ، ويخشى أى شىء تأتيه به الرؤيا فى المنام ، ولا ريب فى أنه كان يأتى أموراً يستجلب بها رضاء الأشياء التى كان يخشى أو يغير بها طالعة ويدخل بها السرور على القوى الوهمية التى خالها فى الصخر والوحش والنهر . ولم يكن



(٢٧) أدوات من العصر البرونزى (مصورة بمقاييس رسم مختلفة)

أرض الجزيرة	مصر	أوربا	
الإنسان يدخل المرحلة النيوليثية		—	١٨,٠٠٠ ق.م —
		فترة	—
بدايات الزراعة		السهوب	—
—	—	إنسان غزال الرنة	—
		ذاهب	١٥,٠٠٠ ق.م —
—	—	فترة انتقال الغابات	—
—	—	الأزيلى	١٣,٠٠٠ ق.م —
—	—	—	—
—	—	—	—
—	—	—	—
—	—	الرجال النيوليثيون	
—	—	ينتشرون فى أوربا	١٠,٠٠٠ ق.م —
	الثقافة المليوليثية		
فجر الحضارة السومرية	—	أول مساكن البحيرات	٨,٠٠٠ ق.م —
	تتطور	—	—
البرونزى	—	—	—
نيبور — ايريدو	—	—	٦,٠٠٠ ق.م —
أول كتابة سومرية (٥,٠٠٠)	الأسرة الأولى	—	٥,٠٠٠ » »
—	الأهرام	—	٤,٠٠٠ ق.م —
—	—	البرونزى	٣,٠٠٠ ق.م —
سارجون الأول	—	إنشاء مجموعة اللغات الآرية	٢,٠٠٠ ق.م —
الحديدى	—	الحديدى	١,٠٠٠ ق.م —
الإسكندر الأكبر			٣٢٠ ق.م —
	يوليوس قيصر		٥٠ ق.م —
	الحقبة المسيحية		م — ١٩٢٩

(٢٨) بيان زمنى يوضح الطول العام للفترة النيوليثية (أى العصر الحجرى الجديد) التى تطور فيها الفكر المبكر

تميزه بين الـكائنات الحية وبين الجمادات تميزاً واضحا جليا . فلو آذته عصا لـكزها بقدمه . ولو أن النهر أرغى وفاض لظنه عدوا مبينا . وكان فكره فيما يرجح قريباً جداً من مستوى عقل طفل صغير ذكى الفؤاد فى الرابعة أو الخامسة من عمره . فكان له نفس ما للأخير من عدم تعقل ومن تقلب أهواء . وكانت له نفس الأغلال التى تحد أفق عقل الأخير . ولـكن لمـا لم يكن لديه إلا القليل من الحديث واللغة ، أو لم يكن لديه حديث بتاتاً ، فإنه لم يستطع إلا قليلا أن يوصل إلى غيره الخيالات التى كانت تطيف به أو أن ينشئ أى تقاليد أو أفعال جمعية تدور حول التقاليد .

ورسوم الإنسان حتى التى ترجع منها إلى الزمن الباليوليثى المتأخر ، لا تحمل أية إشارة إلى أنه كان يهتم أدنى اهتمام بالشمس أو القمر أو النجوم أو الأشجار ، أن كان الحيوان والإنسان دون غيرهما هما شغله الشاغل ، ولعله كان يعـد الليل والنهار والشمس والنجوم والأشجار والجبال أموراً من طبيعة الأشياء شأنه فى ذلك شأن الصبى إذ ينظر إلى مواعيد طعامه ، وإلى اللعبة الصغيرة التى يلهو بها بوصفها أشياء معترفا بوجودها مسلما بهـا . وفى اعتقادنا أنه لم يكن ينشئ أى رسوم خيالية ولا أى أشباح ولا أى شىء من هـذا القبيل ، ورسوم رجل غزال الرنة إنما هى رسوم لأشياء مألوفة لا يداخلها الخوف ، وليس فيهـا أى أثر للتوقير والاحترام . ولعله كان يشعر أن رسم الوحش يجذب الوحش إليه . وربما كانت رسومه رسوما سحرية تجلب الحظ فى القنص ، ولـكنه لا يبدو عليها أنها رسمت بغية التعبد ، ولا يكاد المرء يعثر بين كل ما أنتجه على شىء نستطيع أن نزعمه رمزاً دينياً يحتوى سراً من أسرار الدين .

ولا مراء أن حياته كانت تضم قدراً معينا مما يسميه الناس باسم الفتيشية فإنه كثيراً ما أتى أشياء يرمى بها إلى الوصول إلى نتائج يرغبها ، وهى لعمرى أشياء نراها نحن اليوم غير معقولة ، إذ أن هـذه هى كل المرتبة التى تستطيع الفتيشية بلوغها ، فما الفتيشية إلا العلم الخاطئ المبنى على الحدس والتخمين أو التمثيل الخاطئ ، وهى تختلف فى طبيعتها تمام الاختلاف عن الدين . ولا ريب أن أحلامه كانت تستثيره ، وأنها كانت فى بعض الأحيان تختلط بما يؤثر فى ذهنه أثناء اليقظة من مؤثرات وتبلبل فؤاده . ولـما كان الإنسان يدفن موتاه ولما كان الرجل النياندرتالى المتأخر نفسه يلوح كأنما كان يدفن الموتى ومعهم الطعام والأسلحة كما يعرف القارئ ، أخذ بعض الناس يحاج بأنه كان يعتقد فى وجود حياة مستقبلة . على أنه من المعقول أيضاً أن يكون الرجال الأوائل قد دفنوا موتاهم ومعهم طعامهم وأسلحتهم

ارتيابا فى أن موتاهم قد فارقوا الحياة حقا . ولا يدل هذا فى نفسه على إيمانهم بخلود الروح . وكانوا يرون موتاهم فى أحلامهم فتقوى عندهم العقيدة بأنهم ما زالوا أحياء ولعلهم كانوا ينسبون إليهم ضرباً من الوجود ينقلبون فيه إلى حين دئابا ، ثم يحاولون استرضاءهم .

وإنا لنشعر أن رجل غزال الرنة كان على درجة من الذكاء والمشابهة لأشخاصنا إلى حد لا يسمح بأن لا تكون له لغة ، على أنه من الراجح جداً أنها لم تكن لتعينهم عونا كبيراً فى أى شىء يتعدى البيان المباشر أو التحدث بما يقع . كان يعيش فى مجتمع أكبر من مجتمع الرجل النياندرتالى أو من مجتمع سلفه هو المباشر النياندرتالويدى أو مجتمع أىّ قرد كبير ، ولكن كم كان قدر القبيلة ؟ هذا مالا نعرفه . وكان على مجتمعات الصيد ألا تقيم بعضها مع بعض فى مجاميع كبيرة ، وإلا هلكت جوعا ، مالم تكن الأرض زاخرة بالصيد الجم .

والهنود الذين يعتمدون على غزال الكاريبو فى (لابرادور) يعيشون فى ظروف تشبه تقريباً ظروف رجال غزال الرنة . فهم ينتشرون فى جماعات عائلية صغيرة مثلما ينتشر الكاريبو بحثا عن طعامه ، ولكن عندما يجتمع الغزال استعداداً للهجرة الموسمية يحذو الهنود حذوه ويجتمعون . وهذا هو أوان التجارة والأعياد والزواج لديهم .

وأبسط رجل هندى أمريكى يزيد فى خبرته بأمور الدنيا عن الرجل النياندرتالى بمقدار عشرة آلاف سنة ، ولكن الراجح أن هذا الضرب من التجمع والتشتت هو نفس طريقة رجل غزال الرنة . وتوجد فى سوليوتريه (Solutre) بفرنسا آثار تدل على مكان عظيم كانوا يخيمون فيه ويقيمون . وكان الناس يتبادلون الأخبار فى ذلك المخيم ولا ريب . ولكن المرء منا فى حل من أن يرتاب أنه كان ثمة أى تبادل للأفكار ، ولسنا نرى فى مثل هاتيك الحياة أى مجال للإلهيات أو الفلسفة أو الخرافات أو النظر فى الأمور .

فأما المخاوف فنعم . لكنها كانت مخاوف غير منظمة ، إذ لم تكن إلا أوهاما وهواجس من نسج الخيال ، ولكنها كانت هواجس وأوهاما شخصية متنقلة .

وربما كان لتلك الاجتماعات قدر معين من قوة الايحاء . حقا إن الخوف إذا أحس به صاحبه لم يحتج إلى أكثر من كلمات قليلة للتعبير عنـه للآخرين . وإن القيمة التى يقدرها صاحبها لشىء ما يمكن الإخبار عنها بغاية البساطة .

وينبغى أن نتذكر فى مثل هذه المسائل الخاصة بالفكر والدين البدائيين ، أن دراسة الشعوب الدنيا المتوحشة فى زماننا هـذا ذات قيمة ضئيلة جداً فى دراسة حالة الإنسان العقلية قبل زمن اللغة الكاملة التطور . ولم يكن الإنسان الأول ليستطيع أن ينشىء إلا تقاليد قليلة ،

أو لم يكن ليستطيع أن يكوّن أى تقاليد قبل تقدم الكلام ، وعلى العكس من ذلك نجد كل الشعوب المتوحشة والبدائية فى العصر الحاضر غارقة فى التقاليد ، وهى تقاليد آلاف من الأجيال . وقد تكون أسلحتهم شبيهة بأسلحة أسلافهم الأبعدين وطرائقهم كطرائقهم ولكن الشيء الذى كان فى عقول السالفين آثارا طفيفة ضحلة ، أصبح فى عقول الحاليين أخاديد عميقة معقدة ، حفرت خلال القرون السابقة جيلا بعد جيل .

٢ — الرجل المسن فى الدين

إن هناك أشياء جوهرية جدا فى نفسها قد تكون استقرت فى أذهان الناس قبل النطق بالكلام بزمن مديد . فإن الحياة العقلية لرجل العصر الباليوليثى المتأخر أقرب إلى حياتنا العقلية ، وهى تشابه حياتنا فى قيامها على أسس ذلك السلف الشبيه بالقرد ، الأكثر انفرادا والأكثر حيوانية ، هذا وإن علم التحليل النفسى الذى ينمو بخطى سريعة إنما يدأب باحثا فى مجاهل أحلامنا ، وفى حالاتنا التى تبدر منا على غير وعى وفى أفكارنا التى تشبه أفكار الأطفال . وفيما يمكن تحقيقه مما عسى أن يكون باقيا من أفكار المتوحشين طلبا لأسس الفكر عند ذلك الكائن البدائى الذى هو قوام الطبقة السابقة لنا ، ويقوم ذلك العلم الآن بتفسير شعورنا على أساس من تلك المباحث ، فإن القردة الكبرى تحمل صغارها ثم تربيها . ويستمر الصغار فى خشية من الذكر المسن ثم لا تلبث الذكران الصغيرة حتى تستثير غيرته فيبادر إلى قتلها أو طردها ، فأما الأناث فهن إماء الذكر المسن اللائى يحمى . وهذه هى الحال العامة للأمور فى كل الحيوانات شبه الاجتماعية . وليس هناك أى سبب يحملنا على الاعتقاد بأن (شبه الإنسان) اختلف عن هذا حالا .

وكانت الخشية من الرجل المسن هى بداية الحكمة الاجتماعية . فقد نشأ صغار المجتمع البدائى فى ظل ذلك الخوف . وكانت الأشياء المتصلة به محظورة فيما يرجح . وكان كل فرد ممنوعا من أن يلمس رمحه أو يجلس فى مكانه على نفس الطريقة التى يحرّم فيها اليوم على صغار الأطفال أن يلمسوا غليون (بيبة) آبائهم أو يجلسوا فى مقاعدهم . كان فيما يرجح سيدا على كل النساء . وكان لزاما على شباب المجتمع الصغير أن يتذكروا هذا . إذ كانت أمهاتهم يعلمنهم أن يتذكروا هذا . وكن يغرسن فى نفوسهم خشية (الرجل المسن) واحترامه وتقديره .

وكأنى بفكرة المحظورات أو فكرة أن بعض الأشياء محرمة أو (تابو) كما يسمونها فلا يجوز لمسها ولا يجوز النظر إليها — قد تم لها الرسوخ والاستقرار على هذه الطريقة فى ذلك

الذهن شبه الإنسانى فى مرحلة متقدمة جدا . هذا ويتقصى المستر ج . ج اتكنسون فى كتابه (القانون البدائى) وهو تحليل بارع لتلك (التابوهات) البدائية ، التى توجد لدى الشعوب المتوحشة فى جميع أرجاء العالم ، أمثال التابوهات التى تفصل بين الأخ وأخته والتابوهات التى تجعل الرجل يفر ويتوارى من زوجة أبيه — يتقصى أثرها حتى يصل بها إلى مثل هذا السبب الجوهرى . والذكر الصغير لم يكن يستطيع أن ينجو من حنق (الرجل المسن) إلا باحترام هذا القانون البدائى .

وفى مستطاع القارئ الآن أن يفهم أيضا لماذا وجد ذلك النزوع إلى استرضاء الرجل المسن حتى بعد وفاته . ولابد أنه كان عاملا كبير الأثر فى العدد الجم من الكوابيس والأحلام المرعبة التى كان النائمون يرونها فى ذلك الزمان الأول . إذ لم يكن المرء على يقين من وفاته . فإنه قد يكون مستغرقا فى النوم فقط أو متظاهرا بالنعاس . وبعد وفاة الرجل المسن بزمن طويل وحين لم يعد يمثله شىء إلا ربوة أو جندلة حجرية كانت النساء لا تفتأ تسرد قصته وتروى إلى أى حد كان عجيبا مرعبا . ولأنه ما برح مصدرا للرعب لدى قبيلته الصغيرة ، كان من السهل الانتقال من ذلك إلى الرجاء بأن يكون مصدر رعب لأقوام آخرين معادين لهم . ولقد طالما حارب فى حياته ذيادا عن قبيلته ، وإن كان يؤذى قبيلته ويتحكم فيها . فلم لا يكون كذلك بعد الموت ؟ وفى مكنتك الآن أن ترى أن الفكرة المتعلقة بالرجل المسن كانت فكرة طبيعية جدا مواءمة للعقل البدائى ، وكان أمامها متسع لتطورات عظيمة ، ثم انتقل الخوف من الوالد على درجات لا تدرك إلى الخوف من (رب القبيلة) .

وكانت الأم على نقيض الرجل المسن أشد انسانية وأكثر ترفقا وحنانا فهى التى كانت تعين وتؤوى وتبذل التضحية ، وهى التى كانت تدرب أولادها على طاعته وخشيته . فكانت تهمس فى الآذان فى الزوايا وتعلم الخفايا . وللتحليل النفسى الذى أنشأه فرويد Freud ويونج Jung أثر كبير فى تمكيننا من فهم الدور العظيم الذى ما تنفك تلعبه خشية الأب ومحبة الأم ، فى تكييف العقل البشرى وفقا للحاجات الإجتماعية . وقد كان لدراستهما التى قتلت بحثا كل موضوع أحلام الطفولة والشباب وأخيلتهما ، أكبر الفضل فى اعانتنا على اعادة بناء روح الإنسان البدائى ، نعم اعدنا بناءها وإذا بها روح طفل قوى ، يرى الكون بالطريقة التى يبتغيها رب العائلة ومولاها . وكان خوفه من الرجل الشيخ وصغاره حياله يخالطان خوفه مما حوله من حيوانات خطرة ، حتى لقد يصبح الدادا أى الأب فى بعض الأحيان دبا يمتد حديثه إلى بعض حجرات تربية الأطفال العصرية . وكان يسيرا على الشيخ المسن الذى صعده

خيالهم إلى سماء التسامى كان يسيراً على ذلك (الإله الأول) أن يتخذ صورة حيوان .

وكانت النساء الربات أكثر شفقة وأوسع حيلة ، فكن يقدمن المعونة ، وكن يحمين من يلوذ بهن ، وكن يجبرن الكسير ، ويواسين الحزين . ومع هذا كان يحيط بهن فى نفس الوقت جو غامض أقل فى الأذهان وضوحا من وحشية الرجل الشيخ المباشرة ، وإن من حولهن لخفاء يعظم كثيراً ما حوله . وهكذا كان للمرأة أيضاً حظها من خوف الرجل البدائى إياها . فكانت الربات موضع الخشية ، وكان عليهن أن يعالجن أموراً خفية لم يكن البدائيون ليدركوا كنهها .

٣ — عاملا الخوف والأمل فى الدين

وهناك فكرة أخرى خطيرة الشأن ، لعلها نشأت فى أذهان الناس من قديم الزمان بسبب إلمام الأمراض المعدية بهم إلماما لم يكونوا يعرفون له سببا : تلك هى فكرة النجاسة وفكرة الإصابة باللعنات . وربما نتج عن ذلك أيضاً فكرة تجنب أماكن خاصة وأشخاص بأعيانهم وأشخاص فى أدوار خاصة من أدوار الصحة . وهنا يجد الإنسان مجموعة أخرى من التابوهات (Tabus).

ومن ثم يحتمل أن يكون الإنسان ابتدأ فجر حياته العقلية ولديه شعور بالشؤم المحيط بالأماكن والأشياء . وإن الحيوانات لتحس ذلك الإحساس نفسه حين ترهب المصايد ، فإن الببر (النمر) يهجر طريقه المألوف فى الغابة عند مرآه بعض خيوط القطن . وإن الصغار من بنى الإنسان لهينة الاخافة من هذا الشىء أو ذاك ، شأنها فى ذلك شأن غالبية صغار الحيوان ، وإلى القارئ الآن مجموعة أخرى من الأفكار هى أفكار النفور والتجنب وهى التى نشأت فى نفوس الرجال على الرغم منهم تقريباً .

وما أن أخذ الكلام يتطور ، حتى أنشأ لا جرم ، يعمل عمله فى مثل هاته الإحساسات الجوهرية ، وحتى أخذ ينظمها ويختزنها فى العقل . وكان الناس إذ يتخاطبون يقوون مخاوف بعضهم بعضا ويؤسسون تقاليد مشتركة هى تابوهات قوامها بعض المحظورات والنجاسات . وتظهر إلى جانب فكرة النجاسة فكرة التطهر وإزالة اللعنات . وتتم عملية التطهر تحت إرشاد رجال عقلاء من المسنين أو نساء عاقلات مسنات ، وفى مثل هذا التطهر تكونت بذور الكهانات فى أول صورها ، ونشأت صناعة السحر فى أقدم عهودها . ومن الطبيعى أن يحتاج الإنسان لرفع اللعنات ولإزالة الشرور ، وللتثبيت والتأسيس إلى أشياء قوية ذات بأس . وهل كان

هناك شيء أقوى فى الوجود من القتل ومن إراقة دم الحياة ؟ من هنا جاء الارتباط الوثيق بين نظام الكهانة وتقديم الضحايا والقرابين .

ومن ثم يكون الكلام منذ أول أمره مكملا قويا للتربية المعتمدة على مجرد التقليد كما هو معين يمين تربية اللكمات والضربات التي يوجهها الوالد الأبكم غير الناطق ، وإن الأمهات ليخبرن صغارهن عند ذلك الأخبار ويؤنبهم إذا قصروا . ومع تطور الحديث يجد الناس أن لهم خبرة يدخرونها ، وأموراً هم على اقتناع بها كانت تعيرهم من لدنها أو تبدو كأنما تعيرهم من لدنها قوة . وإنهم ليتخذون من هذه الأشياء أسراراً يسرونها .

وإن هناك لعرقا مزدوجا فى الذهن الإنسانى : عرق سرار ماكر ، وعرق آخر ، ربما كان متأخر النشأة عن الأول ، يجعلنا جميعا بلا استثناء تواقين أن نخبر إخواننا بما نعلم وأن ندهشهم ونؤثر فيهم . ويجمع الكثير من الناس الأسرار لكى يكون لديهم أسرار يتحدثون بها ، ثم ينقلون هذه الأسرار التى تلقوها من الأجداد إلى سلالة أصغر سنا وأسرع تأثرا ، نقلا متفاوتة فيه درجة الأمانة والتأثير ، سالكين فى ذلك طريقة يتجلى فيها شيء من معنى الابتداء ، وفضلا عن ذلك فإن روح المعلم تطغى فى الذهن الإنسانى . فإن معظم الناس يحبون أن ينهوا غيرهم عن أشياء معينة . ومن الراجح أنه نشأت أيضاً نواه تعسفية واسعة للغلمان والبنات والنساء منذ أقدم عصور التاريخ الإنسانى وكلها أمور توائم طبيعة الأشياء وتفرض على الناس فرضا .

و (للقربان) أصل مزدوج . فلا بد أن كان يخامر الأفراد ميل إلى استرضاء الرجل المسن ، ولا بد أيضاً أن كان يساورهم ذلك التلهف إلى الإتيان بأمر قوى مكين . على أن القرابين ربما كانت تستهدف السحر أكثر مما تستهدف الاسترضاء ، ذلك أن القربان يشتت ويثبت ، فما دام يفعل ذلك ، فإن المرء عندما شرع يفكر فيه كان يستنتج أنه لا بد مدخل السرور على روح الرجل الشيخ بعد إذ أصبح ربا للقبيلة . على أن القربان كان يؤتى لأنه كان يؤتى ولأنه كان شيئا هائلا يؤتى :

٤ — النجوم والفصول

ومن مثل تلك الفكرات ومن مزيج من قريناتها نمت أول العناصر الشبيهة بالدينية فى الحياة الإنسانية . وكان كل تطور من تطورات الكلام يجعل فى الإمكان أن تقوى وتتطور

تقاليد التابو والحدود والقيود والطقوس ، فليس هناك اليوم جنس متوحش أو همجي متبربر لا يثقل كاهله عبء فادح من مثل هاته التقاليد .

وطبيعي أن يصحب ظهور الرعي البدائي ، اتساع جسيم لهذا النوع من الممارسة ، فإن أموراً لم يعرها الناس التفاتا حتى ذلك الحين ، أضحت تُرى ذات أهمية في الشئون الإنسانية . إذ كان الرجل النيوليثي مترحلا ترحلا يختلف في الروح والجوهر عن مجرد الانتقال النهاري الذي يقوم به القانصون البدائيون طلبا للطعام . كان راعيا للحيوان قد أجبر ذهنه قسراً ، على إدراك الاتجاهات وانبساط الأرض . فكان يرقب قطيعه زلفا من الليل ، كما يرقبه طرفي النهار . وكانت الشمس نهاراً تتلوها النجوم ليلا عونا على إرشاده في تنقلاته ، فأخذ يكتشف بعد عصور كثيرة أن النجوم أثبت دليلا من الشمس ، ولذا تراه يأخذ في ملاحظة نجوم ومجموعات نجمية خاصة . وكان تمييز أي شيء بمفرده يعني عند الرجال البدائيين أن يعتقدوا فيه جسما ذا روح وشخصية ، فتجده يأخذ في الظن بأن أبرز النجوم أشخاص ، أشخاص لألاءة وقورة جديرة بالثقة تنظر إليه في بهمة الليل نظر العيون الشاخصة . وإنها لتعود إليه ليلة بعد أخرى وتقدم إليه المعونة كما يقدمها إليه رب القبيلة نفسه .

وكانت حراثته البدائية تقوى إحساسه بالفصول . ذلك أن نجوما خاصة تتسلط على سمائه عندما يحين أوان البذار ، وهو يلحظ في السماء نجما لامعا يتحرك صعودا ليلة بعد ليلة إلى نقطة بعينها ربما كانت قنة جبل أو أي شيء آخر . وهناك يتوقف ثم يأخذ في الأفول ليلة بعد ليلة . عندئذ لا تخامره خلجة شك في أن هذه علامة !! أو هي تحذير صامت عجيب لكل ذي عقل حصيف . وليس يعزب عن البال أن بدايات الزراعة ابتدأت في المنطقة شبه المدارية ، لا بل أدنى من ذلك إلى خط الاستواء حيث يسطع ضياء نجوم من ذوات الحجم الأكبر بجلال لا يعرف عند الدوائر العرضية الأكثر اعتدالا . وليست الفصول هناك واضحة الدلالة بالثلج والعواصف كما هو شأنها في بلاد الشمال . فكان من الصعب أن يتحقق المرء من موعد حلول الأمطار والفيضانات . ولكن النجوم لم تكن لتكذب .

وكان الرجل النيوليثي قد أخذ يعد الأعداد ويقع في حبائل سحرها . وهناك لغات لشعوب متوحشة ليس فيها ألفاظ لأي أعداد تتجاوز الخمسة . وبعض الشعوب لا تستطيع تجاوز الاثنين عدا . بيد أن الرجل النيوليثي كان قد أخذ في أرض منابته في آسيا وأفريقيا ، وربما في أوربا أيضا ، كان قد أخذ يتعلم آنفا كيف يعد ممتلكاته المتراكمة . وكما أخذ في استعمال طرق الجرد والعد وهو يعجب من ثلاثية الثلاثة وتربيع الأربعة ويدهش لماذا كانت بعض

الكميات من أمثال الاثنى عشر سهلة التقسيم على جميع أنواع الطرق ، بينما الأخرى من أشباه الثلاثة عشر مستحيلة ، فأصبحت الاثنا عشر عددا نبيلا كريماً مألوفا ، وكادت الثلاثة عشر أن تكون عدداً منبوذاً ممقوتا .

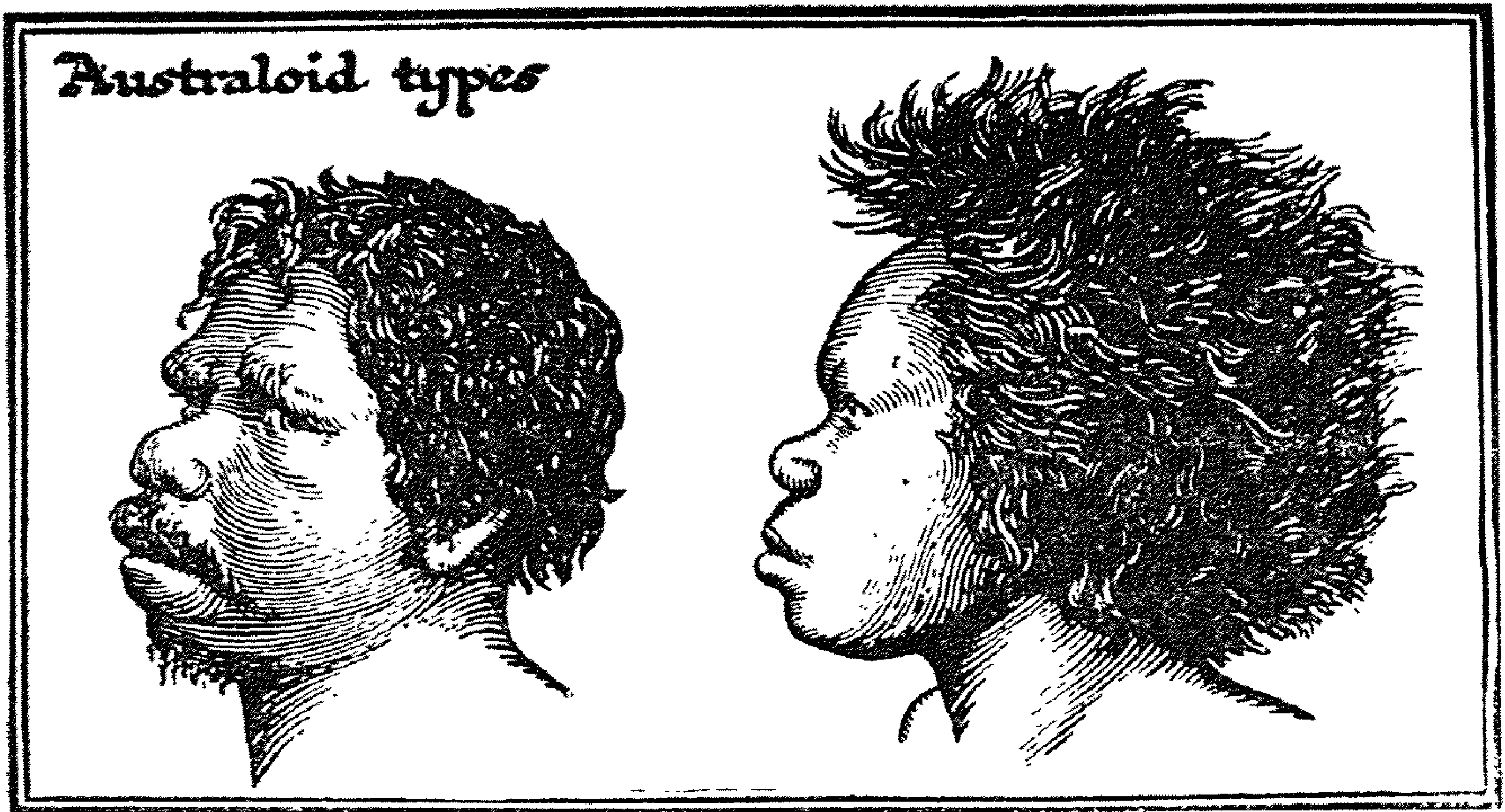
والراجح أن الإنسان أخذ يحسب الوقت على ساعة البدور والأهلّة ، فإن ضياء القمر أمر هام لدى الرعاة الذين لم يعودوا بعد مجرد صائدين لقطعانهم وإنما أصبحوا يرقبونها ويحرسونها. وربما كان ضياء القمر أيضا موعد مغازلاته ، ولعلّه كان كذلك لدى الرجل البدائى ومن قبله سلفه القرد الأرضى ، على أنه ليس بعجيب أن تتغير وجهة الإنسان ، وأن يتحوّل بنظره مع ازدياد زراعته ، من أوجه القمر إلى دورة الفصول الأعظم منها قدرا . والرجل البدائى كان يكتفى فيما يحتمل بالانتقال هربا من وجه الشتاء مع زيادة وطأة برد الأيام . وكان الرجل النيوليثى يعلم علم اليقين أن الشتاء لابد مقبل ، ويختزن أعلافه ويحتفظ للوقت بحبوبه . وكان لزاماً عليه أن يحدد موعداً لبذاره ، موعدا للبذار موافقا ، وإلاّ جنى من بذاره خيبة الأمل . وأول حساب للزمن يسجله التاريخ كان يعتمد على الأهلّة ودورة القمر وعلى عدد الأجيال الإنسانية .

وابتدأت مع الزراعة عملية شاقة ترمى إلى التوفيق بين الشهور القمرية والسنة الشمسية . وهو عمل بقيت آثاره السيئة فى تقويمنا الحاضر . إذ ينتقل عيد الفصح انتقال القلق من سنة إلى أخرى مضايقا بذلك أصحاب الإجازات مضايقة شديدة . فهو يبكر تارة تبكيراً يضايقنا وتارة يتأخر ، بسبب تلك الحال القديمة التى ترجع الزمن إلى القمر .

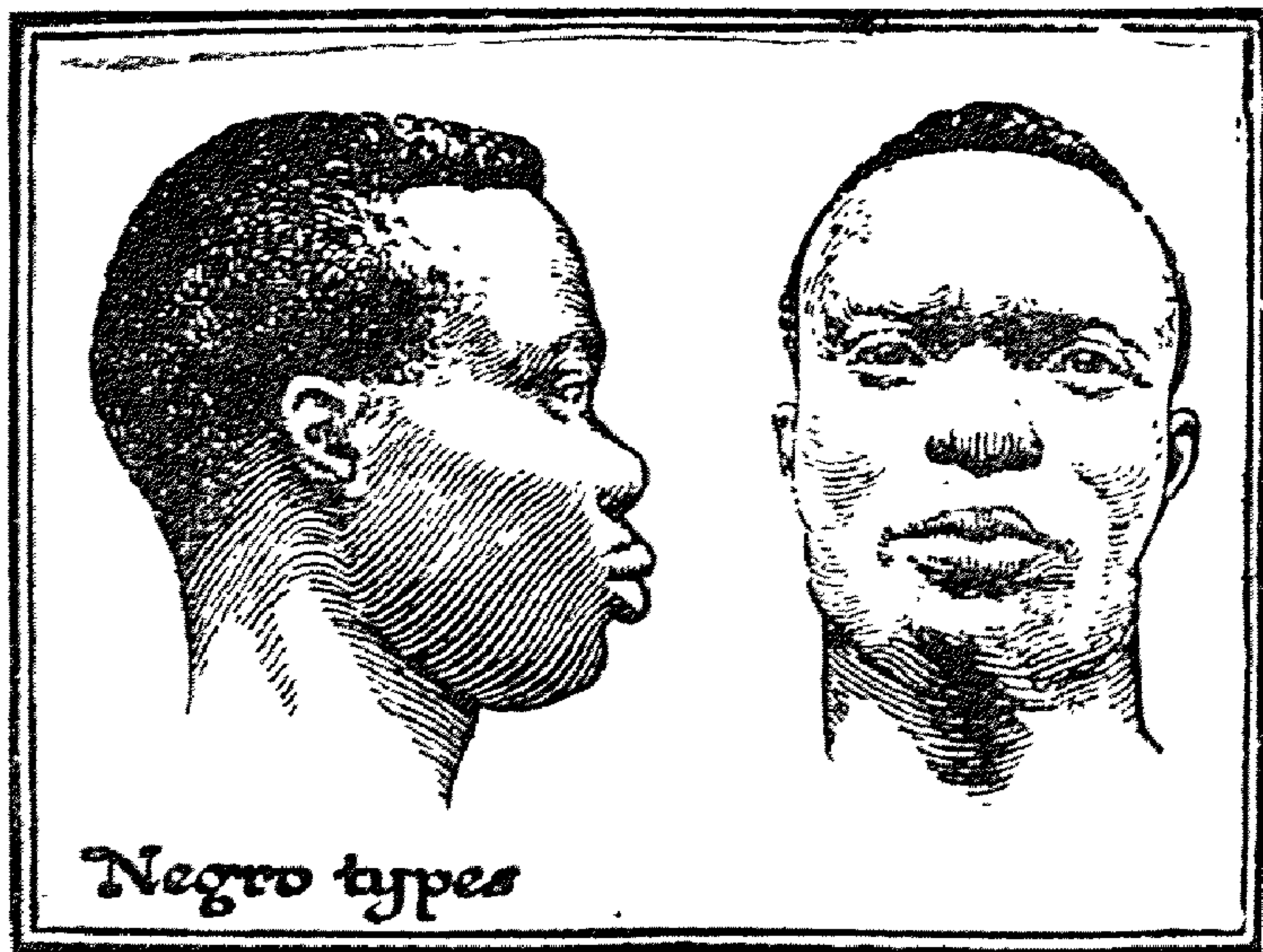
ولما أخذ الرجال ينتقلون من مكان إلى آخر قصداً وعمداً مع حيواناتهم وممتلكاتهم الأخرى ، أخذوا ، لا جرم ، ينشئون فى أذهانهم الفكرة الخاصة بتصور الأماكن الأخرى التى لا يقيمون بها . وأن يفكروا فيما قد يكون فى تلك الأماكن الأخرى . وأيما واد يتلبثون فيه زمانا ، فهم يتساءلون إذ يتذكرون كيف وصلوا إليه — « كيف وصل هذا الشىء الآخر أو غيره إلى هنا » وإنهم ليشرعون فى التساؤل — دهشين عما وراء الجبال وعن المكان الذى تذهب الشمس إليه عند غروبها وعما يوجد فوق أطباق السحاب .

٥ — قص الأقاصيص وإنشاء الرطازات

كانت مقدرة الناس على الرواية عن الأشياء تزداد بتزايد محصولهم اللغوى ، فإن الأوهام البسيطة الفردية ، والحيل الفتيشية التى لا يربطها نظام ، والتابوهات الأولى القديمة الخاصة بالرجل الباليوليثى أخذت تتناقل بين الناس وتوضع فى نظام أكثر اتساقا وتشاكلا ، وأخذ

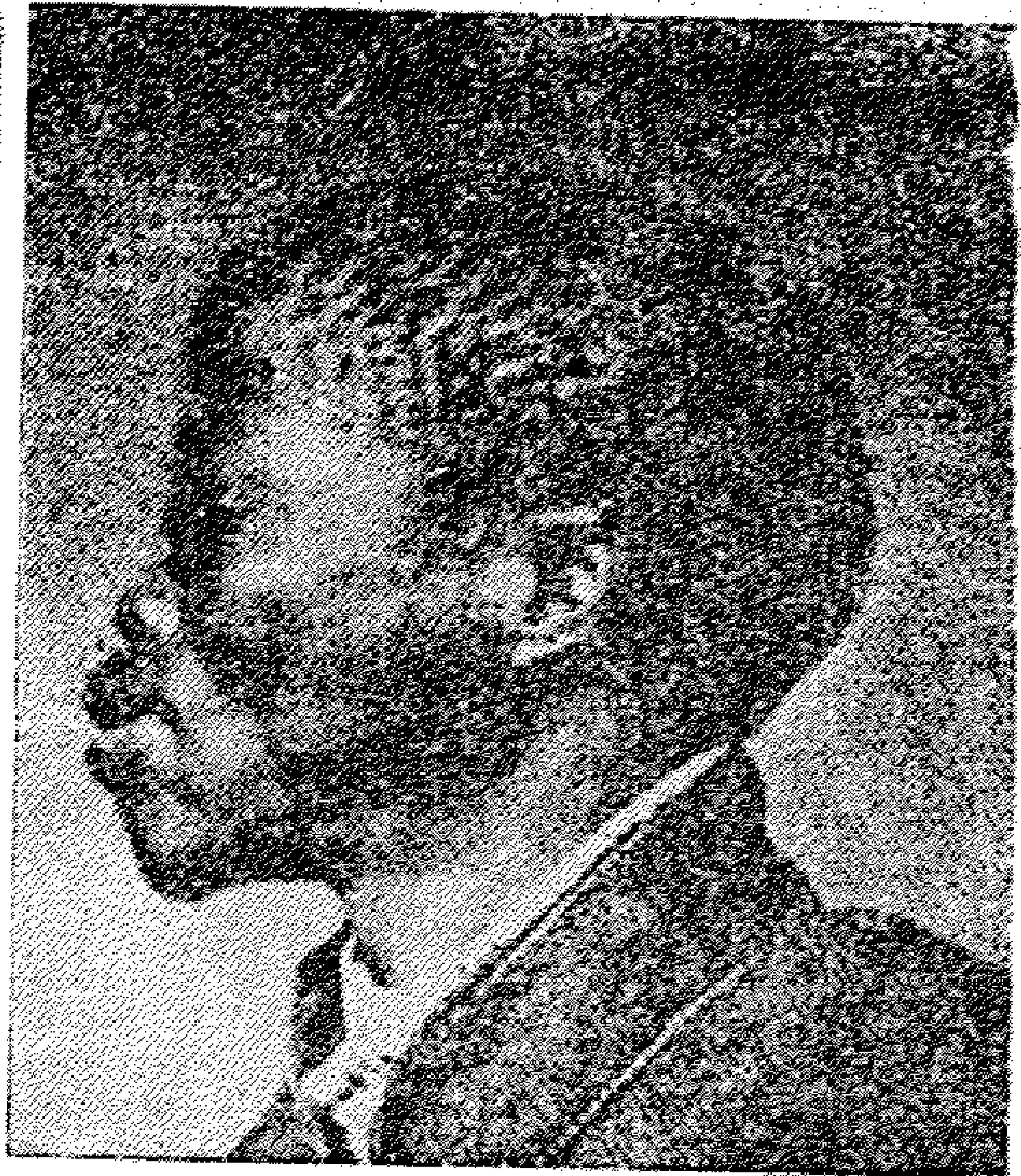


(٢٩) أشكال استراليودية

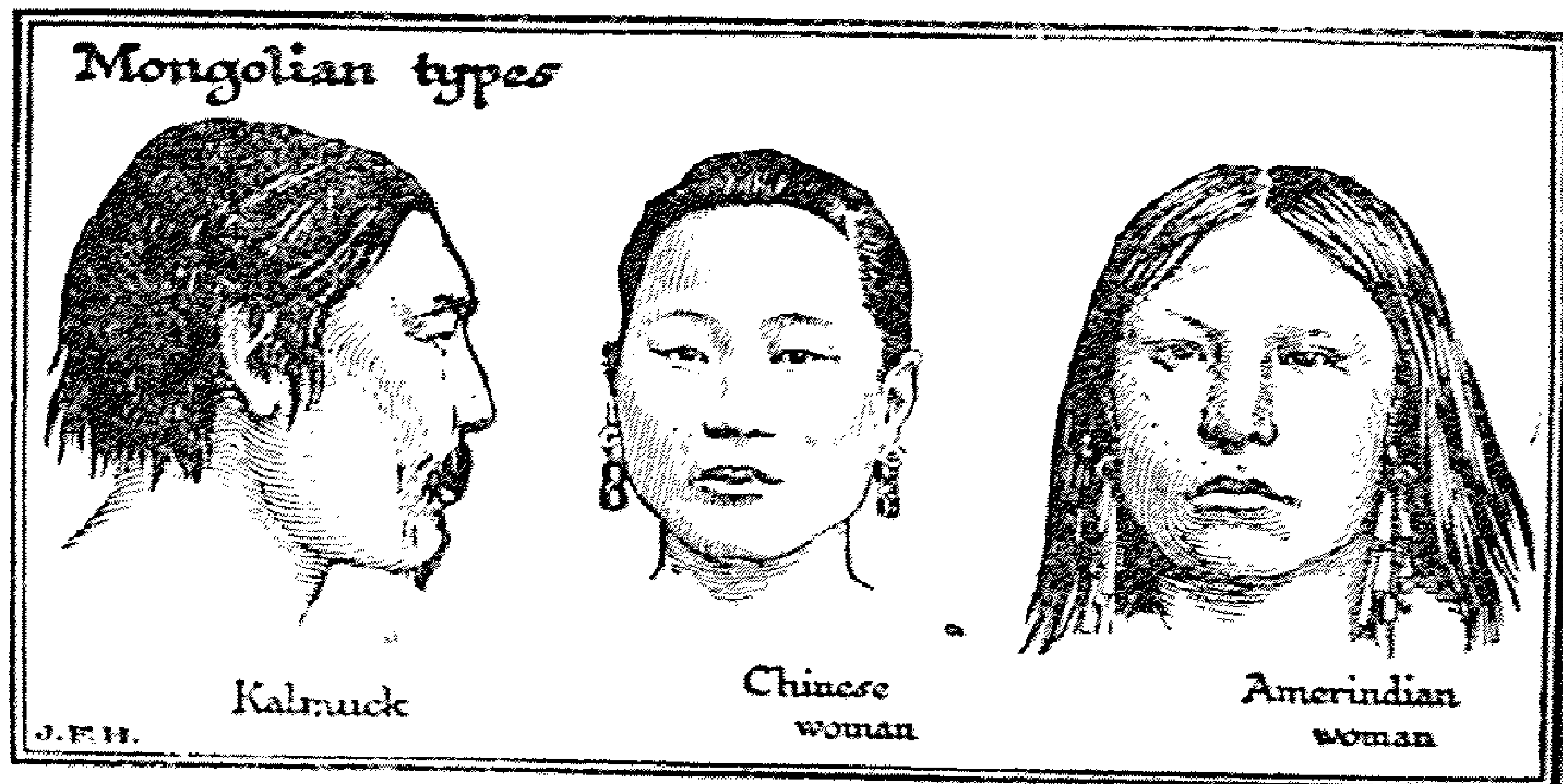


(٣٠) أشكال زنجية

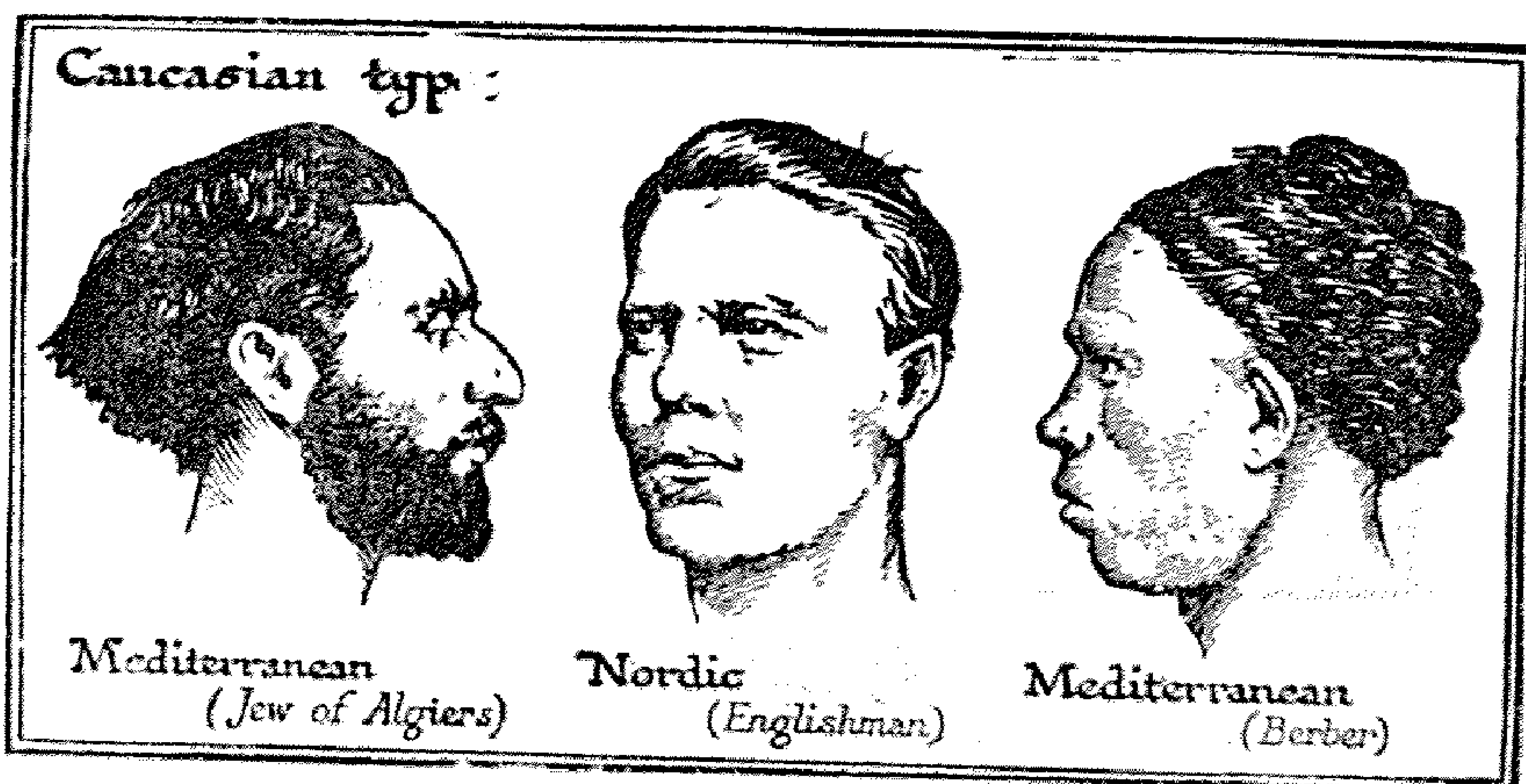




(٣١) رجل من البوشمن من مستعمرة الرأس   (٣١ — ا) إمرأة من البوشمن



(٣٢) أشكال قوقازية



(٣٣) أشكال مغولية

الرجال يروون الأقاصيص عن أنفسهم وعن قبيلتهم وعن تابوهاتها ولماذا وجب وجودها ؟ وعن العالم وعن سبب وجود العالم . وبذا ظهر فى الوجود عقل قبيلى متوارث هو التقاليد .

وكان الرجل الباليوليثى ولا مراء أكثر أخذاً بالمذهب الفردى الحر ، وأقرب إلى الفنان كما كان أدنى إلى المتوحش من الرجل النيوليثى . وكان الرجل النيوليثى قد أخذ يتشكل بالشكل المطلوب . فكان يتدرب على ذلك منذ صباه وكان يتلقى النصح وتوجه إليه الأوامر والنواهى ، فلم يكن مطلق الحرية فى أن يكوّن عن الأمور آراء مستقلة خاصة به . بل كان يلقّن الأفكار تلقينا إذ أنه كان واقعاً تحت سلطان قوة جديدة من الإيحاء .

وليس التزوّد بالمزيد من الكلمات والإكثار من الإصغاء إلى الألفاظ مجرد زيادة للقوى العقلية فحسب ، فإن الكلمات فى ذاتها مصدر خطر وقوة ، وربما كان زاد الرجل الباليوليثى من الكلمات مجرد أسماء فقط ، كان يقف عند حدّ استعمالها فيما تدل عليه . ولكن الرجل النيوليثى كان يفكر فى تلك الكلمات ، كان يفكر فى عدد من الأشياء تفكيراً يخالطه قدر كبير من الارتباك اللفظى ، فيؤدى به ذلك إلى استنتاجات عجيبة . واستطاع بفضل اللغة أن ينسج شبكة تضم أبناء جنسه بعضهم إلى بعض ، وإن كانت تلك الشبكة قيداً يغل قدميه . كان الإنسان يربط نفسه بجماعات جديدة كانت بلا أدنى ريب أكثر اتساعا وأعظم كفاية ولكن بثمن يدفعه .

ومن أهم ما يجدر ذكره فى العصر النيوليثى هو الغيبة التامة لذلك الميل الفنى الحر المباشر ، الذى كان أعظم صفات الرجل الباليوليثى المتأخر . أجل إنا نجد لديه صناعات وفيرة ، وبراعة بالغة وأدوات ثقيلة ، وخزفا ذا تصميمات أوضاعية[1] وتعاوناً فى كل أنواع الأعمال ، ولكنا لا نجد أى شاهد على قوة الابتداع الخلاقة الشخصية ، وكان الرجال شرعوا يأخذون أنفسهم بكبت النفس . فإن الانسان قد دخل فى ذلك الطريق الطويل الملتوى العسير متجها إلى حياة ترمى إلى الخير المشترك ، بكل ما فيها من تضحية بالدوافع والأهواء الشخصية ، وهى الطريق الذى ما زال يضرب بقدم فيه حتى اليوم .

ثم تبدو فى علم رطازات[2] الإنسانية أشياء معينة مرة بعد أخرى ، إذ كان الرجل النيوليثى متأثراً تأثرا هائلا بالثعابين — فلم تعد الشمس لديه أمراً مسلماً به وفشت هذه الثقافة النيوليثية فى كل مكان تقريبا ، إذ فشت فى العالم نزعة للربط بين الشمس والثعبان فى الزخرفة والعبادات .

---

(١) تصميات أوضاعية : Conventional designs

(٢) علم الرطازات : Mythology

وبلغ الأمر بهذه العبادة البدائيـة للثعبان أن انتشرت فى النهاية خارج الأقاليم التى كان فيها للأفعى شأن يذكر وأهمية عملية خطيرة ، فى الحياة الإنسانية . ولـكن لا شك أنه سيتضح لنا عند ما يحدد آخر الأمر المركز الذى كانت تنتشر منه طريقة الحياة النيوليثية ، أنه قطر تلعب فيه الأفعى وضوء الشمس دوراً ذا أهمية أولية .

٦ — الأصول المركبة للديانات

نشأت فى أذهان الرجال مع بدايات الزراعة مجموعة جديدة من الأفـكار ، وقد لاحظنا قبلا تلك العلاقة القديمة الوطيدة التى تربط البذار فى الذهن البشرى بالقربان . ذلك أن البذار أخذ يصبح أهم الأحداث الاقتصادية ، فـكان من الطبيعى أن يربط الناس به أشد ما يخطر ببالهم من الأمور روعة ووقعا ، وأى شىء أشد روعة من قتل رجل من النـاس ؟ وتتبع السير ج . ج فريزر تطور هـذا الترابط ، ووصل بينه وبين فـكرة الأشخاص المخصصين للقربان ، والذين يقتلون فى أوان البذار ، وفـكرة طبقة من الناس مطهرة تطهيراً خاصاً يؤهلها لقتل هؤلاء الضحايا ، وهى طبقة الـكهنة ، وفـكرة (عشاء مقدس أو وليمة طقوسية) ، تأكل فيها القبيلة أجزاء من جسم الضحية لـكى تأخذ نصيباً مما للقربان من مزايا وتطابق بين ذاتيتها وبين تلك المزايا أوثق تطابق .

من هذه البداية نمت الديانة ذات القرابين الموسمية التى لا تزال بين ظهرانينا .

من كل هـذه العوامل ومن تقاليد الرجل الشيخ ، ومن العواطف التى تحيط بالنساء نحو الرجال وتحيط بالرجال نحو النساء ، ومن الرغبة فى الهرب من العدوى والنجس ، ومن الرغبة فى القوة والنجاح بطريق السحر ، ومن تقاليد التضحية فى أوان البذار ، ومن عدد من شبه ذلك من المعتقدات والتجارب العقلية والأفـكار الخاطئة ، أخذ شىء مركب ينمو ويترعرع فى حياة الناس ، وشرع فى الوقت نفسه يضمهم بعضهم إلى بعض من النـاحيتين العقلية والعاطفية فى حياة وعمل مشتركين . هذا الشىء نستطيع أن نسميه الدين (Religion) وهى مأخوذة من الـكلمة اللاتينية Religare ومعناها (الربط) . لم يكن ذلك الشىء بالبسيط ولا المنطق . بل كان طائفة معقدة مختلطة من الأفـكار التى ينظر بها الناس إلى الـكائنات والأرواح الآمرة والآلهة ، ومن جميع ضروب (ما يجب) (وما لا يجب) . ونمت الديانة شأنها فى ذلك شأن كل مصلحة إنسانية . ويقيننا أنه اتضح للقارئ مما سبق بيانه أنه لم يكن فى مقدور الإنسان البدائى — بَلْهَ أسلافه القردة وأسلافه من الثدييات ، أن يكون لديها أى فـكرة عن الرب أو الدين ، فلم يستطع ذهنه ولا قوى فهمه أن تصبح قادرة على تحمل هذه الأفـكار العـامة

الرحيبة إلا بغاية البطء والتريث ، فالدين شيء نما مع الترابط الإنساني وبمساعدته ، فقد كان الإنسان وما يزال يكشف « الله » .

وليس كتابنا هذا كتاباً فى الإلهيات ، كما أنه ليس لنا أن ننزل إلى حلبة المناقشات اللاهوتية . ولكن واجب التاريخ الإنسانى بل واجبه الضرورى الأول ، يحتم عليه أن يصف كيف انبثق فجر الأفكار الدينية فى ذهن الإنسان وكيف تطورت تلك الأفكار وما هو تأثيرها فى نواحى نشاطه . فكل هاتيك العوامل التى لاحظنا ، لابد أنها قامت بنصيبها فى إنتاج ذلك التطور ، على أن الكتّاب المختلفين ظلوا يهتمون بوجه خاص بالتشديد على واحد منها أو على غيره وإبراز أهميته ، وكان السير ج . ج فريزر رائد من يقولون بأن الأصل فى العشاء الربانى هو القرابين السحرية .

وألح (جرانت ألان) مترسما خطى « هربرت سبنسر » فى كتاب « تطور فكرة الإله » إلحاحا خاصا على عبادة الرجل الشيخ بعد موته . ووجه السير ا . ب تايلور فى كتاب (الثقافة البدائية) عناية خاصة إلى نزوع الرجل البدائى إلى أن ينسب لكل شيء روحا : للحى والجماد على السواء . واسترعى المستر ا . ا كراولى ، الأنظار فى كتابه « شجرة الحياة » إلى مراكز أخرى من مراكز الحوافز والعواطف ، وإلى المسألة الجنسية بوجه خاص بوصفها مصدرا للانفعال العميق . على أن الأمر الذى ينبغى ألاّ يغرب عن بالنا إنما هو أن الرجل النيوليثى لم يتطور تطوراً عقليا ، فكان من الميسور بلبلة فكره ، أو إخراجه عن المنطق إلى درجة من المحال أن ينحدر إليها عصرى متعلم . وكانت الأفكار المتضاربة تستطيع أن تجثم جميعا فى ذهنه دون أن تتحدى إحداها الأخرى ، وأن يحس بتناقض إحداها مع الأخرى ، فتارة يتحكم هذا الأمر فى أفكاره تحكما حاداً شديدا ، وتارة يتسلط عليه ذاك ، فأما مخاوفه وأفعاله فكانت لا تزال ولا رابطة بينها ؛ على غرار ما عليه أفكار الأطفال اليوم .

وكان الجنس البشرى النيوليثى قد شرع وهو فى حال من التبلبل والإرتباك ، وتحت ضغط الحاجة الملحة واحتمال وجود التعاون والحياة الموحدة يمد بصره يلتمس الإرشاد والعرفان . وكان الرجال قد أخذوا يدركون أنهم من الناحية الشخصية فى حاجة إلى الوقاية والتوجيه والتطهر من النجاسة وإلى قوة تفوق ما لديهم من قوة . واستجابة لتلك الطلبة ، أخذ كل جسور من الرجال وكل عاقل وكل داهية حصيف وكل ماكر مخاتل ، يتحولون فى شيء من القلق إلى سحرة وكهنة ورؤساء وملوك . وليس لنا أن نزعم أنهم كانوا من المخادعين المغتصبين للسلطان ولا أن نعد بقية الجنس البشرى ضحية خداعهم ، فإن الرجال جميعاً مختلطو الدوافع

وإن مئة من الدوافع لتحفز الرجال إلى ابتغاء الرفعة على الآخرين ، وليست كل هذه الدوافع وضيعة ولا شريرة . فكان السحرة يعتقدون عادة فى سحرهم ، كما كان الكهنة يؤمنون بطقوسهم والرؤساء بحقهم . ومنذ ذلك الحين وتاريخ البشرية يكاد يكون محاولات عمياء لتكوين فكرة عن غاية مشتركة يستطيع كل الرجال إذا اعتصموا بها أن يعيشوا عيشا سعيداً ، وأن يخلقوا ويطوّروا وعيا مشتركا وذخيرة من العرفان مشتركة قد تخدم تلك الغاية وتلقى عليها من ضوئها .

وكان ظهور الملوك والكهنة والسحرة هذا على هذا الضرب الهائل من الصور والأشكال ، يحدث فى كافة أنحاء العالم فى كنف ظروف العصر الباليوليثى المتأخر والنيوليثى . ففى كل مكان كانت البشرية تبحث عن مستقر العرفان والسيادة وقوة السحر .

وكان أفراد من الرجال يرغبون فى كل مكان ، إما عن نزعة شريفة أو غير شريفة ، أن يحكموا وأن يوجهوا أو أن يكونوا هم الكائنات السحرية الذين يوفقون بين أحوال المجتمع المختلطة المتدابرة .

وهناك تطور غريب حدث فى العصرين الباليوليثى المتأخر والنيوليثى وهو التنكيل بالنفس ، إذ شرع الناس يقطعون أجزاء من أجسامهم بجدع الأنوف وصلم الآذان وجذم الأصابع ونزع الأسنان وما إليها ، وأخذوا يعلقون على هذه الأعمال كل أنواع الأفكار الخرافية . ويمر الكثيرون من الأطفال اليوم ، فى دور مشابه لهذا من أدوار تطورهم العقلى . وهناك دور فى حياة معظم البنات الصغيرات يجب ألا يتركن فيه بمفردهن ومعهن زوج من المقصات خشية أن يقصص شعورهن . وما من حيوان يفعل شيئاً من هذا القبيل . وهذا أيضاً أمر بقيت آثاره فى منسك الختان فى الديانتين اليهودية والإسلامية .

وإن سمة البساطة والتؤدة والاستقلال ، وهى السمة المتجلية بصورى الصخور فى العصر الباليوليثى المتأخر ، لترضى عواطف البالغين العصريين أكثر مما ترضيهم عقلية هؤلاء الرجال النيوليثيين المفعمين بالخشية من أحد الشيوخ القدماء ، بعد أن تطور فأصبح للقبيلة ربا وبعد ما تكنفت عقله أفكار الاسترضاء بالتضحية والتنكيل والقتل بالسحر . ولا سبيل إلى الشك فى أن قانص غزال الرنة كان صيادا قاسى الفؤاد كما كان مخلوقا محاربا حاد الطبع ، بيد أنه كان يقتل لأسباب لا يعسر علينا اليوم فهمها . على أن الرجل النيوليثى كان وقد جرّه تيار الكلام ، وجرفته عملية تفكير مبلبل يقتل على أساس النظريات ، فكان يقتل من أجل

أفكار فظيعة وحشية لا نكاد نصدقها اليوم ، بل يقتل من يحب مدفوعا بعامل الخوف والتوجيه . ولم يكن هؤلاء الرجال النيوليثيون ليكتفوا بتقديم قرابين البذار الإنسانية . ولدينا أسباب قوية تحملنا على الظن بأنهم كانوا يقدمون الزوجات قربانا والأرقاء ضحية عند دفن رؤسائهم . كانوا يقتلون الرجال والنساء والأطفال كلما ألمت بهم بعض محن الدهر ظانين أن الأرباب ظماء عطاش . وانتقلت كل هذه الأشياء إلى العصر البرونزى وكان "الوعى الاجتماعى" حتى آنذاك فى غفوة ولم تكن لتخالط غفوته أى أحلام عن التاريخ الإنسانى . ولكنه قبل أن يستيقظ أخذ ينتج الأحلام المزعجة .

وقد يعود المرء بالذاكرة إلى أوان سحيق يتجاوز فجر التاريخ قبل ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ سنة خلت ، فى مرتفعات (ويلتشير) فى وقت السحر من أحد أيام منتصف الصيف وقد أخذت نيران المشاعل فى الشحوب أمام الضوء المتزايد ، ثم تخالج الإنسان رهبة مبهمة لمرور موكب يسير عبر الطريق الحجرى ، موكب من كهنة ربما كانوا فى ثياب غريبة المنظر من الجلود والقرون وأقنعة منقوشة نقوشا مروعة ، وليسوا بالشخصيات الملتحية الوقورة المرتدية الثياب ، (وهى الهيئة التى يمثل بها فنانونا ما كان عليه الدرويد) . كذلك يحس الإنسان فى الموكب وجود رؤساء فى جلود مزينة بعقود من الأسنان وهم يحملون الرماح والبلطات وعلى رؤوسهم شعر أثيث غزير تمسكه دبابيس من العظم ، كما يحس بوجود نساء يكتسين بالجلود أو ثياب الكتان ، كما يحس بجمهور عظيم من رجال ذوى رؤوس كثة الشعور وأطفال عراة ، اجتمعوا من أماكن كثيرة سحيقة . فالأرض بين الشوارع وتل سلبورى مرقطة بخيامهم . ويعم الجميع ضرب من الجزل الذى يحسه الناس فى الأعياد . ومن بين لجات هذا الجمهور العظيم تسير الضحايا الإنسانية المعينة ذليلة كسيرة ، تقاد ولا معين لها وهى تحد النظر شاخصة إلى المذبح البعيد المتصاعد منه الدخان ، الذى عنده يقضى عليها لكى تجود المحاصيل وتتكاثر القبيلة .

فإلى هذه الغاية ، تقدمت الحياة قبل ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف خلت من السنين ، من منشئها الأول فى مخاطيات السواحل المعرضة للمد .

الفصل الحادى عشر

الأجناس البشرية

١ — ألا تزال البشرية تتفرع ؟
٢ — أهم الأجناس البشرية .
٣ — الشعوب السمراء .
٤ — ما يسمونه بالثقافة الهليوليثية .
٥ — هنود أمريكا .

---

١ — ألا تزال البشرية تتفرع ؟

لزام علينا الآن أن نناقش فى وضوح المعنى المقصود من عبارة كثيرا ما تستعمل بغير ما حرص ولا عناية وهى عبارة (الأجناس البشرية) .

ولا بد أنه اتضح مما سبق بيانه أن الإنسان وقد انتشر ذلك الانتشار الواسع ، وتعرض نتيجة لهذا الانتشار لفروق مناخية عظيمة ، مستهلكا طعاما شديد التباين فى أقاليم متباينة ، ومعرضا لهجمات أعداء مختلفين ، كانت تحدث له لا محالة تعديلات وتفريعات محلية جسيمة ، والإنسان شأنه شأن كل أنواع الكائنات الحية الأخرى ، لبث على الدوام يجنح إلى التفرع أنواعا عدة . فحيثما انقطعت جماعة من الناس فى بعض الجزائر أو المحيطات وأنى فصلتها الصحراوات أو الجبال عن بقية الإنسانية ، فلا بد أنها سرعان ما تبدأ فى إنتاج خصائص خاصة بها متكيفة على الخصوص حسب الظروف المحلية . على أن الإنسان من الناحية الأخرى ، حيوان جوال مقدام بطبعه لا تكاد تقف فى وجهه إلا بضع حواجز قليلة لا يستطيع التغلب عليها ، ويقلد الرجال الرجال وينازلونهم ويتغلبون عليهم ويختلط أحد الشعوب بالآخر اختلاط الزواج والمصاهرة والتوالد ، وهناك مجموعتان من القوى ظلتا تعملان جنبا إلى جنب طوال آلاف السنين ، كانت إحداهما تنزع إلى تفريق الناس إلى عدد كبير من الأضرب المحلية ، وتنزع الأخرى إلى إعادة مزج وخلط هذه الأضرب بعضها ببعض قبل أن يتأسس منها نوع منفصل .

وربما تفاوت أثر مجموعتى القوى هاتين فيما غبر من الأيام . مثال ذلك ، أن الرجل الباليوليثى ربما كان فى أكثر أحيانه جوالا فى مناكب الأرض ، ولعله كان يتنقل فى

مساحات تفوق كثيرا ما كان يتنقل فيه الرجل النيوليثى المتأخر . وكان لذلك أقل استقراراً فى أى نوع من أنواع المأوى أو الوجار ، إذ أن ممتلكاته التى تربطه بالأماكن أقل من ممتلكات الآخر ، فكان القنص يضطره إلى أن يتتبع قنائصه . وربما قذفت به أيدى بعض الفصول الرديئة مئات الأميال . فلعله تبعا لذلك اختلط بغيره اختلاطا واسع النطاق جدا ، وأنتج أضربا قليلة فى الجزء الأكبر من العالم .

ثم أفضى ظهور الزراعة إلى إيجاد الترابط بين تلك المجتمعات الإنسانية التى نقلتها إلى الإقليم الذى تقوم فيه على أحسن وجه وهكذا شدّت من أزر التفريق . وليس الخلط أو التفريق معتمدا على مرحلة للمدنية أعلى أو أدنى ، فإن الكثير من القبائل المتوحشة تتجول الآن فى مئات الأميال ، على حين أن الكثيرين من القرويين الانجليز فى القرن الثامن عشر لم يتجاوزوا قط الثمانية أو العشرة أميال فى بعدهم عن قراهم ، لاهم ولا آباؤهم ولا أجدادهم من قبل . وكثيرا ما يكون للشعوب القانصة مجالات هائلة . فإن قطر لبرادور مثلا يقطنه آلاف قليلة من الهنود يتبعون القطيع العظيم الواحد من الكاريبو (الرنة الأمريكية) عند تجوله السنوى شمالا ثم جنوبا طلبا للطعام . وهذا العدد القليل من الناس الذى لا يكاد يملأ قبضة اليد يشغلون متسعا من الأرض يضاهى فى مساحته مساحة فرنسا . وكذلك توسع الشعوب المرتحلة مجالها توسيعا عظيما . إذ يقال إن بعض قبائل الكالموك تنتقل ما يقارب الألف ميل بين منتجعات الكلأ فى الصيف والشتاء .

ومما يثبت هذه الفكرة فكرة أن الرجل الباليوليثى كان رحيب المجال موزعا فى كل أنحاء العالم توزيعا منسقا وإن يكن توزيعه خفيفا ، أن بقايا العصر الباليوليثى التى نجدها فى كل مكان متسقة اتساقا يبعث على الدهشة . ولنقتبس فى ذلك من السير چون إيفانز حيث يقول : « إن الآلات التى وجدت فى البلاد البعيدة قد بلغ من اتساقها مع النماذج البريطانية فى الهيئة والخصائص حدا لا يستبعد معه أنها مع صنع يد واحدة » . وعلى ضفاف النيل على علو مئات من الأقدام عن مستواه الحالى كشفت آلات على نفس النسق الأوربى ، على حين جمع المستر سيتون كار من بلاد الصومال فى وادى نهر عتيق على علو كبير من سطح البحر ، عددا كبيرا من الآلات مصنوعة من الظران والكوارتزيت قد نحكم من شكلها وخصائصها أنها ربما رفعت من الرواسب السطحية لنهر السوم ونهر السين والتاميز أو السولنت القديم .

ولعل أدوارا من الانتشار والتخالط قد تعاورت مع أدوار من الاستقرار والتخصص فى تاريخ البشرية . على أن البشرية إلى ما قبل مئات قليلة خلت من السنين كانت على الراجح

تتفرق تفرقا إجماليا منذ نهاية العصر الباليوليثى على الأقل ، فإن النوع تفرق فى تلك المدة إلى عدد كبير جدا من الأضرب ، عاد الكثير منها فامتزج بأخرى انتشرت وحدث فيها تفريق آخر أو عبثت بها يد الفناء . وحيثما كان الفرق فى الظروف ملحوظا لحظا شديدا وحائلا يحول دون التخالط ، فإن المرء يكاد يكون مضطرا أن يفترض ضرورة ظهور ضرب جديد من الجنس البشرى ، ولا يداخلنا أدنى ريب فى ظهور عدد عظيم من أمثال هذه الأضرب المحلية .

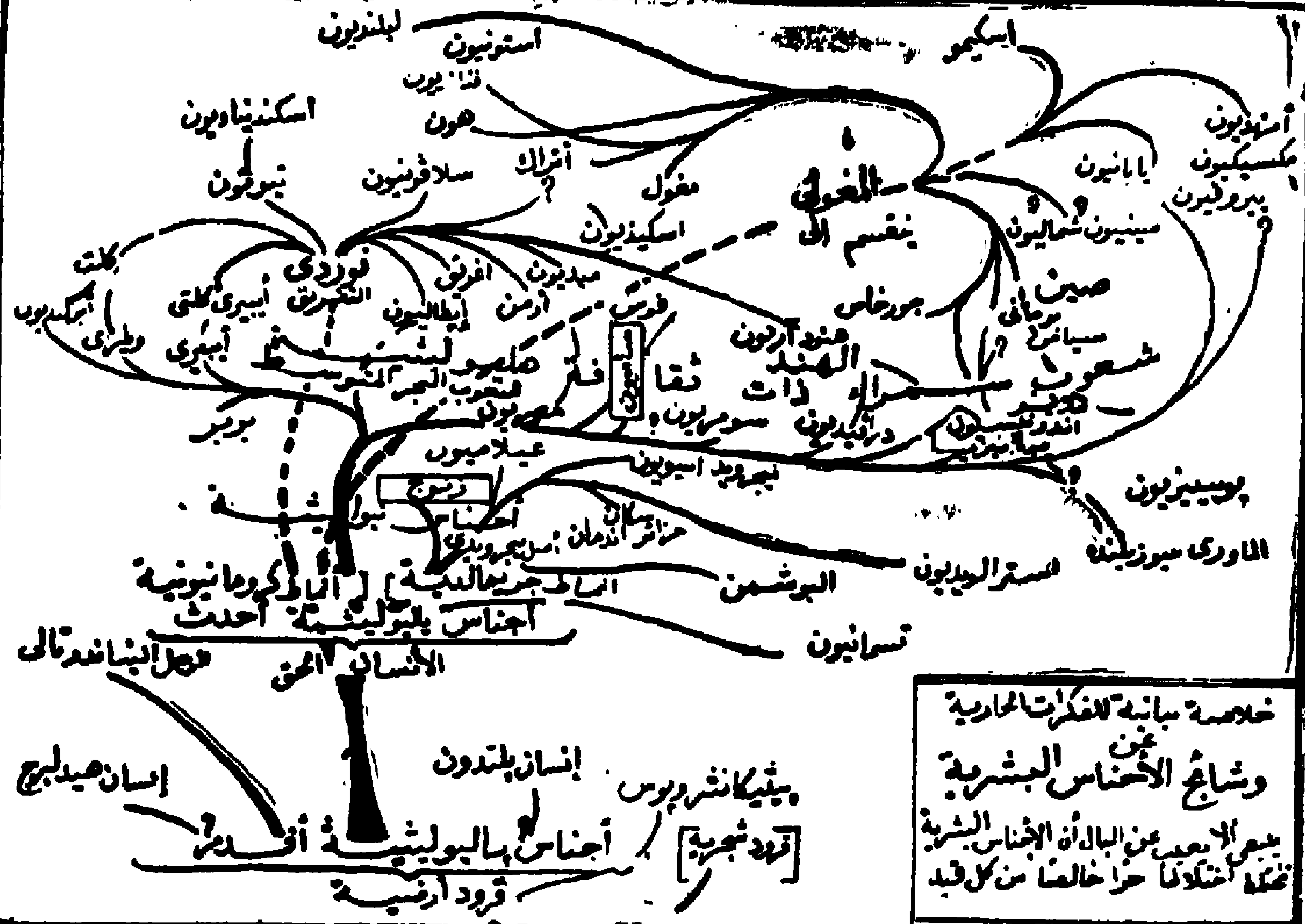
وهناك فى أحد زوايا العالم البعيدة ، فى (تسمانيا) ظل جيل من الناس منعزلا عن العالم فى المرحلة الباليوليثية الأولى حتى تم اكتشاف تلك الجزيرة على يد الهولنديين فى ١٦٤٢ . ومن الأسف أنهم اليوم من البائدين . إذ مات آخر تسمانى فى ١٨٧٦ .

ومن الجائز أنهم ظلوا فى عزلة عن سائر البشرية طوال خمسة عشر أو عشرين أو خمسة وعشرين ألفا من السنين .

ولكن يوجد بين العوائق العديدة الحائلة دون التخالط ، حواجز رئيسية معينة من أمثال المحيط الأطلسى ومرتفعات آسيا الوسطى وبحارها البائدة اليوم وما أشبهها ، وهى التى ظلت آماداً طويلة من الزمان تعزل مجموعات عظيمة من الأضرب عن مجموعات أخرى عظيمة منها . وما عتمت هذه المجاميع المنفصلة أن أنتجت فى زمان سحيق نواحى تشابه وتباين إجمالية معينة . وجُل ضروب الناس فى آسيا الشرقية وأمريكا — وإن لم يكونوا جميعا ، يشتركون فى أن لهم جلودا برتقالية ، مصفرّة وشعرا أسود مستقيما ولهم فى الغالب عظام ووجنات نائتة . وغالب شعوب السكان الأصليين فى افريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، وإن لم تكن كلها ، لها جلود سوداء أو مسودة ، وأنوف مفرطحة وشفاه غليظة ، وشعر جعد مفلفل . وفى أوربا الشمالية والغربية عدد كبير من الناس ذوو شعر أشقر وعيون زرقاء وبشرة مشربة بالحمرة ، وهناك حول البحر المتوسط تنتشر شعوب ذات بشرة بيضاء وعيون سوداء وشعر أسود ، وكأنى بهؤلاء الشعوب البيض الداكنين كتلة من الناس تنتقل فى تدرج يكاد يكون غير محسوس شمالا وشرقا وجنوبا ، متغلغلة فى الشعوب البيض والصفر الأكبر تخصصا وفى السود المباينين لهم . والشعر الأسود فى الكثير من هؤلاء البيض الداكنين مستقيم ، ولكنه لا يصل قط إلى ما عليه شعر الشعوب الصفراء من قوة وعدم تموج . وهو أشد استقامة فى الشرق منه فى الغرب . ونحن نجد فى جنوب الهند شعوبا ميالة إلى البنيّة وأخرى أدكن لونا ، لها شعر أسود مستقيم ، وهذه مع اتجاهنا شرقا تخلى مكانها لشعوب صفراء تتزايد صفرتها وضوحا .

أوربا وآسيا الغربية
وافريقيا الشمالية
فى فترة الغابات المطيرة
قرابة ١٠ أو ١٢ ألف سنة

لغة الباسك
الزنوج
الدرافيدية
المغول


لبلنديون
استونيون
هون
اسكيمو
اسكنديناويون
تيوتون
سلافونيون
أتراك
مغول
المغول
ينقسم الى
اسكيذيون
يابانيون
صينيون شماليون
صين
نوردي
كلت
أيبيري كلتي
أرمن
إيطاليون
الهند
ذات
بربر
عيلاميون
زنوج
البوشمن
تسمانيون
استراليون
بولينيزيون
الماوري
الإنسان الحق
أجناس باليوليثية أحدث
أجناس باليوليثية أقدم
إنسان بلتدون
إنسان هيدلبرج
بيثيكانثروبوس
قرود شجرية
قرود أرضية
خلاصة بيانية للفكرات الجارية
عن
وشائج الأجناس البشرية
ليس ببعيد عن البال أن الأجناس البشرية
تختلط اختلاطا حرا خالصا من كل قيد

وفى الجزائر المتناثرة وفى جزيرة پاپوا Papua وغانه الجديدة نجد سلسلة أخرى من الشعوب السوداء والميالة إلى البنية أدنى مرتبة وذات شعر مجعّد .

على أنه يجب ألا يغرب عن الخاطر أن هـذه إنما هى تعميات مرسلة فضفاضة . فإن بعض المناطق وبعض الجيوب المنعزلة فى المنطقة الأسيوية ، ربمـا احتوت أجناسا أقرب شبها إلى من فى المنطقة الأوربيـة . كما أن بعض المناطق الافريقية قد تكون أقرب إلى النسق الأسـيوى وأبعد من النسق الافريقى الخاص . فنحن نجد فى اليابان جنسا مموج الشـعر ميالا إلى شقرة البشرة مُشْعَرَها ، هو جنس الأينو Ainu . وهو أقرب شبها إلى الأوربيين فى نسق الوجه ممن يحيط به من اليابانيين الصـفر . ولعلهم جيل من البيض انحرف طريقـه أو لعلهم شعب مميز قائم بذاته . وإنّا لنجد قوما بدائيين من السود فى جزائر انداماں وهى بعيدة بعدا سحيقا عن استراليا ، وبعيدة بعدا سحيقا عن افريقيا . وهناك قبس من نفس الدم النجرويدى يمكن تتبعه فى جنوب إيران وفى بعض أجزاء الهند . وهؤلاء هم النجرويديون الأسيويّـون .

ولا يكاد يقوم برهان على أن كافة القوم السود من الاستراليين ونجرويد آسيا والزنوج يتفرعون عن أصل واحد ، وكل ما فى الأمر أنهم عاشوا مددا مديدة تحت ظروف متشابهة .

وجائز أن أجناس الإنسان الأكثر قدما كانت كلها معتمة اللون أو سوداء وأن الشقرة شىء جديد . وعلينا ألا نفترض أن الـكائنات الإنسانية ، فى المنطقة الأسيوية الشرقية كانت تتفرع بأجمعها فى اتجاه واحد ، وأن جميع الـكائنات الإنسانية فى أفريقيا كانت تتفرع فى اتجاه آخر .

حقا أن تيارات الاتجاهات كانت عظيمة ، ولـكن كانت هناك أيضاً مياه خلفية راكدة ودوامات قلابة وتمازجات لا تلبث أن تخالطها تمازجات ثم تسرب للأجناس من منطقة رئيسية إلى أخرى . بل الواقع أن خريطة ملونة لتبيان الأجناس فى العالم لا تكاد تظهر أربع مناطق عظيمة من الصباغ ، إذ لا بد من لمسها بعدد كبير من الألوان والظلال المتوسطة تكون بسيطة هاهنا وتكون مختلطة ومركبة هناك .

وعند حلول العصر النيوليثى الأول فى أوربا — ولعل ذلك قبل عشرة آلاف أو عشرين ألف سنة خلت أو ما يقاربها ، كان الإنسان الحقيقى يتفرق فى كل أرجاء العالم وكان قد سلف فتفرق إلى عدد من الأضرب . على أنه لم يتفرق قط إلى أنواع مختلفة . والنوع الوحيد الآخر

من أنواع الإنسان وهو النياندرتالى قد أبيد قبل أن يبدأ التاريخ . ولزام علينا أن نتذكر أن النوع فى لغة علم الأحياء (Biology) يميز عن الضرب على أساس كون الأضرب تستطيع التوالد فيما بينها ، على حين كان النوع إما لا يستطيع أن يفعل ذلك وإما أن ينتج نسلا يكون كالبغال عقيما . وكل الجنس البشرى يستطيع التزاوج والتوالد بملء الحرية ويستطيع أن يتعلم فهم اللغة الواحدة ، ويستطيع أن يكيف نفسه والتعاون . زد على ذلك أن الإنسان فى العصر الحاضر لا يمر به على الراجح أى تفريق إصالة . فإن التمازج المتكرر إنما هو الآن قوة أقوى بكثير من التفرق ، فإن الناس ليمتزجون أكثر ثم أكثر . فالجنس البشرى من وجهة نظر علماء الأحياء نوع حيوانى فى حالة تفرق موقوف (واختلاط متكرر) ممكن .

٢ — أهم الأجناس البشرية

لم يحدث إلا فى الخمسين أو الستين سنة الأخيرة أن أخذ الناس يعتبرون الأضرب الإنسانية مجموعة معقدة من التفريقات وقفت حديثا أو ما تزال فى اطراد . ومن قبل ذلك الأوان كان دارسو البشرية — متأثرين عمدا أو عفوا بقصة نوح وفلك نوح وأولاد نوح الثلاثة سام وحام ويافث — يميلون إلى تصنيف الناس إلى ثلاثة أو أربعة أجناس كبيرة ، وكانوا ميالين إلى أن يعدوا هذه الأجناس أجناساً منفصلة عما سواها منذ الأزل لانحدارها من أسلاف منفصلين فى الأصل ، ومن ثم تجاهلوا الاحتمالات العظيمة للأجناس المزوجة وللانعزالات والتغيرات المحلية الخاصة . ولقد تبدل التصنيف تبدلا جسيما . ولكن يسرع الناس إلى افتراض أن الجنس البشرى لا بد أن يكون قابلا تمام القبول للتجزئة إلى مجموعات رئيسية ثلاثة أو أربعة . ولقد وقعت بين علماء الإثنولوجيا (علماء الأجناس البشرية) منازعات محزنة حول عدد جم من الشعوب الصغرى ، وهل هم من هذا الجنس الأولى أو ذاك ، أو هم (مخلطون) أو هم من الأشكال المشردة أو من غيرها . على أن الأجناس جميعا مختلطة على درجة تتفاوت . وهناك لاشك أربع مجموعات رئيسية ، ولكن كلا منها فى حد ذاته ، كشكول مجمع ، وهناك فئات صغيرة لا تنطوى تحت أية من الأربعة .

وخضوعا لهذه القيود ، تجد الناس عندما يفهمون فهم الوضوح أننا حين نتحدث عن هذه الأقسام الرئيسية لا نعنى بها أجناسا بسيطة نقية ، بل مجموعات من الأجناس — يحظون عند ذلك بقدر من التيسير عليهم فى المناقشة . ويوجد فوق منطقة أوربا والبحر المتوسط وفوق آسيا الغربية ، شعوب بيضاء تسمى عادة بالقوقازيين ، كانوا وما يزالون هناك طوال

آلاف عديدة من السنين ، ويتفرعون إلى قسمين فرعيين أو ثلاثة أقسام فرعية هي الشقر الشماليون أو الجنس النوردى ، وجنس آخر متوسط يدعى البعض وجوده ويشك فيه كثير من الثقات وهو ما يسمونه بالجنس الألبينى . ثم بيض الجنوب الداكنون . وهم جنس البحر المتوسط أو الجنس الأيبيرى ، وتعم آسيا الشرقية وأمريكا مجموعة ثانية من الأجناس ، هى المغول ولهم فى عمومهم جلود صفراء وشعر أسود مستقيم وأجساد عبلة ، وعلى أرض أفريقيا ينتشر الزنج ، وفى إقليم استراليا وغانا الجديدة الأستراليود السود البدائيون . تلك مصطلحات تيسر الأمر علينا ، على شريطة أن يوقر الطالب فى ذهنه أنها ليست مصطلحات محددة تحديدا مضبوطا . وإنما هى تمثل فقط الخصائص المشتركة لمجموعات معينة من الأجناس ، وهى تُسقط من حسابها عددا من الشعوب الصغيرة لا ينتمون بالضبط إلى أى واحدة من هذه الشُعَب وهى تغفل المزج المتواصل الذى تتراكب فيه المجموعات الرئيسية إحداها فوق الأخرى.

وإمكان تقسيم الجنس القوقازى إلى قسمين فرعيين رئيسيين أو ثلاثة يتوقف على القيمة التصنيفية التى تتعلق على فروق معينة فى الهيكل العظمى ، وعلى الأخص فى شكل الجمجمة . وسيلتقى الطالب فى قراءاته المقبلة بإشارات مستمرة إلى الشعوب المستديرة الجمجمة (Brachycephalic) والمستطيلة الجمجمة Dolichocephalic وما من جمجمة ينظر إليها من أعلى إلا تكون غير تامة الاستدارة ، على أن بعض الجماجم وأعنى بها المستطيلة أكثر استطالة بكثير من غيرها ، فإذا كان عرض الجمجمة معادلا أربعة أخماس طولها أو أكثر من الخلف إلى المقدم ، سميت تلك الجمجمة مستديرة . فإن كان قدر العرض أقل من أربعة أخماس الطول عدت الجمجمة مستطيلة .

وعلى حين يعد بعض علماء الأجناس البشرية الفارق بين الجمجمة المستديرة والجمجمة الطويلة فارقا له أهميته الأولية ، فإن هناك مدرسة أخرى ينبغى على الكاتب أن يعترف بأنها قد استولت على لبه تمام الاستيلاء تطرد هذا الميز وتعده مجرد ميز ثانوى . إذ يلوح مرجحا أن أشكال جماجم شعب من الشعوب ربما اختلفت فى حالة بعض الظروف الخاصة فى مدى أجيال قليلة نسبيا .

ويقول السير . بترى «داخل التغير شكل جمجمة اللومبارد فانتقلت من الجمجمة المستطيلة إلى الجمجمة المستديرة فى بضع مئات من السنين» ، ويدعى بوز Boas أنه أظهر أن أشكال الجماجم الخاصة بالمهاجرين إلى الولايات المتحدة تتبدل فى جيل واحد ، ولسنا ندرى أى مؤثرات تغير شكل الجمجمة ، كما أنا لا نعرف لماذا كان سلالات الإنجليز فى إقليم دارلنج الاسترالى وهم

الذين يسمون باسم أعواد الذرة يصبحون ولهم طول شاذ ، ولماذا يلوح أن الناس فى نيو انجلند تصغر عظام فكهم قليلا ، ومن ثم تصبح أسنانهم متزاحمة تقريبا . والجماجم الطويلة والمستديرة تجمعها حتى فى الأزمنة النيوليثية نفس مجموعات البقايا وكثيرا ما تكون مدفونة بعضها مع بعض ، وهذا يصدق على معظم الشعوب اليوم . ولدى بعض أفراد الشعوب من أمثال سكان أوربا الوسطى الجبليين فى نسبة مئوية من الجماجم المستديرة تفوق الشعوب الأخرى ، والبعض الآخر من أمثال السكندناويين تغلب فيهم الجمجمة المستطيلة . وفى بريطانيا وسكندناوه النيوليثيتين تجد أن أول تلعات[1] المقابر كانت كيانا مستطيلة وتجد أن المتأخرة منها مستديرة ، والجماجم التى توجد فى الأولى تكون عادة جماجم مستطيلة بينما الموجودة فى الأخرى تكون فى غالب الأحيان جماجم مستديرة . وهذا يشير فيما يحتمل إلى تعاقب ما فى الأجناس فى أوربا الغربية إبان المدة النيوليثية ، على أنه ربما أشار كذلك إلى تغير الغذاء أو العادات أو المناخ .

على أن هذه الدراسة لأشكال الجماجم هى التى قادت الكثيرين من علماء الأجناس إلى تقسيم الجنس القوقازى ، لا إلى قسمين كما فعل هكسلى حين قسمه إلى الشقر الشماليين والبيض الداكنين ، بيض البحر المتوسط وشمالى أفريقيا الملقبين أيضا بالسمر بل إلى ثلاثة أقسام إذ شقوا الشقر نصفين . يميزون فى أحدهما طرازاً أوربيا شماليا أشقر مستطيل الجمجمة ، هو النوردى ، وفى الثانى جنس البحر المتوسط أو الايبيرى ، وهو الأبيض الداكن الذى هو داكن الشعر مستدير الجمجمة . وبين هذين يتكشف لهم هـذا الجنس الثالث ذو الرأس المستدير وهو الجنس الألبينى .

والمدرسة المضادة لهذا الرأى تعتبر الجنس الألبينى المزعوم محض عدد من أضرب محلية مستديرة الرأس من الشعوب النوردية أو الأيبيرية (البيضاء الداكنة) ، والشعوب الأيبيرية كانت الشعب النيوليثى صاحب التلعات المستطيلة ، ويلوح لأول وهلة أنهم غلبوا على معظم أوربا وآسيا الغربية ، وهم يتسلطون على التاريخ الأول . ويظهر الشعب النوردى فيما بعد ، إذ نزح من الغابات ومن السواحل الغربية والوسطى لأوربا الشمالية وآسيا .

٣ — الشعوب السمراء

كان لقسم البحر المتوسط أو القسم الأيبيرى من الجنس القوقازى مجال أوسع فى الأزمان القديمة ، وكان طرازه أقل من النوردى تخصصا وتميزا . ومن العسير جدا أن نحدد الحدود

---

(١) التلعات : Barrows هى روابٍ من التراب كانوا يقيمونها فوق القبور

الجنوبية التى تفصله عن الزنج أو نميز آثاره الأولى فى آسيا الوسطى ونستبينها من آثار المغول الأولى . ويقول ويلفرد سكاون بلينت إن هكسلى « قد طالما زعم أن للمصريين وللدرافيديين الهنود أصلا مشتركا ، ربما كوّن نطاقا مديدا من رجال ذوى جلدة بنية ، يمتد من الهند إلى أسبانيا فى أيام سحيقة القدم » .

فهذا النطاق الذى يراه هكسلى ، المكون من بيض داكنين ومن رجال بنيين ، هذا الجنس المكوّن من قوم (سمر بنيين) انتشر حتى تجاوز أرض الهند ، إذ أنهم وصلوا إلى شواطىء المحيط الهادى ، وكانوا فى كل مكان حلوا به أصحاب الثقافة النيوليثية الأصليين ورواد ما نسميه « المدنية » . ولعل هؤلاء الشعوب السمر ، هم شعوب الأساس لعالمنا المصرى ، إذا جاز لنا مثل هذا القول ، وربما لم تزد الشعوب النوردية والمغولية على أن كانت فروعا شمالية غربية وشمالية شرقية تتفرع من ذلك الجذع الرئيسى أو أن الجنس النوردى ربما كان فرعا منها ، على حين أن الفرع المغولى شأنه فى ذلك شأن الفرع الزنجى ، ربما كان جذعا آخر معادلا للأول متميزا عنه ، التقى به (السمر البنيون) واختلطوا به فى جنوب الصين ، أو ربما كانت الشعوب النوردية كذلك ، قد تطورت على حدتها من مرحلة باليوليثية . ويلوح أن جريفث تايلور يظن أن الطراز المغولى تطور مما يسميه طرازا آريا كان هو الأساس المشترك لكلا الجنسين المغولى والنوردى . ولا تزال هذه كلها مسائل مفتحة الأبواب . وربما ظلت أبوابها مفتوحة أعواما كثيرة .

ولقد لقى المستر هورابين والمؤلف بعض العناء فى إنشاء رسم بيانى يلخص كل هذه المادة الخاصة بالأجناس الإنسانية ، ثم استنبطنا آخر الأمر رسما — مهما يبلغ الحال بأوربا وآسيا وأوستراليشيا وافريقيا الشمالية ، فإنه يكاد يصلح أن يبسط فوق الخريطة . ونحن نورد شجرة نسب تبين صلات الدم بين الرجل الحق والأنواع الرئيسية شبه الإنسانية .

ثم إننا أدخلنا ملحوظة ، إن جاز لنا استعمال هــذا القول ، عن الطرازين الكرومانيونى والجرعالدى وهى تعتمد على فروق بعينها ، ربما بالغ الناس فيها تقوم بين بعض الهيا كل الباليوليثية فى أوربا . وللعظام الجرعالدية ملامح نجرويدية . فهى توجهنا إلى جنس أشبه بجنس البسكوب البدائى من الشعوب الكرومانيونية الشبيهة بالهنود الحمر . ومن المحتمل أن جنسين عظيمين كانا يجوبان فى نفس المنطقة الواحدة أحدهما جنس أبيض بدائى الصفرة (Proto-yellouowhite) والآخر الجنس النجرويدى الأول (Proto-negroid) . وسيلحظ القارئ وفاقا لهذا أن الجنسين الزنجى والنجرويدى يرسمان فى بادئ الأمر متفرعين من الجذع

الكبير ، ثم بينا يمثل البيض الداكنون القسم الغالب من الإنسانية يبين لك الرسم فرعين من شعوب تفترق فرعين ، يسير أحدهما إلى الغابات الشمالية ، ويسير الآخر نحو رمال آسيا الشرقية التي تذروها الرياح ، لكي يتطور منهما الجنسان النوردى والمغولى .

ولو أن القارئ نظر مرة ثانية إلى الفقرة السابقة لألفى أنه يستطيع أن يحصل على مجال اختبار واسع إذا هو غير النقطة التي يخرج منها أحد هذين الفرعين من الفرع الرئيسى أى الجذع الأسمر . ولسنا نعنى بذلك أن أحداً من هذين الجنسين النوردى منها والمغولى ظل تام النقاء اللهم إلا فى حالتى الاسكندناويين والإسكيمو . وتعود الفروع فى رسمنا البيانى فتقابل فروعا أخرى وتوحى إلينا وجود تمازج فى الأجناس .

هذا إلى أن رسمنا البيانى محلى بعلامات الاستفهام . وهو إذ زود بهذه الحليات فلعله يقترب بك كثيراً إلى حقيقة العلاقات العنصرية بين الأجناس أكثر مما يستطيع أن يقربك أى تصنيف للأجناس صلب مضبوط .

٤ — ما يسمونه بالثقافة الهليوليثية

يرى اليوت سميث فى كتابه (هجرات الثقافات الأولى) أنه يلوح أنه كان هنالك فى بعض عصور التاريخ الإنسانى طراز خاص من الثقافة النيوليثية موزعا توزيعا شاسعا فى العالم ، وله مجموعة من المظاهر تبدو لنا غريبة كل الغرابة وغير محتمل تطورها تطورا مستقلا فى أصقاع مختلفة من العالم بحيث تجبرنا على الاعتقاد بأنها كانت فى الواقع ثقافة واحدة . انتشرت خلال كل الأقاليم التى كان يسكنها جنس البحر المتوسط الأسمر ، وتجاوزته فتخللت الهند وتجاوزتها صعودا إلى شاطئ الصين على المحيط الهادى . وانتشرت آخر الأمر عبر المحيط الهادى ثم إلى المكسيك وبيرو فكانت بذلك ثقافة ساحلية .

ذلك التطور العجيب فى الثقافة النيوليثية الذى سماه اليوت سميث بالثقافة الهليوليثية (أى الحجرية الشمسية) كان يتضمن كثيراً من العادات الشاذة التالية التى مارسوها ، أو يتضمنها جميعا : (١) الختان . (٢) العادة الغريبة — عادة إدخال الوالد فى الفراش عندما يولد له طفل (وهى المعروفة بالحضانة (Couvade)). (٣) استعمال التدليك . (٤) عمل المومياءات . (٥) النُصُب الجندلية مثل ستون هنج (Stone Henge) . (٦) التشويه الصناعى لرؤوس الصغار بربطها بالعصابات . (٧) الوشم . (٨) الربط الدينى بين الشمس والثعبان . (٩) ثم استعمال الرمز المعروف بالصليب المعقوف طلبا للحظ . فهذا الشئ العجيب الصغير يدور حول

العالم فى جذل وسرور ، ويكاد يكون مما لا يصدقه العقل أن يخترعه الناس ويتخذوا منه حبيبهم الأثير مرتين متتاليتين .

ويقفو اليوت سميث هذه العادات المترابطة بعضها ببعض كأنها العنقود أو المجموعة النجمية ، فى كل أرجاء منطقة البحر المتوسط والمحيطين العظيمين الهندى والهادى ، فحيثما ظهرت إحداها ظهر معظم العادات الأخرى . فهى تربط بريتانى إلى بورنيو وبيرو . على أن هـذه العادات المترابطة لا تبدو فى المواطن البدائية للشعوب النوردية أو المغولية ، كما أنها لا تمتد جنوبا متجاوزة أفريقيا الاستوائية بكثير .

وفى خلال آلاف من السنين امتدت من ١٥٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ق . م ربما كانت مثل هـذه الثقافة الهليوليثية النيوليثية وأصحابها الضاربون إلى اللون البنى تترقرق متسربة حول الكرة الأرضية خلال أقاليم العالم الأكثر دفئا . وتنتقل بزوارق الكانو عبر متسعات من البحر كثيراً ما كانت عظيمة . كانت آنذاك أرقى ثقافات فى العالم وكانت دعامة لأطول المجتمعات عمرا وأعلاها تطورا ، وربما كان موطنها الأصلى كما زعمه إليوت سميث إقليم البحر المتوسط وأفريقيا الشمالية .

ولقد هاجرت تلك الثقافة فى بطء جيلا بعد جيل ، ولا بد أنها كانت تنتشر صعدا فى ساحل المحيط الهادى ، وعبر الجزائر التى كانت كأنها أحجار ترتكز عليها وتخطو منها إلى أمريكا بعد أن داخلتها تطورات أخرى فى مناطقها الأصلية ، وكثير من شعوب الهند الشرقية وميلانيزيا وبولينيزيا ، كانوا ما يزالون فى مرحلة التطور الهليوليثى هـذه ، عندما كشفهم الملاحون الأوربيون فى القرن الثامن عشر . ويرجح أن أولى المدنيات فى مصر وفى وادى الدجلة والفرات ، تطورت تطوراً مباشرا عن هذه الثقافة الواسعة الانتشار ، ولسوف نناقش فيما بعد ما إذا كان للمدنية الصينية أصل غير هذه الثقافة .

ويلوح أن الساميين الرحل فى الصحراء العربية مروا كذلك فى مرحلة هليوليثية .

٥ — هنود أمريكا

ينتسب سكان أمريكا الأصليون إلى الجنس المغولى ، ويلوح أنهم وصلوا إلى أمريكا بطريق مضيق بهرنج فى مرحلة تطور نيوليثية مبكرة ولا يزال بين القارتين حركة غُدُوٍّ ورواح لزوارق من الجلود .

وبعد هذا (وإن كان هــذا لا يبرح إلى اليوم موضوع أخذ وردّ بين علماء الأجناس) ربما تكون وصلت إلى أمريكا بطريق البحر عناصر جديدة من السكان وأفـكار ثقافية من المستوى الهليوليثى .

فلو صح أن قد وجدت هذه العناصر الأخيرة فى السكان ، فهم إما أنهم لم يحضروا أى قمح معهم ، أو لعل القمح قد باد منهم . والأذرة وهى قمح العالم الجديد ، نبات مختلف اختلافا تاما عن أى نبات معروف فى العالم القديم ، على أن الحياة الدينية للشعوب الأمريكية تظهر نفس الترابط بين فـكرة البذار وبين التضحية بالإنسان وهو الترابط الذى عم الحقبة النيوليثية بأسرها فى العالم القديم .

ظلت القبائل الأمريكية فى معظم أجزاء القارة فى مستوى الهمجية النيوليثية ، وإذ كانوا يسيرون فوق أرض من العشب الموسمى ، فإنهم أصبحوا رُحّلا يتتبعون الجاموس البرى ويتعقبون فى الشمال الأقصى الـكاريبو ، غزال الرنة الأمريكى . (ولم يوجد الحصان على القارة الأمريكية فى جميع الحقبة الإنسانية حتى أدخله الأوربيون) .

وأصبح هنود أمريكا فى الغابات المدارية قناصين للطير والصيد الصغير ، على أنهم فى واحد أو اثنين من الأقاليم الخصيبة (كما سنلاحظ فيما بعد) أنشأوا نظاما اجتماعيا أكثر إحكاما ، ورووا الأرض ، وشادوا من الأحجار مبانى هامة ، زينت بنحت يمتاز بتصميمات بالغوا فى اتباعها للأوضاع ، كما أقاموها فى غالب الأحايين فى أشكال غريبة تثير الضحك ، وأسسوا المدن والإمبراطوريات .

التطور التفرعي للغات

بغض النظر عن التمازجات أمثال العناصر التركية في الروسية واللاتينية في الإنجليزية والحامية في الكلتية الخ مع حذف بعض مجاميع هندية ومبلانيزية وغيرها

الفصائل البشرية الأولى

الآرية
المجموعة الكلتية
اللاتينية
الفرنسية
الإسبانية
الإيطالية
المجموعة اليونانية
الألبانية
المجموعة التيوتونية
الألمانية
الهولندية
الاسكندنافية
الإنجليزية
المجموعة السلافونية
الروسية
البلغارية
الأرمينية
الفارسية
السنسكريتية
لغات هندية متنوعة

السامية
البابلية والآشورية
الفينيقية
العبرانية
العربية
الحبشية

الحامية
القبطية
لغات البربر
اللغات الأثيوبية
لغة الباسك ؟

لغات زنجية
بانتو
شبه البانتو
السودانية
النوبية

أورال ألطائية
مجموعات لابية وساموييدية
الفنلندية
المجرية
التركية
المغولية
المانشو

البورمانية
الصينية
السيامية
اليابانية
لغات أمرندية
اسكيمو

المجموعة الأسترالية
التسمانية ؟

مهد الحضارة العربية
٦٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ قبل الميلاد
الشعوب
الحيثيون
الليبيون
زنوج
بلاد العرب
غابات
أرض خصبة
صحراء رملية
سهوب
ماء
ارتفاعات جبلية

الفصل الثانى عشر

لغات الجنس البشرى

---

١ — لا وجود للغة بدائية واحدة

هل كان هناك قط ذلك الشيء الذى هو لغة إنسانية مشتركة ؟ ذلك أمر مشكوك فيه كل الشك . ولسنا ندرى شيئا عن لغة الرجل الباليوليثى ، بل لسنا ندرى هل كان الرجل الباليوليثى منطلق اللسان بالكلام أم لم يكن .

ونحن نعلم أنه كان للرجل الباليوليثى إحساس مرهف بالشكل والهيئة ، وعلمنا ذاك مستنبط من رسومه ، ولقد زعم بعضهم أنه كان ينقل أفكاره فى غالب أمره بالإشارة والحركة . ومن المرجح أن أمثال تلك الكلمات التى كان يستعملها الرجال الأولون كانت فى الغالب ، صيحات انزعاج أو حنق ، أو أسماء لأشياء جامدة ، لعلها كانت فى كثير من الأحيان أصواتاً تقلد أصوات الأشياء المسماة أو هى مرتبطة بها . ويرى السير آرثر إيڤانس أن لغة العلامات نشأت فى أمريكا قبل الكلام ، لأن لغة العلامات هذه مشتركة بين كافة الهنود فى أمريكا الشمالية ، على حين اختلفت اللغات فيما بينها .

وكانت اللغات الأولى فيما يرجح مجموعات صغيرة من حروف النداء والتعجب ومن الأسماء . وربما نطقت الأسماء فى نغمات صوت مختلفة للدلالة على المعانى المختلفة . فلو كانت لدى الرجل الباليوليثى كلمة للحصان أو الدب ، فمن المرجح أنه يظهر بسبيل نغمة الصوت أو الإشارة هل هو يعنى : (الدب آت أو الدب ذاهب) أو (فعل الدب هذا) وهكذا .

ولم يستحدث العقل الإنسانى إلا بغاية البطء ، وسائل للدلالة بطريقة شكلية على الحدث

والعلاقة . واللغات العصرية تحتوى آلافا كثيرة من الكلمات ، على حين لم يكن فى مستطاع اللغات الأولى أن تحوى غير مئات قليلة . ويقال إن الفلاحين الأوربيين العصريين أنفسهم يستطيعون أن ينطلقوا فى الحياة بقدر من الكلمات يقل عن الألف كلمة ، ومن المقبول عقلا كل القبول أنه حتى فى الفترة النيوليثية الأولى ، كان ذلك العدد هو حد مجموعة المفردات الممكن استعمالها . ومن المرجح أن الناس فى تلك الأيام لم يكونوا يسترسلون فى المحادثة أو الوصف . فإن كانت غايتهم قص الأقاصيص عمدوا إلى الرقص والتمثيل أكثر مما يقصون . ولم تكن لديهم طريقة للعد تتجاوز طريقة الدلالة على الاثنين بعدد مثنى وطريقة مّا للتعبير عن الكثير .

وكان نمو الكلام بادئ ذى بدء عملية بطيئة جدا ، كما أن الصيغ النحوية (الأجرومية) ، والتعبير عن الأفكار المعنوية ربما ظهرت فى التاريخ الإنسانى متأخرة جدا ، وربما كان ذلك منذ أربعمئة أو خمسمئة جيل خلت .

٢ — اللغات الآرية

يحدثنا علماء اللغات ، أنهم لا يستطيعون أن يتتبعوا بخطى المتيقن أى ظواهر مشتركة بين لغات البشرية بأسرها . وهم يجدون فوق مناطق عظيمة فئات من لغات تنتظمها أصول متشابهة وطرائق متقاربة فى التعبير عن الفكرة الواحدة ، بيد أنهم يجدون بعد ذلك فى مناطق أخرى لغات تبدو لهم مخالفة للأخرى من قمة رأسها حتى قاعدة تركيبها الأساسى ، تعبر عن الحدث والعلاقة بطرق بعيدة كل البعد عن تلك ولها أجرومية قواعدها مباينة كل المباينة .

وهناك مجموعة عظيمة من اللغات تشمل كل أوربا تقريبا ، ثم تمتد إلى الهند ، وهى تتضمن اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والاسبانية والإيطالية واليونانية والروسية والأرمنية والفارسية وألسنة هندية شتى . وهى تسمى بالعائلة الهندو أوربية أو الآرية . وفى إمكانك اقتفاء أثر الجذور الأساسية ، وأفكار الأجرومية الواحدة ، خلال كل أفراد هذه العائلة . خذ مثلا هذه المقارنة بين كلمتى Mother, Father الانجليزيتين تجدهما فى الألمانية Mutter, Vater وفى اللاتينية Mater, Pater وفى اليونانية Meter, Pater وفى الفرنسية Mere, Pere وفى الأرمنية Mair, Hair وفى السنسكريتية Matar, Pitar وهكذا .

وعلى مثل هذه الشاكلة تنطق اللغات الآرية ما يلحقها من تغيرات بأصوات متقاربة فى عدد كثير من الكلمات الأساسية ، فإن حرف F فى اللغات الألمانية يصبح P فى اللاتينية

وهكذا . وهى تتبع فى تغيراتها قانونا يسمى قانون جريم Grimm . فهذه اللغات ليست أشياء مختلفة ، وإنما هى تغيرات ألمت بشىء واحد . فالقوم الذين يستعملون هاته اللغات يفكرون على وتيرة مشتركة .

فنى زمن ما من الماضى السحيق يرجع إلى العصر النيوليثى ، أى قبل ثمانية آلاف سنة أو تزيد ، ربما كان هناك كلام أصلى بسيط تفرعت منه كل هاته اللغات الآرية . فنى مكان ما بين أوربا الوسطى وآسيا الغربية لا بد أنه ضربت فى الأرض قبائل بلغت حدا من الاختلاط ساعد على تطور لسان واحد واستعماله . ومن الملائم ها هنا أن ندعوهم باسم الشعوب الآرية . وقد سماهم السير (هـ . هـ . جونستون) باسم الروس الآريين ، وهم ينتمون فى معظم شأنهم إلى مجموعة الأجناس البيضاء وإلى القسم الفرعى الأشقر الشمالى من تلك المجموعة — أى الجنس النوردى .

ولا بد لنا هنا من أن نحذرك من أمر . فقد جاء زمان كان علماء اللغات يجنحون فيه إلى الخلط بين اللغات والأجناس ، وإلى الزعم بأن الشعوب التى كانت فى أحد الأيام تتكلم لسانا واحدا ، لا بد أن كانت كلها شعوبا ذات دم واحد . والواقع أن تلك ليست حقيقة الأمر ، كما يدرك القارئ إذا هو فكر فى زنوج الولايات المتحدة (فإنهم جميعا يتكلمون الآن الإنجليزية) ، أو فكر فى الإرلنديين الذين — لولا رغبتهم فى القيام بمظاهرة سياسية — لما استعملوا لغة الإرس Erse القديمة . أو فكر فى أهل كورنوال الذين فقدوا لسانهم الكلتى القديم . ولكن كل ما تسديه إلينا اللغة المشتركة ، إنما هو فى تبيانها لنا أن تواصلا مشتركا قد وجد ، وأن هناك احتمالا لحدوث التمازج . ولئن لم تشر اللغة إلى أصل مشترك فهى تشير على أقل تقدير إلى مستقبل مشترك .

ولكن حتى تلك اللغة الآرية الأصلية التى ربما كانت حديثا ينطق به الناس (٦٠٠٠ أو ٥٠٠٠ ق . م) لم تكن البتة لغة بدائية ، أو لغة شعب متوحش ؛ إذ كان أقدم المتكلمين بها يتفيأون ظلال مرحلة المدنية النيوليثية أو تجاوزوها ، وكانت لها صيغ أجرومية وطرائق للأفعال على شىء من التعقيد ؛ وإن طرائق التعبير المندثرة الخاصة بالشعوب الباليوليثية المتأخرة ، والأزيليين ، أو الخاصة بشعب مزابل المطبخ النيوليثى المبكر مثلا ، كانت فيما يرجح أشد فجاجة وسذاجة من أقدم صور الآرية وأبسطها .

والراجح أن مجموعة اللغات الآرية أصبحت قائمة بذاتها متميزة عن غيرها فى إقليم فسيح ، أنهاره العظمى هى الدانوب والدنيبر والدون والفولجا ، وهو إقليم يمتد شرقا إلى ما وراء جبال

أورال شمال بحر قزوين . والمنطقة التى كان المتكلمون بالآرية يعشون فى منا كبها ، استمرت فى الراجح زمانًا طويلا لا تمتد إلى المحيط الأطلسى أو إلى جنوب البحر الأسود فيما وراء آسيا الصغرى . ولم يكن هناك حينذاك انفصال فعلى بين أوربا وآسيا عند البوسفور . وكان نهر الدانوب يسير شرقا ويفضى إلى بحر عظيم كان يمتد عبر إقليم الفولجا الذى يقع فى روسيا الجنوبية الشرقية ، ويمتد قدمًا حتى التركستان ؛ وكان من أجزائه البحر الأسود وبحر قزوين وبحر أورال الحالية . وربما كانت تمتد منه خلجان إلى المحيط المتجمد الشمالى . ولا بد أنه كان إلى حد ما حائلا فعّالا بين المتكلمين بالآرية وبين سكان آسيا الشمالية الشرقية . وكان يمتد إلى الجنوب من هذا البحر ساحل مستمر يسير من البلقان إلى أفغانستان . وإلى الشمال الغربى منه كان ثمة إقليم من المستنقعات والبرك الساحلية يمتد حتى يصل إلى بحر البلطيق .

٣ — اللغات السامية

ويميز علماء اللغات بعد اللغة الآرية مجموعة أخرى من لغات تبدو كأنما تكونت بمعزل تام عن اللغات الآرية ، وهى اللغات السامية . والعبرية والعربية متصلتا اللحمة ، ولكن يلوح أن لهما مجموعة من الكلمات الجذرية مختلفة عن اللسان الآرى . فهما يعبران عن الأفكار الخاصة (بالعلاقة) بطريقة مخالفة . والأفكار الأساسية التى تقوم عليها أجروميتهما مختلفة . فهما على أرجح التقديرات من صنع مجتمعات إنسانية بعيدة كل البعد عن الاتصال بالآريين الأصليين ، صنعتهما تلك المجموعات على حدة وعلى أساس من الاستقلال .

فاللغات العبرية والعربية والحبشية والآشورية القديمة والفينيقية القديمة ، وعدد من الألسن المرتبطة بها ، تضم بعضها إلى بعض بوصف كونها مشتقة من تلك اللغة الأولية الثانية التى يسمونها السامية .

وإنك لتجد فى نفس بدايات التاريخ المدون — أى إبان ٤٠٠٠ ق . م — وقبل ذلك ، شعوبا متكلمة بالآرية وشعوبا متكلمة بالسامية لا يفتر بينها نشاط الاتصال حربا وتجارة حول النهاية الشرقية للبحر المتوسط أو قريبا منها ، على أن الفروق الأساسية بين اللغات الآرية الأولية والسامية الأولية تجبرنا على الاعتقاد أنه فى العصور النيوليثية ، قبل المدة التاريخية ، كان هناك خلال آلاف السنين انفصال يكاد يكون كاملا بين الشعوب المتكلمة بالآرية والشعوب الناطقة بالسامية .

ويلوح أن الثانية عاشت إما فى جنوب بلاد العرب أو فى شمال شرق افريقيا . وفى

العصر النيوليثى الأول كان المتكلمون الأصليون بالسامية ، والمتكلمون الأصليون بالآرية ، يعيشون فى الراجح فى عوالم مختلفة إن حق لنا استعمال هذا القول .

٤ — اللغات الحامية

يتكلم علماء اللغات بإجماع أقل من إجماعهم على اللغات السابقة ، عن مجموعة لغات ثالثة هى الحامية ، يصرح البعض منهم بأنها منفصلة متميزة عن السامية ، ويصرح البعض الآخر بأنها مشاكلة لها متصلة بها . وجمهرة الرأى تميل الآن إلى فكرة وجود بعض العلاقة البدائية بين هاتين المجموعتين .

ومن المؤكد أن المجموعة الحامية إنما هى مجموعة لغوية أشد سعة وأكثر تنوعا من السامية أو الآرية ، وأن بين الألسنة السامية صلة أدنى إلى اللحمة العائلية ، كما أن بينهما من التشابه المشترك مايفوق ما لدى الآرية . وربما نشأت اللغات السامية كمجموعة حامية أولية على شيء من التخصص ، نشأت كما نشأ الطير من مجموعة خاصة من الزواحف ، وأن الآرية كذلك نشأت عن مجموعة حامية أصلية كما نشأت الثدييات من مجموعة أخرى من الزواحف .

ومن المغرى للمرء حقا أن يفترض نظرية لا يقوم لها فى الحق أى أساس يبررها من الحقائق ، تقول بأن المجموعة السلفية البدائية الخشنة الخاصة باللسان الآرى تفرعت من صيغ الكلام الحامى الأول فى زمن مبكر يسبق ظهور السامية وتخصصها .

والمتكلمون بالحامية اليوم كالمتكلمين بالسامية ، هم فى الغالب من جنس البحر الأبيض ، ومن بين اللغات الحامية ، اللغة المصرية القديمة والقبطية ولغة البربر (لغة أهل الجبال فى شمال أفريقيا ، والطوارق الملثمين وأمثال هؤلاء من الشعوب) ، والمجموعة المسماة بالأثيوبية من اللغات الأفريقية فى أفريقيا الشرقية ، بما فيها من كلام الجالا والصوماليين . ولعل هذه اللغات الحامية قد تشعبت من مركز على ساحل البحر المتوسط الأفريقى ، ولعلها امتدت امتدادا عظيما فى أوربا الغربية مارة فوق البرازخ الأرضية الموجودة حينذاك .

ومما يجدر بنا ملاحظته أن كل مجموعات اللغات الثلاث هذه ، الآرية منها والسامية والحامية ، لها ظاهرة مشتركة فيما بينها لا تشاطرها فيها أية لغة أخرى ، تلك هى التذكير والتأنيث فى الأجرومية ، وسواء أكان ذلك شاهداً كبير الوزن يدل على وجود أصل مشترك سحيق للآرية والسامية والحامية ، أم لم يكن كذلك ، فهو أمر يخص علماء اللغات أكثر مما يخص المتعلم العام . وهو لا يؤثر فى الدليل الواضح الذى يدل على تفرق سحيق القدم قبل التاريخ حدث بين المتكلمين بهذه المجموعات الثلاث من الألسن المختلفة .

والأجناس السامية والنوردية لها سحنة ذات خصائص مميزة أكثر من غيرها . وكأنى بهم شأن لغاتهم الخاصة المميزة لهم ، أكثر تحديدا وتخصصا من الشعوب المتكلمة بالحامية ، وهى أعظم انتشارا وأكثر قربا من لغة الأساس القديمة .

٥ — اللغات الأورال آلتائية

وفى الطرف الآخر من العالم إلى الشمال الشرقى من المناطق الآرية والسامية ، لا بد أنه حدث يوما أن انتشرت مجموعة لغوية أخرى متميزة يمثلها الآن مجموعة من اللغات تعرف بالطورانية أو مجموعة أورال آلتاى ، وهى تضم لغات لاپلندة اللاپية وحديث سيبيريا الساموبدى واللغة الفنلندية والمجرية والتركية أى التترية ولغة المنشو والمغولية . وهى كمجموعة ، لم تحظ بعد بدراسة مستفيضة ولم يقتلها علماء اللغة الأوربيون بحثا ، وليس لدينا حتى اليوم الدليل الكافى الذى يدلنا ، هل هى تضم اللغات الكورية واليابانية أو لا تضمها . وقد أصدر هـ . ب هلبرت أجرومية مقارنة للكورية ، وبعض لغات دراڤيدية معينة بالهند ليبين بها ما يراه بينها من صلة وثيقة .

٦ — اللغات الصينية

كانت آسيا الجنوبية الشرقية إقليما خامسا لتكوين اللغات ، حيث لا تزال تعمها مجموعة من اللغات . تتكون من مقاطع مفردة لا أثر للتعريف فيها ، ولكن تقوم فيها نغمة الصوت المستعملة فى نطق الكلمة بتحديد المعنى المراد بها . ويمكن أن تسمى هذه باسم المجموعة الصينية والبرمانية والسيامية والتبتية .

والفارق بين أى من هذه الألسن الصينية واللغات الموجودة إلى الغرب منها فارق عميق . فى صيغة اللغة الصينية الخاصة بمدينة بكين لا يوجد إلا قرابة ٤٢٠ مقطعا فرديا ابتدائيا ، وبناء على هذا أصبح على كل من هذه المقاطع أن يقوم بواجب الدلالة على عدد كبير من الأشياء ، كما أن المعانى المختلفة إما أن يستدل عليها من السياق أو بقول الكلمة بنغمة صوتية مميزة .

والعلاقات بين هذه الكلمات يعبر عنها بطرائق تخالف الطرائق الآرية تمام المخالفة . والأجرومية الصينية هى شىء مختلف فى طبيعته عن الأجرومية الإنجليزية ، وهى مخترع منفصل مختلف ؛ بل يصرح الكثيرون من الكتاب أنه لا توجد أجرومية صينية إصالة ، وهذا حق إذا قصدنا من كلمة الأجرومية أى شىء ينطوى تحت المعنى الأوربى الخاص

المقصود به التصريف والمطابقة ؛ وبناء على هـذا يكون أى شيء يشبه الترجمة الحرفية من الصينية إلى الإنجليزية أمراً مستحيلا . ذلك أن نفس طرائق الفكر مختلفة ، ومن ثم لم تزل فلسفتهم فى جل أمرها كتابا مختوما دون الأوربى ، والعكس بالعكس ، وذلك بسبب الطبيعة المختلفة للتعبيرات .

وقد نستطيع أن نضرب لك مثالا على هذا الفارق العميق بين طريقتى التعبير فى كل من المجموعتين . فإن الحروف الصينية « الدالة على الأشغال والاستفهام والأمر الحتمى والقديم » إذا وضعت على نفس هذا الترتيب مثلا دلت على : (لماذا تسير على النهج القديم) وهكذا يعطى الرجل الصينى لباب معناه مجردا . على حين يصل الإنجليزى إلى نفس المعنى باستعمال مجاز جرىء . فربما رأيته يتكلم عن المحافظة على القديم فى الطبيخ وفى تجليد الكتب ولكنه يقول (لماذا تمشى على النهج القديم) . والمستر آرثر ويلى فى مقالته الشائقة عن الفكر والشعر الصينيين الذى نشر قبل كتابه (١٧٠ قصيدة صينية طبعة كنستابل ١٩١٨) يوضح لنا بأجلى عبارة كيف ظل الفكر الصينى فى هـذه الميادين عمليا مغلولا لما يسبغ على المجاز من قيود يحتمها تكوين اللغة الصينية المقتضب .

٧ — مجموعات لغات أخرى

وبالإضافة إلى عائلات اللغات هذه ، يميز اللغويون ، مجموعات اللغات الأخرى التالية ، فإن كل لغات الهنود الأمريكيين ، التى شقة الخلاف فيما بينها واسعة ، يمكن فصلها عن أية مجموعة خاصة بالعالم القديم . ونحن نستطيع أن نضعها هاهنا ، إحداها مع الأخرى بوصفها جماعة شتى أكثر منها عائلة .

وفى افريقيا مجموعة من اللغات ، تمتد من شمالى خط الاستواء بقليل إلى نهايتها الجنوبية القصوى ، هى البانتو ، يضاف إليها طائفة من اللغات الأخرى تمتد عبر وسط القارة ، لن نعنى هاهنا بأمرها .

وهناك أيضا مجموعتان منفصلتان فيما يرجح ، هما الدراڤيدية فى جنوب الهند والملايوبولينيزية المنتشرة فى بولينيزيا ، والتى تضم الآن أيضا بعض الألسن الهندية .

ومن المعقول الآن أن نستنتج من هـذه الفروق الجوهرية ، أنه حدث إبان الزمان الذى أخذ الناس فيه فى تكوين مجتمعات أكبر بقليل من قبيلة العائلة ، وعندما أخذ بعضهم

يخبر البعض بالأقاصيص الطوال ، ويوم شرعوا يتناقشون ويتبادلون الأفكار ، كانت الكائنات الإنسانية موزعة فى العالم فى عدد من المناطق ، وكانت تتصل إحداها بالأخرى اتصالا قليلا جدا لما يفصلهم بعضهم عن بعض من محيطات وبحار وغابات كثيفة وصحارى أو جبال . وربما وجدت فى ذلك الزمان السحيق ، ولعل ذلك كان قبل عشرة آلاف سنة أو أكثر ، قبائل وعائلات تنطق بالآرية والسامية والحامية والطورانية والأمريكية والصينية ، وكل تمشى فى مناكب مناطق الصيد الخاصة بها ، ومناطق الرعى والزراعة العابرة ، وكلها كانت فى نفس مرحلة ثقافية واحدة ، وكل كان ينشىء آلته اللغوية على طريقته الخاصة . والراجح أن أحدا من هذه القبائل الأصلية لم يكن ليزيد فى عدده مطلقا عن الهنود فى الأراضى الشمالية الغربية اليوم ، ولما تكد الزراعة المنتظمة تبدأ حينذاك . فحتى حان الوقت الذى جعلت الزراعة فيه زيادة السكان أمرا ميسورا ، فلعل الكائنات الإنسانية أجمع ، لم تزد فى مجموعها عن بضع عشرات من الألوف . وهناك نقطة قلَّ من يستطيع تفهمها ، وهى أنه حتى العصر الباليوليثى كان الإنسان حيوانا نادرا إلى الدرجة القصوى ، إلى أن أخذت الزراعة تصبح ذات أهمية فى الحياة الإنسانية ، وأخذ عدد السكان بعد ذلك يتكاثف فى إقليم البحر المتوسط على الأرجح ولعله كان فى مناطق يغمرها البحر الآن .

وبالإضافة إلى هاته القبائل النيوليثية لابد أنه كان يسكن افريقيا والهند أقوام غابات متنوعون أكثر بدائيــة بكثير . وليس من المحتمل أن يتجاوز عدد هؤلاء بضعة الآلاف . والراجح أنهم كانوا نادرين ندرة الغوريلا اليوم أو أشد ندرة . وكانت افريقيا الوسطى ابتداء من النيل الأعلى ، غابة مترامية الأطراف لا تستطيع الحياة الإنسانية العـادية أن تخترقها ، وهى غابة ليست غابات الكونغو الحالية إلا البقية الباقية منها .

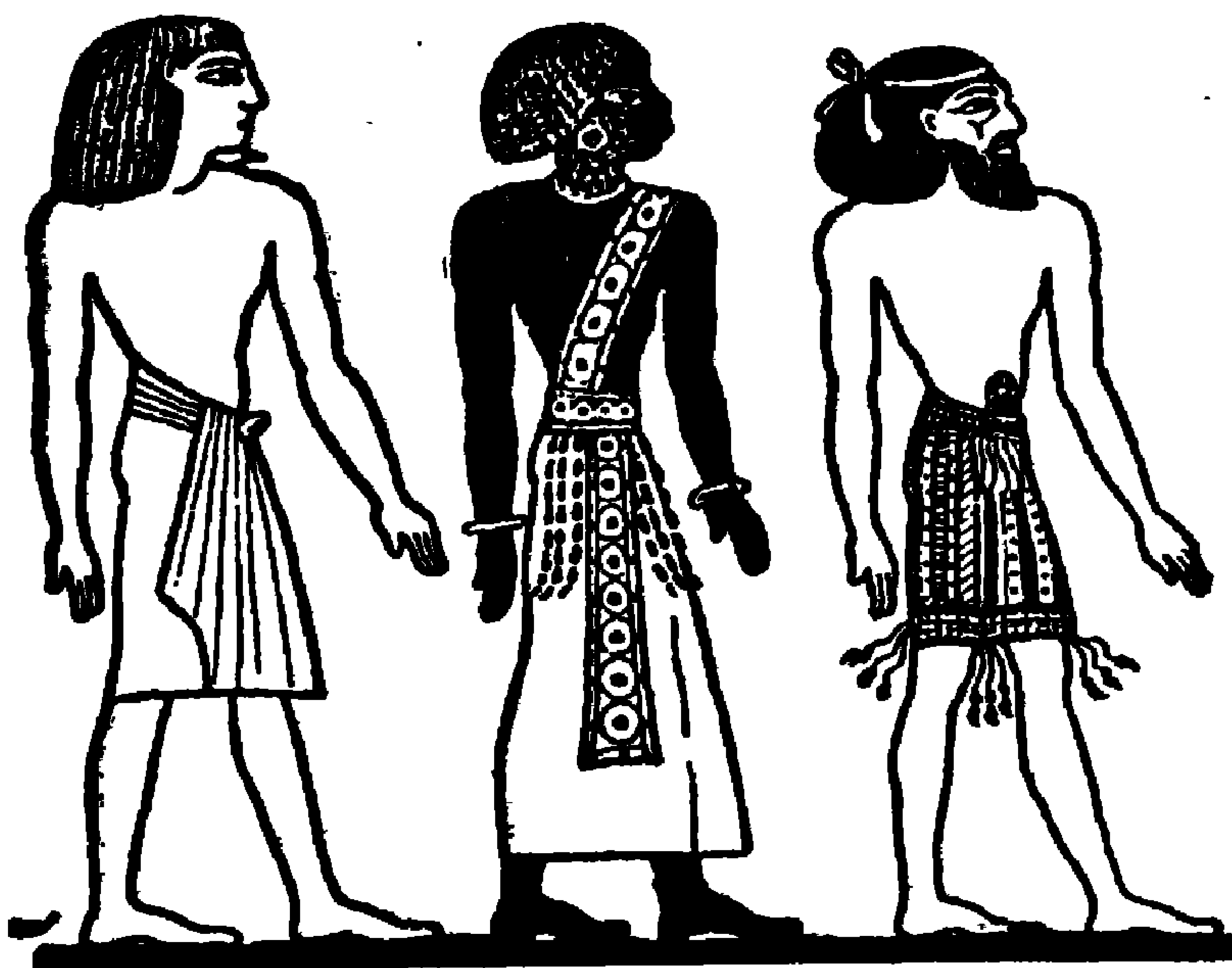
وجائز أن انتشار أناس أعلى مرتبة من جنس الاسترالويد البدائى إلى بلاد الهند الشرقية ، وتطور اللغات (الملايوبولينيزية) حدثا متأخرين فى الزمان عن وقت تكوين هذه المجموعات الأخرى من اللغات . ويلوح أن الشعب البولينيزى إنما هو امتداد متأخر نحو الشرق قامت به الشعوب السمراء ، ويرجح أن شيئا من الدم النوردى قد تدسس فيهم .

وواضح أن الأقسام اللغوية التى صنفها علماء اللغات تتفق بوجه الإجمال مع أصناف الأجناس الرئيسية التى يقول بها علماء الأجناس ، وهى تحمل نفس الفكرة الخاصـة بوجود عدد من السكان قليل جداً وموزع توزيعاً خفيفا ، وبوجود انفصالات دامت العصور بين أقسام

(٣٨) نقش سومرى قديم جدا محفور على الحجر يبين المحاربين السومريين فى اصطفاف عسكرى



(٣٩) محارب آشورى





(٤٠) أشكال لبعض الأجناس (من نقوش القبور المصرية)

البشرية العظيمة . وفى العصر الجليدى ، عم الجليد أو عم مناخ أقسى من أن يتناسب وانتشار الشعوب الانتشار الحر ، وامتد من القطب الشمالى إلى أوربا الوسطى ، ثم عبر الروسيا وسيبريا إلى الهضاب العظيمة بآسيا الوسطى . وبعد ذهاب العصر الجليدى الأخير ، خفف هذا الإقليم الشمالى البارد من قساوته تخفيفا بطيئا جداً ، واستمر زمانا طويلا ولا سكان فيه إلا القانصين المتجولين الذين انتشروا شرقا وعبر مضيق بهرنج ، ولم تصبح شمال ووسط أوربا وآسيا معتدلات المناخ إلى الدرجة الملائمة للزراعة إلا منذ عهد قريب جداً — وأعنى بذلك أزمانا لا تتجاوز الاثنى عشر ألفاً أو لعلها عشرة الآلاف من السنين — ثم فصلت فترة غابات كثيفة بين عصر الصائد وبين عصر إزالة الغابات ابتغاء الزراعة .

ففترة الغابات هذه كانت كذلك فترة ممطورة أشد المطر . ومن ثم سميت باسم عصر المطر أو عصر الغدران . ولزام علينا أن نتذكر فى هذه الآونة ما لحق معالم أرض العالم من تبديل كبير حتى فى مئة القرن الأخيرة . وما من شىء يعترض الباحث فى موضوع الإنسان قبل التاريخى لإغفاله قدر التغيرات الجغرافية .

وعند تراجع الجليد تخلفت ولا شك مياه كثيرة منتشرة ومستنقعات كثيرة لا يمكن اجتيازها ، وهى ممتدة عبر الروسيا الأوربية من بحر البلطيق إلى بحر قزوين . وإنما بحر قزوين وبحر آرال Orol وأجزاء من صحراء التركستان ، بقايا بحر متسع عظيم كان يمتد حتى وادى الفولجا الأعلى ويرسل ناحية الغرب ذراعا يتصل بالبحر الأسود . وكانت الحواجز الجبلية أعلى كثيراً مما هى الآن ، وكانت بالإضافة إلى ذلك الخليج الذى يكون الآن إقليم نهر السند ، تتم حلقات الفاصل بين الأجناس النوردية الأولى وبين المغول والدراقيديين ، ومن ثم غدا التفريع العنصرى الإجمالى بين تلك المجاميع أمراً ميسورا .

وبالإضافة إلى هذا ، نرى الصحراء الكبرى — التى تذرو اليوم رمالها هوج الرياح — قد أخذت تنقلب رويداً رويدا إلى منطقة رملية جافة . وهى ليست بحرا عبثت به أيدى الجفاف ، بل بيداء نسجتها الرياح — وكانت غنية فى يوم من الأيام بخصبها ، زاخرة بالحياة — فرقت هذه الصحراء بين جنس البحر المتوسط وبين السكان الزنوج البدائيين القليلى العدد القاطنين إقليم الغابات الأوسط فى افريقيا .

وكان الخليج الفارسى يمتد نحو الشمال امتداداً يتجاوز رأسه الحالىّ ، ويتصل بالصحراء الروسية حائلا بين الشعوب السامية وبين المناطق الشرقية ، على حين أن جنوب بلاد العرب — من الناحية الأخرى ، وكان آنذاك يزيد خصبه كثيرا عما هو الآن — ربما كان يمتد عبر

ما نسميه الآن بخليج عدن حتى بلاد الحبشة وأرض الصومال ، بل ربما كان البحران المتوسط والأحمر أثناء عصر المطر واديين خصيبين يضمان حلقة من البحيرات العذبة . وقد قامت الهملايا وما وراءها من مجموعة جبال آسيا الوسطى الأكثر ارتفاعا والأضخم حجما ، يضاف إليها امتداد خليج البنغال نحو الشمال حتى وادى الكنج الحالى ، بفصل الدراڤيديين عن مغول الجنوب . وأدى وجود مجموعة البحار والبحيرات فى منقطة جوبى التى أصبحت فى العصر الحاضر صحراء جوبى ، كما أدت مجموعة سلاسل الجبال العظيمة التى تأخذ إحداها بزمام الأخرى عبر آسيا من الوسط إلى الشمال الشرقى ، إلى شق الجنس المغولى إلى مجموعتى اللغات الصينية والأورال آلتائية .

فأما مضيق بهرنج فإنه عزل هنود أمريكا لما ظهر فى عالم الوجود ، قبيل عصر المطر أو بعده .

وليلحظ القارئ أننا لا نريد أن نثبت هاهنا أن هذه الانفصالات القديمة كانت انفصالات مطلقة ، وإنما نحن نرمى إلى أنه كان لها أثرها الذى استطاعت به منع أى اختلاط متكرر عظيم للدماء والألسن فى تلك الأيام ، أيام بدايات الإنسان الاجتماعية . وكان هناك مع ذلك قدر يسير من التلاقى والتبادل حتى فى تلك الأيام ، كما صحبها شىء من انتقال العرفان ، ونشر النماذج الفجة ونشر استعمال آلات متنوعة وبذور زراعة بدائية فى أرجاء العالم . وظهرت فى هذا الوقت زوارق الكانو ثم السفن فزادت من أثر هذه الدعاية الزراعية والتجارية .

٨ — ما يحتمل أن يكون مجموعة لغوية بدائية

لم يكن اللسان الأساسى لمجموعات هذه اللغات الرئيسية التسع التى لاحظناها ، هو بأى حال كل بدايات الكلام الإنسانى فى العصر النيوليثى . وإنما هى أحدث اللغات عهدا ، وهى التى بقيت إلى اليوم حية والتى طردت من الميدان أسلافها الأكثر بدائية . وربما كانت هناك مراكز للكلام ضعيفة التأثير . بل لعلها كانت مراكز كثيرة معتددة اجتاحها فيما بعد الناطقون بالألسن التى لا تزال على قيد الحياة ، كما أنه ربما كانت هناك مراكز للغات أولية اضمحلت ثم اندثرت . فنحن لازلنا نجد فى العالم رقاعا صغيرة غريبة من اللغات ، وإن لم يلح عليها أن لها ارتباطا بأية لغة أخرى تحيط بها .

وقد يحدث أحيانا مع ذلك ، أن يلوح البحث القائم على التقصى والاستقراء كأنما ينتظم هذه الرقاع المنقطعة الصلة فى سمط واحد ، وكأنما تفتح أمام نواظرنا بعض لمحات خلابة إلى شكل

من اللغـة الإنسانية أبسط تكوينا وأوسع نطاقا وأكثر التصاقا بالأساس وأعم انتشارا . وهناك مجموعة لغوية دار حولها نقاش حاد ، هى مجموعة لهجات الباسك . ويعيش الباسك الآن فى منحدرات جبال البرانس الشمالية والجنوبية ، وربما كان كل عددهم قرابة ٦٠٠ر٠٠٠ لا يزيدون عنها فى أوربا ، وهم ما زالون حتى اليوم شعبا قوى الشكيمة نزوعا إلى الاستقلال ، ولغتهم كما نجدها اليوم ، لغة تامة التطور . ولكنها متطورة على أسس تخالف مطلق المخالفة كل الأسس التى تقوم عليها اللغات الآرية المحيطة بها .

وقد صدرت فى الأرجنتين والولايات المتحدة صحف باسكية تسد حاجة أغنيائهم النازحين إليها . وكان أقدم النازحين الفرنسيين فى كندا من الباسك . ولا تزال الأسماء الباسكية كثيرة بين الكنديين الفرنسيين حتى يومنا هذا ، والآثار القديمة تشير إلى أن شعب الباسك ولغته كانوا ينتشرون فى أسبانيا فى وقت من الأوقات ، أكثر مما ينتشرون الآن .

ظل هذا اللسان الباسكى زمنا طويلا عقدة عصيبة لا يستطيع العلماء حل خصائصها ، وأدت خصيصة تركيبها إلى القول بأنها ربما كانت ذات صلة ببعض الألسن الأمريكية الهندية . والمستر ا . ه كين يجمع فى كتابه (الإنسان فى ماضيه وحاضره) أدلة تربطها — وإن من بعيد — بلغة البربر أهل شمال افريقيا ، وتصلها بطريق هؤلاء بكتلة اللغات الحامية العامة . على أن بعض علماء اللغات يبدون شيئاً من التشكك فى هـذه العلاقة . وهم يجدون لغة الباسك أكثر شبها ببعض بقايا لسان معين جانح معزول كلغة الباسك ، موجود فى جبال القوقاز ، وهم يجنحون إلى اعتبارها عضوا أخيرا باقيا (قد داخله الكثير من التغير والتخصص) من مجموعة كانت فى يوم ما عظيمة الانتشار جدا تتكون من اللغات (قبل الحامية) ، وقد بادت فيما عدا ذلك من مكان ، ويتكلمها على الأخص شعوب من ذلك الجنس الأسمر جنس البحر المتوسط الذى كان يشغل فى يوم ما معظم أوربا الغربية والوسطى وآسيا الغربية . وهم يظنون أنها ربما كانت وثيقة العلاقة جدا باللغة الدراڤيدية فى الهند ولغات الشعوب ذوات الثقافة الهليوليثية الذين انتشروا شرقا مخترقين الهند الشرقية إلى بولينيزيا وما وراءها .

ومن الجائز جدا أنه منذ ثمانية أو عشرة آلاف سنة خلت كانت تمتد فوق أرض أوربا الغربية والجنوبية مجموعات لغات اختفت تمام الاختفاء أمام اللسان الآرى . وسنلحظ ونحن ماضون فى سبيلنا احتمال وجود ثلاث مجاميع لغوية مفقودة يمثلها (ا) الكريتية القديمة والليدية وما أشبههما (وإن كانت هذه ربما انتمت ، كما يقول السير هارى . ه . جونستون ، إلى المجموعة الباسكية القوقازية الدراڤيدية) (ب) السومرية (حـ) العيلامية .

ولقد ذهب بعض الناس — وهو مجرد حدس وتخمين — إلى أن اللغات السومرية القديمة ربما كانت همزة الوصل بين اللغة الباسكية القوقازية القديمة وبين المجاميع المغولية الأولى فإن صح ذلك ، فإن لنا فى هـذه المجموعة (الباسكية والقوقازية والدراقيدية والسومرية ؛ والسابقة للمغولية) طريقة كلامية أشد قدما وأكثر اتصالا بالسلف القديم من الحامية الأساسية . ولدينا شيء أقرب شبها إلى الحلقة المفقودة اللغوية ، شيء أقرب شبها إلى لغة ترجع إلى السلف القديم من أى شيء نستطيع أن نتصوره فى الزمن الحاضر . وربما كانت تتصل بصلة القربى باللغات الآرية والسامية والحامية على نفس الدرجة التى كانت تتصل بها السحالى البدائية فى الأزمان الباليوزوية بصلة القربى السحيقة بالثدييات والطيور والدينوصور على التعاقب .

٩ — بعض اللغات المعزولة

يقولون عن لغة الهوتنتوت إن لها بعض الوشائج باللسان الحامى وإن فصلتها عنها كتلة افريقيا الوسطى التى تتكلم البانتو . وهناك لغة تشبه لغة الهوتنتوت ولها وشائج بوشمانية ، ولا يزال يتحدث بها الناس فى افريقيا الشرقية الاستوائية ، وهذا يعزز الفكرة القائلة بأن وسط افريقيا بأسره كان فى أحد الأيام ينطق بالحامية .

انتشر البانتو لغة وشعوبا فى عصور حديثة نسبيا ، من أحد مراكز أرومتهم فى افريقيا الوسطى الغربية ، ففصلوا بين الهوتنتوت وبين الشعوب الحامية . ولـكن لا يكاد يقل عن هذا فى الأرجحية القول بأن لغة الهوتنتوت إنما هى مجموعة لغوية قائمة بذاتها .

ومن بين رقاع اللغات الصغيرة البعيدة المعزولة لغة البابوا فى غانة الجديدة ولغة الأهالى السود الاسترالية .

واللغة التسمانية البائدة الآن لا يعرفها الناس إلا قليلا . وجميع ما نعرفه اليوم عنها فعلا يؤيد ما حدسناه عن قلة الـكلام النسبية لدى الإنسان الباليوليثى .

وفى مستطاعنا أن نقتبس فى هذا الموضوع فقرة من كتاب أجناس البشرية الحية لـ (هتشنسون) : «ضاعت لغة الأهالى ضياعا لا يعوض ، اذ لم يبق من تراكيبها إلا دلالات بتراء ، ولم يبق من مفرداتها إلا نسبة صغيرة . وكانت لهجاتهم تشبه الاسترالية من ناحية غيبة الحروف الصافرة ومن جهة بعض (الظواهر) الأخرى ، على أنها كانت ذات تركيب أخشن وأنقص تطورا ، وكانت ناقصة بتراء معيبة إلى حد أنهم — كما قال جوزيف مبيليجان ، وهو خير حجة فى هـذا الموضوع — كانوا لا يراعون فى تركيب جملهم أى ترتيب أو تنظيم ثابت

للكلام . بل ينقلون إلى السامع بطريقة اضافية قوامها نغمة الصوت وبالحالة والإشارة — تلك التعديلات فى المعانى التى يعبر عنها فى لغاتنا الحال وزمان الفعل والإفراد والجمع . والمصطلحات المعنوية لديهم نادرة ، ولكل ضرب من ضروب أشجار الصمغ وأشجار اللاوينا[١] اسم خاص ، ولكن لم تكن هناك كلمة للشجر عامة ولا للصفات من أمثال : صلب ورخو ودفء وبارد وطويل وقصير ومستدير — فإن كل شيء صلب كان مثل الحجر ، وكان كل شيء مستدير يشبه القمر ، وهكذا كانوا فى العادة يوفقون بين الفعل والكلمة ويؤكدون المعنى الواجب فهمه بإحدى الإشارات .

(١) اللاوينا Wattle : شجر تصلح أغصانه للسّيّ والضفر .

الكتاب الثالث

المدنيات الأولى

الفصل الثالث عشر

الإمبراطوريات الأولى

---

١ — الزراع الأول والرحل الأول

نعود الآن إلى ما كنا فيه ونفيض فى الحديث الذى بدأناه فى الفصول السابقة حول ظهور الزراعة . فإن ابتداءها يدل على تغير عميق فى أحوال الإنسانية . تطورت الزراعة على مهل ، ومع شىء كثير من التنوع فى حياة الإنسانية ، فى مدى عدة آلاف من السنين تتراوح بين عشرين ألف سنة فى أشد الحالات قدما ، وثمانية آلاف من السنين فى أشدها حداثة .

وقبل ذلك الحين كان الإنسان حيوانا نادر الوجود بالمقارنة إلى غيره من الحيوانات ، إذ كان ضاريا من الضوارى يتجول ويستعمل الأدوات ، أو قل متوحشا . وكان يعيش فى مجتمعات صغيرة ، ولم يزل كلامه فيما يرجح ناقص التطور إلى حد كبير ، وكان كل ما يملك أشياء هينة الحمل ، وكان يقضى كل حياته فى اقتناص الغذاء ، تتعاور عليه غير الأيام ما بين مدد طويلة يقضيها طاويا ، وأخرى يمضيها فى رغد وكظة ، وكان يتبع الحيوانات فى تأثرها طعامها وانتقالها تبعا للفصول . كان حرا وكان معوزا ، وكانت حياته فى خطر مستديم .

ثم بدأ الإنسان زراعة الغذاء قصدا ، ثم حفظه : فأخذ يرعى الحيوانات التى كان يصيد ،

ويحرس المكان الذى يجد فيه البذور والجذور والفواكه التى يكمل بها غذاءه من اللحم . وقلّ ما كان من تربصه لصيد الحيوان وذلك لرعيه ماشيته التى كانت نصف مستأنسة ولانتظاره المحصول حيث ألقى البذور ، وتكاثرت آلاته . حتى إذا وصل إلى ما قبل زماننا بثمانية آلاف من السنين كان قد أصبح فى بعض الأصقاع حيوانا كثير العدد كثرة عظيمة ، لم يبلغها البتة أى قرد ، أو ما اليه من الفصائل القريبة . ثم إنه كان قد صنع البيوت واستحوذ على الممتلكات ، وبدلا من مجرد الاقتصار على اقتناص الطعام نراه استقر وتطامنت نفسه إلى العمل الدورى المنتظم الذى يقوم به فى سبيل القوت ، فاختزن الطعام ، وبذلك دخل فى دور العمل ، وبدلا من الوجبات التى تعتمد على الصدفة المؤاتية أو المغامرة ، أصبحت أوقات أكلاته معينة ، فأصبح مدخرا بعد أن كان يعيش تحت رحمة الصدف والظروف .

فهو الحيوان الثديى الوحيد الذى أصبح حيوانا مقتصدا . إذ لم يسبق أن وجد أى حيوان ثديى يمتاز بالاقتصاد . حقا إن كلب الماء يبنى ويختزن ، وأن السنجاب يكتنز ، وأن الكلاب تدفن عظامها ، ولكن يجب علينا أن نتجه إلى النمل والنحل قبل أن نصل إلى المخلوقات الحية الأخرى التى تشترك فى مجتمعات ، وتشتغل بانتظام فى إعداد المسكن واختزان المأكل واقتسامه . وقبل استقرار الإنسان كان العناء والقلق والعوز مسيطرةً على حياته ، ولكن لم يكن هناك أى عمل نظامى . أجل وجد العمل فى حياة رجل العصر الباليوليثى المتأخر ، لكنه كان عملا عرضيا غير مستمر كما كان فى العادة لذيذا شائقا ، فكان لزاما عليه أن يصنع الآلات من وقت لآخر ، ولكن الراجح انها كانت تصنع بأيدى المضطرين لاستعمالها . وكان لزاما على الإنسان أن يكشط الجلود وأن يخرج ليصيد طعامه ، وأن يكل النار إلى أحد أفراده يعنى بها ، إذ كان أمر توليدها مشكلة خطيرة مزعجة ، حتى ليظن بعض الثقات أنهم كانوا يخصصون لهذه التبعة أفرادا معينين ، وأن العذارى المتبتلات الطاهرات ونارهن المقدسة ، إنما هى الأثر الباقى من رعاة النار البدائيين . ولكن لم يكن هناك فى مرحلة القنص ذلك الجهد الثابت المنتظم الذى نسميه نحن « عملا » .

ويرجح أن عبء معظم الأعمال الثقيلة التى وجبت تأديتها كان ملقى على عاتق النساء . فإن الرجل البدائى الأول لم يكن صاحب شهامة تحدبه عليهن . وعندما كانت المجموعة الإنسانية الصغيرة تنتقل من أرض إلى أرض كانت النساء والبنات يحملن ما لدى المجموعة من أثقال ، بينما كان الرجال يسعون بأسلحتهم خفافا وهم على أهبة لكل طارئة ، وكانت العناية بالأطفال ملقاة كلها على كاهل النساء .

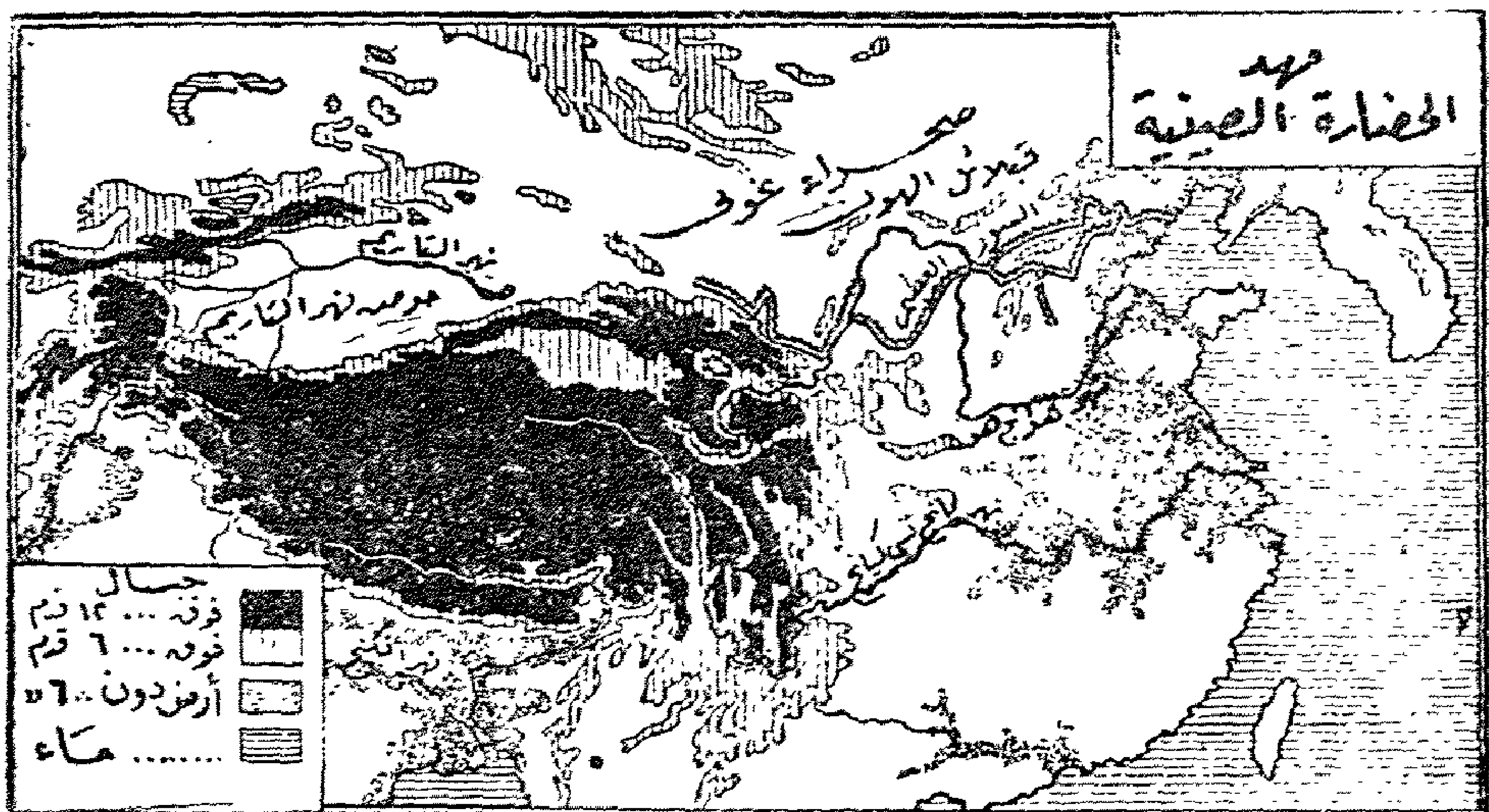
ولقد نوهنا لك آنفا أن النساء كن البادئات بالزراعة . وهذا طبعا أمر يقوم على الترجيح القوى إذ كان جمع الأطعمة من حبوب وخضر منوطا بهن ، بينما كان الرجال غائبين لاشتغالهم بالصيد . وربما كانت المرأة أول من لاحظ أن القمح كان ينمو فى مكان المخيمات القديمة . وربما كانت أول من نثر الحب قربانا لبعض ما تعبد من آلهة محلية اعتقادا منها أنها ستعوضها فيما بعد بمئة من أمثالها . وكانت أولى مراحل الزراعة مرحلة زراعة المحصول الخطيف فالرجال ، وهم بعد فى طور الرعى إلى حد كبير — ربما بذروا الحب ثم عادوا فيما بعد إليه لحصده . وربما كان الارتباط الوثيق بين التضحية الإنسانية وبين بذر الحبوب راجعا إلى عصر الحاصلات الخطيفة التى تترك حتى تنمو وتحصد ، ولعلهم كانوا يذبحون الرجل وينصرفون تاركين إياه ليحرس المحصول .

ويكاد يكون من المؤكد أن أقدم أنواع الزراعة كان بغير ريب من نوع زراعة المساحات الصغيرة أى غرس حدائق صغيرة المساحة باليد . وربما كانت تلك اليد يد النساء . وكانت موردا اضافيا للغذاء . والراجح انها لم تزدد أهمية إلا فى ظروف غاية فى الإستثناء .

ومن اليسير علينا أن نتصور أن الناس قد لاحظوا من عهد سحيق القدم ميزات نثر البذور فى أرض يغمرها الماء غمرا دوريا ، وكأنى بهم يلقون بخبزهم على وجه الماء ثم يجدونه يرجع إليهم مفرطا فى الكثرة . ويرى إليوت سميث أن الزراعة المنتظمة ، بوصفها عملا وطيدا بدل أن كانت نوعا ثانويا من النشاط ، قد ابتدأت فى مصر . ولا شك أنه لا يوجد قطر تكيف بمثل هذا الشكل الواضح ، لأن يعلم الناس فن إلقاء البذور فى الموسم المناسب . وربما كان البذار المنتظم فى أول الأمر يتم فى الأراضى المغمورة بالمياه . فكانت تلك خطوة سهلة نوعا ما ، انتقلوا منها إلى مساعدة الماء على غمر الأرض ، أى « الرى » .

وليست الزراعة بالمدنية ، فقد انتشرت زراعة القمح حتى وصلت المحيطين الأطلسى والهادى سائرة مع توزع الثقافة النيوليثية التى ربما جاءت قبل الميلاد بخمسة عشر ألفا ، أو بعشرة آلاف من السنين ، أى قبل ظهور تباشير المدنية . ولكن المدنية أمر يزيد كثيرا عن زراعة الحبوب عرضاً ، وفى موسمها المعين ؛ المدنية هى استقرار الناس فى جهة تستمر فيها الزراعة والملكية ، وهى عيش الناس فى مبان يسكنون فيها على الدوام ، ويشتركون فى حكم واحد ، ومدينة أو قلعة واحدة .

وكان أول شرط لازم لاستقرار أهل العصر النيوليثى (العصر الحجرى الحديث) استقرارا صحيحا يتميز عن مجرد المقام المؤقت فى منطقة يتوافر فيها الطعام ، هو وجود مورد ماء يمكن


مهد
الحضارة الصينية
صحراء غوبي
نهر تاريم
حوض نهر تاريم
جبال
فوق ١٢٠٠٠ قدم
فوق ٦٠٠٠ قدم
ماء

(٤١)

الحضارة الإيجية

طرواده

ميسيناى

كنوصوص

كريت

قبرص

J.F.H

(٤٢)

أن يعتمد عليه على مدار السنة ، ثم وجود طعامهم ، وعلف لحيوانهم ، ومواد بناء مما يلزم منازلهم ، وكان لابد لهم من وجود كل شىء يحتاجون إليه فى أى فصل من الفصول ، وألا تنقصهم أية حاجة تغريهم بالتجوال مرة أخرى . ولا ريب أن هذه الحالة كانت ممكنة فى كثير من الوديان الأوربية والأسيوية . ففى كثير منها — كما هو الحال فى مساكن البحيرات السويسرية — استقر الناس من عصر قديم جدا ، ولكن لم توجد هذه الظروف الملائمة بهذا القدر الوافى فى أى مكان من أى قطر معروف لنا ، ولم تثبت بهذا الشكل القوى المكين عاما بعد عام ، قدر ما وجدت فى مصر ، وفى القطر المحصور بين المياه العليا لنهرى الدجلة والفرات وبين منطقة الخليج الفارسى .

فقد كان بهذه الأقاليم مورد دائم للماء لا ينضب معينه ومعه شمس مقيمة مستديمة ، كما كانت تحظى بمحصولات مضمونة السنة تلو السنة . قال هيرودوت « إن القمح فى أرض الجزيرة كان يجود على زراعه بمئتين من أمثاله » . وقال بلينى « إنه كان يحصد مرتين ، ثم هو بعد ذلك يكون علفا طيّبا للغنم » ، وكان هناك نخيل كثير وفاكهة من أنواع شتى . أما مواد البناء ، فقد كان منها فى مصر الطين ونوع من الحجر سهل النحت ، وكان منها فى أرض الجزيرة طين يجفف فى الشمس ويصبح لبناً .

فى مثل هذه الأقاليم كان الناس يكفون عن التجوال ويستقرون وهم لا يكادون يشعرون عما يفعلون ، وربما تكاثروا ولم يدركوا تكاثرهم . بل اكتشفوا كثرة عددهم اكتشافا ، ويصبحون بكثرة عددهم على جانب من المنعة من أى معتد طارئ . وقد تكاثروا وأنتجوا عددا من السكان أكثف من كل ما رأته الأرض من قبل ، وأصبحت منازلهم أمتن وأقوى ، وأبيدت الضوارى فى مساحات بعيدة ، وزاد اطمئنان الناس على الحياة إلى حد أتاح للرجل العادى أن يخرج فى المدن والحقول دون أن يثقل نفسه بأسلحته . وأصبحوا فيما بين بعضهم البعض على الأقل شعوبا مسالمة ، وقد استقروا استقرارا لم يلقه الجنس البشرى من قبل .

وكانت أرض الجزيرة ومصر أوفق الأقاليم لأول استقرار دائم للإنسان . ونحن نورد لك خريطة (٣٧) لهذه الأقاليم كما كان عليه حالها منذ ستة أو سبعة آلاف سنة مضت ، وكانت وديان البحر الأحمر ووديان البحر المتوسط الشرقية ، قد سبقت فانغمرت بالمياه قبل ذلك الزمان ، ولكن سواحل بلاد العرب ، وعلى الأخص سواحل الركن الجنوبى الغربى فيها كانت أخصب بكثير مما أصبحت عليه الآن ، وكان البحر الأحمر ينصرف إلى الأبيض خلال بوغاز مفتوح سارب ، كما كان الخليج الفارسى يمتد إلى الشمال أكثر مما يمتد فى الوقت الحاضر .

وبينما كان فريق من الناس يستقرون ويتكاثرون فى وديان الأنهار العظيمة كان فريق آخر من شعوب أقل عددا وأكثر نشاطا ، وربما كانوا من طراز مباين تماما ، يتطورون فى جهات أقل خصبا ، ولكنها أكثر اعتمادا على الأحوال المناخية فى مختلف الفصول ، خارج تلك الأصقاع ذات الخيرات الوفيرة ، كان ذلك فى غابات أوربا وفى صحارى بلاد العرب وفى أراضى المراعى الموسمية فى أواسط آسيا — وهؤلاء هم الأقوام الرحل البدائيون .

كان هؤلاء الرحل يعيشون عيشة الحرية معرضين للمخاطر ، وهى عيشة مباينة لحياة الشعوب المستقرة من أصحاب الزراعة . وكانوا بالمقارنة إليهم رجالا مهزولين قد أضر بهم الجوع وكان رعيهم لايزال مختلطا بالصيد ، وكانوا لا ينفكون يحاربون دفعا للعائلات المغيرة على مراعيهم . فأما المستحدثات التى وصلت إليها الشعوب المستقرة والخاصة بإحكام صنع الآلات واستعمال المعادن ، فإنها انتقلت إليهم وحسنت أسلحتهم . فهم بذلك قد تعقبوا أثر الشعوب المستقرة من الدور النيوليثى إلى الدور البرونزى ، وأصبحوا أكثر استعداداً للحرب بتحسن أسلحتهم ، وأقدر على سرعة الحركة بتحسن سبل انتقالهم .

ولا ينبغى لنا أن نظن مرحلة الترحل سلفا من أسلاف مرحلة الاستقرار ، فقد بدأ الإنسان أمره بأن كان يتنقل فى بطء وراء طعامه ، ثم أخذ ضرب من الناس يستقر . وأصبح ضرب آخر من الناس مترحلا بيّن الترحل ، فأخذ الضرب المستقر يجمع أمره يوما بعد يوم على جعل الحبوب قوتا ، بينما أخذ المترحلون ينحرفون إلى الاعتماد على اللبن واتخاذه أهم غذاء لهم . واختصت كل طريقة من طريقتى الحياة بسبيل مناقض لسبيل الأخرى .

وكان لا مندوحة من أن تصطدم الشعوب المستقرة بالشعوب المترحلة ، وأن يبدو المترحلون للمستقرين جفاة وهمجاً ، وأن يكون المستقرون ضعافا لينين مستأنثين ، ونهبة طيبة سائغة للمترحلين ، ولا بد أن قد كان على حواشى المدنيات إبان تطورها ، غارات واحتكاكات لا تنقطع ، بين قبائل الرحل والجبليين الشداد الغلاظ ، وبين شعوب المدن والقرى وهم أكثر عددا ، وأقل فى الحرب جلدا .

وكانت هذه فى معظم أمرها مجرد إغارات على الحدود ، فقد كان يرجح كفة المستقرين كثرة عددهم ، وربما استطاع الرعاة أن يغيروا ، وربما استطاعوا أن ينهبوا ما شاءوا ، ولكنهم لم يكونوا بمستطيعين أن يقيموا . وربما استمر ذاك الضرب المتبادل من الاحتكاك عدة أجيال ، بيد أنا نجد بين الفترة والفترة زعيما فى قبيلة يظهر بين الفوضى الضاربة على الرحل الأحرار المستقلين ، ويكون من القوة بقدر يسمح له بأن يرغم القبائل المتصلة به ، على الوحدة والتآلف

ثم الويل بعد ذلك لأقرب المدنيات إليهم . فإن رجال هذه القبائل الموحدة ينثالون انثيالا على أهل السهول العزل غير الجلدين فى الحرب ، ويتبع ذلك حرب غايتها الفتح . وبدل أن يحمل الفاتحون الأسلاب ، تراهم ينزلون فى الأرض المغزوة آخذين إياها كلها غنيمة . وعند ذلك يهوى أهل القرى وسكان المدن إلى درك العبودية ودفع الجزية ، ويصبحون قطاعا للأخشاب وحملة للماء ، بينما يصبح قادة المترحلين ملوكا وأمراء وسادة من أعلى طبقة . ثم يأتى دورهم فى فى الاستقرار ويتعلمون كثيراً من فنون المغزوين . ويتهذبون بالكثير من تهذيبهم ويذهب عنهم ما كانوا فيه من جوع وهزال ، ولكنهم يحتفظون طوال أجيال كثيرة بآثار طفيفة من عاداتهم القديمة وهم رُحَّل . فهم يتصيدون ، وهم يعكفون على ألعاب الهواء الطلق ، وهم يسوقون العجلات ويتسابقون بها ، وهم يعدون العمل وخاصة العمل الزراعى ، نصيب الأجناس والطبقات الدنيا .

فكان هذا الحال فى ألف من الأشكال والأنواع من أعظم قصص التاريخ المتكررة مدى السبعين قرنا الأخيرة أو ما يزيد عليها . فنى التاريخ الأول الذى نستطيع أن نقرأ رموزه بوضوح ، نجد فى كل الأصقاع المتمدينة تفريقاً قديماً بين طبقة حاكمة لا تعمل ، وبين كتلة السكان العاملة . ونجد أيضاً — بعد انقضاء بعض الأجيال أن الأرستقراطية ، وقد قرّ قرارها ، تأخذ فى احترام ما فى حياة المستقرين من فنون وتهذيبات وروح الخضوع للقانون ، وأن يفقد الأرستقراطى شيئاً من إقدامه وبسالته الأصلية : فهو يتصاهر مع من حوله ، وهو ينشىء نوعا من التسامح بين الغازى والمغزو ، وهو يتبادل الأفكار الدينية ويتعلم الدروس التى تحتمها عليه التربة والمناخ . ويصبح جزءاً من المدنية التى استولى عليها . وبينما هو يفعل ذلك تتجمع الحوادث لتهىء فتحاً جديداً يقوم به المغامرون الأحرار من العالم الخارجى .

ونحن نورد لك هنا بيانا مجرداً بأسماء المدنيات الأولى وتعاقبها فى آسيا الغربية وما جارى تلك المدنيات من تطور فى مصر . وربما كان جديرا بنا أن نورد لك البداية المصرية أولا ، فإن هناك خلافاً شائقا بين من يميلون إلى تقديم آسيا الغربية على مصر فى الترتيب الزمنى ، وبين من يرون مصر مهدا لكل حضارة ومدنية . وهى خصومة لا يرغب كاتب هذه السطور فى النزول إلى حومتها ، فمن الأنسب إذن أن ننظر إلى ما يعاصرنا من حال الأمور فى الهند والصين وأمريكا . وسيكون هذا الأمر بالضرورة سرداً لأسماء ، سوف نعطيك منها أقل عدد نستطيعه ، وسيجد القارئ الذى ليس فى جعبته شىء أو لديه القليل من المعلومات السابقة عن هذا القسم ، سيجد كل ما يتلوه أوضح كثيراً ، إذا هو وجه إلى هذا القسم عناية دقيقة

معقولة، ووازن بين مُصَوّر عهد الحضارة الغربية وبين الخريطة الزمنية ٦٠٠٠ — ٤٠٠٠ ق.م. وبين الرسم البيانى رقم (٥٧) .

٢ — (١) السومريون

إن تعاور الاستقرار ثم غزو الرحل ثم الترف ثم الغزو الجديد ، ثم الترف — الذى هو من الخصائص المميزة لهذا الدور من أدوار التاريخ الإنسانى ، أمر يجب أن يلحظ بوجه خاص فى إقليم الفرات والدجلة الذى كان مفتوحا من كل نواحيه أمام مناطق عظيمة لم تكن على درجة من الجدب تبلغ بها مرتبة الصحراء الكاملة ، وإن لم يبلغ خصبها حداً يجعلها تقوت شعوباً متمدينة . وربما كان أسبق الشعوب إلى تكوين مدن حقة فى هذا الجزء من العالم ، أو قل فى أى جزء من أجزاء العالم كافة ، شعب يسمى (السومريين) . ومن الراجح أنهم كانوا شعباً أسمر ذا وشائج إيبيرية أو دراقيدية . وكانوا يستعملون ضرباً من الكتابة يخدشونه على الصلصال ، وقد حلت رموز لغتهم ، وهى أقرب شبها بمجموعات لغات القوقاز التى لاتنضوى تحت صنف معين من اللغات ، منها إلى أية لغة أخرى موجودة الآن . وربما كان لهذه اللغة علاقة بلغة الباسك وربما كانت دليلا يمثل ما كان فى أحد الأيام مجموعة لغوية بدائية شائعة الاستعمال تمتد من أسبانيا وأوربا الغربية إلى المنطقة الشرقية من الهند ، وتصل جنوبا إلى أفريقيا الوسطى .

وقد كشفت الحفائر التى قام بها فى إريدو Eridu الكابتن ر . كامبل طمبسون R. Campbell Thompson أثناء الحرب العظمى ، القناع عن مرحلة زراعية نيوليثية قبل اختراع الكتابة أو استعمال البرونز ، وذلك تحت أقدم أسس المبانى السومرية .وكانت محصولات السومريين الأول تحصد بمحشات من الفخار . وكان السومريون يحلقون رؤوسهم ويرتدون أردية بسيطة من الصوف تشبه الجلباب . استقروا بادئ الأمر فى المجارى الدنيا للنهر على بعد غير كبير من الخليج الفارسى ، الذى كان حين ذاك يعلو رأسه الحالى بمائة وثلاثين ميلا أو تزيد .

ويقدر سايس Sayce فى كتابه « الحيـاة البابلية والآشورية » (Babylonian and Assyrian Life) أنه فى ٦٥٠٠ ق . م . كانت إريدو على ساحل البحر . وكان السومريون يخصبون حقولهم بترك الماء ينساب عليها من جداول الرى ، ثم أصبحوا بالتدريج مهندسين للرى فى غاية الحذق والمهارة ، وكانت لديهم الماشية والحمير والضأن والماعز ، وإن لم يكن لديهم

خيول . وتزايدت مجموعات أكواخهم الطينية فأصبحت مدنا وأقاموا لديانتهم معابد تشبه الأبراج فى بنائها .

وكان الطين المجفف فى الشمس حقيقة عظيمة الشأن فى حياة هؤلاء القوم ، حيث لم يكن فى هذا الإقليم الأدنى من وادى الفرات والدجلة أحجار ، أو كان بها النزر اليسير . فكانوا يبنون مبانيهم من الطوب ، ويصنعون أشكالا من الخذف والفخار ، وكانوا يرسمون ، ثم انتقلوا على الفور إلى الكتابة على أقراص رقيقة من الطين تشبه القرميد ، ولا يبدو عليهم أنهم عرفوا الورق أو استعملوا الرق . فإن كتبهم ومذكراتهم ، بل رسائلهم كلها مدونة على الشقافة .

وقد شيدوا فى (نيبور) برجا عظيما لربهم الأكبر إنليل Enlil ، ويظن أن ذكرى هذا البرج لايزال أثرها باقيا فى قصة برج بابل ، ويلوح أنهم كانوا مقسمين إلى مدن حكومية ، كانت تنشب بينها الحروب ، وقد حافظت هذه المدن على مواهبها الحربية مدى قرون كثيرة ، وكان جنودهم يحملون حرابا طويلة ، وتروسا ويحاربون فى تشكيلات متراصة . وقد غزا السومريون بعضهم البعض . ولكن سومر ظلت حقبة طويلة من الزمان دون أن يغزوها جنس أجنبى . ونمّى السومريون حضارتهم وأدخلوا تحسينات على كتابتهم ، وقووا بحريتهم إبان مدة ربما كانت ضعف كل المدة التى انقضت منذ أول العهد المسيحى إلى الوقت الحاضر . ثم أخذوا يستسلمون رويدا رويدا للشعوب السامية .

وكان أول ما عرف الناس من الإمبراطوريات جميعا ، تلك الإمبراطورية التى أسسها رئيس كهنة مدينة إرتنس السومرية . وقد جاء فى أحد النقوش بمدينة (نيبور) أن هذه الإمبراطورية امتدت من الخليج الفارسى الأدنى إلى البحر الأعلى (ترى يقصد البحر المتوسط أو البحر الأحمر ؟) . وسجلُ هذا الأمد الطويل من التاريخ ، وهو النصف الأول لعصر الزراعة ، مدفون تحت أكوام الطين فى وادى الفرات والدجلة . حيث ازدهرت أقدم المعابد وأول الكهنة الحكام الذين نعرفهم فى الجنس البشرى .

وقد اكتشفت فى الهند الشمالية الغربية آثار تدل على قيام تجارة سومرية ، وربما دلت أيضا على الاستقرار السومرى . ولكن لايزال من غير المحقق إلى اليوم : هل وصل السومريون إلى الهند بطريق البر أو البحر ؟ ربما كان وصولهم بحراً ، وربما كانوا فى جنسهم وثقافتهم من أشد الناس قربى بالشعوب التى كانت تقيم حينذاك فى وادى نهر الكنج .

٢ — (ب) إمبراطورية سرجون الأول

ظهرت على الحافة الغربية لهذا القطر قبائل رحالة من شعوب تتكلم اللغات السامية ، أخذت تتجر مع السومريين وتغير عليهم وتحاربهم طوال أجيال كثيرة . ثم ظهر فى آخر الأمر ، بين هؤلاء الساميين ، زعيم عظيم ، هو سرجون (٢٧٥٠ ق . م) فوحدهم ، ولم يقف عند حد السومريين ، بل مد سلطانه إلى ما وراء الخليج الفارسى شرقا ، وإلى البحر المتوسط غربا ، ويسمى قومه بالأكاديين ، وتسمى إمبراطوريته باسم الإمبراطورية السومرية الأكادية ، وقدنيفت على مئتى سنة .

ومنذ عهد سرجون الأول حتى القرنين الرابع والثالث ق . م ، وهى مدة تربو على ألفين من السنين كان نجم الشعوب السامية فى صعود فى كل أنحاء الشرق الأدنى . ولكن على الرغم من أن الساميين قد غزوا المدن السومرية ومنحوها ملكا ، فقد كانت المدنية السومرية هى الغالبة على ثقافة الساميين البسيطة . وقد تعلم هؤلاء السكان الجدد الكتابة السومرية ، أى الكتابة المسمارية واللغة السومرية : فهم لم ينشئوا أية كتابة سامية خاصة بهم . وأصبحت اللغة السومرية لدى هؤلاء الهمج لغة العرفان والقوة ، كما كانت اللاتينية لغة العرفان والقوة عند شعوب أوربا الهمجية فى القرون الوسطى ، وكان لهذا العلم السومرى حيوية عظيمة جدا ، فقدر له أن يعيش على تعاور سلسلة مديدة من الغزوات والتغيرات التى ابتدأت عند ذاك فى وادى الرافدين .

٢ — (ج) امبراطورية حامورابى

ولما فقد شعب الإمبراطورية السومرية الأكادية قوته السياسية والحربية ، أخذت تغمرهم من الشرق فيوض جديدة من شعب حربى يسمى (العيلاميين) ، على حين أتى (الأموريون) من الغرب ، يتجاذبون فيما بينهم الإمبراطورية السومرية الأكادية . والعيلاميون شعب مجهول اللغة والجنس ، « فلاهم سومريون ولاهم أكاديون » كما يقول سايس Sayce . وكانت عاصمتهم المركزية سوسة Susa . ولا يزال العلم بتاريخ آثارهم سراً تكنه الأرض فى صدرها . ويقول السير هـ . هـ جونستون H. H. Johnston إن بعض العلماء يظن أنهم من طراز شبه زنجى Negroid فإن لسكان عيلام Elam المصريين آصرة بالجنس النجرويدى شبه الزنجى ، أما الأموريون فإنهم كانوا من نفس الأرومة التى منها (ابراهيم)

ومن تلاه من العبرانيين المتأخرين . استقر الأموريون فى مدينة كانت بادئ الرأى مدينة صغيرة فى أعالى النهر ، تسمى بابل ، وأصبحوا بعد مئة عام قضوها فى الحرب ، سادة على كل أراضى الجزيرة ، وذلك تحت ملك عظيم اسمه حامورابى (١٢٠٠ ق . م) وهو الذى أسس الإمبراطورية البابلية الأولى .

ثم عاد إلى البلاد السلم والطمأنينة وتناقصت قوة العدوان فى الفاتحين ، ولم تمض مئة سنة أخرى حتى أخذ رحل جدد يغزون بلاد بابل ، جالبين معهم الحصان والعجلة الحربية وأقاموا ملكهم ملكا على بابل ، وكان هؤلاء هم (القاسيون) Kassites .

٢ — (ى) الآشوريون وإمبراطوريتهم

فى أعالى الدجلة فيما وراء الأراضى الطينية وبالقرب من مصادر الحجر السهل القطع والتسوية ، كان هناك شعب سامٍ هم الآشوريون يستقرون فى عدة مواقع أهمها آشور ونينوى وذلك قبل أن يخضع الساميون السومريين . وكانت خصائص أسارير وجههم وهى الأنف الطويل ، والشفاه الغلاظ ، قريبة الشبه جدا بأسارير الطراز اليهودى المنتشر اليوم فى بولندة ، وكانوا يطلقون لحى طويلة وشعورا معقوصة حلقات ، ويلبسون قلانس عالية وجلابيب طويلة . وانهمكوا على الدوام فى غارات متبادلة بينهم وبين الحيثيين فى الغرب ، وقد غزاهم سرجون الأول ثم أصبحوا أحرارا مرة أخرى ثم زحف عليهم تشراتا Tushratta ، ملك ميتانى Mita‑‑ الواقعة فى شمال غربى بلادهم ، واستولى على عاصمتهم نينوى ، واستبقاها فى يده فترة من الزمان . وقد ائتمروا مع مصر على بابل ، وكانوا يتناولون من المصريين أموالا . وارتفعوا بالفن العسكرى إلى ذروة عالية جدا ، وأصبحوا مغيرين أقوياء ذوى سطوة مرهوبة ، يتحكمون فيما يطلبون من جزية ، واستطاعوا عندما أدخلوا عندهم الحصان والعجلة الحربية أن يسووا الحساب زمنا ما بينهم وبين الحيثيين ، ثم عادوا بعد ذلك فغزوا بابل تحت قيادة ملكهم (تجلات بلسر الأول) قرابة ١١٠٠ ق . م ، ولكن تمكنهم من تلك الأراضى القديمة المتمدنية لم يكن مأمونا وظلت قصبةً لهم نينوى المدينة السامية المميزة ببنائها من الحجر من بابل المدينة السامية الشيدة من اللبن ، وانقضت عدة قرون تأرجح فيها السلطان بين نينوى وبابل . وكان ادعاء مُلك العالم موزعا بين آشوريا تارة وبابل تارة أخرى .

وقد استمرت بلاد آشور أربعة قرون ممنوعة من التوسع نحو مصر بسبب زحف جديد

قامت به مجموعة أخرى من الشعوب السامية اندفعت إلى الشمال واستقرت ، أولئك هم الآراميون الذين اتخذوا دمشق عاصمة لهم ، ونسل منهم السوريون المعاصرون . ولنلاحظ أنه لا توجد أية صلة البتة بين كلمة آشورى وكلمة سورى ، وإنما هو تشابه صوتى جاء عفوا وبمحض الصدفة . ولقد شق الملوك الآشوريون طريقهم قتالا عبر بلاد السوريين أثناء اتجاههم نحو الجنوب الغربى طلبا للفتح والتوسع . وفى سنة ٧٥٠ ق. م ظهر (تجلات بلسر) آخر ، وهو تجلات بلسر الثالث المذكور فى التوراة (سفر الملوك الثانى — الإصحاح ١٥ — ٢٩ و ١٦ — ٧) فلم يقتصر على إصدار الأمر بنقل الإسرائيليين إلى ميديا (وهى القبائل العشر التائهة التى حير مصيرها عددا كبيرا من الأذهان الطلعة) بل إنه فتح بابل وحكمها ، مؤسسا بذلك ما يعرفه المؤرخون باسم الإمبراطورية الآشورية الجديدة . وقد مات ابنه شلمنصر الرابع (سفر الملوك الثانى ١٧ — ٣) أثناء حصار ساماريا ، وخلفه مغتصب حاول ولا شك أن يتملق عواطف البابليين ومشاعرهم فأطلق على نفسه اسما أكاديا سومريا قديما هو سرجون الثانى .

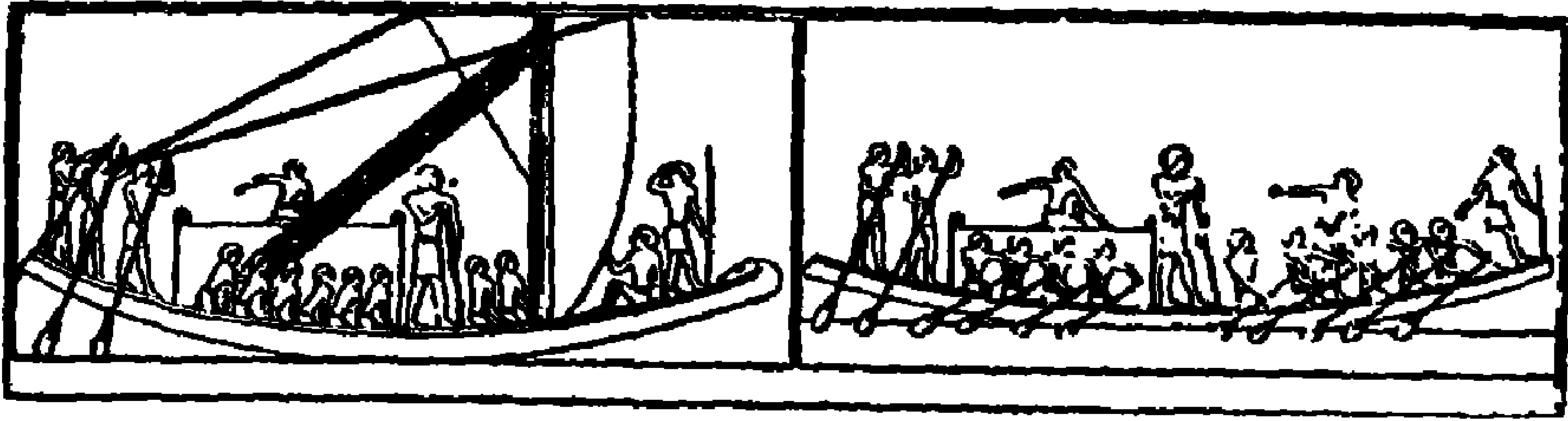
ويلوح أنه زود القوات الآشورية لأول مرة بأسلحة حديدية ، ويرجح أن سرجون الثانى هو الذى نفذ فعلا نقل القبائل العشر التى كان تجلات بلسر الثالث قد أمر بإبعادها .

وقد أصبح مثل هذا النقل للسكان من أبرز ما تمتاز به الأساليب السياسية فى الإمبراطورية الآشورية ، فإن شعوبا بأكملها من العسيرة القياد فى موطنها الأصلى كانت تنقل جملة إلى مناطق غير مألوفة لها ، وبين جيران مجهولين ، إلى حيث ينحصر كل أملها فى البقاء ، فى الانقياد والطاعة للسلطان الأعلى .

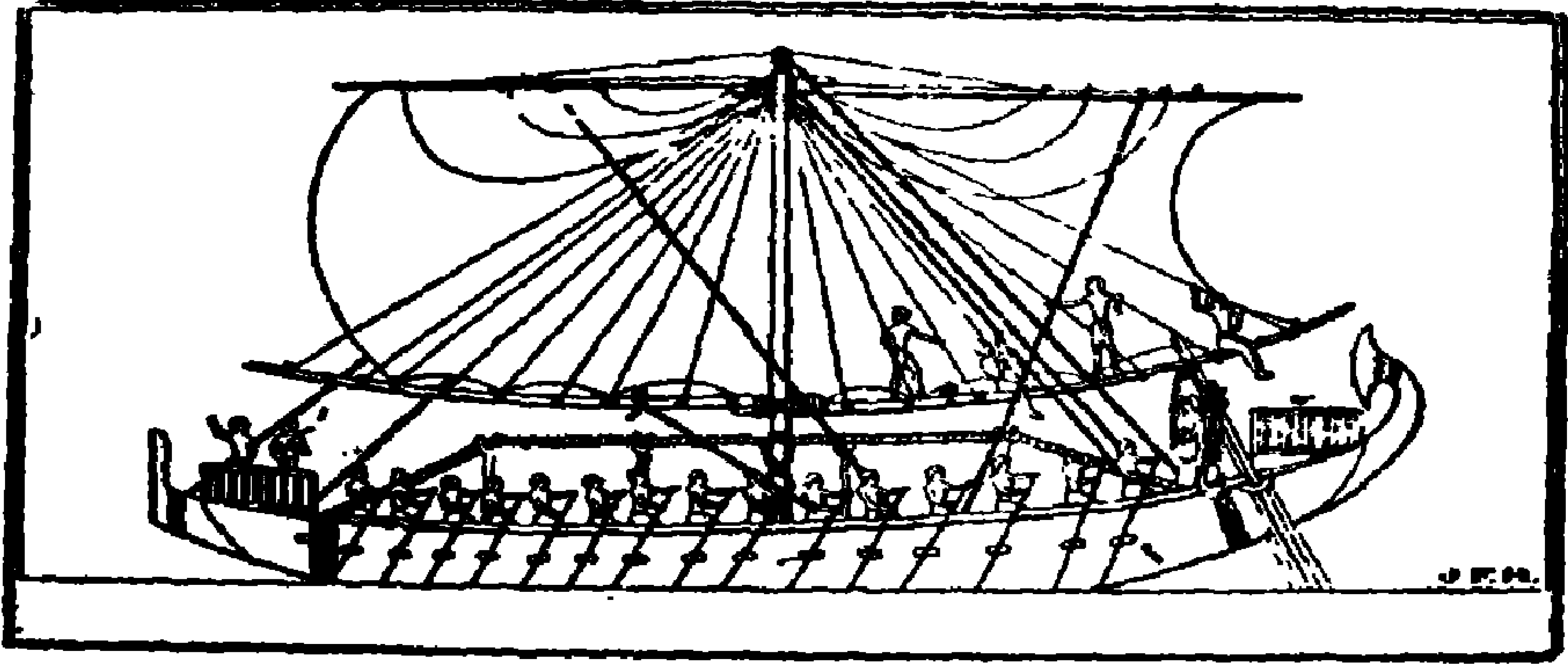
وقاد سناخريب بن سرجون جيوش الآشوريين إلى تخوم مصر . ولكن أصيب جيشه بالطاعون ، وهى كارثة جاء وصفها فى الإصحاح التاسع عشر من سفر الملوك الثانى فى الكتاب المقدس :

« وكان فى تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفا . ولما بكروا صباحا إذ هم جميعا جثث ميتة . فانصرف سناخريب ملك آشور ، وقفل راجعا وأقام فى نينوى ، وهناك حيث قتله أبناؤه » .

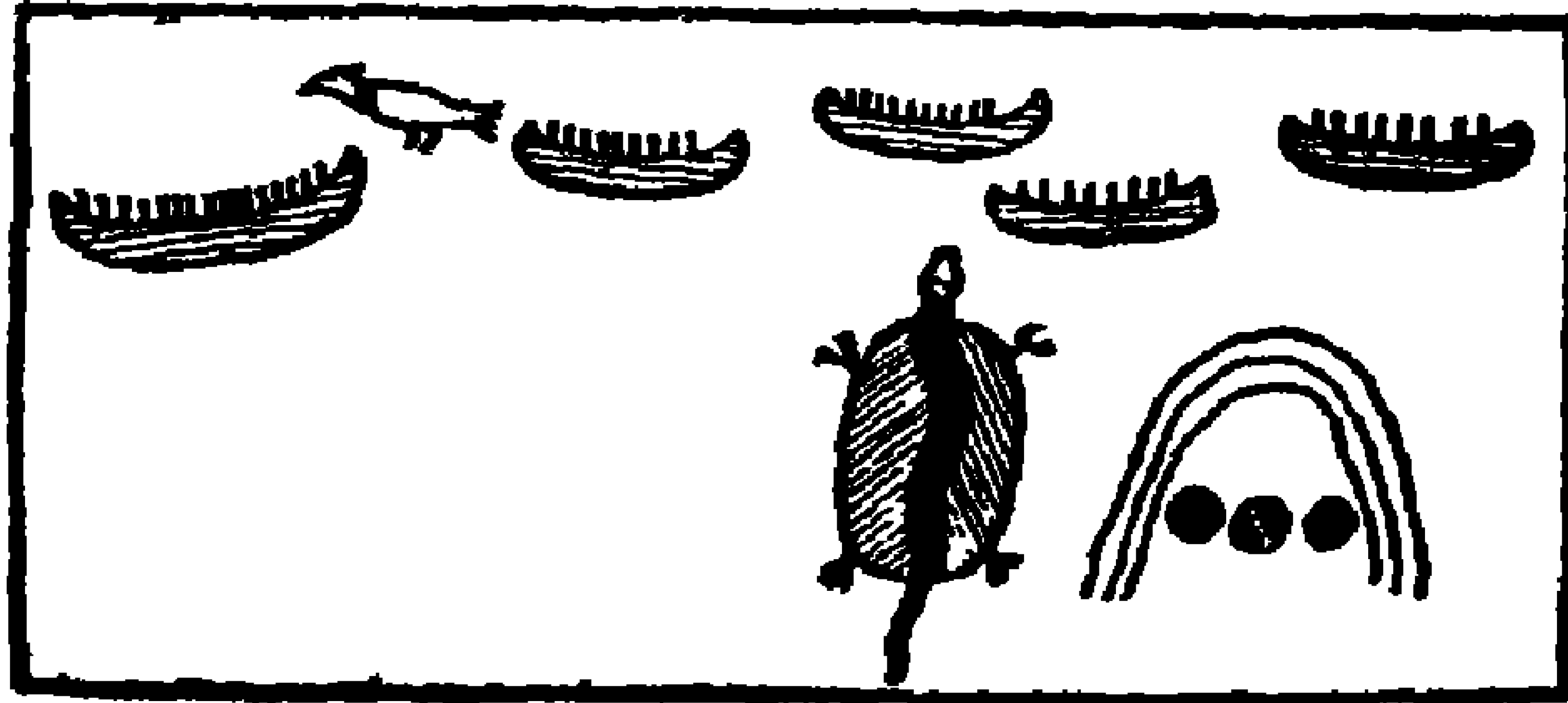
وأخيرا وفق حفيد سرجون المسمى آشور بانيبال ، ويطلق عليه الاغريق اسم « ساردانا بالوس » فى فتح مصر ، وفى استبقاء الدلتا فى يده بعض الزمان .

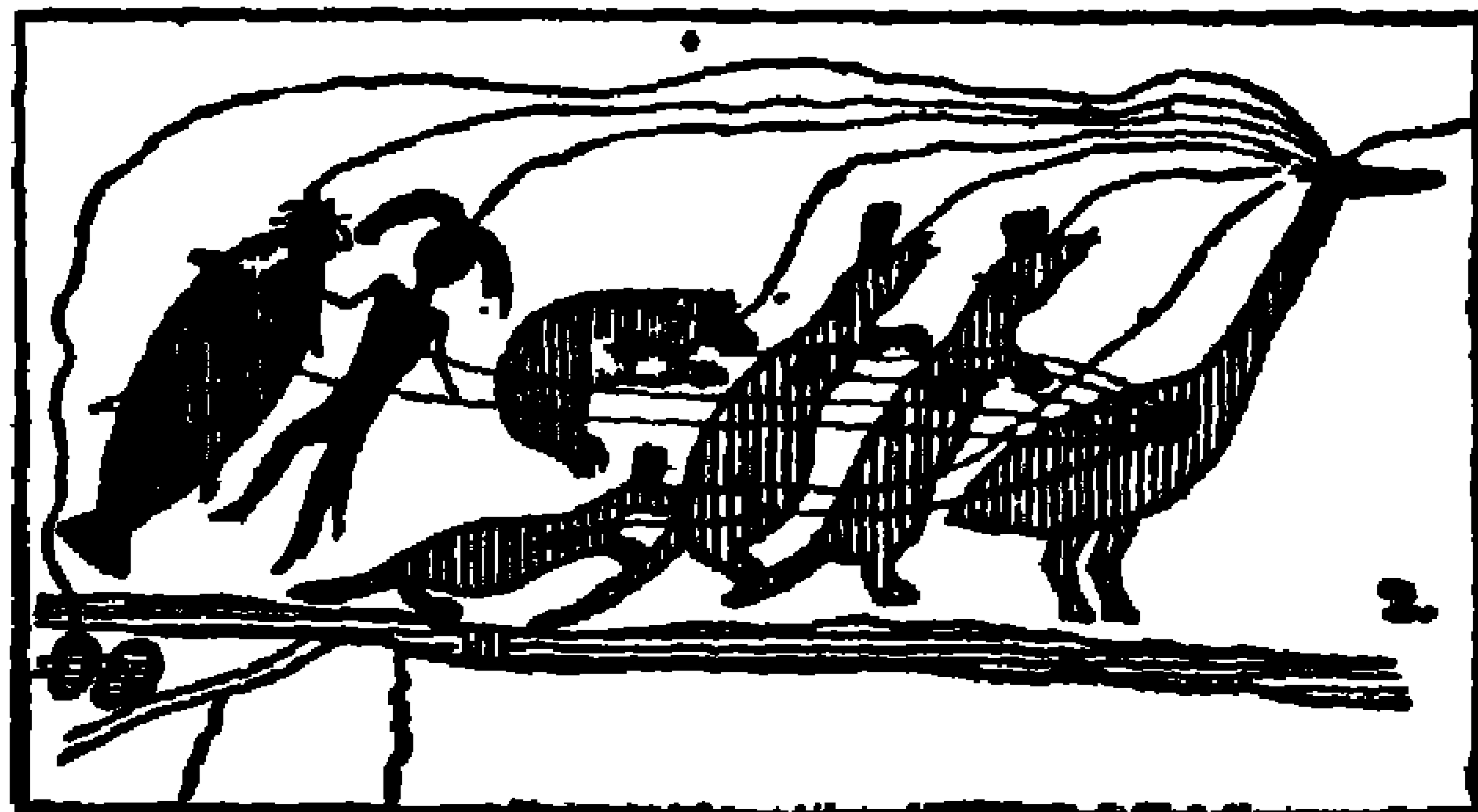


(٤٣) زوارق فى النيل (حوالى ٢٥٠٠ ق . م)



(٤٤) سفينة مصرية فى البحر الأحمر (حوالى ١٢٥٠ ق . م .)





(٤٥) عينات من « الكتابة بالصور » الهندية الأمريكية



(٤٦) تمثال من كنوصوص مصنوع من القايانس ويمثل متعبدة للثعبانة الربة

٣ — (هـ) الامبراطورية الكلدانية

لم تدم الامبراطورية الآشورية بعد سرجون الثانى سوى مئة وخمسين سنة . فإن قوما من الساميين الرحل هم (الكلدان) زحفوا من الجنوب الشرقى يساعدهم من الشمال شعبان من الناطقين باللغات الآرية ، هما الميديّون والفرس ، فاتحدوا جميعا عليها واستولوا على نينوى ٦٠٦ ق . م . وهذه هى أول مرة تظهر فيها الشعوب الناطقة بالآرية فى تاريخنا هذا . إذ انسابوا جنوبا منطلقين من السهول والغابات الشمالية والشمالية الغربية ، وكانوا يتألفون من مجموعة من قبائل شديدة البأس ، حربية النزعة . سار بعضها فى اتجاه جنوبى شرقى إلى الهند حاملا معه إحدى اللهجات الآرية التى تطورت فيما بعد ، فأصبحت اللغة السنسكريتية ، واتجه البعض الآخر صوب المدنيات القديمة . وكانت القبائل الرحل الغازية للأراضى الزراعية حتى ذلك الحين هى العيلامية والسامية . أما الآن فإن الآريين هم الذين تسلموا زمام الفتح والحكم طوال ستة قرون أتت . واختفى العيلاميون بعد ذلك من مسرح التاريخ .

وقد استمرت الإمبراطورية الكلدانية بعاصمتها بابل ، أى الامبراطورية البابلية الثانية ، تحت حكم (بختنصر) العظيم (بختنصر الثانى) وخلفائه حتى ٥٣٨ ق . م حين انهارت أمام هجمات كورش Cyrus مؤسس الدولة الفارسية . . . .

وعلى هذا النحو تستمر القصة ، فى ٣٣٠ ق . م كما سنوضح لك فيما بعد فى شىء من الإسهاب يقف فاتح إغريقى هو الإسكندر الأكبر متأملا فى جثة آخر ملوك فارس .

وقصة حضارة الدجلة والفرات التى قدمنا لك عنها حتى الآن هيكلا مجردا ليس غير ، إنما هى قصة غزو يعقب غزوا ، ويستبدل كل غزو منها بالحكام السابقين والطبقات الحاكمة السابقة آخرين جددا : وبذلك تبتلع شعوب من أمثال السومريين والعيلاميين ، وتندثر لغاتهم ، ويختلطون بالأجناس الأخرى ويفنون فيها . ويتلاشى الاشوريون ويصبحون كلدانا وسومريين ويفقد الحيثيون مميزاتهم ، وينزل الساميون الذين ابتلعوا السومريين عن مكانهم لحكام هذه القبائل الآرية القادمة من الشمال ، ويظهر الميديون والفرس فى محل العيلاميين ، وتتسلط اللغة الآرية الفارسية على الإمبراطورية حتى تطردها اللغة الإغريقية الآرية من الحياة الرسمية .

وفى غضون ذلك لا ينفك الحراث يدأب على عمله فى تلك البلاد سنة بعد أخرى ، فتجمع المحاصيل ، ويبنى البناءون مايؤمرون ببنائه ، ويشتغل الصناع مكتسبين طرائق جديدة ، وتنتشر

المعرفة بالكتابة ، وتستقدم أشياء جديدة هى الحصان والعجلة ذات الدواليب والحديد ، وتصبح بأجمعها جزءا من ميراث الجنس البشرى المستديم . ويزداد جرم التجارة فى البحر والصحراء ، وتتسع أفكار الناس وينمو العرفان . وترزأ البلاد بنوازل التأخر الرجعى والمذابح والأوبئة ، ولكن القصة فى جملتها قصة زيادة واتساع . وقد استمر هذا الوليد المسمى بالمدنية الذى أرسى جذوره فى أرض الرافدين ، ينمو طوال أربعة آلاف من السنين ، كما تنمو الأشجار ، تفقد آونة غصنا ويعبث بها الاعصار آونة أخرى ، ولكنها دائبة النمو ، مواظبة على العودة إلى النمو إذا عسفتها الأيام . وربما تبدل الوليد بأصحابه وجنسه غيرهم ، وربما تبدل بلغته سواها ، ولكن التطور ظل فى جوهره هو نفسه لا يتغير . وبعد أربعة آلاف من السنين كان المحاربون والغزاة لا يبرحون يذهبون ويجيئون فوق ذلك الشيء النامى الذى لم يكونوا يفقهون له معنى ، ولكن الناس كانوا عند حلول ذلك الزمان (٣٣٠ ق م) قد عرفوا الحديد والخيل والكتابة والحساب والنقود ، وكشفوا ضروبا مختلفة من الأطعمة والأقمشة والمعرفة بالعالم ، تزيد كثيرا عما كان يعرفه السومريون القدماء .

ولنتذكر أن الزمان الذى انقضى فيما بين امبراطورية سرجون الأول وبين فتح الإسكندر الأكبر لبابل ، يعادل فى امتداده على أقل التقديرات ، الزمن الذى انقضى منذ عصر الإسكندر الأكبر إلى يومنا هذا ، وأنه قبل زمن سرجون الأول كان الناس قد استقر بهم المقام فى الأراضى السومرية ، فكانوا يعيشون فى مدن ، ويتعبدون فى معابد ، ويتبعون عيشة زراعية منتظمة ، فى مجتمع منظم طوال مدة أخرى لا تقل عما ذكرنا لك ، وكانت المدن : « إريدو ولاجاش وأور وإيسين ولارسا » بلادا لها ماض سحيق يسبق بداية التاريخ الذى يظهر فيه اسمها لأول مرة .

ومن أشق الأمور على كاتب التاريخ وطالبه أن يدركا معنى هذه الفترات الزمنية ، ويحولا دون تقاصر هذه العصور أمام ذهنيهما عما يتخيلانه لها من صورة منظورة . فإنك تجد نصف عمر المدنية الإنسانية ومفاتيح كل نظمها الرئيسية قبل زمن سرجون الأول . وفضلا عن ذلك فلن يستطيع القارئ فى غالب الأحوال أن يوازن بين تدرج التواريخ فى هذه الصفحات الأخيرة المكتظة التى يحتويها تاريخ الإنسان ، وبين تعاقب ما لا يقع تحت حصر من أجيال يشهد بها ما أوردناه من رسوم بيانية وزمنية . والرسم البيانى الزمنى الوارد فى آخر الكتاب الثالث يدل على الفترات الشاسعة فى تعاقب الإمبراطوريات الأولى فى آسيا .

(٣) مصر فى العصور القديمة

كانت تتمشى مع البدايات القديمة للمدنية فى بلاد سومريا عملية مماثلة تحدث فى مصر ، ولا يزال موضوع هذه العملية موضع نقاش يدور حول أيهما أقدم من الأخرى ؟ أو إلى أى حد كانت كلتاهما تستقى من مصدر واحد مشترك ؟ أو أيهما كانت تستقى من الأخرى ؟

وليست قصة « وادى النيل » منذ بزوغ فجر ما يمكن اقتفاء أثره من تاريخه ، حتى زمن الإسكندر الأكبر ، بعيدة الشبه كثيرا عن تاريخ بابل ، ولكن بينما كانت بابل موطأة الأكناف للغزو من كل جانب ، كانت مصر بمنجاة من الأعداء بما قيض الله لها من صحراء فى غربها وصحراء وبحر فى شرقها ، على حين لم يكن يجاورها جنوبا غير شعوب من الزنج . وعلى ذلك فقد كفى تاريخها شر من يقطع عليه سبيله من غزوات الأجناس الغريبة ، أكثر مما كفى تاريخ آشور وبابل ، فظلت حتى قبيل القرن الثامن ق . م (عند ما وقعت فى قبضة أسرة ملك نوبى Ethiopian) ، كلما ورد حياضها فاتح ، كان مجيئه من آسيا بطريق برزخ السويس .

وآثار العصر الحجرى فى مصر ذات تاريخ غير محقق تماما ، فهناك بقايا ترجع للعصر الحجرى القديم أى الباليوليثى ، ومن بعدها أخرى ترجع للعصر الحجرى الحديث أى النيوليثى .

وليس محققا أن يكون هؤلاء الأقوام الرعاة النيوليثيون الذين تركوا هذه البقايا ، هم الأسلاف المباشرين للمصريين الذين خلفوهم ، فإنهم يختلفون تمام الاختلاف عمن خلفهم من المصريين فى كثير من الأوجه ، إذ كانوا يدفنون موتاهم ، ولكنهم قبل أن يواروهم التراب كانوا يقطعون أجساد الموتى إربا ، والظاهر أنهم كانوا يأكلون أجزاء من لحمهم ، ولعلهم فعلوا ذلك عن شعور احترام منهم للراحلين ، فكان الموتى « يؤكلون للتكريم » . على حد تعبير السير فلندرز بترى . وربما كانت حقيقة الأمر أن الأحياء أحبوا أن يحتفظوا بهذه الوسيلة ، ببضعة من الفضيلة والقوة التى قضت نحبها فى أشخاص موتاهم !! وقد وجدت آثار تدل على عادات وحشية مماثلة لهذه فى القبور المستطيلة التى كانت متناثرة فى غرب أوربا قبل أن تنتشر فيها الشعوب الآرية ، وقد شملت كذلك أفريقيا الزنجية ، ولم تأخذ فى الانقراض هناك إلا فى العصر الحاضر .

وتنتهى آثار هؤلاء الأقوام البدائيين حوالى سنة ٥٠٠٠ ق . م أو قبل ذلك ، وعندئذ يظهر المصريون الحقيقيون على المسرح .

وكان الأقوام السابقون من بنـاة الأكواخ ، وهم على حال من الثقافة النيوليثية منحطة الدرجة نسبيا ، وكان الآخرون قوما نيوليثيين متمدينين يستعملون مبانى من الطين والخشب بدلا من الخصاص التى كان يأوى إليهـا سابقوهم ، وكانوا يقطعون الأحجـار وينحتونها ، وسرعان ما انتقلوا إلى عصر البرونز . وكانت لهم كتابة قوامها الصور تكاد تضارع فى تقدمها مايعاصرها من كتابة السومريين ، وإن اختلفت عنها فى خصائصها . وربما كانت هناك غزوة قام بها شعب جديد جاء من بلاد العرب بطريق عدن ، فنزلوا فى مصر العليا وأخذوا يهبطون رويدا رويدا إلى دلتـا النيل . وقد كتب عنهم الدكتور واليس بدجWallis Budgeيصفهم بأنهم « غزاة من الشرق » . ولـكن آلهتهم وطرائقهم كانت ككتاباتهم التى تقوم على الصور مختلفة فعلا عما كان لدى السومريين . فكان أحد أشكال أوائل آلهتهم المعروفة ، هو شكل للإله فرس البحر ، ومن ذلك تتجلى سمتها الافريقية البارزة .

وليس طين النيل ناعما لزجا كطين بلاد سومر ، ولذلك لم يستعمله المصريون فى شئون الـكتابة ، بل تراهم لجأوا من عهد مبكر إلى شرائح قصب البردى ، يثبتونها بعضها فوق بعض ، ومن اسمها الإفرنجى Papyrus تشتق كلمة Paper التى يطلقها الإنجليز على الورق . وكانت الـكتابة الآشورية تكتب بقلم أو خاتم مصوغ بهيئة تجعله يترك أثرا يشبه شكل الأوتاد ، بينما الـكتابة المصرية تكتب بالمرقاش (الفرشاة) ، ونحن مدينون لهذا المرقاش بما لهذه الـكتابة من قوة تعبير تعلو على قوة تعبير الـكتابة الاشورية بكثير .

والمعالم الإجمالية فى تاريخ مصر أبسط منها فى تاريخ أرض الجزيرة ، وقد جرت عادة المؤرخين من زمن مديد بأن يقسموا حكام مصر إلى أسرات متعاقبة ، فمن المألوف عند التكلم عن عصور التاريخ المصرى أن يتحدث الناس عن الأسرة الأولى أو الرابعة عشرة وهكذا وقد غزا المصريين الفرس بعد استقرار أولئك فى بابل . ولما صارت مصر آخر الأمر غنيمة للاسكندر الأكبر (٣٣٢ ق . م) انتهت منها حينذاك الأسرة الحادية والثلاثون .

ونستطيع هنا أن نلاحظ أدوارا إجمالية معينة للتطور فى ذلك التاريخ الطويل الذى أمتد أربعة آلاف سنة أو تزيد . فهناك دور يعرف باسم «الدولة القديمة» ابتدأ بتوحيد المملـكتين الشمالية والجنوبية ، على يد مينا ، وبلغ أوجـه إبان الأسرة الرابعة . وتسجل هذه الأسرة عصر ميسرة وفخامة ، وتغلب على ملوكها شهوة إقامة الآثار لأنفسهم إلى حد لم يتهيأ لرجل قط من قبلهم أو بعدهم أن تسنت له فرصة لإظهاره وإشباعه ؛ فخوفو (الذى عاش ٣٧٣٣ ق . م حسب تقدير واليس بدج) ، وخفرع ، ومنقرع ، من ملوك الأسرة الرابعة ، هم الذين شادوا

تلك الأكوام الهائلة من الأحجار وأعني بها أهرام الجيزة : الأكبر ، والثاني ، والثالث . ويبلغ ارتفاع الهرم الأكبر أربعمئة وخمسين قدما وطول جانبه سبعمئة قدم . ويقول واليس بدج أن وزن الهرم يقدر بـ ٤٫٨٨٤٫٠٠٠ طن وقد سحب كل هذا الحجر إلى موضعه بالسواعد والعضلات الإنسانية فى الغالب واستنفدت هذه الأكوام الناووسية التى لا معنى لها ، والتى لها حجم هائل لا يكاد الناس يصدقونه ، والتى بنيت فى عصر لم يكد فيه علم الهندسة يولد ، استنفدت كل موارد مصر إبان حكم طويل لثلاثة ملوك ، وتركها منهوكة القوى كأنما هى خارجة من إحدى الحروب .

وقصة مصر من الأسرة الرابعة إلى الخامسة عشرة إنما هى قصة نزاع بين عواصم تتبادل السلطان ، وبين ديانات تتنافس النفوذ ، كما هى قصة عصر تفرقت فيه كلمة الدولة ، فأصبحت آونة ممالك شتى ، وآونة ممالك متحدة ، فتاريخها فى ذاك الزمان تاريخ داخلى إن صح لنا هذا التعبير . وكثيرا ما يطلق على هذه الفترة « عهد الإقطاع » . ونستطيع هنا أن نذكر لك اسما واحدا ليس غير من بين ذلك العدد العديد من الفراعنة ، وأعنى به « بيبى الثانى » الذى امتد حكمه تسعين سنة (وهى أطول مدة حكمها ملك فى التاريخ) ومات مخلفا وراءه عددا وفيرا من النقوش والمبانى . وأخيرا حدث لمصر ما طالما حدث للمدنية فى أرض الجزيرة ، إذ غزاها بعض الساميين الرحل وأسسوا فيها أسرة من الرعاة المعروفين بالهكسوس ، وهى الأسرة السادسة عشرة ، التى نهض المصريون فطردوها آخر الأمر . ومن الراجح أن يكون ذلك الغزو قد حدث يوم بلغت الإمبراطورية البابلية الأولى التى أسسها حامورابى ، ذروة أزدهارها ، على أن التوافق الدقيق فى التواريخ بين مصر وبابل أثناء العصور الأولى لا يزال موضع الشك والريبة ، وحدثت بمصر ثورة عامة تمكنت من طرد هؤلاء الأجانب مرة أخرى ولكن بعد استعباد طال أمده ، فقد توحدت مصر على كراهية هؤلاء الأجانب .

وبعد حرب الحرية والاستقلال هذه (حوالى ١٥٠٠ ق . م) مرت مصر فى عهد كله يسر ورخاء ، هو عصر « الإمبراطورية الحديثة » . أصبحت مصر دولة حربية عظيمة متحدة ، فدفعت بحملاتها آخر الأمر حتى الفرات ، وبهذا ابتدأ الكفاح الذى دام طول ذلك العصر بين مصر والدولة البابلية الأشورية ، وكانت كلتا الدولتين تبدو حتى ذلك الحين أبعد شقة من أن تشتبك إحداهما مع الأخرى فى حرب ، ولكن قدرة الإنسان على الانتقال كانت قد بلغت إذ ذاك حداً يمكن جيوشا بأسرها من السير من دولة أحد الأنهار العظمى إلى الأخرى .

استمرت مصر زمنا فى هذا الصراع ، وهى صاحبة اليد العليا ، فامتدت المملكة التى يحكمها تحتمس الثالث وامنحتب الثالث (من ملوك الأسرة الثامنة عشرة) من النوبة إلى نهر الفرات ، فى القرن الخامس عشر ق . م . وهناك أسباب متعددة أتاحت لهذين الملكين امتيازا عظيما غير عادى فى سجل التاريخ المصرى ، فقد كانا من أشد الملوك ولعا بإقامة المبانى ؛ خلفا آثارا ونقوشا جمة . فأسس أمنحتب الثالث الأقصر ، وزاد كثيرا فى بناء معبد الكرنك . وقد عثر فى تل العمارنة على مجموعة من الرسائل الملكية التى تبودلت بينه هو وابنه وبين عواهل بابل والحيثيين ، وملوك آخرين ، من بينهم « تشراتا » (صاحب ميتانى) الذى استولى على نينوى . وتلقى هذه الرسائل فيضا من الضوء على الأحوال السياسية والاجتماعية لذلك العصر الممتاز . ولدينا من مسهب القول عن أمنحتب الرابع ما سنورده لك فيما بعد ، ولكن ليس لدينا متسع للكلام لك عن واحدة من أشد حكام مصر مقدرة خارقة ، وهى الملكة « حتشبسوت » وتمثلها رسومها الواردة على آثارها ، فى ثياب الرجال ، وتصورها بلحية طويلة ترمز إلى العقل والحكمة .

ثم حدث من بعد ذلك غزو سورى لمصر دام فترة وجيزة ، وتعاقبت على مصر سلسلة من أسرات متغيرة ، نخص بالذكر منها الأسرة التاسعة عشرة ، التى منها الملك رمسيس الثانى وهو من المولعين بإقامة المعابد ، حكم مصر سبعة وستين سنة (حوالى ١٣١٧ إلى ١٢٥٠ ق.م) ويظن البعض أنه فرعون موسى . ونذكر أيضا الأسرة الثانية والعشرين التى منها الملك شيشنق وهو الذى نهب هيكل سليمان (قرابة ٩٣٠ ق.م) . وجاء فتح نوبى من أعالى النيل جنوبا فأسس الأسرة الخامسة والعشرين وهى أسرة أجنبية [1] سقطت ٦٧٠ ق.م قبل قيام الإمبراطورية الآشورية الجديدة التى بدأها تجلات بلسر الثالث ، وسرجون الثانى ، وسناخريب وهى الإمبراطورية التى ذكرناها لك آنفا . ولأول مرة فى التاريخ سيطرت بابلونيا على وادى النيل .

وكانت سطوة مصر على الأمم الأجنبية قد أشرفت أيامها على النهاية ، ثم عاد الحكم الوطنى إلى مصر ردحا من الزمان أيام (ابسماتيك الأول) من ملوك الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٤ — ٦٠٠ ق.م) واسترد نخاو الثانى الممتلكات المصرية فى سوريا حتى نهر الفرات ، بينما كان الميديون والكلدانيون يهاجمون نينوى ولكن انتزعت هذه المغانم من نخاو الثانى

(١) يشير المؤلف إلى استيلاء بعنخى على مصر سنة ٧٣٠ ق.م والواقع أن بعنخى كان يجرى فى عروقه دم الفراعنة .

بعد سقوط نينوى ودولة الأشوريين إذ انتزعها الملك الكلدانى العظيم « بختنصر الثانى » وهو بختنصر المذكور فى التوراة . وقد أسر هذا الملك اليهود — وكانوا حلفاء لنخاو الثانى وحملهم إلى بابل كما سنرى فيما بعد .

ثم سقطت فى القرن السادس ق.م فى يد الفرس كما كانت قد سقطت كلديا وما لبثت أن حكمها بعد ذلك الأجانب الذين ابتدأوا بالأغريق ومن تلاهم من الرومان ، ومن عقبهم من العرب ، والترك والبريطانيين ، حتى عصر شبه الاستقلال الذى تنعم فيه الآن .

هذا هو تاريخ مصر فى ايجاز منذ بداياته ، فهو فى أول أمره تاريخ عزلة ، أخذ يتزايد فيه أمر الاختلاط بشئون الشعوب الأخرى ، حين كانت سهولة وسائل المواصلات تدفع بالشعوب رويدا رويدا إلى أن يؤثر بعضها فى البعض الآخر تأثيرا وثيقا .

٤ — مدنية الهند القديمة

إن التاريخ الذى نحن فى حاجة إلى سرده هنا عن الهند أبسط وأهون حتى من هذا الذى ذكرناه بايجاز عن مصر . فإن الشعوب الدرافيدية التى سكنت وادى الكنج سارت فى تقدمها اشواطا تتمشى وتلك التى قطعتها المجتمعات السومرية والمصرية . إذ عثر فى شمال الهند على أختام تشبه الشبه الوثيق مثيلاتها فى سومر . ولكن تحوم الشكوك حول تمكن المجتمعات الهندية المبكرة من الوصول إلى مثل تلك المرحلة العالية من مراحل التطور الاجتماعى التى وصلت إليها سومر ومصر . فإنهم تركوا من بعدهم آثارا قليلة العدد ، ولم يحدث قط أنهم أنتجوا أى ضرب من ضروب الكتابة . ولا يبدو أنه حدثت فى تلك العصور القديمة أى غزوات سامية لبلاد الهند .

وفى عصر يقارب عصر حامورابى ، أو يعقبه ، انحدر فرع من الشعوب المترحلة الناطقة باللسان الآرى ، وكانوا آنذاك يحتلون شمال فارس وأفغانستان ، انحدروا متسللين فى الممرات الشمالية الغربية إلى الهند ، وكانت صلة قرابتهم وثيقة بأسلاف الميديين والفرس .

شق هؤلاء طريقهم بأسلحتهم ، حتى سادوا كل السكان الأشد منهم سمرة فى شمالى الهند ، ثم نشروا حكمهم ، أو نفوذهم فى كل أرجاء شبه الجزيرة ولكن لم يحدث قط أن جمعتهم أى وحدة فى الهند ، فتاريخهم تاريخ ملوك وجمهوريات لا تفتر بينها الحروب .

دفعت الإمبراطورية الفارسية بحدودها إلى ماوراء نهر السند أيام توسعها بعد الاستيلاء على بابل . ثم سار الإسكندر الأكبر فيما بعد حتى وصل إلى حدود الصحراء التى تفصل

بين البنجاب وبين وادى الـكنج . ونحن نغادر تاريخ الهنـد مؤقتاً ، مكتفين بهـذا البيان المجرد .

٥ — تاريخ الصين الأول

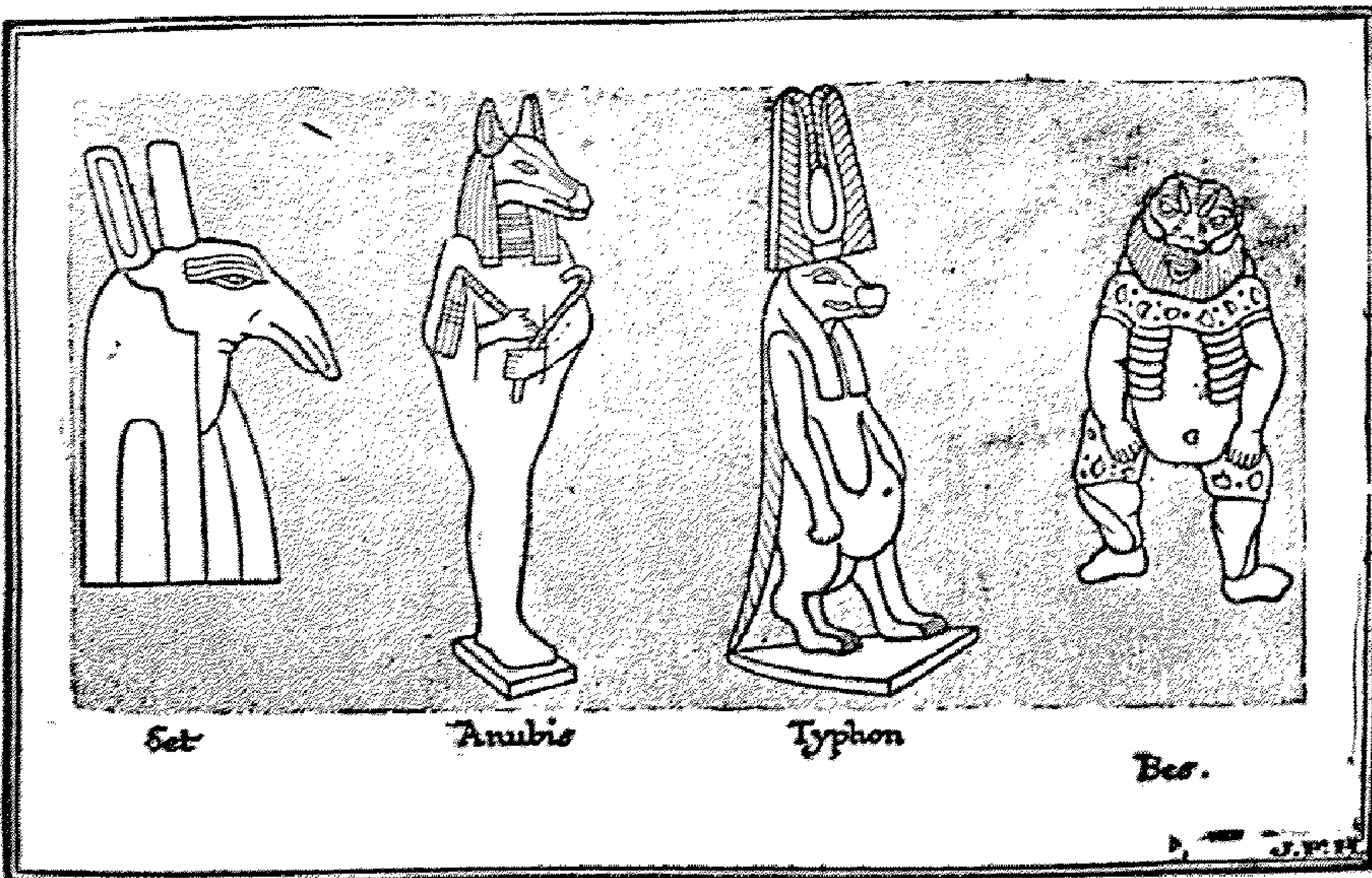
وفى غضون ذلك ، وحين كان ذلك النظام المثلث الذى قامت فيه مدنيات الجنس الأبيض ، يدرج فى الهند وفى الأراضى المحيطة بعلاق السبل بين آسيا وأفريقيا وأوربا ، كانت مدنية أخرى متميزة عن هذه ، قد أنشأت تدرج وتنتشر وتتفرع من وادى نهر التاريم — الذى كان حينذاك خصباً ، وإن كان اليوم مجدباً قاحـلا — ومن منحدرات جبـال الـكوين لن ، فى شعبتين تنحدران مع مجرى نهر الهوانج هو ، ثم تنعطفان بعد ذلك إلى وادى نهر اليانج تسى كيانج . ونحن حتى اليوم لا نعرف سوى القليل من اركيولوجية الصـين (علم الآثار القـديم بها) . وقد عثر على آلات حجرية فى نواح مختلفة من تلك البلاد ، وأصبحنا اليوم على علم بشىء من ثقافة العصر الحجرى فى ذلك الصقع من المعمورة ، من الحفائر التى تمت فى هونان ومنشوريا ، ويظهر أن هؤلاء الناس لم يكونوا يختلفون فى كثير ولا قليل عن سكان شمالى الصين الحاليين . فـكانوا يعيشون فى قرى ، وكانوا قد استأنسوا الخنزير ، وكانوا يستعملون بلطات من الحجر وسكاكين مثلثة الشكل ، ورؤوس سهام من الأردواز والعظم والصدف . وكانوا قد تعلموا الغزل ، وصنعوا الخزف ، الذى يغلب فى بعضه نفس الطراز الذى يصنع اليوم . وفيما عدا هـذه الأدلة الضئيلة ، فإن فـكرتنا الحالية عن هذه المدنية الأولى مشتقة من ذلك الأدب الصينى الذى لا نعرف عنه بعد إلا الشىء المبتور الناقص . ومهما يكن من شىء فواضح أنها كانت من بدايتها إلى نهايتها ، وفى صميم روحها مدنية مغولية . ولا توجد إلى ما بعد زمن الإسكندر الأكبر إلا آثار قليلة لا تدل على وجود أى مؤثـر آرى أو سامى ، فضلا عن حامى . وكانت أمثال هـذه المؤثرات كلها لا تزال موجودة فى عالم آخر كانت تفصله حتى ذلك الوقت جبـال وصحارى وقبائل رحالة متوحشة ، ويبدو أن الصينيين صنعوا مدنيتهم من تلقاء أنفسهم ، ومن غير معونة خارجية .

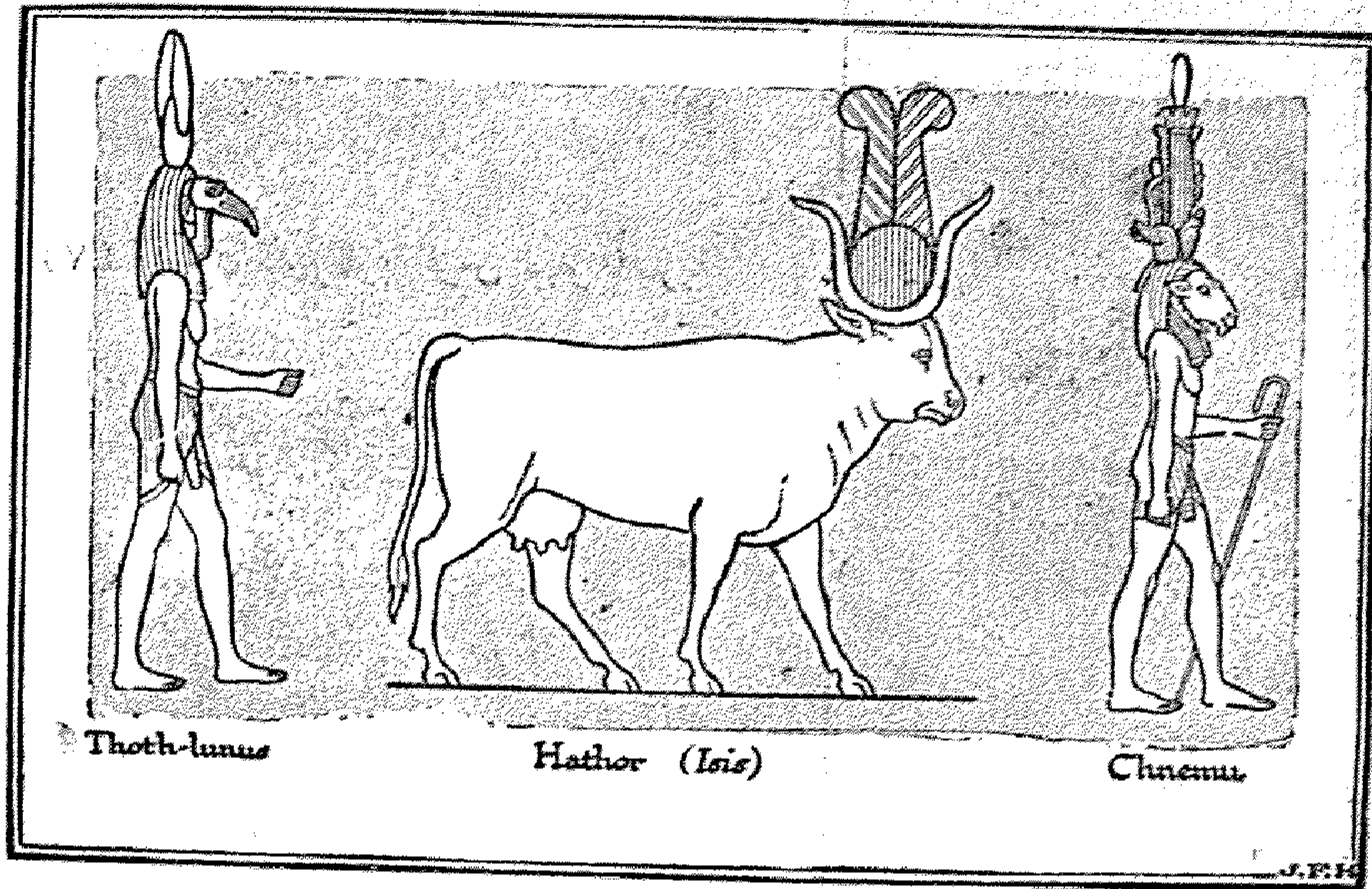
وفى الواقع يعتقد بعض الـكتاب الحديثين أنه كانت لهم علاقة بسومر القديمة ، وأن فى وجود طراز متميز خاص من طرازات الخزف المنقوش فى بعض الحفائر فى هونان شبيهة بآنية من الخزف وجدت فى مواقع قليلة قديمة بآسيا الوسطى والغربية ، وفى أوربا الشرقية ، لما يؤيد وجود علاقة ثقافية بعيدة .



(٤٧) تمثال قديم للربة فرس البحر المصرية
←

(٤٨) بعض الآلهة المصرية
(من اليمين إلى اليسار)
بس : الطروب
تيفون : زوجة أنوبيس المعروفة بالفظيعة
أنوبيس : أحد آلهة الظلام
ست : إله الظلام المصرى
↓





(٤٩) بعض الأرباب المصرية
اخنمو : الرب الخالق
زوج هكت
الربة الضفدعة
هاتور (إيزيس)
الربة البقرة المصرية
توت : رب الآداب والعلوم



← (٥٠) الملك الآشورى
ووزيره الأول

وبديهى أن كلا من الصين وسومر قامتا على أسس الثقافة النيوليثية الأولى التى انتشرت فى العالم بأسره تقريبا . ولكن تفصل بين وادى التاريم وبين الفرات عقبات كؤود من جبال وصحارى ممتدة امتدادا شاسعا . وهذا دليل على أنه لم تكن هناك هجرة ولا تبادل سكان بعد أن استقروا وطاب لهم المقام .

وربما لاقت الحركة النازحة من الشمال حركة ثقافة أخرى نازحة من الجنوب . ومدنية الصين وإن كانت مغولية بكل ما فى الكلمة من معان ، فلن يستتبع ذلك أن جذورها الشمالية ، هى أسسها الوحيدة . فلئن نمت بادئ ذى بدء فى وادى التاريم ، فإنها لم تنم متفرعة من الثقافة الهليوليثية ، على النقيض من المدنيات الأخرى كلها (بما فيها مدنيتا المكسيك وبيرو) . ونحن الأوربيين نعرف حتى اليوم الشىء القليل عن السلالات البشرية فى الصين الجنوبية وتاريخ ما قبل التاريخ فيها . فهناك يختلط الصينيون بشعوب تتصل بهم بأواصر القربى من أمثال السياميين والبورمانيين . وكأنى بهم على صلة ما بالدراڤيديين الأكثر منهم سمرة ، وبأهل الملايو .

وواضح أشد الوضوح من السجلات الصينية أنه كانت هناك بدايات للمدنية شمالية وجنوبية ، والمدنية الصينية التى تظهر بوادرها فى التاريخ ٢٠٠٠ ق . م ، إنما هى نتيجة لعملية طويلة من المنازعات والاختلاطات والتبادلات بين ثقافتين متميزتين : إحداهما جنوبية والأخرى شمالية . وربما كانت الجنوبية منهما أسبقهما إلى الوجود وأعلاهما كعبا فى التطور . وربما لعب الصينى الجنوبى مع الصينى الشمالى نفس الدور الذى لعبه الحاميون أو السومريون مع الشعوب الآرية والسامية فى الغرب ، أو الذى قام به الدراڤيديون المستقرون فى الهند حيال الآريين . وربما كان الصينيون الجنوبيون أول من زرع وأول من شاد الهياكل ولكن المعروف من هذا الفصل الجذاب من فصول ما قبل التاريخ قليل إلى حد يجعلنا لا نطيل الحديث عنه هنا بعد هذا .

وأهم الأجانب الذين جاء ذكرهم فى أسفار الصين القديمة قوم من سكان الأورال آلتاى على الحدود الشمالية الشرقية هم الهون الذين نشبت الحروب بينهم وبين بعض الأباطرة الأول . ولا يزال تاريخ الصين مجهولا لا يعرف عنه العلماء الأوربيون سوى النزر الطفيف وكل ما لدينا من علم بالسجلات القديمة ناقص أشد النقص . فهى تحدثنا أنه حكم الصين منذ حوالى ٢٧٠٠ إلى ٢٤٠٠ ق.م خمسة أباطرة يلوحون كأنهم مخلوقات مثالية إلى حد لا يكاد يتصوره عاقل .

ويعقب هؤلاء الأباطرة الخمسة سلسلة من الأسرات تأخذ الروايات عنهم فى أن تزداد ضبطاً ودقة شيئا فشيئا ، وأن تدنو إلى الإقناع كلما زادت حداثتها . وكان لزاماً على الصين أن

تنبئنا بأحداث تاريخ طويل لها ملىء بحروب الحدود ، وبأخبار صراع أعظم من تلك الأحداث خطورة بين الشعوب المستقرة والرحالة .

ولقد ابتدأ أمر الصين ، شأن سومر ومصر ، بأن كانت بلاداً تقوم فيها دويلات مدن ، فكانت الحكومة فى مبدأ الأمر حكومة ملوك متعددين ، ثم أصبحوا أمراء إقطاع مفككين تحت إمبراطور واحد كما فعل المصريون . ثم حدث بعد ذلك كما حدث فى مصر ، أن نشأت إمبراطورية مركزية . ويذكر المؤرخون أسرة شانغ (١٧٥٠ إلى ١١٢٥ ق . م) وأسرة تشاو من (١١٢٥ إلى ٢٥٠ ق . م) بوصفهما الأسرتين العظيمتين لعهد الأقطاع ، ولا تزال موجودة بعض الآنية البرونزية التى ترجع إلى هاتين الأسرتين القديمتين ، وهى آية فى الجمال فاخرة ، ولها طراز يميزها عما سواها . وليس هناك أدنى شك فى وجود حالة ثقافة عالية حتى قبل أيام شانغ .

وربما كان الشعور بالترتيب أو الاتساق الزمنى هو الدافع الذى حدا بالمتأخرين من مؤرخى مصر والصين أن يقولوا أن الأدوار الأولى لتاريخهما القوى ، نبتت تحت إمرة أسر يمكن مقارنتها بالأسرات المالكة فى الإمبراطوريات الأخيرة ، وأن يتكلموا عن أمثال مينا من الأباطرة الأولين فى مصر ، أو عن الخمسة الأباطرة الأول فى الصين .

ولقد أصابت الأسرات الأولى سلطانا أقل مركزية مما كانت تستمتع به الأسرات المتأخرة ، وكانت تلك الوحدة فى ظل أسرة شانغ وحدة دينية أكثر منها اتحادا سياسيا فعالا فكان (ابن السماء) يقدم القرابين عن كل الصينيين . وكانت هناك كتابة مشتركة ومدنية مشتركة وعدو مشترك يتمثل فى قبائل الهون النازلين على الحدود الشمالية الغربية .

وكان آخر ملوك أسرة شانغ جاهلا قاسيا أحمق ، أحرق نفسه حيا فى قصره بعد أن هزمه ووانغ مؤسس أسرة تشاو هزيمة حاسمة (١١٢٥ ق . م) . ويلوح أن ووانغ أعانه فى نصره هذا قبائل الجنوب الغربى كما أعانته ثورة شعبية .

ثم ظلت الصين ردحا من الزمان متحدة اتحادا مفككا تحت أباطرة أسرة تشاو تفكك اتحاد العالم المسيحى تحت البابوات فى القرون الوسطى . وأصبح أباطرة أسرة تشاو هم كبار كهنة البلاد التقليديين بدلا من أسرة شانغ وادعوا لأنفسهم لونا من ألوان السيادة العليا فى شئون الصين . ولكن الروابط المفككة التى ترتبط بها الأوضاع والمشاعر العامة ، وهى الروابط التى كانت تمسك أجزاء الإمبراطورية بعضها إلى بعض ، أخذت تفقد سلطانها شيئا فشيئا على عقول الناس . واتخذت الشعوب الهونية فى الشمال والغرب المدنية الصينية دون أن

يداخلهم أى إدراك لوحدتها ، وبدأ أمراء الأقطاع يعتبرون أنفسهم مستقلين .

ويذكر المستر ليانج تشى تشاو Liang Chichao ، أحد مندوبى الصين فى مؤتمر باريس ١٩١٩ فى نشرته « الصين وعصبة الأمم » (١) : « أنه كانت فى وادى نهر الهوانج هـو واليانج تسى بين القرنين الثامن والرابع ق . م مالا يقل عن خمسة أو ستة آلاف ولاية صغيرة تشرف عليها نحو اثنتى عشرة ولاية » وهو ما يسمى « عهد الفوضى » وكانت أكبر القوى المتنازعة فى القرن السادس ق . م هى تسى وتسن وهما ولايتان شماليتان فى حوض نهر الهوانج هو ثم ولاية تشو Chu وهى دولة قوية فى وادى نهر اليانج تسى . ثم تألف من الولايات اتحاد ضد ولاية تشو كان أساسا لعصبة حفظت السلام مدى مائة سنة ، وأخضعت تلك العصبة مقاطعة تشو وضمتها إليهـا وعقدت فيما بينها معاهدة عامة لنزع السلاح أصبحت أساسا لإمبراطورية سلمية جديدة .

عرف الحديد فى الصين فى وقت غير معلوم . ولـكن لم تبدأ الأسلحة الحديدية أن يشيع استعمالها إلا فى ٥٠٠ ق . م . أعنى بعد أن أصبح استعمالها أمراً مألوفاً فى آشور وفى مصر وأوربا طوال مئتين أو ثلاثمئة من السنين أوتزيد ، والراجح أن الحديد أدخل إلى الصين من الشمال على يد الهون .

وقد طرد ملوك تسن Tsin آخر الحـكام المنتمين إلى أسرة تشاو ، واستحوذوا على الركيزة البرونزية المقدسة ذات الثلاثة القوائم وهى الخاصة بالقربان واستطاعوا بذلك أن ينتحلو لأنفسهم الواجب الإمبراطورى الخاص بتقديم القرابين إلى إله السماء . على هذه الشاكلة تأسست أسرة تسن فحـكمت الصين بقوة وكان لهامن الأثر ما يزيد عما أظهرته أية أسرة سبقتها . وجرت عادة المؤرخين أن يتخذوا من حكم شى هوانج تى (ومعناها الإمبراطور العام الاول) أحد ملوك هذه الأسرة مؤذنا بنهاية الصين الإقطاعية المتفرقة الـكلمة . ويلوح أنه قام فى الشرق بدور الموحد ، وهو الدور الذى ربما كان فى الإمكان أن يقوم به الإسكندر فى الغرب ، لولا أن عاجلته منيته ، فـكانت الوحدة التى أقامها أو (أعادهـا) أدوم نسبيا ، على حين تمزقت امبراطورية الإسكندر بعد وفاته فورا كما سنوضح ذلك . وكان قيام الإمبراطور شى هوانج تى ببناء سور الصين العظيم لوقايتها من هجمات الهون ، أحد جلائل الأعمال التى قام بها فى توجيه المجهود العام . ثم تلا حكمه على الفور حرب أهلية انتهت بتأسيس (أسرة هان) .

وفى أيام أسرة هان هذه نمت الامبراطورية نمواً عظيما خرج بها عن النطاق الضيق الذى

---

(١) China and the League of Nations .

كان لها فى وادى النهرين الأصليين . وقد كفت يد الهون كفا فعالا ، وتغلغل الصينيون غربا حتى أنشأوا آخر الأمر يتعلمون شيئاً عن وجود شعوب متمدينة سواهم ، وعن وجود مدنيات غير مدنيتهم .

وما حلت ١٠٠ ق . م إلا وقد امتدت الدولة الصينية عبر التبت . ودخلت التركستان الغربية ، وحتى كان الصينيون يتاجرون بطريق قوافل الجمال مع بلاد فارس والعالم الغربى . وحسبك فى هذا بياناً مؤقتا عن الصين ، ولنا فيما بعد عودة إلى الخصائص المميزة لحضارتها .

٦ — المدنيات فى طور نموها

ماذا كان يحدث فى سائر أنحاء العالم فى أثناء تلك الآلاف من السنين التى كان الإنسان يدرج فيها خطوة فخطوة من همجية الثقافة الهليوليثية إلى أنوار المدنية فى تلك المراكز من العالم القديم ؟ إلى الشمال من هذه المراكز من نهر الرين إلى المحيط الهادى كانت الشعوب النوردية والمغولية قد أخذت هى أيضاً تتعلم كيف تستعمل المعادن كما سبق أن نوهنا بذلك ولكن فى حين أن المدنيات شرعت تستقر كان هؤلاء الرجال رجال السهول العظمى قد أخذوا يجنحون إلى الهجرة ويتطورون بحياتهم من حالة تجوال بطيئة إلى حياة ترحل موسمية كاملة .

وإلى الجنوب من المنطقة المتحضرة أى فى أفريقيا الوسطى والجنوبية ، كان الزنج يتقدمون بدرجة أبطأ ، وكان ذلك فيما يبدو تحت تأثير منبه جديد لهم هو غزو بعض القبائل الأكثر منهم بياضاً والساكنة فى بعض نواحى البحر الأبيض ، والتى حملت إليهم على التعاقب : الزراعة فاستعمال المعادن . انحدرت هذه القبائل إلى ربوع السود بطريقين : أحدهما غربى عبر الصحراء ، سلكته البربر والطوارق وأشباههما فاختلطوا بالزنج ، وأنتجوا أجناسا شبه بيضاء من أمثال الفولا ، وثانيهما بطريق النيل حيث تجد أن الباجندا مثلا وهم شعب الجاندا الذين يسكنون أوغندا ، ربما يكون فيهم بعض عناصر تنتسب إلى أصل أبيض بعيد ، وكانت الغابات الأفريقية عند ذاك أكثف منها اليوم كما كانت تمتد من النيل الأعلى نحو الشرق والشمال .

والراجح أن جزائر الهند الشرقية كانت لا تزال قبل ثلاثة آلاف من السنين لا يسكنها إلا ثلل جانحة متنزلة من الاستراليود الباليوليثيين متفرقة هنا وهناك ممن انتقلوا إليها تجوالا

أثناء تلك العصور السحيقة القدم ، حين كانت هناك قنطرة من الأرض تكاد تكون كاملة توصلهم بطريق جزائر الهند الشرقية إلى استراليا . وكانت جزائر الأوقيانوسية خالية غير مأهولة وقد جاء انتشار الشعوب الهليوليثية فى جزائر المحيط الهادى بحراً بالزوارق المعروفة بزوارق الكانو متأخراً عن هذا كثيراً ، مهما تقادم به العهد لم يتأخر عن ألف سنة ق . م .

ثم وصلت هذه الشعوب إلى مد غشقر فى وقت متأخر عن هذا أيضاً . كذلك كان جمال نيوزيلندة لا يزال مضيعاً ليس له من عيون البشر عين تجتليه . وكان أعلى أصناف الأحياء فيها طائراً عظيما يشبه النعامة هو الموا وهو اليوم من الحيوانات البائدة والكيوى الصغير الذى له ريش يشبه الشعر الخشن كما له أبسط درجة من درجات الجناح .

فأما أمريكا الشمالية فكانت بها جماعة من قبائل المنجولويد انقطعت صلتهم بالعالم القديم انقطاعا تاما . وكانوا ينتشرون نحو الجنوب فى أناءة وبطء وهم يصيدون الجاموس البرى الذى لم يكن ليحصيه عد وكان ما يزال لزاما عليهم أن يتعلموا من تلقاء أنفسهم أسرار زراعة منفصلة أساسها الأذرة ، كما أخذوا فى أمريكا الجنوبية يستأنسون اللاما ليستخدموها فى أغراضهم وأن يقيموا فى المكسيك ويوقاطان وبيرو ثلاث مدنيات منفصلة ذات طراز عجيب له مميزات خاصة به .

وعندما وصل الناس إلى الطرف الجنوبى الأقصى من أمريكا كانت حيوانات الميجاثريوم (الكسلان الهائل) وحيوان الجليبتودون وهو حيوان الأرمادللو الجبار ماتزال بين الأحياء وربما استطاعت هذه المدنيات الأمريكية البدائية أن تكون فى نهاية الأمر عونا كبيراً لنا على تفهم التطور الإنسانى ، إذ يبدو أنها حفظت لنا حتى أوان اندثارها ما انقرض من فكرات وطرائق خبرة العالم القديم قبل الميلاد بخمسة أو ستة آلاف من السنين ، مبقية عليها حتى يوم دمرها المستكشفون الأوربيون فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى . فلم يرتفع أهلها قط إلى مرتبة استعمال الحديد وكانت معدنياتهم من أبسط الأنواع وأهم معادنهم الذهب والنحاس ، يعثرون عليهما عروقا طبيعية فى بلادهم ، وكانت مصنوعاتهم الحجرية وخزفهم ونسيجهم مع ذلك فى مستوى راق جدا ، وكانوا صباغين مفرطى المهارة . وهذه المجتمعات مثلها فى ذلك مثل المدنيات البدائية البائدة من أمد بعيد فى العالم القديم — تبدى ترابطاً وثيقاً بين التضحية بالإنسان وبين عمليات أوان البذار والمحصول — ولكن على حين خفت حدة هذه الأفكار الإجتماعية الأولى فى العالم القديم وغطت عليها أفكار أخرى كثيرة فإنها

تطورت فى أمريكا إلى درجة من الشدة خارقة للعادة . والثعبان هو الرمز الغالب فى الزخارف الدينية ، ويبدو أن هذه المدنيات الأمريكية قامت فى أقطار تسلط فيها الكهنة . وكان رؤساؤهم فى الحرب وزعماؤهم فى السلم تحت سلطان قانون شديد وهاتف عاتٍ يفسر الكهنة كلماته .

وقد ارتفع كهنتهم بعلم الفلك إلى درجة عالية من الصحة والدقة ، إذ كانوا يعرفون سَنَتهم خيراً مما كان يعرفها البابليون . وأنتجت المدنية فى يوقطان نوعا من الكتابة هى الكتابة الماياوية بلغ أقصى غاية الإحكام . وإنّا لنعرف من الحد الذى وصلنا إليه من فك رموزها أنها كانت مستعملة فى تدوين التقاويم المضبوطة المعقدة ، التى كان الكهنة ينفقون فيها نشاطهم العقلى ، وبلغ الفن فى الحضارة الماياوية درجة عظيمة من الرقى ، وإن بعض ما أنتجه فن النحت البسيط فى بيرو لما يوحى إلينا بذكرى ما أنتجه السومريون . ولكن القطع الماياوية لا تشبه مطلقاً أى شىء أنتجه العالم القديم ، وهى تسمو إلى درجة عالية من الجمال التنفيذى وأقرب مثيلاتها وليست مع ذلك قريبة جداً منها ، تتبدى فى بعض المنحوتات فى جنوبى الهند . وهى تدهش الناظر بما فيها من قوة التشكيل واكتمال الصوغ ، ولكنها تربك الإنسان لما فيها من غرابة شكل تبعث على الضحك . فهى نوع من التعقيد الجنونى والخضوع للأوضاع ، ويشبه الكثير من المخطوطات الماياوية ضربا معينا من الرسم المتقن الذى يعمله بعض المجانين فى مستشفيات الأمراض العقلية بأوربا ، أكثر مما يشبه أى شىء آخر أنتجه العالم القديم ، وكأنما جاء تطور ذلك العقل الماياوى فى طريق تخالف ذلك الذى سلكه العقل فى العالم القديم . وكأنى به قد اكتسب فى أفكاره نوعا مختلفاً من الإنحراف ، وكأنما لم يكن ذهنه فى الواقع عقلا رشيداً بالضبط إذا هو قيس بمعايير العالم القديم .

ويجد هذا الربط بين تلك المدنيات الأمريكية الشاذة المنحرفة وبين فكرة وجود شذوذ وانحراف عقلى عام ، ما يدعمه فى ملازمتهم فكرة إراقة الدم الإنسانى . فقد كانت المدنية الأزتكية Aztec أى (المكسيكية) تهرق الدم فتقدم فى كل سنة آلافا من الضحايا الإنسانية . وكان فتح جوف الضحية حية وانتزاع القلب وهو لا يزال ينبض ، عملا متسلطا على أذهان هاته الكهانات العجيبة وحياتها ، وكانت الحياة العامة والحفلات الموسمية تدور كلها حول هذه الفكرة الوهمية الفظيعة الراسخة .

ولم تكن كتابة المايا محفورة فى الأحجار فحسب ، بل كانت مرقوشة بالأصباغ ومكتوبة على الرق ، وهذه المخطوطات مرسومة بألوان زاهية وبينها وبين الأوراق الرخيصة الملونة التى تباع اليوم

للأطفال فى أمريكا وأوربا شبه عجيب ، فهناك نفس التكرار فى الأشكال مع التنوع كأنما هى تروى لنا قصة من القصص . أما فى بيرو فقد استعيض عن الكتابة البدائية بطريقة تسجيل عجيبة معقدة بوساطة عقد تربط على خيط متنوعة الألوان والأشكال ، ويقال أنه حتى القوانين والأوامر كان من الميسور إرسالها بهذه الكتابة الشفرية ، وكانت هذه الحزم من الخيوط تسمى كويباس ومع أن بعض هذه الحزم لا يزال يعثر عليها فى مجموعات ، فإن فن قراءتها ضاع منا تمام الضياع . ويخبرنا المستر ل . ى تشن بأن التواريخ الصينية تذكر أن طريقة مماثلة لهذه للتدوين بالعقد كانت مستعملة فى الصين قبل اختراع الكتابة فيها وقد وصل أهل بيرو إلى عمل الخرائط واستعمال إطارات العد .

ولما أتى الأسبان إلى أمريكا لم يكن المكسيكيون يعرفون شيئاً عن أهل بيرو ، كما لم يكن أهل بيرو يعرفون شيئا عن أهل المكسيك ، ومهما تكن الروابط التى كانت موجودة بينهم — إن وجدت قط — فإنها ذهبت وعفىّ عليها النسيان . ولم يكن أهل المكسيك قد سمعوا أى شىء عن البطاطس على حين كان البطاطس مادة مهمة فى غذاء أهل بيرو ، والراجح أنه فى ٥٠٠٠ ق . م لم يكن المصريون والسومريون يعرف بعضهم عن البعض أكثر مما يعرف أهل أمريكا بعضهم عن البعض الآخر . والواقع أن أمريكا كانت متقاعسة عن العالم القديم بنحو ستة آلاف سنة .

٧ — أسطورة أطلانطس

يعتقد عدد كبير من الناس بأن هناك ما يدل على أن دولة عظيمة متمدينة قامت منذ ثلاثة آلاف سنة أو ما يقاربها ، فى المحيط الأطلسى فيما وراء مضيق جبل طارق . كانت قطرا كبيرا فسيح الأرجاء بل قارة من القارات وكانت فيها حدائق الهسبريدس وهم يستندون فى معتقدهم هذا إلى إشارات تكرر ورودها فى الأدب الأغريقى وما تلاه من أدب إلى مثل هذه الأرض المختفية . والقصة من النوع الذى قد يروق مخرجى السينما وروادها . وليس لهذا الأمر بين حقائق الجغرافيا أو علم طبقات الأرض أو علم الآثار القديمة أى سند يدعمه .

وهناك من وجيه الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنه فى عصر بعيد من الزمن الجيولوجى كانت الأرض تشغل المكان الذى تهدر فيه اليوم أمواه المحيط الأطلسى ، ولكن ليس من أدلة تثبت ، بل إن هناك أدلة كثيرة تدحض فكرة وجود أى امتداد نحو الغرب لأوربا

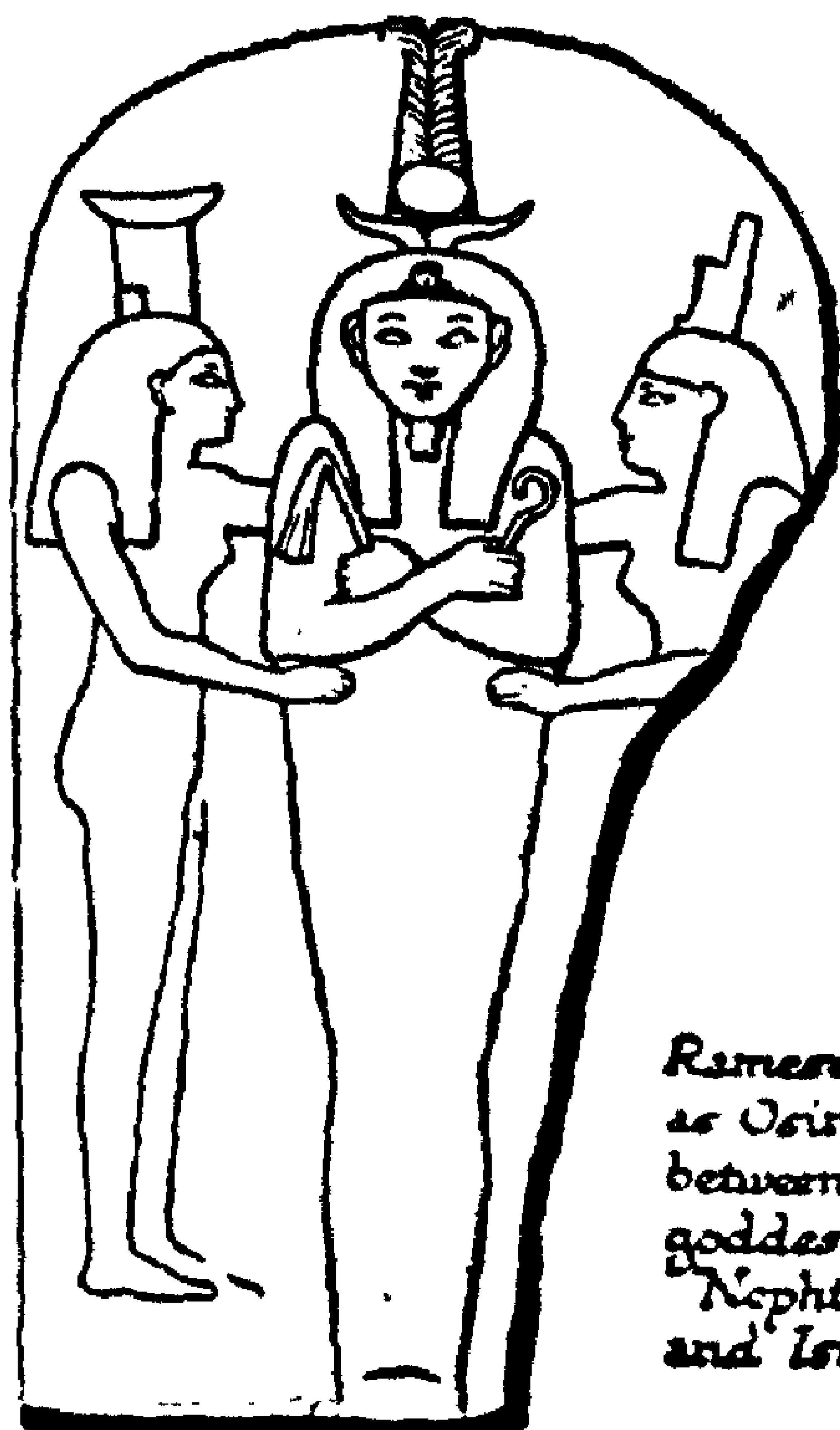
أو آسيا منذ العصر الميوسينى . ولـكن المدنيـة لا ترجع إلى أكثر من العشرين ألف سنة الأخيرة ، بل يرجح ألا يزيد عمرها عن العشرة الآلاف الأخيرة ، ولم يصبح الإنسان إنسانا إلا منذ العصر البلايوستوسينى . وبقايا الإنسان التى نجدها فى أسبانيا وافريقيا الشمالية لا تمطينا أية دلالة على وجود حالة من الثقافة فى الغرب ، ثم إن فى الأدب الإغريقى القديم فى شعر هوميروس وهسيود لجهلا تاما بوجود أسبانيا نفسها ، ولن أذكر لك المحيط الأطلسى فجهلهم به أتم وأطبق .

وقد درس المستر رچينالد فسندن هذه القصص المتعلقة بالأطلانطى دراسة دقيقة وافية واستنتج أنها تشير لا إلى أرض مفقودة فى المحيط الأطلسى بل إلى ما هو أرجح من هذا كثيرا : إلى حضارة كانت فى أحد الأيام أهم من هذا بكثير تقوم فى أصقاع القوقاز . ونحن نعرف أن المياه انتشرت ثم انحسرت فوق جنوب روسيا وفوق آسيا الوسطى إبان الفترة الإنسانية ، حتى لقد كان ما هو الآن صحارى جرداء بحارا زواخر ، وكانت هناك فى يوم ما غابات كثيفة حيث لا يكاد يوجد الآن أى عشب يكفى للقيام بأود الحياة . ولدينا الآن كل دليل يحملنا على الاعتقاد أننا سنجد فى ذلك الجزء من العالم بقايا هائلة لمدنيات قديمة . فربما تـكون سواحل البحر الأسود طغى عليها الماء فى هيئة نـكبة مروعة ، ترجع إلى تاريخ يسبق حركة الشعوب الآرية نحو الجنوب . وربما حدث هناك فجأة أن غمرت تلك الأصقاع بالمياه إذ أن مستوى سطح البحر لو ارتفع الآن خمسين قدما فحسب ، لاتصل البحر الأسود ببحر قزوين ، بل قد تتحقق النتيجة بعينها لو اتفق مرور دورة من سنين مطيرة باردة توقف التبخر على سطح هذه المياه . ونحن فى الزمن الحاضر مزودون أحسن تزويد بالخرائط ، ولدينا فى الجغرافيا نظريات وآراء بلغت من الدقة والإثبات حدا يجعل من المحال علينا أن نتخيل الغموض الذى كان يحيط بالجغرافيا حتى عنـد أوسع الناس علما وأدقهم معلومات فى الألف الثانية ق . م ، فمن اليسير أن تقلب الأقاصيص الرائمة الحافلة بالأعاجيب عن قطر مفقود كان الناس يذهبون إليه يوما بطريق الدردنيل بحرا ، إلى اتجاه مضاد حين ارتاد التجار من الفينيقيين والإغريق البحر المتوسط الغربى حتى نهايته وأن تحوّل إلى أقاصيص عجيبة عن نفس تلك الأرض التى تتحدث بها الأساطير ، وقد نقل الخيال مكانها عند ذاك إلى ما وراء البوغاز الجديد .

ومما لا شك فيه أن جورجيا بلاد أمامها احتمالات آركيولوجية عظيمة ، فإن كان مقدرا أن يعثر الناس على أى شىء له قيمة عظيمة فى علاقات المدنيات الأولى فمن المحتمل المثور عليه فى المنطقة المحصورة بين البحر الأسود والتركستان الغربية . ذلك لأن عددا مدهشا من



(٥١) الملك خفرع

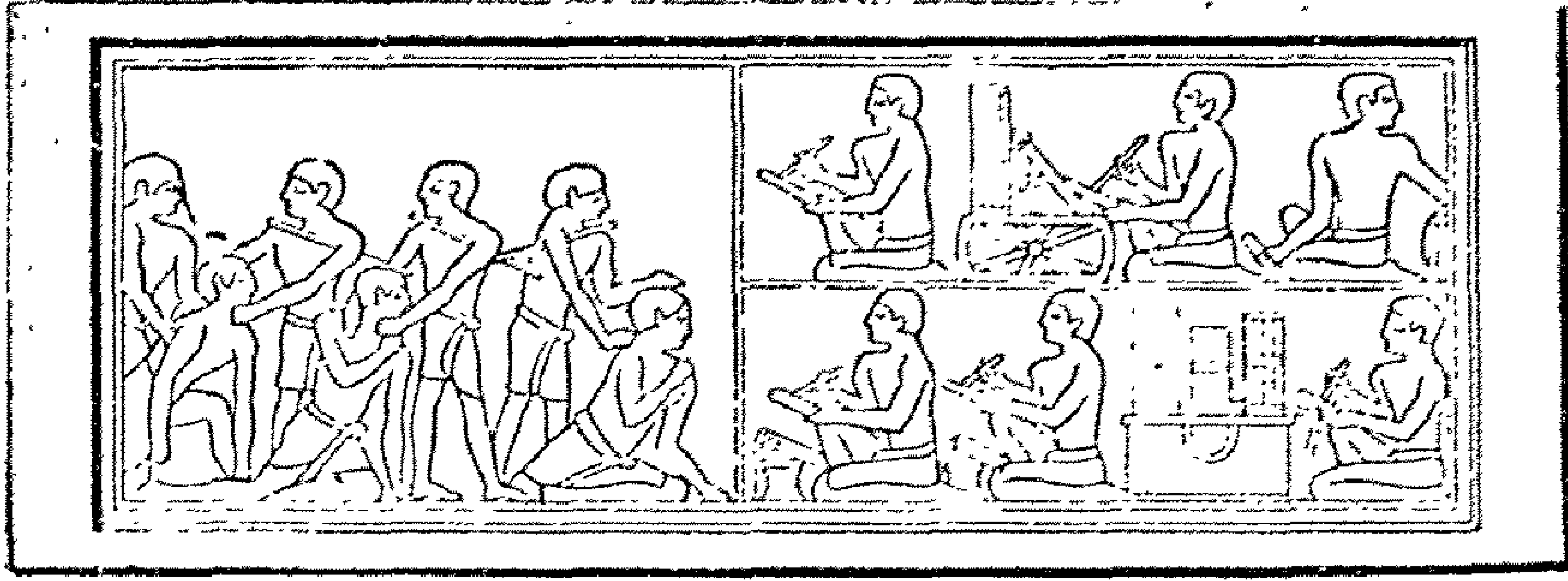


Rameses III as Osiris — between the goddesses Nephthys and Isis..

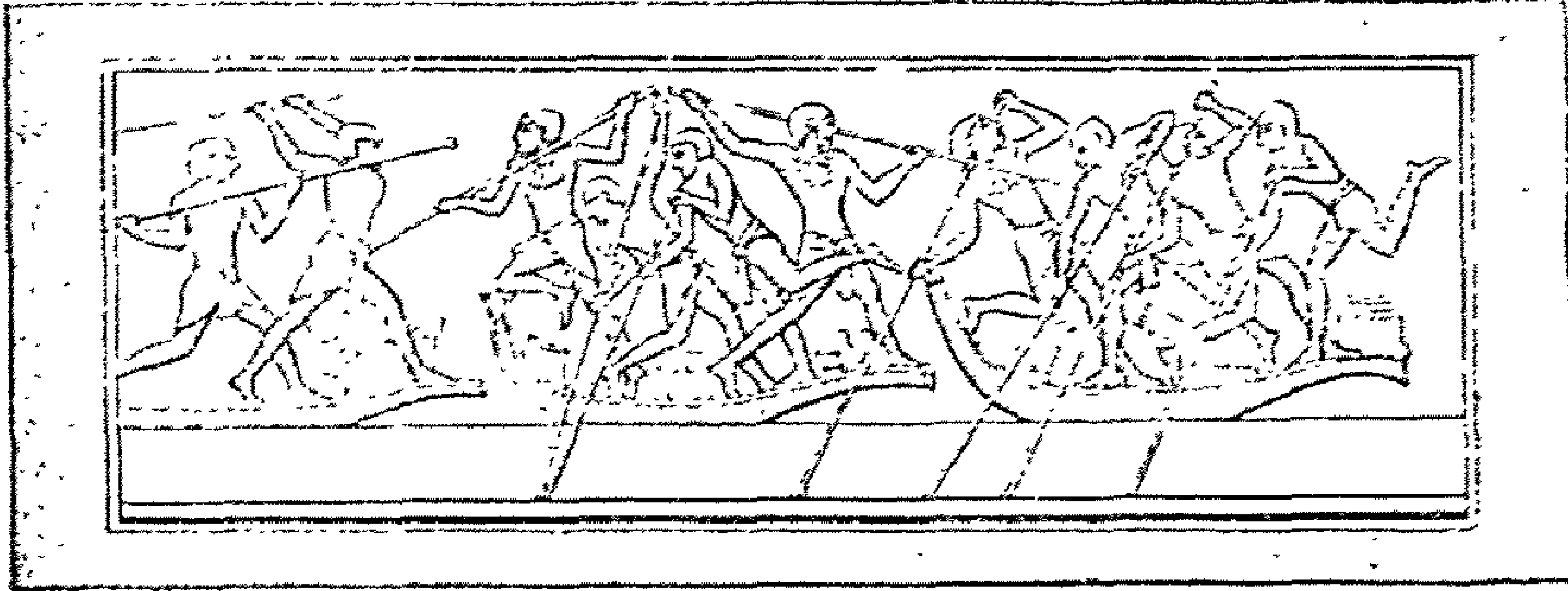
(٥٢) رمسيس الثالث بين الربتين نفتيس وإيزيس
(نقش بارز على غطاء الناووس بكمبردج)



(٥٣) أخناتون (أمنحوتب الرابع)



(٥٤) فلاحون مصريون مقبوض عليهم لعدم دفعهم الضرائب (عصر الأهرام



(٥٥) شجار بين النوتية (من قبر فتاح حتب — عصر الأهرام)



(٥٦) تماثيل صغيرة من قبور الطبقة الوسطى المصرية تمثل أفرادا من الطبقة الدنيا في المجتمعات القديمة

الحكايات الخرافية والأساطير الإغريقية تجد فى جورجيا مرتعا خصيبا — فهى أرض قصة « الجزة الذهبية » The Golden Fleece كما كانت هدف الأرجونوت[1] Argonaut ومرماهم ، وبها صفد بروميثيوس بالأغلال مع العقاب الذى كان ينهش أهم أعضائه .

وهناك عالم حجة فى علمه هو السير فلندرزبترى Flinders Petrie وهو يؤيد فكرة وجود علاقة قديمة بين كولشيس Colchis وهى الدولة الواقعة جنوبى القوقاز وبين مصر قبل التاريخ — وقد لحظ هيرودوت سلسلة من أوجه الشبه بين الكولشيين والمصريين .

(١) هم أبطال البحر الخرافيون ، اشتهروا بقدرتهم على عبور مساقط المياه السريعة فى سفن طويلة يغيرون بها على السواحل للنهب والسلب .

الفصل الرابع عشر

الشعوب البحرية والشعوب المتاجرة

١ — أقدم السفن والملاحين .
٢ — المدن الأيجية قبل التاريخ .
٣ — أول رحلات الكشف .
٤ — المتجرون الأول .
٥ — الرحالة الأول .

---

١ — أقدم السفن والملاحين

صُنعت الزوارق الأولى فى زمن مبكر حقا من مرحلة الثقافة النيوليثية ، إذ صنعها السكان المجاورون للأنهار والبحيرات ، ولم تكن لتزيد عن أشجار وأخشاب طافية استعملت لمعاونة قوى السباحة الناقصة بحكم الطبيعة فى الإنسان . ثم جاء دور لجأوا فيه إلى تفريغ قلوب الأشجار ، تلته مع تطور العُدد والنجر البدائى مرحلة بناء الزوارق . وقد أنتج الناس فى مصر وأرض الجزيرة أيضاً طرازاً بدائياً من الزوارق مصنوعا كالسلال ومقلفطا بالقار . وعلى هذه الشاكلة كان فلك الحلفاء الذى أخفت فيه أم موسى (عليه السلام) ولدها .

وقد نشأ نوع مقارب لهذا من الزوارق باستعمال الجلود والاهابات منشورة على إطار من الأغصان ، ولا تزال زوارق (الكورا كل) المصنوعة من جلد البقر الخام أى إهابها مع فروع الشجر الرفيعة المجدولة ، مستعملة حتى وقتنا هذا فى الشاطىء الغربى من إرلندا ، حيث الوفرة فى عدد الماشية والنقص فى الأشجار الضخمة . وهى لا تزال تستعمل فى نهر الفرات ونهر التووى فى ويلز الجنوبية . وتوجد فى ألاسكا أيضاً زوارق من هذا الطراز القديم ينتقل الناس بها من أمريكا إلى سيبيريا . وربما سبقت الجلود المنفوخة (القرب) زوارق (الكورا كل) هذه وهى لا تزال مستعملة فى نهر الفرات وفى نهر الكنج الأعلى ، ولا بد أن الزوارق أصبحت من زمن مبكر جداً وسيلة هامة من وسائل المواصلات فى وديان الأنهار العظيمة ، ويبدو أنه من الطبيعى أن نظن أن الإنسان ، وقد أصبح له قارب صالح جدير بالبحر تجرأ لأول مرة نخرج من مصبات الأنهار إلى بحر لابد أنه كان يظنه حينئذ البحر الذى لاطرق فيه ولا آثار ولا مأوى ولا مستقر .

ولا ريب أنه تجرأ بادئ الرأى على التوغل فى البحار بوصفه صياداً يطلب السمك بعد أن تعلم مبادئ الملاحة فى الأجوان والمستنقعات الشاطئية . وربما كان الناس يسيرون الزوارق فوق البحيرة الشرقية قبل امتلاء البحر المتوسط بمياه المحيط الأطلسى . وكان زورق (الـكانو) جزءاً ضرورياً مكملا لثقافة العصر الهليوليثى ، فإنه انتقل بثقافة ذلك العصر مارا فوق مياه الأرض الدفيئة من البحر المتوسط حتى انتهى به المطاف فى أمريكا . ولم يكن فى بلاد سومر زوارق كانو فحسب ، بل زوارق وسفن سومرية تجرى فى الفرات والدجلة ، يوم كان لـكل منهما مصبه فى الخليج الفارسى ٧٠٠ ق . م . وكان لمدينـة أريدو السومرية التى كانت تقع على رأس الخليج الفارسى (والتى تنفصل عنه الآن بشقة تكونت من الغرين طولها مئة وثلاثون ميلا) سفن فى البحر حينذاك . وكذلك نجد شواهد تدل على حياة بحرية كاملة التطور فى الطرف الشرقى من البحر المتوسط قبل ستة آلاف سنة من الزمان ، ومن الجائز أن زوارق الـكانو كانت تمخر بحار المناطق التى بين جزائر الهند الشرقية القريبة ، وثم صور تمثل زوارق مصرية فى العصر النيوليثى قبل عهد الأسرات الملـكية وهى ذات حجم متوسط بعض الشىء وتستطيع أن تحمل الفيلة .

وسرعان ما استطاع رواد البحر أن يدركوا الحرية العجيبة والصدف السعيدة التى كانت تحبوهم بها السفن . إذ يستطيعون الهروب بها إلى بعض الجزائر ولا يستطيع أى رئيس أو ملك أن يطارد زورقا أو سفينة وهو على ثقة تامة بفوزه بها ، فـكان كل ربان ملـكا غير متوج وكان رجال البحر يجدون إنشاء الأوكار على الجزائر وفى مناطق معينة من أراضى القـارات أمراً هيناً يسيراً . فهناك كانوا يستطيعون أن يرسوا سفنهم ، وهناك كان يمكنهم أن يقوموا بمقدار معين من الزراعة وصيد السمك . بيد أن مناط تخصصهم وأهم عمل لهم كان بالطبع ارتياد البحار ، ولم يكن ذلك فى العادة ارتيادا للتجارة ، بل كانت القرصنة غايتهم الفعلية فى معظم الأحوال .

وإذا نحن تأملنا طبيعة الإنسان حكمنا قطعا بأن البحارة الأول كانوا ينهبون ويسلبون إذا استطاعوا ويتجرون إذا اضطروا إلى ذلك اضطرارا .

ولأن ملاحة العالم القديم تطورت فى الميـاة الهادئة الدفيئة نسبيا : مياه البحر المتوسط الشرقى والبحر الأحمر والخليج الفارسى والقرن الغربى للمحيط الهندى فإنها احتفظت فى كل تلك الأصقاع على مدى التاريخ بخصائص مميزة تباعد مسافة الخلف بينها وبين طريقة السفن الشرعية التى ظلت تمخر عباب المحيطات طوال الأربعمئة السنة الأخيرة — بمالها من شراع

ممتد امتداداً عظيما . ويقول المستر طُور إن البحر المتوسط بحر قد تجمد فيه السفينة الشراعية عن الحركة أياما متتالية لسكون الريح ، على حين يستطيع زورق المجاديف بلا عناء أن يخترق تلك المياة الوادعة التى يجد فى كل مكان منها ساحلا أو جزيرة يلجأ إليها إذا هبت عليه العاصفة ومن ثم أصبح المجداف وسيلة الملاحة المميزة فى هذا البحر ، كما كان تدبير المجاديف أهم مسائل بناء السفن قيمة . ويوم كانت شعوب البحر المتوسط متسلطة على غرب أوربا ، كانت تبنى فى السواحل الشمالية سفن من نفس الطراز الجنوبى ، وإن كان بها من الرياح ما يناسب القلوع ويفوق احتمال سفن المجداف .

وأول مكان نستطيع أن نتبين فيه فن التجديف هو نهر النيل ، فهناك صور تمثل قوارب بمجاديف مرسومة على أقدم الآثار المنقوشة فى مصر ، ومع أن بعض الملاحين يجدفون فيها مدلبين بمجاديف قصيرة عريضة توضع فى الماء رأسيا وينظرون بوجوههم شطر مقدم السفينة ، فإن بعضهم الآخر يجدف بالمجاديف متجهين صوب مؤخرها ولاشك أن الإدلاب بالمجداف القصير العريض هو الطريقة الأولى ، لأن كلمة تشن الهيروغليفية تصور لنا ذراعين قابضين على مجداف فى هيئة التجديف الرأسية المميزة للمجداف القصير العريض . وليس يغرب عن البال أن الحروف الهيروغليفية اخترعت منذ أشد العصور قدما . حقاً إن هذه الطريقة ربما تكون مما بطل استعماله قبل ٢٥٠٠ ق . م رغم شواهد الآثار فى تلك الأزمان لأن الآثار المصنوعة بعد ١٢٥٠ ق . م . تمثل الملاحين وهم متجهون اتجاها سليما صحيحاً ، إذ هم يولون وجوههم شطر مؤخر السفينة وهم مع ذلك يمسكون بمجاديفهم فى هيئة من يولون شطر مقدمها ، ومعنى هذا أنه حتى ذلك الوقت كان الفنانون المصريون يتبعون بطريقة آلية نفس اتجاه الرسم الهيروغليفى الذى تعودت عليه أيديهم . وتحوى تلك الرسوم البارزة عشرين مجدفا فى الزوارق النيلية ، وثلاثين على سفن البحر الأحمر ، بيد أن العدد يتفاوت تفاوتا كبيراً فى الرسوم البارزة الشديدة القدم ، وكأنما هو متوقف على المتسع الذى بين يدى النحات .

وقد نزلت الشعوب الناطقة بالآرية إلى البحر فى عصر متأخر ، وكانت أقدم السفن فى البحر إما سومرية أو حامية . وعقبت الشعوب السامية على التو هؤلاء الرواد الباقين . فعلى امتداد الطرف الشرقى من البحر المتوسط ، أقام الفينيقيون (وهم شعب سامى) سلسلة من المدن البحرية أهمها عكا وصور وصيدا . ومالبث هؤلاء الفينيقيون حتى توغلوا برحلاتهم غربا وأسسوا قرطاجة وأوتيكا فى شمال أفريقيا ، وربما كانت الصنادل الفينيقية تجوب البحر المتوسط قبل ٢٠٠٠ ق . م ، وكانت كل من صور وصيدا مبنية على جزائر فى مبدإ أمرها وبذا كان الدفاع عنها ضد غارات المعتدين من البر أمراً يسيراً . .

ولكن يجب علينا قبل أن نواصل القول فى الأعمال البحرية العظيمة التى قام بها ذلك الجنس البحرى المجيد ، أن نذكر شيئاً عن مهد بحرى شهير ضم شعباً بحريا قديماً هو الذى كشفت آثاره فى جزيرة كريت .

٢ — المدن الإيجية قبل التاريخ

كان هؤلاء الكريتيون الأول من جنس يمت بصلة القربى إلى الأيبيريين أهل أسبانيا وأوربا الغربية وإلى البيض الداكنين من أهالى آسيا الصغرى وشمالى أفريقيا . بيد أن لغتهم ليست معروفة ، ولم يكن هذا الجنس يسكن كريت فحسب ، بل استوطن قبرص وبلاد الإغريق وآسيا الصغرى وصقلية وجنوبى إيطاليا . وكان شعبا ممدنا دامت حضارته عصورا طويلة قبل أن انتشر الإغريق الشقر النورديون جنوبا مخترقين مقدونيا . فقد وجدت بمدينة كنوسوس بكريت مخلفات وآثار من أعجب ما ترك القدماء ، ولذا فإن عاصمتهم كنوسوس خليقة بأن يطغى ضياؤها على أخيلة الناس كاسفا كل نور أرسلته سائر مستقراتهم ، ولكن يجدر بنا أن نتذكر أنه وإن كانت كنوسوس ولا ريب من كبريات مدن تلك المدنية الإيجية إلا أنه كان لهؤلاء الإيجيين وهم فى ذرى حضارتهم وسلطانهم مدن كثيرة ومجال رحيب . وتضم كنوسوس بقايا نيوليثية تضاهى فى قدمها ، أى بقايا ترجع إلى عهد ما قبل الأسرات فى مصر ، بل هى أقدم منها على التحقيق .

وبدأ عصر البرونز فى كريت بمجرد ما ابتدأ فى مصر ، وعثر السير فلندرز بترى فى مصر على زهريات أرجعها إلى زمن الأسرة الأولى معلنا أنها مستوردة من جزيرة كريت . وبعض الزهريات الحجرية والتمائم ومياسم الأختام التى عثر عليها فى كريت تشير إلى وجود علاقات بينها وبين وادى النيل حتى فى عصور الأسرات التى قبل التاريخ . ووجدت كذلك أوانٍ من الحجر تحمل أشكال الأوانى التى كانت تصنع إبان الأسرة الرابعة (بانية الأهرام) ، ولا سبيل إلى الشك أنه كانت هناك علاقة تجارية قوية بين كريت ومصر أيام الأسرة الثانية عشرة وقد استمرت هذه العلاقة حتى قرابة ١٠٠٠ ق . م . ومن الواضح أن تلك المدنية الجزيرية التى نهضت على أرض كريت تضارع المدينة المصرية قدما على أقل تقدير ، وأنها ابتدرت فنزلت البحر فى عصر مبكر يرجع إلى ٤٠٠٠ ق . م قبل أن يظهر على مسرح التاريخ أى من الساميين أو الآريين .

على أن الفترة التى بلغت فيها كريت عظمتها لا تُردّ إلى هذا الوقت المبكر . ويظهر من

دلائل الأحوال أن الجزيرة لم توحد تحت إمرة حاكم واحد إلا قرابة ٢٥٠٠ ق . م وما لبث أن ابتدأ بها عصر سلام وتقدم لا مثيل لهما فى تاريخ العالم القديم . وخلا للكريتيين الجو فتقدموا فى الفنون وفى وسائل الترف لتمتعهم بميزات : هى أمنهم من الغزو وعيشهم فى مناخ جميل واتجارهم مع المجتمعات القديمة المتمدينة فى العالم .

ولم تكن كنوسوس هذه مدينة قدر ما كانت قصرا هائلا للملك وشعبه . بل إنها لم تكن حصينة . والظاهر أن الملوك كانوا يلقبون على الدوام باسم مينوس شأن ملوك مصر حين يسمون جميعا بالفراعنة .

وتصور لنا أساطير الإغريق القديمة ملك كنوسوس باسم الملك مينوس الذى يسكن قصر التيه ويحتفظ فيه بوحش مرعب نصفه آدمى ونصفه عجل واسمه المينوطور ، وكانت تجبى من أجل إطعامه جزية قوامها الفتيان والعذارى يجبيها الملك من الأثينيين . وهذه الأقاصيص جزء من الأدب الإغريقى ، فهى لذلك شائعة معروفة على مر التاريخ . ولكن لم يعرف الناس نصيبها من الصحة ومدى اتصالها بالحقيقة إلا فى عشرات السنين الأخيرة التى كشفت فيها الحفائر فى كنوسوس الستار عن ذلك وكان قصر التيه الكريتى بناء بلغ من الفخامة والتقدم والترف مبلغ أى قصر فى العالم القديم . فنحن نجد فيه أنابيب للمياه وحمامات وما إليها من وسائل الراحة التى كنا إلى حين قريب نعدها أحدث أنواع الترف فى الحياة العصرية .

وصناعة الخزف والنسيج والنحت والتصوير عند هؤلاء الناس وشغلهم فى الجواهر والعاج وعملهم فى المعادن والمطعّمات مما يثير إعجابك بالقدر الذى يثيره أروع ما أنتجته يد الصانع البشرىّ . كانوا يميلون كل الميل إلى الحفلات والمعارض ، وكانوا على الأخص مولعين بمصارعة الثيران ومشاهد الألعاب الرياضية . وكانت ثياب نسائهم فكتورية الطراز إلى حد يبعث على الدهش . فإن نساءهم كن يرتدين المشدات والثياب الفضفاضة التى تحملها الأسلاك . وكانت لهم طريقة للكتابة لم تحل رموزها بعد .

جرت عادة الناس فى هذه الأيام أن يتخذوا ما وصل إليه الكريتيون من تقدم أعجوبة رائعة ، كأنما كانوا شعبا له مواهب فنية لا يصدقها عقل . كانوا يعيشون فى فجر المدنية . على أن أوج عظمتهم جاء متأخرا عن ذلك الفجر بزمان بعيد ، حتى لقد جاء فى عهد متأخر يقارب ٢٠٠٠ ق . م ، وبذلك يكون وصولهم إلى خير ما كانوا عليه من فن ومهارة قد اقتضاهم قرونا عدة . فأما فنهم وترفهم فليسا بأية حال أعجوبة تسمو إلى ذلك الحد العظيم ، إذا تذكرنا أنهم ظلوا طوال ثلاثة آلاف من السنين على جانب الحصانة من الغزوات ، وأنهم لبثوا يستظلون

سلاما دام ألفا من السنين ، استطاع الصناع أثناءها أن يرقوا بمهارتهم فى مدارج الكمال قرنا بعد قرن ، كما استطاع رجالهم ونساؤهم أن يضيفوا تهذيبا إلى تهذيب . وحيثما كان الناس أيا كان جنسهم، آمنين نسبيا على هذا النحو، وعلى طول مثل هذا الزمن المديد فإنهم ينتجون الشىء الكثير من الجمال الفنى . وإنك لتجد كل الشعوب فنية النزعة إذا أتيحت لها الفرص الملائمة وفى الأساطير الإغريقية أن محاولة ديدلوس عمل أول آلة طيارة إنما حدثت فى جزيرة كريت . وليس ديدلوس ، ومعناها الصانع الماكر ، إلا ضربا من الرمز المجسم للمهارة الميكانيكية . فيالها من جرثومة للحقيقة تلك التى تتمثل فى ذلك الرجل وفى تلك الأجنحة الشمعية التى ذابت كما تقول الأسطورة وأغرقت إبنه إيكاريوس فى البحر ! !

ثم حدث فى النهاية تغير فى حياة هؤلاء الكريتيين لأن شعوبا أخرى هى الإغريق والفينيقيون أخذوا يخرجون إلى البحر بأساطيلهم القوية ، ولسنا نعلم السبب الذى أدى إلى كارثتهم ولا اسم الذى أوقعها بهم ، ولكن حدث فى زمن ما يقارب (١٤٠٠ ق . م) أن نهبت مدينة (كنوسوس) وأحرقت . ومع أن الحياة الكريتية ، واصلت كفاحها بطريقة فاترة عرجاء أمد أربعة قرون أخرى ، فقد جاءتها فى نهاية الأمر ضربة قاضية حوالى (١٠٠٠ ق م) (أى فى زمان العظمة الآشورية فى الشرق) ، فدمر قصر كنوسوس ولم يقدر له بعد ذلك أن يبنى ثانية أو يعود كما كان آهلا بالسكان . ومن المحتمل أن يكون هذا قد تم على أيدى سفن النازلين الجدد بالبحر المتوسط وهم الإغريق الهمجيون الذين هم طائفة من القبائل المتكلمة بالآرية انحدرت من الشمال والذين يجوز أنهم قضوا على مدينة كنوسوس كما قضوا على مدينة طروادة . وتنم اسطورة تيسيوس عن شىء يشبه هذه الغارة ، فإنه دخل قصر التيه (الذى لعله كان هو قصر كنوسوس) بمساعدة (أريادن) بنت مينوس الملك وذبح الوحش الآدمى الثورى مينوطور .

وتوضح لنا الإلياذة صراحة أن التدمير حل بطروادة لأن الطرواديين كانوا يسرقون نساء الإغريق ، وقد حاول بعض ذوى الآراء العصرية من الكتاب المعاصرين أن يستنتجوا متعسفين أن الإغريق هاجموا طروادة لكى يضمنوا لأنفسهم طريقا تجاريا إلى كولشيس أو غير ذلك من هذه المزايا التجارية المحبوكة الجيدة السبك ! ! فإن كان الحال كذلك فإن مؤلفى الإلياذة أخفوا بغاية المهارة الدوافع التى كانت تحرك أبطال قصصهم ! ! وقد يقارب هذا فى الإقناع المنطق السخيف أن نقول أن إغريق هوميروس أشبوا الحرب مع أهل طروادة لكى يتصلوا بمحطة على الخط الحديدى الموصل بين برلين وبغداد !! وإغريق هوميروس كانوا شعبا

آريا همجيا صحيح الأجسام كل ما لديه من فكرة عن التجارة وطرقها ضئيل لا يروى غلة. والواقع الذى لا يداخله ريب أنهم خاضوا غمار الحرب مع أهل طراودة لأنهم تضايقوا كل المضايقة من سرقة النساء هذه. ويتضح من أسطورة المينوس ومن شواهد بقايا كنوسوس أن الكريتيين كانوا يخطفون الشبان والعذارى لكى يتخذوا منهم عبيدا أو مصارعين للثيران أو رياضيين محترفين وربما قربوهم قربانا. وكانت تجارتهم مع المصريين تجارة متوسطة ولكن يحتمل أنهم لم يدركوا القوى التى كانت تتجمع للإغريق الهمج، وأنهم كانوا يلعبون معهم لعبة عنيفة، جرّت عليهم حد السيف ولهب النار. وكان الفنيقيون شعبا أسبق من الإغريق انحدارا إلى البحر، كانوا ملاحين عظاما لأنهم كانوا تجارا عظاما. وانتهى الأمر بمستعمرتهم قرطاجنة التى انشأتها صور قبل ٨٠٠ ق.م أن أصبحت أكبر المدن الفينيقية القديمة، ولكن كان لكل من صور وصيدا مستعمرات على الساحل الأفريقى قبل ١٥٠٠ ق. م. كانت قرطاجنة بعيدة نسبيا عن منال الجيوش الآشورية والبابلية وقد استفادت أعظم الفائدة من الحصار الطويل الذى ضربه بختنصر الثانى على مدينة صور فأصبحت أعظم قوة بحرية شهدها العالم حتى ذلك الحين. لذلك ادعت لنفسها ملكية القسم الغربى من البحر المتوسط، وكانت تأخذ غصبا كل سفينة تستطيع أن تأخذها غربى سردينيا، ويتهمها كتاب الرومان بارتكاب قسوات بالغة، وقد حاربت الأغريق من أجل جزيرة صقلية كما حاربت الرومان بعد ذلك فى القرن الثانى ق. م ثم دبر الإسكندر الأكبر خطة لغزوها ولكن عاجلته المنية كما سيتبين ذلك فيما بعد فمات قبل أن ينفذ ما اعتزمه.

٣ — أولى رحلات الاستكشاف

يرجح المؤرخون أن سكان قرطاجنة وهى فى أوج مجدها وصلوا إلى عدد لم يسمع به الناس من قبل وهو مليون نسمة، كانت غالبية هؤلاء السكان من الصناع وكانت لمنسوجاتهم شهرة عالمية وكانت لها بالإضافة إلى التجارة الساحلية تجارة برية عظيمة مع أفريقيا الوسطى.

ولا يغرب عن البال أن أفريقيا لم يكن بها جمال مستأنسة إلى ما بعد زمن غزو الفرس لمصر، ويبدو أن الجمل لم يستقدم إلى أفريقيا الشمالية ليصبح من أنعام النقل والركوب بها إلا عقيب الفتوحات العربية فى القرن السابع الميلادى.

وطبيعى أن يحد هذا الأمر كثيراً من استعمال الطرق الصحراوية. ولكن الصحراء الكبرى منذ ثلاثة آلاف أو ألفين من السنين كانت أقل جفافا وجدبا مما هى الآن. فإنا

نستطيع أن نعرف مما نجد على الصخور من نقوش ، صدق النظرية القائلة بأن الصحراء كانت تعبر من واحة إلى واحة بالثيران والمركبات التى تجرها الثيران وربما عبروها أيضاً بالخيول والحمير .

وكانت قرطاجنة بما هيئ لها من موقع ممتاز بين الأراضى الداخلية الأفريقية وبين البحر ، تبيع العبيد الزنوج والعاج والمعادن والأحجار الكريمة وما شابهها لكل شعوب البحر المتوسط ، ولم يفتها أن تستغل مناجم النحاس الأسبانية ، فأما سفائنها فإنها انطلقت إلى المحيط الأطلسى تسير شمالا محاذية سواحل البرتغال وفرنسا حتى كاستيريدس وهى جزائر سيلى أو إلى كورونوال فى انجلترا لتحصل على القصدير .

وقرابة ٥٢٠ ق م قام شخص اسمه هانو برحلة لا تزال من أشهر الرحلات فى العالم . وإذا جاز لنا أن نصدق كتابه (البريبلوس) وهو الترجمة الإغريقية لقصته وهى لا تزال موجودة حتى وقتنا هذا — فإن هانو هذا تتبع ساحل أفريقيا جنوبا بعد أن مر من مضيق جبل طارق حتى وصل إلى ما يعادل حدود ليبيريا . وكانت معه ستون سفينة كبيرة وكانت مهمته الرئيسية أن يعزز من قوة محطات قرطاجية معينة على الساحل المراكشى أو يؤسس أخرى جديدة . على أنه انحدر بسفنه جنوبا فأسس مستعمرة فى (ريودورو) ثم ابحر حتى تجاوز نهر السنغال وقد سار الرحالون سبعة أيام بعد مرورهم على غمبيا ، ونزلوا آخر الأمر فى إحدى الجزر وما لبثوا أن غادروها فى ذعر وهلع ، لأنه وإن كان النهار ساكنا فى تلك الغابة المدارية ، فقد كان الليل صاخبا بأصوات الصفارات والطبول والصنوج كما كانت السماء تحمر بلهيب النيران التى تحرق الأجمات ، وكان إقليم الساحل فى سائر الرحلة أتونا ملتهباً من النيران الناشئة من احتراق الآجام .

وكانت جداول من النار تنحدر فوق التلال وفى آخر الأمر ارتفع لهيب من النار فى الجو حتى بلغ عنان السماء . وقد أوصلتهم أيامهم الثلاثة التالية إلى جزيرة فيها بحيرة لعلها جزيرة شيربورو ، وكانت فى هذه البحيرة جزيرة أخرى (ربما تكون جزيرة ماكولى ؟) وكان على هذه الجزيرة رجال ونساء متوحشون ذوو شعر غزير سماهم المترجمون بالغورلا .

وعندما قبض القرطاجنيون على بعض إناث هذه (الغورلا) والراجح أن تكون من نوع الشمبانزى عادوا أدراجهم ثم ما عتموا أن أودعوا جلد أسراهم فى آخر الأمر فى معبد جونو بعد أن أثبتن أنهن ضيفات عنيفات عنفاً لا يمكن أن يطاق على ظهور السفن مما اضطر الجماعة إلى قتلهن على الفور .

وهناك رحلة بحرية فينيقية أعجب من هذه كثيراً ظلت تحت شبهات من الشك زمانا طويلا ، ولكن تشهد اليوم بصحتها بعض شواهد اركيولوجية ، يقص هذه الرحلة علينا هيرودوت وفيها يروى أن فرعون مصر نخاو أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين عهد إلى بعض الفينيقين أن يحاولوا الطواف حول أفريقيا وأنهم إذ خرجوا من خليج السويس متجهين جنوبا عادوا بالفعل مخترقين البحر المتوسط حتى وصلو إلى دلتا النيل . وقد اقتضاهم استكمال رحلتهم هذه ثلاث سنوات ، وكانوا فى كل عام ينزلون إلى البر ويزرعون ويحصدون محصولا من القمح قبل أن يتابعوا مسيرهم .

٤ — المتجرون الأول

إن مدن الفينيقيين التجارية الكبرى لهى أعظم المظاهر الأولى لتلك الهبة الخاصة وتلك الخصيصة المميزة التى وهبها الجنس السامى للانسانية وأعنى بها التجارة والتبادل . وحين كان هؤلاء الفينيقيون الساميون يدفعون بأنفسهم فى كل أرجاء البحر كان هناك شعب سامى آخر يمت إليهم بلحمة القربى هم الآراميون الذين سبق أن أحطناك من قبل علما باحتلالهم دمشق ، كانوا قد أخذوا يراقبون تجارة القيروانات التى تسلك صحراء بلاد العرب وصحراء فارس وأصبحوا أهم شعب يتجر فى آسيا الغربية . وكانت هناك إلى جانب هذه تجارة بحرية قديمة تمتد جنوبا خارج البحر الأحمر والخليج الفارسى ، فقد وجدت حديثا فى جنوب أفريقيا صور قديمة على الصخور رسمها (البوشمان) وهى قريبة الشبه جدا فى طرازها وطريقة معالجتها بمصورات رجال العصر الباليوليثى فى شرق أسبانيا . وتمثل تلك الصور رجالا من البيض على رؤوسهم ما قد يكون لباس الرأس الذى كان يرتديه الآشوريون .

وقد أظهرت الشعوب السامية على الدوام — وهى أسبق فى المدنية من الشعوب الآرية — ولا تزال تظهر إلى اليوم . إدراكا عجيباً لكم السلع المبيعة وكيفها أكثر مما يظهره الآريون ، وإنما ينسب تطور الكتابة القائمة على الحروف الأبجدية إلى حاجتهم إلى ضبط حساباتهم وتدوينها كما يعزى إليهم فضل معظم التقدم فى علم الحساب . وأرقامنا المصرية عربية الأصل وحسابنا وجبرنا إنما هما بالضرورة علمان ينسبان إلى الساميين .

ويجدر بنا أن نوجه النظر هاهنا إلى أن الشعوب السامية لا تزال حتى يومنا هذا شعوبا حسابة قوية الفهم لروح المعادلات والتعويض . ومن عجب أن كانت تعاليم العبرانيين الخلقية مشبعة بمثل هذه الأفكار فأمثالهم تقول مثلا (إن الناس يكيلون لك بنفس المعيار الذى تكتال

لمم به) ولقد تخيلت بعض الأجناس والشعوب الأخرى لنفسها آلهة متنوعة متقنبة خلابة ، ولـكن كان الساميون المشتغلون بالتجارة أول من فكر فى الإله فى صورة تاجر بار صالح يبر بوعوده ، ولا يفوته أحقر مدين ويحاسب على كل عمل زرى .

وتكاد التجارة التى كانت تجرى فى العالم القديم قبل القرن السادس او السابع ق . م . أن تكون بأسرها تجارة مقايضة . ولم يكن هناك حساب جار أو كان منه القليل النادر ولم يكن هناك نقود مضروبة . إذ كانت الإمبراطوريات الأولى تسير بحياتها دون أية سكة مضروبة . وكانت الماشية هى معدل القيم المألوف عند الآريين الأول بل الراجح أن كان الحال كذلك فى كل المجتمعات قبل استقرارها كما لا يزال ذلك مستمرا عند الزولو والـكافير فى وقتنا هذا . وقد ورد فى الإلياذة ذكر قيمة ترسين مقدرين برءوس من الماشية ، بل إن اللفظة الرومانية لـكلمة نقود وهى Pecunia مشتقة من كلمة (pecus) ومعناها الماشية ، وللماشية مستعملةً فى مقام النقد ميزة خاصة ، هى أنها فى غنى عن أن تحمل أثناء انتقالها من مالك إلى آخر ، ولئن كانت فى حاجة إلى الرعاية والطعام ، لقد كانت على كل حال تلد وتنتج ولـكنها كانت لا تلائم النقل بالسفين أو القيروان . ولقد رأى الناس فى كثير من المواد الأخرى صلاحية لأن تكون معيارا ، فكان التبغ فى بعض الأزمان معيارا قانونيا إبان عهد الاستعمار فى أمريكا الشمالية وتدفع الغرامات فى افريقيا الغربية وتقوم الصفقات على أساس زجاجات شراب الجن التجارى وكانت المعادن والـكتل الموزونة تدخل فى نطاق التجارة الأسيوية الأولى نظرا لما اختصت به من إقبال الناس عليها وسهولة اكتنازها واختزانها ولقلة المؤونة فى صونها فلا علف ولا طعام ولاحيز فسيحا لصونها وإيوائها ، وسرعان ماظهر تفوقها على الماشية والشاء .

وكان الحديد أول ما ابتدأ به الناس فكان مادة نادرة مطلوبة ، والظاهر أن أول من استنزله من خامه هم الحيثيون . ويذكر أرسطو أن قد كانت منه أول عملة ، ويقول قيصر فى كتابه «حرب الغال» De Bello Gallico أن قضبانا من الحديد ذات وزن محدود كانت تستعمل عملة فى بريطانيا . وبين مجموعة الرسائل التى عثر عليها بتل العمارنة والمتبادلة بين الملك امنحتب الثالث الذى سلف ذكره وخلفه الملك امنحتب الرابع وبين غيرهما من الملوك رسالة من أحد ملوك الحيثيين يعد الملك فيها بتقديم الحديد بوصف كونه هدية نفيسة جدا . وكان الذهب يوم ذاك كما هو الآن أنفس معايير القيم المعدنية وهو لذلك أيسرها حملا . وكانت الفضة فى مصر الأولى القديمة تكاد تبلغ درجة الذهب فى ندرته إلى ما بعد عهد الأسرة الثامنة

عشرة . ثم أصبحت الفضة بعد ذلك معيار القيم العام فى العالم الشرقى وكانت تكتال بالميزان ، ومالبثت أن كونت بينها وبين الذهب ارتباطا يشبه علاقتها الحديثة به ولم تتخل عنها منذ ذلك الحين أبدا .

وكانت المعادن فى البداية تتداول فى صورة سبائك توزن عند كل صفقة . ثم دمغت لتبيان عيارها والتدليل على نقائها . وأقدم سكة فى العالم هى التى ظهرت فى الشاطىء الغربى لآسيا الصغرى من معدن الإليكتروم وهو مزيج من الذهب والفضة . فهل كانت أوائل تلك النقود تسكها المدن أو المعابد أو الصيارفة الخصوصيون ؟ ذلك أمر يدور حوله جدال شائق بين العلماء . وأول نقود يسجلها التاريخ ضربت قرابة (٦٠٠ ق . م) فى ليديا وهى قطر ينتج الذهب فى غرب آسيا الصغرى . ضربت أقدم النقود الذهبية المعروفة فى ليديا على يد قارون (كريسوس) الذى تضرب باسمه الأمثال فى الغنى والثراء ، وقد هزمه كما سنرى فيما بعد نفس ذلك العاهل كورش الذى فتح بابل ٥٣٩ ق . م .

ولكن من الراجح جدا أن كانت النقود المسكوكة تستعمل فى بابل من قبل ذلك الزمان ؛ فإن (الشاقل) المختوم — وهو قطعة من فضة مدموغة — يقارب أن يكون عملة . وكان خدمة معبد القمر فى مدينة أور (٢٠٠٠ ق م) يحملون عندما يرسلون فى بعض الأسفار حوالات مكتوبة على ألواح من الصلصال لتمكنهم من التزود بحاجتهم من المال فى المدن التى يمرون بها .

وربما كان الوعد المالى المكتوب على الجلد (الرق) والمذيل بخاتم بعض الدوائر الشهيرة تتعهد فيه بدفع قدر معين من الذهب أو الفضة ، أمراً يضاهى السكة فى القدم أو هو أقدم منها ، وقد استعمل القرطاجيون مثل هذا (النقد الجلدى) .

ونحن لا نعرف إلا الشىء الطفيف عن النهج الذى كانت تنهجه حركة التعامل الصغيرة فى العالم القديم . ويبدو أن العامة وهم فى تلك الأزمان القديمة فى درجة الموالى والتابعين — لم يكونوا ليملكوا أى نقود البتة ، وهم لذلك يقضون حوائجهم بالمقايضة .

وتبين لنا النقوش المصرية القديمة هذا الأمر وهو يجرى بين الناس . وكان بعض أنواع العملة الصغيرة موجوداً قبل زمان الإسكندر ، وكان لدى الأثينيين سلسلة من العملة الفضية البالغة غاية منتهى الصغر حتى لتكاد تنحدر فى ضآلتها إلى حجم رأس الدبوس ، وكانت تحمل فى العادة فى الأفواه ، يؤيد ذلك أن شخصية من شخصيات إحدى مسرحيات ارستوفان هوجم ذات مرة على غرة ، فازدرد العملة الصغيرة التى كانت فى فه .

٥ — الرحالة الأول

إذا نحن تذكرنا انعدام العملة الصغيرة وكل وسيلة للتبادل ميسرة الحمل فى عالم ماقبل الإسكندر ، أدركنا كيف كانت الأسفار الخاصة مستحيلة فى تلك الأيام . والرأى السائد أن الفنادق الأولى ، وهى ولا شك نوع من سرايات القيروان أو المسافرخانة ، نشأت أول مانشأت فى ليديا فى القرن الرابع أو الثالث ق م . ومع ذلك فإن هذا زمن متأخر جدا ، إذ مامن ريب أنها سبقت ذلك العهد . وهناك شواهد قوية تثبت وجودها فى القرن السادس على الأقل . ألا ترى إلى اسكيلوس إذ يذكر الخانات مرتين ، ويعبر عنها بلفظة البيت الذى يستقبل الجميع أو بلفظة مستقبل الكل ؟ وربما كان الرحالة الخصوصيون شائعين بعض الشىء فى العالم الإغريقى كله ، دون استثناء ما كان له حين ذاك من مستعمرات . بيد أن السفر الخاص كان أمراً حديثاً نسبيا . وقد اتسمت سفرات المؤرخين الأقدمين هيكات وهيرودوت .

ويقول الأستاذ جلبرت مرى إلى أوجس بأن هذا النوع من الرحلة جريا وراء التاريخ أو الاكتشاف كان فى الغالب مخترعا إغريقيا ، ويظن أن سولون قد ذاق حلاوته بل وإن لكورغوس أقدم عليه .

وكان أول الرحالة إما تجاراً يسافرون فى قيروان أو فى وسقة سفين ويحملون معهم بضاعتهم ونقودهم وشواقيلهم المعدنية أو الجواهر أو بالات الحرائر وإما موظفين فى الحكومة يسافرون ومعهم رسائل التعريف بأشخاصهم وبرفقتهم الحاشية اللائقة بهم . ومن المحتمل أن يكون هناك نفر من المتسولين ، وبعض الحجاج المتدينين ممن يتقلبون فى بعض النواحى المحدودة .

وكان يجرى فى مصر قدر عظيم من الأسفار صعوداً وهبوطا مع النيل فى ظل أمنة وسط وكان الناس يقومون برحلات تنحدر مع النيل حتى الأهرام القديمة أيام أمنحتب الثالث . وبذلك يظهر أصحاب الرحلة القصيرة لأول مرة فى تلك البلاد حول ذلك البناء العظيم .

كان ذلك العالم القديم قبل (٦٠٠ ق م) عالماً ندر فيه المسافر المنفرد ونظر إليه الناس فيه بعين الخشية والريبة ، وتعرضت فيه حياته لكثير من المعاطب ، ذلك إلى أن حياته ربما تعرضت لفظائع رهيبة ، إذ كانت القوانين التى تحمى أمثاله قليلة . ولذا فالذين ساروا فى مناكب الأرض فرادى قلائل ، فكان الإنسان إذن يعيش ويموت مرتبطا ومتصلا بإحدى

القبائل التى تتّبع على نظام الأبوة إذا هو كان من الرحّل أو مرتبطا بأحد الدوارات الكبيرة إن كان متمديناً ، أو مرتبطا بإحدى مؤسسات المعابد التى سنذكرها فيا بعد . أو كان الإنسان عبداً راعيا .

ولم يكن المرء منهم على أية معرفة ببقية العالم الذى يعيش فيه ، اللهم إلا بعض ما يتلقطه من أساطير رهيبة ، وفى الحق أننا نعرف اليوم عن العالم القديم (٦٠٠ ق . م) أكثر مما كان يعرفه أى فرد يعيش فى ذلك الزمان . فى مستطاعنا أن نتبين حقيقته وننظر إليه بصفته كما كاملا وكلا تاما من حيث علاقته بالماضى والمستقبل .

وفى مستطاعنا أن نعلم على الفور علم اليقين ما كان يجرى فى وقت واحد فى مصر واسبانيا وميديا والهند والصين . وفى مستطاعنا أن نشترك بخيالنا فى تلك الأعاجيب التى دهش لها بحارة هانو ، ومع أولئك الرجال الذين أوقدوا المشاعل على الشاطئ إنذاراً وتحذيرا . ولسنا نجهل أن تلك الجبال التى يرتفع لهيبها إلى السماء والتى تذكرها قصة (البريبلوس) لم تكن إلا الاحتراق العادى الذى يصيب الحشيش الجاف فى ذلك الفصل من السنة .

وعرفاننا العام يزداد سنة بعد أخرى ويسير إلى الأمام أسرع فأسرع . ولسوف يزيد فى المستقبل فهم الناس لهؤلاء الذين عاشوا فى الماضى ، حتى لربما فهموهم فهما لا مزيد عليه .

الفصل الخامس عشر

الكتابة

---

١ — الكتابة بالصور

قد رسمنا لك فى الفصول السابقة فى هيئة معالم إجمالية تطور أهم المجتمعات الإنسانية ، منذ هواديها البدائيه فى أقدم المدنيات ، إلى الممالك والإمبراطوريات التاريخية العظمى ، فى القرن السادس ق . م وينبغى لنا أن ندرس دراسة أمتن وأوثق قليلا ، النهج العام الذى سلكه ذلك التغير الاجتماعى ، وذلك النمو فى أفكار الانسانية ، وذلك الإحكام الذى بلغته العلاقات الإنسانية التى كانت جارية إبان هذه العصور بين سنة ١٠٠٠ ق . م ، وسنة ٥٠٠ ق . م ، فكل ما فعلناه حتى الآن هو أن رسمنا لك مصورا ، وأن ذكرنا لك أسماء أهم الملوك والإمبراطوريات ، وأن حددنا لك العلاقات ، فى الزمان والمكان ، بين إمبراطوريات بابل وأشور ومصر والهند والصين . وها نحن ننتقل الآن إلى المهمة الحقيقية للتاريخ ، وهى النفاذ إلى ما تحت هذه الأشكال الخارجية إلى أفكار الأفراد وحياتهم .

كان أبعد الشئون شأوا وأهم الأمور التى كانت جارية أثناء تلك الخمسين أو الستين من قرون مضت فى تطور اجتماعى ، هو اختراع الكتابة وتقدمها التدريجى إلى مقام الأهمية فى الشئون الإنسانية . كانت الكتابة آلة جديدة للعقل الإنسانى ، كما كانت تنطوى على توسيع هائل فى نطاق عمله ، وكانت وسيلة جديدة من وسائل عملية الاستمرار .

ولقد رأينا كيف حدث فى أخريات الزمن الباليوليثى وأوائل الزمن النيوليثى أن إحكام الكلام البين النطق قد هيأ لبنى الإنسان وسيلة عقلية يقبضون بها على الأفكار المتسقة المتلاحقة وزاد فى قوى تعاونهم زيادة كبيرة ، ويبدو أن هذا الاكتشاف الجديد استمر زمانا يحجب الاكتساب الذى سبقه وهو المقدرة على الرسم ، وربما عاق عملية استعمال الإشارة والإيماء . ولكن الرسم ما لبث أن عاد إلى الظهور إما للتدوين والقيد أو للرمز والعلامة ، أو لمجرد لذة الرسم . وقد جاءت الكتابة الحقيقية بعد الكتابة بالصور مثل تلك التى ماينفك يمارسها هنود

أمريكا الأميرنديون والبوشمن والشعوب المتوحشة والهمجية فى كافة أنحاء العالم ، وهى فى جوهرها تصوير للأشياء والأفعال يساعده شارات الأنساب والأعلام . كما أن بينها الشرط والنقط التى تمثل الأيام والمسافات وغيرها من الأفكار الكمية .

وقريب جدا من مثل هذه الكتابة بالصور تلك الكتابة التصويرية التى يجدها الإنسان مستعملة حتى اليوم فى الجداول الدولية لمواعيد السكك الحديدية بقارة أوربا . حيث تدل علامة سوداء تمثل فنجانا على وجود مقصف (بوفيه) يتناول فيه الناس ماخف من منعشات ، كما يدل وجود رسم سكين وشوكة متقاطعين على وجود مطعم ، وصورة قارب بخارى صغير على الانتقال إلى زورق بخارى ، وصورة البوق على وجود عربة للمسافرين . وتستعمل علامات شبيهة بهذه فى دليل الطرق الشهير الذى تصدره شركة ميشلان لرا كبى السيارات فى أوربا فهو يبين مكاتب البريد بصورة ظرف ، ويبين التليفون برسم سماعة التليفون ، ويبين درجة الفنادق بصورة خان له برج واحد ، أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة وهكذا .

وعلى هذه الشاكلة نجد فى طرق أوربا بعض علامات لإرشاد روادها فرسم بوابة يدل على أن أمام السائق تقاطع طرق ، كما يدل رسم خط معوّج على وجود منحنى خطر ، وهكذا . وإن المدى الذى يفصل علامات هذه الكتابة بالصور عن أول مبادئ الكتابة الصينية ليس بالمدى البعيد .

ولا نزال نستطيع أن نتتبع فى الكتابة الصينية عددا من علامات الكتابة بالصور ، وإن كانت استبانة غالبها عسيرة علينا ، فقد كان الفم يكتب فى الأصل على هيئة شق فى شكل الفم ، وهو يرسم الآن مربعا تسهيلا على الراسم بالمرقاش .

وكان الطفل يرسم فى الأصل على هيئة قزم صغير يمكن تمييزه بسهولة ، ثم رمز له بشكل ملتو عليه صليب فى غير إتقان . أما الشمس التى كانت أصلا ترسم دائرة كبيرة ذات نقطة عند مركزها ، فقد تحولت بقصد تسهيل عملية الربط إلى شكل مستطيل عليه خط معترض ، وهو أسهل لمن يكتب بالمرقاش ، وبمزج هذه (الصور الكتابية) بعضها مع بعض يستطاع التعبير عن طبقة ثانية من الافكار ، مثال ذلك أن مزج الصور الرامزة إلى الفم بالصورة الرامزة للنجار يعبر عن لفظة (كلمات) .

ومن أمثال هذه المركبات ينتقل المرء إلى ما يسمى (بالرسوم الرمزية) فإن علامة « الكلمات » وعلامة « اللسان » تتحد إحداهما بالأخرى وتكونان (الكلام) ، والعلامة الدالة على (السقف) إذا أضيفت إليها العلامة الدالة على « الخنزير » تدلنا على (المنزل)

إذ كان للخنزير من الشأن فى التدبير المنزلى القديم فى الصين مايعادل شأنه فى ارلندة ، ولـكن لا تتكون اللغة الصينية كما سبق أن أوضحنا آنفا إلا من عـدد بسيط من الأصوات البدائية ذات المقطع الواحد تستعمل بأجمعها فى أضرب عظيمة من المعانى ، وسرعان ما كشف الصينيون أن عددا من هذه الصور الـكتابية والرسوم الرمزية يمكن الاستفادة منه أيضا فى التعبير عن أفـكار أخرى لا تصور بمثل تلك السهولة واليسر ولـكن لها نفس الصوت .

وتسمى الحروف المستعملة على هذه الشاكلة رسوم العلامات الصوتية (فونوجرام(مثال ذلك أن الصوت (فانج) لا يدل على معنى زورق فحسب ، بل على المعانى الآتية : (مكان) و (غزال) و (عاطر) و (يستعلم) ، ومعان أخرى كثيرة تتناسب والمقام المستعمل فيه ذلك الصوت . ولـكن أغلب هذه المعانى الأخرى ليست ميسورة الرسم على حين كان رسم الزورق أمرا هينا يسيرا . إذ كيف يستطيع إنسان أن يرسم كلمة (عاطر) أو لفظ (يستعلم) لذلك أصبح الصينيون يتقبلون علامة (الزورق) لـكل هذه المعانى التى لـكلمة (فانج) ، ولـكنهم يضيفون إلى كل منها علامة أخرى مميزة عن غيرها ، وهى العامل الفاصل الذى يبين أى نوع من أنواع (فانج) هو المقصود .

وكذلك كانت كلمة (مكان) يرمز إليها بنفس العلامة التى ترمز إلى كلمة (زورق : فانج) مضافا إليها العلامة الفاصلة التى تبين الأرض ، وكانت كلمة (غزل) يرمز إليها بالعلامة الخاصة بكلمة (فانج : زورق) والعلامة الدالة على (الحرير) .

وكانت كلمة (يستعلم) يرمز إليها بالعلامة الدالة على (فانج : زورق) مضافا إليها العلامة الدالة على (الـكلمات) وهكذا .

وربما جاز لنا أن نوضح بعض التوضيح تطور الصور الـكتابية والرسوم الرمزية ، والعلامات الصوتية بتأمل حالة مماثلة لها فى الإنجليزية . هب أننا نريد أن نكون فى اللغة الإنجليزية نوعا من الـكتابة بالصور . وعند ذلك يصبح من الطبيعى جدا أن يستعمل مربع يعلوه خط مائل ليدل على غطاء تعبيرا عن كلمة box (أى صندوق) لفظا وجسما . فيكون هذا هو الصورة الـكتابية .

ولـكن لنفرض الآن أن عندنا علامة مستديرة للدلالة على النقود ، ولنفرض أننا وضعنا هذه العلامة داخل علامة الصندوق ، فهـذا يكفى للدلالة على صندوق النقود أو الخزانة . ويكون عندنا فى هـذه الحالة مانسميه بالـكتابة الرمزية . على أن كلمة صندوق تستعمل فى أشياء أخرى عدا الصناديق المألوفة . فهناك شجيرة البقس Box Shrub ، ومن العسير أن

برسم شجرة البقس Box ربما يمكن به تمييزها والتفريق بينها وبين الأشجار الأخرى . بيد أنه من أيسر الأمور أن نضع علامتنا الرامزة إلى الصندوق مع إضافة علامتنا الدالة على شجيرة كعامل فاصل يحدد لنا أن المقصود بالتعبير هو ذلك الضرب من البقس Box وليس صندوقا عاديا . ثم يأتى بعد ذلك فعل Boxing بمعناه المعروف وهو الملاكمة بقبضات الأيدى .

فنحن هاهنا أيضا فى حاجة إلى عامل فاصل . وربما جازلنا أن نضيف السيفين المتقاطعين وهى علامة كثيرا ما تستعمل فى الخرائط للدلالة على المعارك . وفضلا عن ذلك يحتاج ال (Box) بمعنى (اللوج) فى دار التمثيل، إلى عامل فاصل آخر . وهكذا نمر فى سلسلة مطولة من العلامات الصوتية .

من ثم يتضح لنا الآن ، أن للكتابة الصينية نظاما خاصا معقدا للكتابة بالعلامات ، فإنه لا مندوحة للناس من استذكار عدد كبير جدا من الحروف ومن تعويد الذهن استعمالها . ولا يزال العقل الغربى قاصرا عن أن يقيس بمعاييره قوة تلك الكتابة فى حمل الأفكار والمناقشات . ولكن ربما داخلنا الشك فى أنه يحتمل أن يحدث فى أى يوم من الأيام ، مع وجود هذه الآلة ، أن تتأسس فى الصين عقلية مثل تلك العقلية الفسيحة العامة التى تسمح بوجودها أبجديات المدنيات الغربية ، وهى أبجديات أسهل وأسرع ، وهى فى الصين قد خلقت طبقة قارئة خاصة هم الماندرين الذين كانوا فى نفس الوقت طبقة الحكام والموظفين ، فإن توفرهم وعكوفهم الضرورى على المفردات والصيغ القديمة دون الأفكار والحقائق ، ليبدو لنا — رغم ما تنعم به الصين من أمن نسبى وما يمتاز به أفراد الشعب من سمو عقلى — أنه عاق التقدم الاجتماعى والاقتصادى هناك . والراجح أن ذلك التعقيد وذلك التبلبل فى الكلام والكتابة دون أى سبب آخر يمكن تصوره ، هو الذى جعل الصين فى الوقت الحاضر من الوجهة السياسية والاجتماعية والفردية بحرا عجاجا من سكان مجدين ولكن ينقصهم روح الإقدام بدل أن يكونوا القوة السباقة فى العالم أجمع .

٢ — الكتابة بالمقاطع

ولكن على حين وضع الذهن الصينى لنفسه آلة يرجح أنها جاوزت الحد فى إحكام تركيبها ، وفيما تتطلبه من جهد ومشقة لمستعملها ، وفيما فى شكلها من صلابة فوتت عليها أن تسد الحاجة الحديثة إلى الاتصال البسيط السريع الدقيق مع الغير ، كانت المدنيات الغربية وهى بعد فى مدارج النمو تصوغ مسألة السجل المكتوب على أسس تكاد تكون مختلفة

ولكنها فى جملتها أعم نفعاً . فهى لم تسع وراء تجويد كتابتها لجعلها سريعة ميسرة، ولكن الظروف احتالت فجعلتها كذلك .

فإن الكتابة بالصور التى كان يمارسها السومريون ، وكانوا يمارسونها على الطين بأقلام صغيرة، يحدثون بها فيه علامات محدودة فى غير سهولة ولا اتقان ، سرعان ما انحطت بسبب ما تواضعوا عليه من عمل بعض خدوش تكون علامات تشبه الاسفين (وتسمى الكتابة المسمارية ، أى ذات الشكل الإسفينى) ، وتتحول إلى إشارات للأشكال المقصودة لا يكاد يستطيع إنسان تمييزها .

وقد ساعد السومريين كثيراً على تعلم الكتابة اضطرارهم إلى الرسم رسماً فى غاية القبح وسرعان ما وصلوا إلى ما كان لدى الصينيين من الصور الكتابية والرسوم الرمزية وتصوير الأصوات ثم فاقوهم .

يعرف معظم الناس ضربا من الألغاز يسمى (لغز الصور) وهى طريقة من طرائق تمثيل الكلمات بصور لا تكون هى صور الأشياء التى تمثلها الكلمات ، ولكن بصور أشياء أخرى لها صوت مماثل للكلمة المطلوبة ، مثال ذلك أن يرمز لك ببوابتين ورأس عن كلمة Gateshead وقد كانت اللغة السومرية لغة مهيأة أحسن التهيؤ لهذا الضرب من التمثيل . وكانت فيما يتضح لغة (مقاطع عدة) غالباً ما تكون جمة العدد مكونة من مقاطع واضحة جداً لا يدخل إليها أى تغيير ، ولو أخذ الكثير من هذه المقاطع بمفرده كان هو أسماء الأشياء الجامدة .

وهكذا تطورت هذه الكتابة المسمارية بغاية السهولة إلى طريقة كتابة مقطعية تحمل فيها كل علامة مقطعاً ، كما يحمل كل جزء فى اللغز مقطعا بعينه .

ولما غزا الساميون سومر استعملوا الطريقة المقطعية فى حديثهم ، وبذلك أصبحت هذه الكتابة علامة تدل على كتابة صوتية . وعلى هذا النحو استعملها الآشوريون والكلدان ، بيد أنها لم تكن كتابة بالحروف بل بالمقاطع . فهذه الكتابة المسمارية الشكل عمت مدى أجيال طويلة آشور وبابل والشرق الأدنى عامة ، ولا يزال بقاؤها ملحوظا فى كثير من حروفنا الأبجدية إلى هذا العصر .

٣ — الكتابة بالحروف الأبجدية

ولكن فى غضون ذلك الوقت نفسه ظهرت طريقة أخرى للكتابة فى مصر وعلى ساحل البحر المتوسط . وربما أمكننا أن نجد بداياتها فيما كان يدون الكهنة المصريون من

الـكتابة بالصور وهى المعروفة ، « بالهيروغليفية » ، وقد أصبحت هذه أيضا بالطريقة المعتادة ، طريقة علامات صوتية إلى حد ما . وكانت الـكتابة الهيروغليفية كما نشاهدها على الآثار المصرية تتكون من أشكال زخرفية ولـكنها جامدة متقنة . على أن الـكهنة المصريين كانوا يستعملون فى أمثال أغراضهم الخاصة بكتابة الرسائل وتدوين الوصفات وما شا كلها طرازا من هذه الحروف أكثر يسرا وبساطة ومرونة هو (الهيراطيقية) .

وقد نشأت إلى جانب هذه الـكتابة الهيراطيقية كتابة أخرى ضاعت علينا فى الوقت الحاضر ، كتابة مشتقة إلى حد ما من الهيروغليفية ، وتناولتها شعوب عديدة غير مصرية فى البحر المتوسط هم الفينيقيون واللوبيون والليديون والـكريتيون والـكات الأيبيريون. وكانت تستعمل عندهم فى الأعمال والتجارة . وقد استعير عدد من حروفها من الـكتابة المسمارية المتأخرة . ولما أن أصبحت هذه الـكتابة فى يد الأجانب انقطعت صلتها بأمها ، إن جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير ، وفقدت كل صفاتها التصويرية القديمة إلا قليلا منها . ولم تعد بعد هذا طريقة صور كتابية ولا طريقة رسوم رمزية ، بل أصبحت فى بساطة ، طريقة علامات تدل على الصوت أى أحرفا أبجدية .

كان هناك ، فى البحر المتوسط ، عدد من هذه الأبجديات تختلف بعضها عن بعض اختلافا بينا . ومما هو جدير بالملاحظة أن الأبجدية الفينيقية (وربما كان غيرها يحذو فى ذلك حذوها) كانت تحذف حروف الحركة . والراجح أنهم كانوا ينطقون حروفهم السا كنة بغاية العسر . كانت لديهم حركة غير مقررة الصفة ، كما لا يزال الحال فيما يقال عند قبائل جنوبى بلاد العرب . زد على ذلك أن من الراجح جدا ألا يكون الفينيقيون قد استعملوا أبجديتهم بادئ ذى بدء فى الـكتابة ، قدر استعمالهم إياها فى مهر حسابات أشغالهم وقوائم جردهم ، بأول حروف من أسمائهم .

وقد وصلت إحدى هذه الأبجديات التى فى البحر المتوسط إلى يد الإغريق بعد عصر الإلياذة بزمن طويل ، فشرعوا يشتغلون فيها من فورهم ليجعلوها تعبر عن تلك الأصوات الواضحة الجميلة ، التى يمتاز بها حديثهم الآرى الرفيع التطور . وكانت تلك الأبجدية تحتوى بادئ الرأى على حروف سا كنة أضاف إليها الإغريق الحروف المتحركة ، ومن ثم أخذوا يكتبون بها بغية التدوين ، وبقصد إعادة آثار شعرائهم ، وتثبيتها . وعلى هذا النحو ابتدأ الأدب المكتوب جدولا رقراقا ، ما لبث أن أصبح طوفانا طاميا .

٤ — مكانة الكتابة فى الحياة الإنسانية

هكذا نبتت الكتابة من الرسم فى سلسلة من خطوات طبيعية جدا ، وكانت فى بادئ الأمر وعلى مدى عصور طوال موضع اهتمام عدد قليل من الناس فى طبقة خاصة ومناط سرهم . وكانت مجرد شيء إضافى يلحق بسجل الصور . ولكن كانت لها مزايا بعينها واضحة ملموسة منفصلة تمام الانفصال عن القدرة المتزايدة على التعبير . ويمكن الحصول عليها بجعل الكتابة أقل وضوحا قليلا من الصور المباشرة وبالتواضع عليها وجعلها رمزا للحروف . ومن بين هذه المزايا أن الرسائل التى كانت تكتب على هذه الشاكلة كان فى الإمكان إرسالها مفهومة لدى المرسل واضحة عند المتسلم ، ولكنها مبهمة على غير العليم بها . وكانت لها مزية أخرى هى أنه كان يستطيع الإنسان بواسطتها أن يدون أمورا عدة ، ويساعد بذلك ذاكرته وذاكرة أصدقائه ، دون أن يكشف شيئا من خفايا نفسه للسوقة والعامة . فمن أقدم الكتابات المصرية مثلا ، وصفات طبية وتعويذات سحرية .

وكانت الحسابات والرسائل والوصفات وقوائم الأسماء وأخبار الرحلات هى أقدم الوثائق المكتوبة . فلما انتشر فن الكتابة والقراءة ظهرت تلك الرغبة العجيبة ، أو تلك الرغبة المحزنة الشديدة الانتشار بين المخلوقات الإنسانية : فى إدخال الدهشة على الغريب والقاصى بكتابة أشياء شائقة لافتة للأنظار ، أو إذاعة سر يعرفه المرء ، أو فكرة عجيبة ، بل اسم المرء نفسه ، حتى إذا مضى المرء لسبيله لفت ذلك نظر قارئ آخر وذهنه . وكان الناس حتى فى سومر يخدشون على الجدران . ويلاحظ أن كل ما بقى لدينا من العالم القديم ما بين صخوره ومبانيه مكسو بطبقة ثقيلة من الأسماء والجمل الطنانة بالفخر التى يكتبها ملوك الجنس البشرى ورواده فى الدعاوة والإعلان . وربما كانت نصف الكتابات الأولى فى ذلك العالم القديم على هذه الشاكلة ، إذا أضفنا إلى كتابة الأسماء والتفاخر بالنفس نقوش القبور التى يرجح أن يكون المرء فى كثير من الأحيان ، قد أعدها قبل وفاته .

ولقد كانت الرغبة فى الاعتداد بالذات متجلية فى أمثال نقش الاسم وفى حب التفاهم السرى — مدعاة لحفظ الكتابة فى مجال ضيق زمانا طويلا . ولكن الرغبة الأخرى ، وهى أكثر ملاءمة للرجال من الناحية الاجتماعية ، وأعنى بها الولع برواية الأخبار ، كانت تعمل عملها فى النفوس . ولم يتكشف مدى ما يستطاع بلوغه من توسيع نطاق المعلومات والتقاليد وتحديد معناها واستقرارها إلا بعد أزمنة مديدة . ولعل مما يشوق القارئ فى هذه النقطة ،

ولهذه المناسبة أن نتذكر حقائق أولية معينة عن الحياة ، حقائق أكدناها وأبرزناها فى فصولنا الأولى لأنها لا تقتصر على توضيح ما للكتابة من أثر عظيم فى تاريخ الإنسان ، بل تبين الدور الذى يحتمل أن تلعبه فى مستقبله .

أولا : لا يغرب عن بالنا أن الوعى العام فى بدء الحياة لم يكن متصل الحلقات بل كان تكرارا متقطعا حين كان الكبير يموت وكان الصغار يولدون .

فإن مخلوقا من أمثال الزواحف يحمل فى عقله مقدرة لقبول التجارب ، ولكن كلما مات فرد ، تموت معه تجاربه . ومعظم دوافعه غريزية صرفة وكل ما له من حياة عقلية هو ثمرة الوراثة (ميراث الميلاد) .

ثانيا : على أن الثدييات العادية ضمت إلى الغريزة الصرفة ما ورثته من تقاليد الخبرة التى تنتقل بطريق محاكاة الأم ، وتنتقل فى حالة الحيوانات ذات العقلية النامية ، من أمثال الكلاب والقطط والقردة بطريق الناموس أو السُّنة الصامتة أيضا . فمثلا تعاقب القطة الوالدة صغارها على سوء السلوك . وهكذا تفعل أمهات القردة والبابون .

ثالثا : أضاف الرجل البدائى إلى مقدرته على نقل التجارب الفن والكلام التمثيليين ، فابتدأ بذلك سجل الصور والتماثيل وابتدأت معه التقاليد الشفوية .

ولقد ارتفعت التقاليد الشفوية إلى أقصى ما قدر لها من تطور على يد المغنين المتجولين وكان أثرهم عظيما فى بلوغ اللغة إلى ما هى عليه اليوم .

رابعا : وباختراع الكتابة التى تطورت عن تدوين الصور ، غدا العرف الإنسانى أكثر اكتمالا وأعظم ضبطا . وأخذت التقاليد الشفوية تتخذ سمة الثبات والقرار بعد أن كانت حتى ذلك العهد تتغير من عصر إلى عصر ، وبعد أن أصبح الناس ، الذين تباعد بينهم مئات الأميال ، يستطيعون الآن أن يوصلوا أفكارهم بعضهم إلى البعض . وأخذ عدد متزايد من المخلوقات الإنسانية يقتسم فيما بينه عرفانا مكتوبا مشتركا ، وإحساسا مشتركا بالماضى والمستقبل ، وأصبح التفكير الإنسانى عملية أوسع مجالا ، تستطيع فيها مئات من العقول أن يتفاعل الواحد منها مع الآخر فى نواح مختلفة ، فأصبح عملية دائبة الحركة يتزايد نشاطها والمثابرة عليها .

خامسا : لم يتكشف للناس ما للكتابة من شأن عظيم وخطر جليل أمد مئات من الأجيال . لأن فكرة نشر المؤلفات بأخذ طبعات من نسخة أولى منها لم تخرج إلى حيز الوجود طوال أزمان مديدة . إذ كانت الوسيلة الوحيدة لنشر المؤلفات هى عمل نسخة واحدة منها فى وقت واحد . وهذا أمر جعل الكتب غالية الثمن نادرة الوجود . فإن الميل إلى الاحتفاظ

بسرية الأمور ، وبجعلها ضربا من النحلة والغموض ، واكتساب التفوق والامتياز بذلك على جمهرة الناس ، كان هذا الميل على الدوام شديد القوة والتسلط على أذهان الناس .

ولم يحدث قط أن أقبلت جماهير الجنس البشرى على القراءة ، أو تطلعت إلى كنوز العرفان والأفكار التى سبق أن اختزنتها بطون الأسفار إلا فى هذه الأيام .

ومع هذا ، فمنذ نشأت الكتابات الأولى أخذ ضرب جديد من التقاليد ينشأ فى أذهان الناس ، وهو ضرب دائم خالد . ومنذ ذلك الحين أخذت الحياة — ممثلة فى الإنسان — تغدو يوما فيوما ، أشد وعيا لنفسها والعالم المحيط بها .

وإنه لخيط دقيق من النماء العقلى ذلك الذى نقتفى أثره فى التاريخ ، فى عالم كان زاخرا فى مستهل حياته بالجهالة الصارخة والنسيان . فهو أشبه شىء بشعاع من الضوء وحيد ينساب إلى داخل حجرة مظلمة خلال فرجة ضيقة فى باب قد أخذ ينفتح ؛ ولكنه يتسع فى بطء ومهل ، فكأنما كان الضوء يكبر وينمو . وأخيرا جاءت حقبة من تاريخ أوربا أخذ الباب عندها ينفتح فى سرعة تفوق الأولى ، تدفعه يد الطابعين . فسطع ضياء العرفان . وبينا ضياؤه يسطع لم يعد امتيازا تختص به أقلية محدودة . فأما فى أيامنا هذه ، فإن ذلك الباب يتحرك موسعا فتحته ، فيزداد لذلك سطوع الضياء من خلفه . وهو لا يزال مخالطا للضباب ولا يبرح يسطع خلال سحب من القتام والبخار ، ولم يصل الباب بعد إلى منتصف فتحته . ذلك أن عالمنا الآن لا يعدو بداية العرفان .

الفصل السادس عشر

آلهة ونجوم . كهنة وملوك

---

١ — ظهور الكاهن فى التاريخ

عندما شخصنا بأبصارنا إلى الكائنات الإنسانية وهى تتجمع فى متجمعات جديدة هى المدن التى أخذت فى الظهور فى مصر وأرض الجزيرة ، ألفينا المعبد أو مجموعة المعابد من أشد الأشياء بروزا فى كل هذه المدن .

وقد ينشأ فى بعض الحالات إلى جوار ذلك المعبد فى تلك النواحى قصر ملكى ، ولكن غالبا ما يعلو المعبد على القصر . ويصدق وجود هذا المعبد أيضا على المدن الفينيقية كما يصدق على المدن الأغريقية والرومانية عند نشوئها . فإن قصر كنوسوس بما فيه من أمارات الراحة واقتناص اللذات ، وكل مدن الشعوب الأيجية المتصلة به صلة القرابة ، تحتوى على مقاصير دينية . ولكن يوجد أيضا فى كريت معابد منفصلة عن دوارات قصور المدن . ونحن نعثر عليها فى كل أرجاء العالم المتمدين القديم : فحيثما ألقت المدنية البدائية عصاها فى كل من إفريقيا أو أوربا أو آسيا الغربية قام معها معبد ، وحيثما اشتدت المدنية قِدما شأنها فى مصر وسومر زاد معبدها ظهورا . ولم يفت هانو عندما وصل إلى ما زعمه أشد جهات أفريقيا توغلا فى الغرب أن يقيم معبدا للإلـٰه (هرقل) .

ويلاحظ أن بدايات المدن وظهور المعابد صنوان متلازمان فكلا الأمرين متعلق بالآخر وإذن فبداية المدن هى بنفسها مرحلة المعبد التاريخية . فإن مجتمع المدنية نشأ أول ما نشأ حول مذبح التضحية الدموية التى تقدم وقت البذار . فكان فى كل من هذه المعابد مقصورة مقدسة ، وكان يعلو على تلك المقصورة المقدسة فى العادة تمثال عظيم جرت العادة أن يكون ذا هيئة فظيعة وحشية نصفها حيوانى ، وأن يقوم أمامه مذبح للقربان . ومع هذا فإن التمثال فى المعابد الأغريقية والرومانية فى مرحلة متأخرة عن هذه ، كان على وجه العموم تمثالا لإلٰه فى

صورة إنسانية ، وكان هذا التمثال إما أن يعد صورة للرب أو رمزا له ، أو الرب نفسه الذى من أجل عبادته أقيم المعبد . وكان يرتبط بالمعبد عدد من الناس كثيرا ما بلغ حد الوفرة ، يأتلف من الكهنة والكاهنات وخدمة المعبد ، وهم يرتدون فى العادة ثوبا يميزهم ، ويكونون جزءا هاما من سكان المدينة . ولم يكونوا ينتسبون إلى أى دوار ، بل يؤلفون دوارا من نوع جديد خاص بهم . كانوا طبقة منفصلة عن بقية الطبقات تجتذب إليها الأذكياء من أفراد الشعب عامة .

وكان الواجب الأول لهذه الكهانة هو عبادة رب المعبد وتقديم الأضاحى له . ولم تكن هذه الأمور تجرى فى أى وقت كان ، بل فى أوقات ومواسم خاصة . وكان تقديم قربان الحصاد أول هذه التضحيات وأسبقها . ذلك أنه داخل حياة الإنسان عند رعيه الحيوان وزراعته الأرض إحساس بوجود فارق بين أجزاء السنة وبوجود فارق بين اليوم واليوم . فكان المعبد يسهر على حساب هذه الأيام بما يقيم من أعياد . وبذلك كان فى المدن القديمة أشبه الأشياء بساعة المكتب وتقويمه .

بيد أنه كان كذلك مركزا لمهمات أخرى عدا عمله الأول الخاص بالتضحية الموسمية وملاحظة التقويم . إذ فى المعابد الأولى دار تسجيل الحوادث ورصد العمليات الحسابية وفيها نبتت أصول الكتابة وأشرق ضياء العرفان ، ولم يكن الناس ليذهبوا إلى المعبد زرافات لحسب لحضور الأعياد بل وحدانا طلبا للمعونة . إذ كان الكهنة الأولون أطباء العالم وسحرته . وإنك لتجد حتى فى أقدم المعابد تلك النذور الصغيرة التى يقدمها أصحابها لغاية خاصة معينة والتى لا يزال الناس يقدمون حتى اليوم أمثالها فى معابد الكنائس الكاثوليكية ، ما بين نماذج صغيرة لقلوب رفعت عنها الهموم أو أطراف استردها أصحابها . تلك النماذج هى آيات الشكران على استجابة الدعوات وقبول النذور .

ومن الغريب أنك تجد بعض أساليب إدارة الأعمال والصناعة قائمة موجودة فى معبد القمر بمدينة أور منذ أربعة آلاف سنة خلت عند ما أصبح ذلك المعبد مالكا هاما للأراضى . كانت لهم حسابات دقيقة يحصون بها الدفعات التى يدفعها عينا من يزرعون الأرض . وكانت تعطى للدافعين إيصالات لها صور مطابقة للأصل . كانت النساء المتبتلات والإماء يشتغلن فى مصانع المعبد يغزلن وينسجن الصوف المقدم هدية للمعبد ويتسلمن جرايات من الطعام تتناسب وجهدهن فى العمل الذى كان يسجل بغاية العناية .

وواضح أننا نجد فى المعبد ذلك العنصر غير المهم نسبيا فى حياة الصيادين الأول وأعنى به رجل الطب وسادن المقصورة المقدسة وجالب الحظ ، بعد إذ تطوروا مع تطور المجتمع كما

تطوروا بوصفهم جزءا من تطور المجتمع من الهمجية إلى الاستقرار المتمدن ومن العيش العرضى إلى العمل المنظم ، فانتقلوا بذلك إلى حال زادت فيه قيمتهم أيما زيادة ، ويضارع هذا وضوحا أن تلك المخاوف البدائية من بعض الكائنات العجيبة ، وذلك الأمل فى تلقى المعونة منها والرغبة فى استرضاء القوى المجهولة والرغبة البدائية فى التطهر والتلهف البدائى إلى القوة والعرفان التى ناقشناها فى الفصل الذى عقدناه عن الفكر القديم، قد تضافرت جميعا على إحكام هذه الحقيقة الاجتماعية الجديدة : وأعنى بها المعبد .

تجمع المعبد تبعا لضرورات مركبة ، فإنه نما عن أسس وحاجات كثيرة . وكان الإله (أو الإلهة) المشرف على المعبد من خلق مخيلات كثيرة كما كان مكونا من كافة أنواع الدوافع والأفكار وأشباه الأفكار ، وإنك لتجد هاهنا إلها غلبت فيه فكرة معينة وهناك إلها آخر ذا فكرة أخرى . وقد قضت علينا الضرورة أن نشدد القول فى أهمية هذا الارتباك وهذا التنوع فى أصل الآلهة ، لأن هناك الآن كتبا كثيرة تبحث فى أصل الأديان ، فترى كاتبا يصر فى بعضها على هذه الفكرة الرئيسية ، وكاتبا ثانيا يلح فى شأن تلك الأخرى كأنما هى الفكرة الوحيدة . وقد لاحظنا كثيرا من هذه الآراء المتناقضة فى الفصل الذى عقدناه على (الفكر الأول) . مثال ذلك أن العلامة ماكس مُلّر استمر يضرب فى زمانه على نغمة فكرة أقاصيص الشمس وعبادة الشمس . فهو يود لو حملنا على أن نعتقد أن الرجل الأول لم تكن له قط شهوات أو مخاوف ، أو تلهف على القوة ، أو أنه ما كانت تحل به الكوابيس وما تلم به الأوهام ، بل كان شخصا دائم التأمل وتقايب الفكر فى مصدر النور والحياة السماوى الخيّر . نعم أن الفجر وشروق الشمس حقائق شديدة الحركة فى الحياة اليومية ، بيد أنهما لا يزيدان عن حقيقتين اثنتين وسط مجموعة ضخمة من الحقائق . فالرجال الأولون منذ ثلاثمئة أو أربعمئة من الأجيال كانت لهم عقول شديدة الشبه بعقولنا . فالخيالات التى نتخيلها فى طفولتنا وشبابنا ربما كانت خير مفتاح يفتح أمامنا مغاليق الأسس التى نبتت عليها الديانات الأولى ، وكل من استطاع أن يسترجع تلك الخبرات العقلية يفهم بغاية السهولة ذلك الإبهام والفظاعة والوحشية والتعدد الذى لا ترابط فيه ، مما كان يحيط بالآلهة الأولى ، كانت هناك آلهة شمس ولا شك ، فى أول تاريخ المعابد ، ولكن كانت هناك أيضا آلهة على شكل فرس البحر وآلهة من الصقور ومن البقر ، كما كانت ثمة آلهة بشعة ما بين ذكر وأنثى ، كذلك وجدت آلهة للنقمة والعذاب . وآلهة ذات أناقة وظرف يستهويان الألباب ، وثمة آلهة ليست غير كُتل من حجر النيازك سقطت من السماء بشكل يحير الأفكار ، هذا إلى آلهة هى أحجار طبيعية تصادف أن كان

لها شكل شاذ يترك فى النفس بعض الأثر . وربما كانت بعض الآلهة من أمثال مردوك فى بابل ، وبعل (المولى) لدى الفينيقيين والكنعانيين وما أشبههما لا تزيد فى حقيقة أمرها فى فى أكثر الاحتمالات عن كائنات عجيبة جادت بها الأساطير ، من أمثال ما يخترعه صغار الأولاد لأنفسهم اليوم . ويقال إنه بمجرد مايفكر الشعب المستقر فى إلـه من الآلهة ، يخترعون له زوجة . هكذا كان معظم الآلهة المصرية والبابلية إذ كانوا متزوجين . على أن آلهة الساميين المترحلين لم يكن لديها هذا الميل إلى الزواج ، فإن سكان السهوب الشحيحة بالطعام أميل إلى الزهد فى الأطفال .

ويكاد يكون إعطاء الإلـه منزلا يقيم فيه أقرب إلى الطبيعة من إعطائه زوجة تؤويه . وإلى ذلك المنزل يستطاع إرسال الهدايا ، وطبيعى أن يكون الرجل العارف أى الساحر هو سادن ذلك البيت . ومما يزيد كثيرا فى هيبة الإلـه أن يضفى عليه شىء من العزلة والترفع . وإنها لخطى طبيعية جدا يسيرة الفهم تلك التى تم بها التطور السريع الذى أصابه المعبد الأول والكهانة الأولى حين كان الشعب الزراعى يستقر ويتزايد . واستمر ذلك الحال حتى مرحلة المعبد المستطيل الحاوى التمثال والمقصورة المقدسة والمذبح فى طرف منه وذلك الصحن الطويل الذى كان يقف فيه المتعبدون فى الطرف الآخر .

وطبيعى أن يصبح المعبد مركز التفكير فى ذلك المجتمع الآخذ فى النمو نظرا لأنه يحوى سجلات وأسراراً ، ولأنه مركز للقوة والمشورة والإرشاد ، ولأنه يستدعى ويجتذب إلى خدمته أذكى الناس وأوسعهم خيالا . ولقد استمر موقف عامة الناس الذين يفلحون الأرض ويرعون الأنعام حيال المعبد ، موقفا بسيطا يخالطه الإيمان به . فهنالك يعيش الإلـه الذى لا يراه الناس إلا نادرا والذى يرفعه خيالهم إلى أعلى عليين والذى كان رضاه مبعث النجاح ، وغضبه أصل الشقاء ، وكان من الميسور استرضاؤه بالهدايا الصغار ، وكان على مثل تلك الدرجة من عظم المنة وسعة العرفان بحيث لم يكن يجوز للإنسان أن يقلل من احترامه له ولو فى دخيلة نفسه ، بيد أن الكهنة كان يخالجهم قدر معين من التفكير على مستوى يكاد يعلو هذا الذى ترى .

٢ — الكهنة والنجوم

قد نستطيع أن نلاحظ هاهنا حقيقة شائقة جدا تحيط بالمعابد الكبرى فى مصر ويجوز أن تنطبق على بابل — ولسنا نستطيع أن نقطع برأى فيما يتصل بمعابد بابل لأن آثار معابدها غير واضحة تمام الوضوح — وذلك أنها كانت تتجه اتجاها خاصا . فالضرب الواحد من المعابد

كان يبنى بهيئة تجعل المقصورة المقدسة والمدخل متجهين على الدوام اتجاها لا يتغير . وكان ذلك الاتجاه فى المعابد البابلية هو الشرق نصا حتى ليواجه الشمس فى يومى ٢١ مارس و٢١ سبتمبر ، وهما يوما الاعتدالين ، ومما يجب ملاحظته أن نهرى الدجلة والفرات يفيضان إبان الاعتدال الربيعى . زد على ذلك أن أهرام الجيزة متجهة أيضا ناحيتى الشرق والغرب وأن أبا الهول يواجه الشرق نصا ولكن عددا عديدا من المعابد المصرية فى جنوب دلتا النيل لا تتجه إلى الشرق بالضبط وإنما تتجه إلى النقطة التى تشرق فيها الشمس فى أطول يوم فى السنة؛ والفيضان فى مصر قريب جدا من ذلك التاريخ . ومع ذلك فإن بعض المعابد تكاد تتجه شطر الشمال ، على حين يتجه بعضها الآخر صوب مشرق « الشمرى اليمانية » ، أو إلى مشرق بعض النجوم البارزة الأخرى .

وتتصل الحقيقة الخاصة بالتوجيه نحو الجهات بالحقيقة التى تقول : إنه نشأت منذ القدم علاقة ترابط وثيق بين آلهة متنوعة وبين الشمس والكواكب الثابتة المختلفة . ومهما يكن تفكير عامة الناس خارج المعبد ، كان الكهنة قد أنشأوا يربطون حركات تلك الأجرام السماوية بالقوة الكامنة فى المقصورة المقدسة . فإنهم كانوا يفكرون فى الآلهة التى يخدمون ، ويفكرون فى إضافة معانى جديدة إليها وكانوا حول سر النجوم فى تفكير عميق . وكان جد طبيعى منهم أن يظنوا أن هاته الأجسام المضيئة المتناثرة هنا وهناك والتى تدور فى مثل ذلك الوقار والسكون الرائعين لا بد أن تكون عامرة بالتنبؤات للجنس البشرى .

وكان هذا التوجيه إلى الشرق فى المعابد ، مجتمعا إلى أشياء أخرى ، مما يساعد على تثبيت عيد رأس السنة الجديدة وتوطيده . ففى صباح يوم واحد فى السنة ، صباح وحيد لا ثانى له فى معبد يولى وجهه شطر مطلع الشمس فى يوم منتصف الصيف ، تهوى تباشير أشعة الشمس خلال ظلمات المعبد منطلقة فى الممر الضيق بين أعمدة المعبد فتنتشر ألوية الضياء من حول الرب فوق المعبد وتجعله يتألق مجداً وعزة ، وكانت أبنية المعابد القديمة المعتمة الضيقة يقصد فى تخطيطها فيما يبدو إلى بعث مثل ذلك الأثر فى النفوس . ولا شك أن الناس كانوا يجتمعون فى غسق الليل قبيل الفجر ، وترتل التراتيل فى بهمة الظلمة وتقدم القرابين ، وكان الرب هو الوحيد الواقف صامتا لا يراه أحد على حين تقدم إليه عند ذلك الصلوات والتوسلات ، وعندما تشرق الشمس من الخلف يتألق الرب بغتة من فوق أعين المتعبدين وقد أرهف الظلام حساسيتهم .

وما تقدم ذكره إنما هو على الأقل تفسير لاتجاه المعبد نحو الشرق على حد ما يراه عالم

ضليع فى هذا الموضوع هو السير نورمان لوكيار . وليس التوجيه نحو الشرق ظاهرة تنفرد بها غالبية معابد مصر وآشور وبابل والشرق فحسب ، بل يوجد أيضاً فى المعابد الإغريقية ؛ ونصب ستون هنج موجه إلى مشرق الشمس فى منتصف الصيف ، وعلى هذه الشاكلة تقوم معظم الدوائر الجندلية فى أوربا . ومذبح السماء فى مدينة بكين موجه صوب شمس منتصف الشتاء ففى زمان الإمبراطورية الصينية (أى إلى ما قبل بضع سنين مضت) كان من أهم واجبات الإمبراطور تقديم الضحايا والصلاة فى ذلك المعبد فى يوم منتصف الشتاء مع الابتهال والدعاء أن تكون السنة سنة يمن وبركة .

ويجب أن يعلم هذا القسم الخاص بتوجيه المعابد بعلامة استفهام ، لما يحوطه حتى اليوم من إبهام وغموض ، ولقد يبدو السير نورمان لوكيار شديد الشوق إلى أن يجد المعابد فى حالة توجيه شرقى ، على أن الآراء الحديثة قامت بالشىء الكثير فى تقويض آرائه ونقض أقواله عامة ، والأهرام موجهة نحو الجهات الأربع لا جرم ، ولكن تحيط الشكوك بأن قد كان لكثير من المعابد المصرية أى توجيه مقصود قط .

وتهيأ للكهنة المصريين من قبل ٣٠٠٠ ق . م أن يصوروا النجوم فى « مجاميع نجمية » ويقسموا مناطق البروج فى الفلك اثنى عشر قسما .

٣ — الكهنة وفجر العلوم

هذا الدليل الواضح الذى ينم عن وجود البحوث الفلكية وعن تطور فى الآراء الفلكية هو أجلى شاهد على النشاط العقلى البالغ الذى كان يجرى بين جدران المعبد على صفحة الأزمان الغابرة . ورب كاتب من كتاب هذا العصر يميل ميلا لا يخلو من الغرابة ، إلى الغض من الكهانات وإلى إطلاق اللسان فى الكهنة كأنما كانوا على الدوام من المحتالين وأصحاب الأحابيل ، الذين يتخذون من بساطة الجنس البشرى فريسة سائغة . ولكنهم فى الواقع قد ظلوا زمانا طويلا وهم الطبقة الكاتبة الوحيدة والجمهور القارئ الوحيد والعلماء الوحيدون . والمفكرون الوحيدون . وهم كذلك الطبقات التى تحترف الحرف الفنية المهنية فى ذلك الزمان ولم يكن أى إنسان ليستطيع أن يحصل قط على أية حياة عقلية ، كما لم يكن يستطيع الدخول إلى حظيرة الأدب أو ارتشاف العرفان إلا على يد الكهنة . ولم يقتصر أمر المعابد على كونها المراصد والمكاتب وعيادات المرضى فحسب ، بل لقد كانت متاحف ودورا للكنوز . ألا ترى إلى النسخة الأصلية من كتاب البريپلوس لهانو كيف كانت محفوظة فى أحد معابد مدينة

قرطاجنة وإلى جلود الغوريلا التى اقتنص كيف كانت معلقة مكنوزة فى معبد آخر . وكل ماله قيمة دائمة فى حياة المجتمع كان المعبد مكتنزه ومثواه .

ولقد نقل هيرودوت المؤرخ اليونانى القديم (٤٨٥ — ٤٢٥ ق م) معظم مادة مصنَّفه العظيم عن كهنة الأقطار التى اجتازها ، وغنىّ عن البيان أنهم كانوا يلقونه بالسماحة والإكرام ويضعون مصادرهم الجسام تحت تصرفه المطلق . فأما خارج المعبد فكان العالم لا يزال عالم كائنات بشرية أمية نقية الصحيفة خالية الوفاض من كل تفكير ومن كل نظر فى الأمور ، تعيش من يوم إلى آخر من أجل نفسها ليس غير . هذا إلى أنه لا يوجد إلا قليل من الشواهد الدالة على أن جماعة العامة كانت تحس بأن الكهنة تخدعها ولا كان يخالج أفئدتها إلا إحساسات الحب والثقة بالكهانات الأولى . بل بلغ الأمر أن كبار الفاتحين فى العصور الأكثر تأخرا كانوا حريصين على أن يضعوا أيديهم فى أيدى كهنة الشعوب والمدائن التى يبتغون طاعتها مظهرين بذلك ثقتهم بهم وإكبارهم إياهم بسبب عظيم نفوذ هؤلاء الكهنة على عقول الناس .

ولا ريب أنه كانت هناك فروق عظيمة بين المعبد والمعبد وبين النحلة والنحلة فى روح الكهانة ونوعها ، فكان بعضهم فيما يرجح من القساة الغلاظ الأكباد ، وكان بعضهم ممن رُكب على الطمع والفساد ، وكان كثير منهم أغبياء مستمسكين بالمبادئ النظرية قد أعمى استمساكهم الجامد بالتقاليد بصيرتهم . ولكن يجب أن نتذكر على الدوام أنه كانت هناك حدود ينتهى عندها انحطاط الكهانة أو عجزها وعدم كفايتها ، وأنه كان لا بد لها من أن تحافظ على ما استحوذت عليه من العقل العام . ولم تكن لتستطيع أن تتجاوز ما يستطيع الناس قبوله سواء اتجهت بهم نحو الظلمة أو صوب النور وكان سلطانها يقوم فى نهاية الأمر ، على إقناعها الناس بأن كل أضرب نشاطها تتسم بالعطف والرحمة .

٤ — الملك ضد الكاهن

وإذن فقد كانت أقدم الحكومات المدنة حكومة كهنوتية . ولم يكن الملوك والقواد هم الذين دفعوا بالناس إلى المحراث وإلى حياة القرار . بل يرجع الفضل فى ذلك إلى الأفكار الخاصة بالآلهة ووفرة الخيرات ، وهى تعمل عملها بالإضافة إلى انقياد عامة الرجال وإذعانهم . فكل من نعرف من حكام « سومر » الأولين كانوا بلا استثناء من الكهنة ، الذين لم يرتقوا عروشهم إلا لمجرد أنهم رؤساء الكهنة . وكانت للحكومات الكهنوتية نقائصها ومواطن

ضعفها كما كانت لها قواها الخاصة بها الشديدة الرسوخ فيها . وسلطان الكهانة ينبسط على شعبها دون غيره . وهو ضرب من إخضاع الناس بما يخالجهم من مخاوف دفينة وآمال خفية . وتستطيع الكهانة أن تجمع شعبها للحرب ، على أن نزعتها التقليدية وكل وسائلها المتوارثة لا تخلق منها أداة صالحة للقيادة الحربية . وإن شعبا يقوده كاهن ضد عدو خارجى لشعب ضعيف واهن .

هذا إلى أن الكاهن إنما هو رجل نذر نفسه وتدرب على شيء بعينه وكرس حياته له ، فهو رجل ينتمى إلى هيئة خاصة وله بالضرورة شعور حاد بالهيئة التى ينتمى إليها ورابطة الجماعة ، فإنه إنما وهب حياته لمعبده وربه . وفى ذلك نفع جليل تفيده القوة الداخلية لكهانته ومعبده . فهو يعيش ويموت من أجل تبجيل ربه الخاص . على أن هناك فى المدينة أو القرية المجاورة معبدا آخر له رب ثان . فكان ما يشغل باله على الدوام أن يحول بين قومه وبين أتباع ذلك الرب . والنحل الدينية والكهانات متشيعة بطبعها لطائفتها ، فهى تخرج الناس عن عقائدهم وتضمهم إليها ، وهى تتغلب بعضها على بعض ولكنها لن تتحد أبدا . فأول ما نستبينه من وقائع الحوادث فى (سومر) فى ذلك الضوء الخافت المعتم قبل بداية التاريخ ، هو منظر للكهنة وللآلهة ، وهم فى نزاع لا ينقضى . على هذا النحو ظل السومريون متخالفين غير متحدين حتى غزاهم الساميون .

فأما فى مصر فإن ذلك النزاع المستعصى العلاج ترك بين كهاناتها أثره السيء ملحوظا فى كل خرائب المعابد . وكان من المستحيل أن يكون الحال غير هذا الحال وخاصة إذا راعينا العناصر التى نشأت منها الديانات .

وقد تولت من العالم القديم كله منذ خمسة وعشرين قرناً هذه الحال ، التى كان الكاهن فيها صاحب التسلط المطلق ، ولكن كهانة بدائية فى أمريكا تقوم على التضحية وتحكم مدنية بأسرها استمرت إلى عهد متأخر يصل إلى ألف سنة قبل وقتنا هذا . وموطن تلك الكهانة هو أمريكا الوسطى ويُقطان . فأما المكسيك : فكان رجال الكهنوت فيها تحت تاج أشبه شيء بملكية بابل ، وكان كل من المعبد والقصر يعيش إلى جوار أخيه . وكان فى بيرو ملك مقدس يشبه فرعون . أما فى مدنيـة (المايا) التى درست معالمها قبل وقتنا هـذا ، والتى تركت ما تركت من الخرائب المدهشة فى أجمات المكسيك الجنوبية ، وولايات المضيق ، فكانت الطائفة الكهنوتية بها تقيم لنفسها سلطاناً يقوم على الدم والحذلقة العلمية ، ولقد تخطت الكهانات فى كل مكان فى العالم غير هذا ، أوج عزها فى الموسم المناسب ، وأفسحت

المجال لقوى أخرى ، ولكن كهانة (المايا) انقلبت آخر الأمر تطوراً متطرفاً حاداً أدنى إلى صورة كاريكاتورية للنظام الكهنوتى ممسوخة مبالغ فيها . فإنهم أحكموا تقويمهم وعقدوه حتى أضحى أحجية من الأحاجى المعمّاة ودفعوا بطقوس التضحية إلى أقصى درجات الاستثارة الشهوية البهيمية . وفن النحت عندهم ، وهو الذى يبدو فيه التمعل والإتقان إنما هو سجل يضم نوعاً عجيباً من العبث الذى يتجلى فى حلياته بادرة من بوادر الهذيان .

وما لبث سلطان الملوك العلمانيين ، أن استمد قوته من نقطتى الضعف الرئيسيتين ، فى الكهانات جميعاً ، وهما عدم اقتدارهم فى القيادة العسكرية ، وما افتطروا عليه من الغيرة من كل من عداهم من النحل الدينية . وعند ذلك يحدث أحد أمرين . فإما أن يتغلب العدو الأجنبى ويقيم ملكا على الشعب ، وإما أن تأبى كل كهانة أن تخضع للأخرى فيقمن عليهن جيماً قائداً محارباً مشتركا يحتفظ بسلطانه كله أو بعضه أيام السلم . ولا يلبث هذا الملك العلمانى حتى يحيط نفسه بالتدريج بمجموعة من الموظفين ، وأن يتيح له التنظيم الحربى الموكل به أن يشترك فى إدارة أمور الناس . تلك نشأة الملكية ، فمن الكهانة ، وإلى جوار الكاهن نشأ الملك على مسرح التاريخ الإنسانى . فكان الحامى الذى يمد ظلاله على الكاهن ، وليس فى مستطاعنا أن نفهم شطراً كبيراً مما تلى ذلك من التجاريب التى امتحنت بها الإنسانية إلا بوصفها إحكاماً وتعقيداً وتشويهاً تلم بالصراع بين نظامى التسلط على بنى الإنسان هذين : أعنى المعبد والقصر ، سواء أكان ذلك الصراع مقصوداً متعمداً ، أم غير متعمد ولا مقصود .

ولقد وصلت هذه الخصومة إلى أقصى غاية تطورها فى مراكز المدنية الأصلية . فأما الشعوب الهمجية الآرية ، الذين أصبحوا فى النهاية سادة كل المدنيات القديمة فى الشرق ، والعالم الغربى ، فلعلهم لم يمروا قط فى دور حكم المعبد فى سبيلهم إلى المدنية ؛ فإنهم إذ نزلوا على المدنية متأخرين ، وجدوا تلك المسرحية قد انتهى نصفها . فاستعاروا فكرتى المعبد والملكية معاً بعد أن تطورتا فى مدارج الإتقان والتجويد ، على يد الشعوب الحامية والسامية التى غلبوها والتى كانت أكثر منهم مدنية .

وإن الأهمية العظمى للآلهة والكهنة فى تاريخ أرض الجزيرة المبكر لواضحة أشد الوضوح ؛ على أن القصر أخذ يشق طريقه حتى أضحى فى نهاية الأمر فى وضع يهيؤه للكفاح النهائى على السلطة العليا . وتبدأ القصة بأن يكون القصر بإزاء المعبد جاهلا لا صديق له . فالكهنة وحدهم هم القارئون . والكهنة وحدهم هم العليمون العارفون . والناس منهم فى خشية

لا تنقضى . ولكن توافى القصر فرصته فيما كان بين النحل الدينية المختلفة من تنازع . ومن المدن الأخرى ، ومن صفوف الأسرى ، ومن بين النحل الدينية المهيضة ، أو المغلوبة يستطيع القصر أن يحصل على رجال يلمون أيضاً بالقراءة ، ويستطيعون أن يأتوا كثيراً من أفانين السحر . فهو يستطيع أن يُحرش موسى الغريب بالسحرة الآخرين من أبناء البلد . ومن ثم يصبح القصر أيضاً مركزاً من مراكز الكتابة والتدوين ، ويفكر الملك فى شئونه الخاصة ، وينزع إلى السياسة . ويتجه التجار والأجانب إلى بلاطه ، ولئن لم يكن لدى الملك السجلات الوافية ، والعلم الكامل الذى للكهنة ، لقد كان له بأشياء كثيرة جديدة معرفة أوسع وأحدث ، فهو أدنى إلى الحقيقة .

يأتى الكاهن إلى المعبد ، وهو ما يزال حدثاً شديد الحداثة ، ويقضى سنوات عدة تلميذاً مبتدئاً . ومفتاح العلم ، وهو الحروف الثقيلة التى كانت فى الأزمان البدائية ، إنما هو طريق بطىء مضن ، وهو يصبح علامة لوذعياً متحاملا على من عداه أكثر منه رجلا دنيوياً . وإن بعضاً من صغار الكهنة المتوقدى العقول ليكادون يلقون بنظرة حسد إلى خدمة الملك . وهناك تعقيدات وتغيرات جمة تلم بتلك المسرحية (التى دامت عصوراً بأكلها) ، مسرحية الكفاح الذى تواصل خلف ستار المنازعات الظاهرية للكاهن والملك ، بين الرجل العصامى والرجل العظامى . وبين العلم والابتكار . وبين العرفان المؤسس والعادات المستقرة من ناحية والإرادة والخيال الخالقين من ناحية أخرى .

ولم يكن الكاهن على الدوام (كما سنرى بعد) هو الخصم المحافظ الواهن الخيال ، فقد كان الملك فى بعض الأحيان يكافح ضد كهانات ضيقة العطن تقيم العراقيل فى سبيل كل تقدم وكانت الكهانات فى الأحايين الأخرى تقيم صروح المدنية ضد ملوك متوحشين أو أنانيين أو رجعيين .

وهناك حقيقة أو اثنتان تعدان من أبرز حقائق أو حوادث المراحل الأولى لهذا الكفاح الجوهرى فى الشئون السياسية ؛ وهى كل ما نستطيع أن نلحظه ها هنا بين ٤٠٠٠ ق م ؛ وبين أيام الإسكندر .

٥ — كيف كافح (بعل ماردوك) ضد الملوك

كان ملوك المدن فى الأيام الأولى « لسومر وآكاديا » أدنى إلى الكهان منهم إلى الملوك . ولم يتم التمييز بين الكاهن والملك تمييزاً واضحا محددا إلا عندما حاول الغزاة الأجانب أن يوطدوا

الأمر فى أيديهم على أساس النظم القائمة . على أن إلـه الـكهنة ظل السيد الأعلى للأرض والـكاهن والملك على السواء ، كان هو مالك الأرض العام ، وكانت ثروات وسلطات معابده ومؤسساته تحجب ثروات وسلطات الملك . وكان هـذا هو الحال على الأخص داخل أسوار المدينة . وليس حامورابى مؤسس الإمبراطورية البابلية ، إلا واحداً من أقدم الملوك الذين نراهم يقبضون بقوة على شئون المجتمع . وهو يفعل ذلك بمنتهى التأدب فى حق الآلهة فهو يفتتح إحدى مخطوطاته المسجِّلة لـما قام به من مشروعات فى الرى فى سومر وآكاديا بقوله « عندما وكل إلىّ آنوو بعل مقاليد الحكم فى سومر وآكاديا ... » ، وبين أيدينا الآن قانون سنَّـه نفس ذلك الملك حامورابى ، وهو أقدم قانون معروف ، وفى رأس ذلك القانون صورة حامورابى ، وهو يتلقى القانون من مذبعه الإسمى الإلـه شاماش .

وفى تاريخ يسبق صورة حامورابى هـذه تظهر لوحة حجرية كشفت عنها الحفائر أخيراً فى (أور) ، القمر الرب وهو يواجه الملك (أورانجور) ليبنى له معبدا ، كما تبينه أعنى القمر الرب وهو يساعده فى عمليات البناء ، فالملك إذن بمنزلة الخادم من الإله .

وكثيراً ما كان يحدث أثناء غزو المدن حدث ذو خطر سياسى عظيم ، هو حمل ربها إلى معبد فاتحها واتخاذه هناك تابعا . كان هذا الحدث أعظم أهمية من إخضاع الملك للملك .

وقد حمل العيلاميون « ميروداخ » وهو المشترى عند البابليين فلم تشعر بابل باستقلالها ولم يقر لها قرار حتى عاد إلى مكانه الأصلى .

على أنه كان فى بعض الأحيان فى خشية من الرب الذى غزا . فإن فى مجموعة الرسائل الموجهة إلى امنحوتب الثالث والرابع وهى رسائل تل العمارنة بمصر التى سبقت الإشارة إليها ، رسالة من « تشراتا ملك ميتانى » الذى غزا آشور وأخذ تمثال الربة (اشتار) ، ويتضح من تلك الرسالة أنه أرسل ذلك التمثال إلى مصر ، ليعترف من ناحية بسيادة أمينحوتب العليا عليه ، على أنه من ناحية أخرى أرسله لأنه يخاف غضب تلك الربة كما يقول وينكلر ، وتقص علينا التوراة فى الجزء الأول من (صمويل الإصحاح الخامس القسم الأول) كيف أن تابوت عهد الرب ، رب العبرانيين قد حمله الفلسطينيون إلى معبد الإلـهة السمكة داجون فى (اشدود) دلالة على غزوهم للعبرانيين وكيف وقع داجون بعد ذلك فانكسر وكيف أصيب أهل (أشدود) بالأمراض . وفى القصة الأخيرة على الأخص يشغل الإلـه والـكهنة كل المسرح التاريخى . فليس هناك أثر للملك .

إذ لا يلوح أن ملـكا واحداً فى كل تاريخ الإمبراطوريات البابلية والآشورية قاطبة كان

يشعر بسلطته الملكية وطيدة الأركان فى بابل حتى (يتناول يد الإله بعل) أى حتى يقبله كهنة بعل ولدا للرب وممثلا له . وكلما زادت معلوماتنا عن التاريخ البابلى والآشورى تجلى لنا إلى أى حد كانت سياسات ذلك العالم وثوراته واغتصاب الملك فيه ، وتغير الأسرات المالكة والتآمر مع الدول الأجنبية فى إبانه ، أموراً تدور فى غالب الأحوال حول الخلاف بين الكهانات العظيمة العريضة الثراء وبين قوة الملك النامية ، والتى لم تكن بعد قد بلغت أوج قوتها . كان الملك يعتمد على جيشه ، وكان ذلك الجيش فى العادة من المرتزقة الأجانب الذين كانوا سرعان مايلجأون إلى العصيان إن لم تدفع لهم أرزاقهم أو إذا انقطع عنهم السلب ، والذين كانوا أدنى الناس إلى الرشوة ، وقد لاحظنا من قبل اسم (سناخريب) ابن سرجون الثانى بين ملوك الإمبراطورية الآشورية . تنازع سناخريب هـذا وكهانة بابل نزاعا عنيفا فهو لم يتناول قط يد بعل ، وانتهى به الأمر إلى أن ضرب تلك القوة بأن دمر القسم المقدس من مدينة بابل تدميراً تاما (٦٩١ ق م) وبأن نقل تمثال (بعل ماردوك) إلى آشور . ثم اغتاله أحد بنيه . ووجد خلفه (إيسار هادون) (وهو ابنه وإن لم يكن هو نفس الابن الذى اغتاله) أن من المصلحة أن يعيد بعل ماردوك وأن يبنى له معبده ثانية وأن ينتهى إلى الصلح مع الرب .

فأما آشور بانيبال (ويسميه الإغريق ساردانا بالوس) ابن هذا الملك فإنه شخصية شائقة لها أهمية خاصة من ناحية ما نحن بصدده من علاقة الكهانة بالملك . وقد بلغ من أثر صلح أبيه مع كهنة (بعل ماردوك) أن ساردانا بالوس تربى تربـية بابلية بدلا من أن ينشأ نشأة عسكرية آشورية . وأخذ يقتنى الوثائق الطينية القديمة حتى غدا من أعظم جامعيها وأصبحت مكتبته التى اكتشفت حديثا أثمن مصدر للمواد التاريخية فى العالم . ولقد احتفظ بزمام الجيش الآشورى بين يديه رغم سعة علمه وغزا مصر غزوة قصيرة الأمد وقمع ثورة فى بابل وقام بعدد من الحملات الناجحة . وهو يكاد يكون آخر الملوك الآشوريين فإن القبائل الآرية التى كان علمها بالحرب أكثر من خبرتهـا بشئون الكهنوت ، نخص منهم بالذكر (الاسكيذيين) والميديين والفرس ، لبثوا يضغطون من زمن بعيد على آشور من الشمال والشمال الشرقى . ثم كون الميديون والفرس والكلدان الساميون الرحل فى الجنوب تحالفا فيما بينهم لا قتسام آشوريا . وسقطت (نينوى) العاصمة الآشورية فى يد هؤلاء الآريين (٦٠٦ ق . م) .

وبعد انقضاء سبع وستين سـنة على استيلاء الآريين على نينوى ، الأمر الذى أدى إلى التخلى عن بابل للكلدان الساميين خلع كورش الفـارسى الملك نابونيداس آخر ملوك الإمبراطورية الكلدانية (الإمبراطورية البابلية الثانية) وهو والد بلشازار . وكان هـذا

الملك نابونيداس أيضاً ملكا عالي التربية فأظهر الشيء الكثير من الذكاء وسعة الخيال ، وإن لم يظهر فى شئون الدولة ما يلازم عاله من عطن ضيق وأفق محدود . إذ يؤثر عنه أنه قام بأبحاث عن الآثار القديمة ، وإلى أبحاثه تلك يرجع الفضل فى حصولنا على تاريخ محدد — وهو سنة ٣٧٥٠ ق م التى تحدد بالتدقيق عصر سرجون الأول والتى لا يزال كثير من الثقات يعترف بها ويعتمد عليها . لقد كان الملك فخوراً بذلك التحديد فترك من الكتابات المسجلة ما يدل على أنه كان من المجددين فى الدين ، فهو قد ابتنى المعابد وأعاد تنظيمها وحاول أن يركز الديانة فى بابل بنقل عدد من الأرباب المحلية إلى معبد بعل ماردوك . ولاجرم أنه أدرك الضعف والتفكك المحيقين بإمبراطوريته من جراء هاتيك النحل الدينية المتناحرة وكان يجيل فى ذهنه فكرة ترمى إلى توحيدها .

ولكن الحوادث كانت تجرى بسرعة سبقت بها كل هذه التطورات . وأثار تجديده شكوك كهانة بعل وعداءهم إثارة بينة ، فانحازوا إلى الفرس (فدخلت جنود « كورش» بابل بلا قتال) وأخذ نابونيداس أسيراً وأقيم على أبواب معبد بعل حراس من جنود الفرس حيث استمرت الشعائر الدينية بلا تدخل من الغزاة .

والواقع أن (كورش) أقام الإمبراطورية الفارسية فى بابل على بركات من (بعل ماردوك) وأرضى غرائز الكهنة المحافظين على القديم بإعادة الأرباب المحلية إلى مواضعها من معابد الأجداد . ثم رد كذلك اليهود إلى بيت المقدس . وكانت هذه كلها عنده مجرد مسائل تتعلق بالسياسة المباشرة . على أن إدخال الكهانات القديمة الآريين اللادينيين إلى البلاد جرّ عليها شراً مستطيراً جعلها تدفع ثمن استمرار بقاء الشعائر فى معابدها غالياً باهظاً . وكان أولى بهم وأقرب إلى الصواب أن ينظروا فى تجديدات (نابونيداس) ذلك الهرطيق المخلص الجاد ، وأن يصغوا إلى فكراته ، وأن يقابلوا حاجات عالمهم المتغير بما يعوزها من تدابير .

دخل كورش بابل ٥٣٩ ق . م . وما وافت ٥٢١ ق م ، حتى اندلع فى بابل لهيب عصيان جديد ، فما جاءت ٥٢٠ ق م ، حتى أحاط بها ملك فارسى آخر ، هو داريوس (دارا) وأخذ يهدم أسوارها . ولم تمض مئتان من السنين ، حتى كانت الحياة قد ذهبت ذهاباً تاماً من هذه الأماكن المقدسة الموقرة الخاصة ببعل ماردوك وحتى اتخذ البناؤون من معبد بعل ماردوك محجراً يقتلعون منه الأحجار .

الصين | الهند | أرض الجزيرة | بلاد العرب | جوديا (أرض الميعاد) | مصر | روسيا | شرقي البحر المتوسط | أوروبا الغربية

٦٠٠٠ قبل الميلاد
٥٠٠٠ قبل الميلاد
٤٠٠٠ قبل الميلاد
٣٠٠٠ قبل الميلاد
٢٠٠٠ قبل الميلاد
١٠٠٠ قبل الميلاد
عام الميلاد

الثقافة الهليوليثية تحوم حول حوض البحر المتوسط – وتنتشر على امتداد السواحل والأنهار

المرحلة النيوليثية

المرحلة البرونزية

مسور، أريدو، دول مدن أخرى سومرية قائمة

المصري الصميم يظهر
مينا – أول الفراعنة

سومر بين ارتفاع شأن الساميين

الشعوب السامية

الإيبيريون في بريطانيا

الآريون

٢٥٠٠ اتحاد كريت تحت مينوس

ينتشرون جنوبا – يحتكون بالثقافة وفي أسيا الصغرى ويتجهون جنوبا في شمال البحر الأسود وقزوين

٢٣٥٠ سارجون الأول
يؤسس الإمبراطورية الأكادية السومرية

٢٥٠٠ الدائرة الأولى (البدء للتاريخ الصيني)

عصر ستونهنج وآفبرى موجودة

كينوسوس في أوجها

غزو الهكسوس
الأسرة ١٦
الإمبراطورية المصرية

٢١٠٠ حامورابي
الإمبراطورية البابلية الأولى

الكلت والإيبريون
يستوطنون في إسبانيا
آريون التلعات السيدة يطردون الإيبريين
التلعات القطعية في بلاد الغال
بريطانيا ... البريطانيون يقضى
نحو الجنوب في إيطاليا

إبراهيم
صور وصيداء تزدهران

١٤٥٠ للحيثيون
يأخذون نينوى

الآريون يصلون إلى الهند

١٧٥٠ أسرة شانغ

إنشاد الإلياذة

١٣٨٣ أخوتاتون
١٣١٧ رمسيس الثاني

موسى
الفلسطينيون

١١٥٥ تجالات بلسر
يأخذ بابل

١١٢٥ أسرة شاو

سليمان

٨٠٠ تأسيس قرطاجنة
٧٥٣ بناء روما

أسلحة حديدية

٧٢٢ سارجون الثاني
٥٣٩ قورش يفتح بابل
٣٢٣ موت الإسكندر

بوذا

٥٥١ مولد كونفوشيوس

٤٧٠ رحلة هانو
٢٦٤ الحرب البونية الأولى

الإسكندر الأكبر

٢٦٤ أسوكا ملك بهار

٢٥ شي هوانج تي

يوليوس قيصر

(٥٧) خريطة زمانية

٦ — ملوك مصر الآلهة

إن قصة الكاهن والملك فى مصر تشبه قصتهما فى بابل وإن لم تسايرها خطوة بخطوة بأى حال من الأحوال ، فإن ملوك (سومر وآشوريا) كانوا من الكهنة الذين أصبحوا ملوكا ، فكانوا كهنة دخلوا العلمانية . فأما فرعون مصر فليس يبدو عليه أنه سلك نفس ذلك الدرب ، إذ أصبح الملك منذ أقدم العصور يستمتع بقوة وأهمية تفوق ما لأى كاهن من قوة وأهمية ، إذ أنه أصبح بالفعل فى مرتبة تفوق مرتبة كل من الملك والكاهن على السواء .

ولسنا ندرى كيف بلغ الملك هـذه المنزلة . فلم يكن أى ملك من ملوك سومر أو بابل أو آشور ليستطيع أن يحمل قومه على أن يقوموا له بمـا حمل بنـاة الأهرام العظماء فراعين الأسرة الرابعة قومهم على أن يعملوه فى تلك البنـايات الشامخة . وليس بمستبعد أن كان الفراعنـة الأوائل يعدون صورة جسدية لأقوى الأرباب سلطاناً . ويجلس الرب البازى « حوروس » خلف رأس تمثـال خفرع الضخم ؛ على أن ملـكا متأخراً مثـل رمسيس الثالث (الأسرة العشرين) يُمثَّـل على ناووسه (وهو الآن بمدينة كامبريدج) حاملا الرموز المميزة الخاصة بالآلهة الثلاثة الكبرى للنظام الدينى المصرى ، متقلدا صولجانى « أوزوريس » رب النهار والبعث ، وواضعاً على رأسه قرنى البقرة الربة « هاتور » ، هـذا إلى قرص الشمس وريش أمون رع ، وهو لا يلبس رموز هذه الآلهة لمجرد لبسها كما قد يلبس ملك بابل التقى رموز بعل ماردوك ، وإنما « هو » هـذه الآلهة الثلاثة مجتمعة فى شخص واحد .

ويجد الطالب فى كتاب الغصن الذهبى للسير (ج . ج فريزر) الشىء الكثير عن إقدام أهل العصور القديمة على اتخاذ المخلوقات الإنسانية بالإضافة إلى التماثيل أيضاً ، لتمثيل الآلهة . ولسنا نزيد ها هنا عن أن نشير إلى ما بين الملكيات الأسيوية والأفريقية من فرق فى الفكرة واضح جلى .

وإنا لنجد أيضاً عدداً من المنحوتات والصور التى ترمى إلى تقوية الفكرة القائلة : إن الفراعين كانوا أبناء الآلهة الواقعيين . وتعرض علينا سلسلة من المنحوتات بالأقصر فى تفصيل غاية فى العجب أبوة الملك أمنحوتب (أمينوفيس) الثالث المقدسة ، ومولده الربانى . هـذا إلى أنهم كانوا يرون أنه ليس للفراعنة أن يتزوجوا من أفراد الناس العاديين لما يتدنس فيهم

من عترة قدسية ، ولهذا جروا على أن يتزوجوا أقاربهم الداخلين معهم فى أقرب درجات الدم الواحد المشترك ، والذين تمنع الشرائع الآن تزواجهم ، حتى لقد كانوا يتزوجون أخواتهم .

وعلى ذلك فإن النزاع بين القصر والمعبد هبط على التاريخ المصرى من زاوية مغايرة للتى هبط منها على بابل ، ومهما يكن من شىء فإنه حدث على كل حال . ويعطينا البروفسور ماسبرو فى كتابه (ضوء جديد على مصر القديمة) بياناً ممتعاً عما جرى بين أمنحوتب (أمينوفيس) الرابع وبين الكهانات ، وخاصة كهنة الرب الأعظم (آمون رع) سيد الكرنك .

ولم تكن والدة أمنحوتب الرابع من سلالة الفراعنة ، إذ يبدو أن أباه تزوج زواجاً غرامياً بإحدى الرعايا ، وهى سورية حسناء اسمها « تى » . ويتلمس البروفسور ماسبرو بدايات ذلك النزاع فيما يحتمل من معارضة كهنة آمون رع لهذه الملكة وتضايقهم منها ، وهو يرى أنها ربما بثت فى ولدها كره آمون رع كراهة تعصب ، وربما كانت لأمنحوتب الرابع وجهة نظر أرحب أفقاً وأوسع نطاقاً ، ولعله — مثله فى ذلك مثل نابونيداس البابلى الذى عاش بعده بألف سنة — كان يضمر التفكير فى مشكلة الوحدة المعنوية فى إمبراطوريته . ولقد سبق أن لاحظنا أن أمنحوتب الثالث كان يحكم بلاداً تمتد من أثيوبيا إلى نهر الفرات ، وأن مجموعة رسائل تل العمارنة المرسلة إليه وإلى ولده تدل على اتساع نطاق مصالحه ونفوذه . وعلى كل حال فإن امنحوتب الرابع نصب نفسه لإغلاق جميع المعابد المصرية والسورية ليضع حداً لكل العبادات الصغيرة الطائفية فى كل أرجاء مملكته ، وليقيم فى كل مكان عبادة رب واحد هو « آتون » قرص الشمس . فغادر عاصمته طيبة التى كانت فى الواقع مدينة آمون رع أكثر مما كانت بابل فيما بعد مدينة بعل ماردوك ، وجعل عاصمته (تل العمارنة) فغير اسمه من امنحوتب الذى كان يكرسه لآمون إلى أخناتون أى (مجد الشمس) ثم صمد أمام كل كهانات إمبراطوريته ثمانية عشر عاماً ، ومات فرعوناً ، ولم يستطع أحد أن يفل من قوته .

وتختلف الآراء اختلافا بينا فى أمنحوتب الرابع أو أخناتون ، فهناك من يعدونه ثمرة لكراهية أمه لآمون والزوج الخانع الشديد الكلف بزوجته الحسناء . ولا مراء أنه شغف بزوجته حبا شديدا وبذل لها من التكريم الشىء الكثير . ومصر كانت تكرم النساء ، وقد حكمها فى أوقات مختلفة ملكات عديدات . وبعض المنحوتات تمثل الملك وزوجته جالسة على حجره ، ويمثله بعضها الآخر وهو يقبلها فى إحدى المركبات . على أن الرجال الذين يعيشون

تحت سلطان نسائهم لا يحتفظون بإمبراطوريات عظيمة فى وجه عداوة مريرة من جانب أشد الهيئات المنظمة فى مملكتهم نفوذا . ويكتب البعض الآخرعنه يصفونه بأنه (متعصب كئيب) والسعادة الزوجية نادرة فى أحوال كل متعصب كئيب ، بل الأقرب إلى العقل أن نعده الفرعون الذى أبى أن يكون ربا . فليست سياسته الدينية وإظهاره الصريح للعواطف الطبيعية هى فقط التى تبدو مميزة لشخصية قوية شديدة الأصالة ، بل إن أراءه الجمالية الفنية كانت تنزع إلى التجديد . فلقد رفض أن توضع صورته فى الوضع التقليدى الذى توضع فى قالبه الجميل الأملس صور الفرعون الرب فى العادة ، وإن وجهه لينظر إلينا من وراء ثلاثة وثلاثين قرنا ، بوصفه رجلا من بين صفوف الملوك القدسيين الذين لا لون لهم يميزهم .

ولم يكن حكم يمتد ثمانية عشر عاما بكاف لإنضاج الثورة التى تفكر فيها ، إذ عاد صهره الذى خلفه على العرش إلى طيبة (وألقى السلم إلى آمون رع) ، وكان الملوك الأخيرون فى الأسرة الثامنة عشرة ثلاثة ، أحدهم الفرعون (توت عنخ آمون) الذى أثيرت حول اسمه ضجة كبيرة فى السنين الأخيرة .

كان شابا مغمورا تزوج من ابنة أخناتون ووريثته ، ويبدو أنه كان ألعوبة فى أيدى كهنة آمون ، ولسنا ندرى أمات حتف أنفه أم أزيل من الطريق . ولكن حدث بمحض الصدفة أن مقبرته كادت أن تكون المقبرة الفرعونية الوحيدة التى لم تمسسها يد الناهبين ولم يسط عليها الناس فيما بعد ، فظلت سليمة حتى زماننا هذا ، ثم فتحت وارتيدت ، وصحب ذلك ضجة صحفية لا تتناسب مع أهميتها التاريخية قط . وما لبثت الأسرة الثامنة عشرة حتى انتهت وشيكا بعد توت عنخ آمون . وأصبحت الأسرة التاسعة عشرة وقد أسسها « حرمحب » من أزهى وأمجد الأسرات المصرية قاطبة .

واستمرت قدسية الملك تطيف بالذهن المصرى حتى نهاية القصة ، ثم انتقلت منها إلى أفكار أجناس أخرى ، ولما أن وصل الإسكندر الأكبر إلى بابل ، كان نفوذ بعل ماردوك قد ذوى من زمان بعيد وانتهى أمره . على أن آمون رع فى مصر كان لا يزال من قوة الألوهية بحيث تضاءل أمام عظمته ذلك الفاتح الإغريقى المتعاظم . وكان كهنة أمون رع قرابة أيام الأسرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة (حوالى ١٤٠٠ ق . م) قد أقاموا فى إحدى واحات الصحراء معبدا به وحى يوحى ، فهناك كان تمثال للرب يستطيع أن يتكلم وأن يحرك رأسه وأن يقبل أو يرفض قراطيس تحتوى على أسئلة من المتسائلين . وكان ذلك الوحى ما يزال

مزدهرا فى ٣٣٢ ق . م ، ويقص علينا التاريخ أن سيد العالم الشاب قام برحلة خاصة . فدخل المحراب وتقدم التمثال من ظلمة المؤخرة ليستقبله .

وحدث عند ذلك تبادل تحيات عميق الأثر . ويقول البروفسور ماسبرو ان ضربا ما من أمثال هذه الصيغ سكبه الإله فى إذن الملك الشاب :

« تعال يا ابن أصلابى يا من يحبنى حبا يجعلنى أمنحك ملوكية رع وملوكية حوروس . إنى لأمنحك الشجاعة وأكل إليك أن تقبض على كل الأقاليم ، وأن تضع كل الديانات عند موطىء قدميك وأمنحك أن تضرب بيمينك كل الشعوب مجتمعة . . . . » .

وبهذه الوسيلة تمكن كهنة مصر من غزو غازيهم ، وأصبح أحد ملوك الآريين لأول مرة ربا .

٧ — شى هوانج تى يدمر الكتب

لا نستطيع أن نناقش فى أى تطويل النزاع بين الكاهن والملك فى الصين ، وقد رأينا النزاع فى مصر يختلف عنه فى بابل ، وهو فى الصين يختلف أيضا عن نظائره فى البلاد الأخرى . على أننا نجد الحاكم بها يقوم بنفس المحاولات التى يبذلها الحكام عادة للتغلب على التقاليد نظرا لأنها تفرق كلمة الشعب ، وكان إمبراطور الصين « ابن السماء » نفسه كاهنا أعلى وكان رأس عمله تقديم الضحايا . وكثيرا ما حدث أثناء بعض أدوار التاريخ الصينى البالغة الاضطراب أن توقف عن تولى الأحكام ، وإن استمرت له عملية التضحية فقط . وظل هذا الحال حتى الأزمان الحديثة إذ لم تبطل إلا منذ سنوات قلائل السنّة القاضية على الإمبراطور أن يبدأ حرث الأرض بيده فى كل ربيع . ولقد انفصلت طبقة أهل الأدب عن طبقة الكهنوت من زمن قديم مبكر . وأصبحت هيئة بيروقراطية تخدم الملوك والحكام المحليين . وذلك فارق جوهرى يفرق بين تاريخ الصين وتاريخ أى بلاد فى غربها .

وفى حين كان الإسكندر يستولى على آسيا الغربية ، كانت الصين تحت آخر أباطرة أسرة (تشاو) الكهنة ، قد أخذت تهبط إلى دركات الفوضى . وتعلقت كل مقاطعة بقوميتها وتقاليدها المنفصلة ، وانتشر (الهون) من مقاطعة إلى أخرى ، وهال ملك « تسن » (وقد عاش بعد الاسكندر الأكبر بنحو ثمانين عاما) عظم الشر الذى تجلبه التقاليد على البلاد . فعول على أن يدمر الأدب الصينى كافة . وبذل ابنه شى هوانج تى (أول إمبراطور عام) جهدا

جبارا ليستخرج ويدمر كل ما فى البلاد من كتب كلاسيكية قديمة . فتوارت عن الأنظار إبان حكمه ، ومن ثم نجده يحكم بلاده بلا تقاليد . ضم ذلك الملك شتات الصين فى وحدة استمرت بعده بضعة قرون . ولكن الكتب تسللت إلى عالم الظهور من جديد بعد وفاته .

وظلت الصين متحدة ، وإن لم تبق فى يد سلالته ، فقد تولت الملك أسرة جديدة هى أسرة هان (٢٠٦ ق م) بعد حرب أهلية ولم ير أول ملوك أسرة هان أن يواصل الحملة التى شنها شى هوانج تى على أهل الأدب وانتهى خلفه إلى الصلح معهم وأعاد الكتب القديمة إلى سابق عهدها .

الفصل السابع عشر

موالى الأرض والأرقاء والطبقات الاجتماعية والأفراد الأحرار

(١) الرجل العادى فى الأزمنة القديمة (٢) أول الأرقاء .
(٣) أول الأشخاص المستقلين . (٤) الطبقات الاجتماعية منذ ثلاثة آلاف سنة .
(٥) جمود الطبقات فى شكل طوائف . (٦) الطوائف فى الهند .
(٧) نظام الماندرين . (٨) خلاصة لعشرة آلاف من السنين .
(٩) فن التشكيل والتصوير فى العالم القديم (١٠) الأدب والمسرحيات والموسيقى فى العالم القديم .

---

١ — الرجل العادى فى الأزمنة القديمة

رسمنا لك فى الفصول الأربعة الأخيرة صورة بسيطة تمثل نمـاء الدول المتمدينة وانتقالها من الزراعة النيوليثية البدائية التى ابتـدأت فى مكان ما بحوض البحر المتوسط الشرقى أو بالقرب منه فى زمن قد يرجع إلى خمسة عشر ألف سنة خلت . كانت الزراعة فى مبدأ الأمر فلاحة بساتين صغيرة أكثر منها زراعة عادية . استعمل الناس فيها الفأس أولا ثم ثنوا بالمحراث . وكانت فى مبدأ الأمر عملا إضافياً يكمـل الصيد ورعى الضأن والأعناز والماشية التى كان يقوم عليها أود العائلة القبيلية .

ولقد تتبعنا المعالم الإجمالية للتطور الذى حدث فى أقاليم ذات خصوبة ؛ فشهدناه ينتقل بمجتمعات القرى المستقرة الأولى ، حتى أصبحت مدنا وبلدانا أكثر سكانا ، وأوفر عدداً . كذلك تتبعنا انتقال مقصورة القرية المقدسة ورجل القرية المطبب إلى أن أصبحت الأولى معبد المدينة وصار الثانى كاهنها . ولاحظنا بدايات الحروب المنظمة منذ مراحلها الأولى حين كانت احتكاكا بين القرية والقرية ، ثم يوم أن أصبحت كفاحا أكثر تنظيما وأحسن ترتيباً بين الـكاهن الملك وربه فى مدينـة ، وبينهما فى أخرى . وسارت قصتنا سيرا تتزايد سرعته وهى تلم بكل شىء ، بادئةً بأوائل الدلالات الدالة على الفتح وتكوين الإمبراطورية فى سومر خمسة آلاف أو ستة آلاف ق . م . ومنتقلة إلى مشهد الإمبراطوريات العظيمة النامية ، بما فيها من طرقات وجيوش ومخطوطات ووثائق مكتوبة ، وما فيها من كهانات وملوك متعلمين ، وحكام يستندون إلى تقاليد كانت قديمة فى زمانهم . ولقد رأينا مصر تسير فى نفس الطريق . وتتبعنا

فى معالم إجمالية ظهور إمبراطوريات الأنهار الكبرى هذه وكيف دب بينها النزاع وكيف انتهى بها الأمر إلى حلول أخرى محلها . ثم وجهنا النظر بصفة خاصة إلى الشواهد التى تدل على وجود نوع جديد من الأفكار السياسية الأوسع مجالا والتى تكشفها لنا أعمال رجال من أمثال (نابونيداس وأمنحوتب الرابع) وأقوالهم . وكان ما كتبناه فى ذلك تاريخاً موجزاً لتجمع الخبرة البشرية فى عشرة آلاف سنة أو خمسة عشر ألفاً ، وهى حقبة من الزمان قد تبدو هائلة بالموازنة إلى كل ما تلاها من عصور التاريخ ، على أنها فترة وجيزة إذا قيست إلى تلك الأجيال التى لا تقع تحت حصر ، والتى تفصلنا عن أول المخلوقات البشرية الذين استخدموا الظران وجاءوا فى فجر الإنسانية فى العصر البلايوستوسينى . على أننا أوشكنا فى هذه الأربعة الفصول الأخيرة أن نقصر كتابتنا عامة على الرجال الذين كانوا يفكرون ، الرجال الذين كانوا يستطيعون أن يرسموا وأن يقرأوا وأن يكتبوا ، الرجال الذين كانوا يغيرون عالمهم . ومن دون نشاط هؤلاء نتساءل : كيف كانت حياة الجماهير الصامتة ؟

ولقد تأثرت حياة الإنسان العادى وداخلها التغير من جراء هذه الأشياء ، مثلما تغيرت حياة الحيوانات الأليفة وسطح الأرض المزرعة . على أنه كان فى معظم الأحيان تغيرا يتعذب به الناس ويشقون . ولم يكن للرجل العادى فيه أى صوت أو إرادة ، ولم تكن الكتابة والقراءة قد أصبحتا بعدُ مما يجوز لأمثاله . فكان يقضى حياته يزرع رُقعته من الأرض ويحنو على زوجته وأطفاله ويضرب كلبه ويرعى حيوانه ، مزعجرا فى أزمان العسر ، متوجسا خيفة مما بأيدى الكهنة من سحر متزايد ومما للآلهة من قوة دائبة النمو ، لا يتمنى شيئاً أكثر من أن تتركه ونفسه تلك القوى التى تعلوه .

ذلك حاله فى (١٠٠٠٠ ق م) . وذلك حاله الذى لبث ثابتاً فى طبيعته ، وذلك هو نفس حاله فى زمن الاسكندر الأكبر إذ ظل لا يغير من سجيته ولا من نظرته إلى قابل الأيام . وعلى مثل هذا الحال يظل اليوم فى معظم أرجاء العالم . وقد حصل مع تقدم المدنية على آلات أحسن قليلا مما كان لديه آنفا ، وبذور أحسن ، ووسائل أرق ، ومأوى أصلح نوعا ما . هذا إلى أنه أخذ يقايض على حاصلاته فى سوق منظمة . على أن قدراً معينا من الحرية وقدراً معينا من المساواة قد ولّيا من الحياة الإنسانية ، عندما كفّ الناس عن التجوال . كان الناس يتزلون عن قسط من حريتهم ، ويلزمون بمقدار من الكدح ، مقابل ما يصيبون من الأمان والمأوى والطعام المنتظم المستمر . واستكشف الرجل العادى شيئاً فشيئا أن الرقعة التى كان يزرعها لم تكن له . إذ كان الرب مالكها وأن عليه أن يدفع جزءا من محصوله للرب .

أو أن الإلٰـه وهبها للملك وللملك أن يفرض عليها ما يراه من الضرائب . أو أن الملك قد منحها إلى موظف هو سيد الرجل العادى . وكان للرب أو للملك أو للسيد فى بعض الأحيان عمل يجب قضاؤه ، وكان لزاما على الرجل عند ذلك أن يترك رقعته ويشتغل لمولاه .

ولم يحدث قط أن تحدد فى ذهنه ولا أن اتضح لديه تماما أمر رقعة الأرض التى كان يزرعها وإلى أى حد كانت ملـكيته لها . والظاهر أن الأرض فى آشور القديمة كانت عقارا ثابتا حرا يدفع عنه محتله الضرائب . وكانت الأرض فى بابلونيا ملـكا للإلٰـه الذى يسمح متى شاء للزارع أن يعمل عليها . وفى مصر كانت المعابد أو فرعون الرب أو من دون فرعون من النبلاء هم الملاك وهم الذين يتلقون الإيجار . غير أن الزارع لم يكن عبدا ، بل كان فلاحاً ، لا يرتبط بالأرض إلا إلى حد محدود ، هو أنه لم يكن أمامه شىء يعمله إلا أن يزرع ، وأنه ليس أمامه أى مذهب إلى مكان آخر . كان يعيش فى قرية أو مدينة ومنها يخرج إلى عمله ، فأما القرية فكانت فى غالب الأحيان دوارعشيرة كبيرة من الأقارب تحت رئيس شيخ ، وكانت البلدة القديمة جماعة من أصحاب الدوارات برياسة شيوخهم ، وذوى أسنانهم ونشأ الرق فيها بدارج نمو الحضارة . فقد أخذت قوة الرؤساء والقادة فى الازدياد . بينما لم يحافظ الرجل العادى على النسبة بينه وبينهم . لذا انحط بدرجات غير محسوسة إلى حال تقليدية مزمنة من التبعية والخضوع .

وجملة الأمر أن عامة الناس كانوا راضين نوعا ما أن يعيشوا فى كنف السيد أو الملك أو الرب وأن يطيعوا أوامرهم . إذ كان ذلك أسلم لهم عاقبة وأيسر عليهم مؤونة . ولا تنس أن كل الحيوانات لا نستثنى من ذلك الإنسان — تبدأ حياتها بحالة من التبعية للغير . ولا يستطيع غالب الناس أن يخلصوا أنفسهم ويتحرروا من الرغبة فى أن يقودهم غيرهم ويحميهم ، بل إن غالب الرجال يتقبلون راضين الأحوال التى يولدون عليها بلا أدنى مناقشة لها .

ويعطينا بريستد فى كتابه « الديانة والتفكير فى مصر القديمة » قصصا وفقرات متنوعة تظهر أنه كان فى مصر قبل (٢٠٠٠ ق . م .) تذمر اجتماعى ، على أنه كان تذمراً اجتماعياً ساذجا لا يبلغ حد الثورة . فقد انحدرت إلينا شكايات من خداع المخادعين وظلم القضاة ، وتقلب أهواء الأغنياء وشحهم وعدم رحمتهم الفقير ولا معاونتهم له . وكثيراً ما حدثت المشاجرات على معيار الدفع ، وقامت الإضرابات احتجاجا على رداءة الطعام وسوء الحال . ولـكن أحداً لم يناقش حق فرعون فى الحـكم ولا تساءل أحد عن استقامة الأثرياء . ولم يبد إنسان أى تحد للنظام الاجتماعى القائم . وما تجسمت الشكاوى قط فأصبحت أفعالا .

٢ — أول الأرقاء

لم تكن الحروب الأولى حملات بعيدة المدى ولا طويلة الأمد ، وكانت تشن بمن يجمع من عامة الناس . على أن الحرب أوجدت مصدراً جديدا للملكية هو السلب ، وعاملا اجتماعيا جديدا هو الأسير . فى أيام الترحل الأولى لم يكن الناس يبقون على الرجال من الأسرى إلا لكى يعذبوهم أو يضحوا بهم على مذبح إلـهمم المظفر . أما السبايا من النساء والأسرى من الأطفال فقد كانوا يستحيون فينضمون إلى القبيلة . ولم يكن للأرقاء كبير نفع لدى المترحلين . ولـكنهم أبقوا فيما يلى ذلك من الزمان على الكثير من الأسرى الرجال ، لما كان لهم من مواهب ممتازة أو فنون خاصة ، فظلوا أرقاء . وكان الملوك والقادة هم الذين يأخذون هؤلاء الأرقاء فى بادئ الأمر ، وسرعان ما يتضح لهم أن هؤلاء الرجال ملك لهم وأطوع لإرادتهم من الزراع الفلاحين ومن عامة الناس من بنى جنسهم . إذ كان من الميسور أن يؤمر الرقيق بأن يقوم لسيده بجميع الأعمال التى ربما لم يأتها شبه الحر من عامة الناس بتمام الرضى ، نظراً لارتباطه برقعته الزراعية الخاصة . وكان فى الإمكان أن يحشد الأرقاء لإقامة جسور الأنهار أو العمل فى المناجم .

وكان الصانع الحاذق منذ أقدم العصور عبداً فى خدمة المنزل فى غالب الأحايين ، ولعل صناعة السلع التجارية والخزف والمنسوجات وأشغال المعادن وهلم جرا ، مما كان ينتج بكثرة فى أمثال كنوسوس مدينة (مينوس) أو قصره كانت من صنع الرقيق منذ بدايتها . ويقتبس سايس فى كتابه (البابليون والآشوريون) بعض نصوص العقود التى يتعلم الأرقاء بموجبها الصناعات ، والتى تتعلق باستغلال منتجاتهم ، وكان الأرقاء يلدون أطفالا أرقاء . وكان الاسترقاق تسديداً للديون يزيد فى عدد الأرقاء . ومن الراجح أنه بينما كانت المدينة تزداد حجماً كان جزء كبير من السكان الجدد مكوناً من هؤلاء الصناع الأرقاء والخدم الأرقاء فى الدوارات الكبيرة . وما كانوا بأى حال أرقاء مهينين ، إذ صارت لهم فى أخريات أيام بابل قوانين محكمة تصون حياتهم وممتلكاتهم . ولم يكونوا بأجمعهم من أسرى الحرب . فربما باع الوالدون أطفالهم أرقاء ، وربما باع الإخوة أخواتهم اليتيمات . بل إن الأحرار من الرجال من الذين أوصدت فى وجوههم أبواب الرزق ، كانوا كثيراً ما يبيعون أنفسهم رقيقاً . وكان الرق نصيب المدين المدقع العاجز عن تسديد دينه . وكان تعلم الحرف أيضاً نوعاً من الرق ذى الأجل المحدد .

ومن العجب أنه كثيراً ما نشأ من بين صفوف الأرقاء بعملية عكسية : — الرجل المتحرر والمرأة المتحررة الذين كانوا يشتغلون لقاء الأجور ، غير أن حقوقهم الفردية كانت أضيق من حقوق الأحرار حدوداً . ولما كان الأرقاء أنفسهم فى بابل يستطيعون أن يمتلكوا الممتلكات فإن كثيرين منهم ادخروا المال واشتروا حريتهم . والراجح أن رقيق المدينة غالباً ما كان أيسر حالا من الزارع ، وكان من الناحية العملية ينعم بمثل ما ينعم به زارع الأرض من حرية ، ومع تزايد عدد السكان الريفيين أخذ أبناؤهم وبناتهم يفدون إلى المدينة حيث يختلطون بغيرهم ويزيدون فى عدد الصناع المتكاثرة صفوفهم ، سواء أكانوا من العبدان أم الأحرار .

وكلما كانت تزداد الحكومة اتساعاً وتعقداً كان يتكاثر عدد الدوارات ، فمن دون دار الملك ظهرت دور الكبراء من وزرائه وموظفيه ، ومن دون المعبد نبتت الدور الشخصية الخاصة بموظفى المعبد . فليس عسيراً علينا إذن أن ندرك كيف تصبح المنازل ورقع الأرض ملكا للمقيمين بها ، وكيف تتجلى هذه الملكية أكثر فأكثر ، وكيف تبتعد عن الرب المالك الأصلى ابتعاداً يتزايد على مر الأيام بروزاً وتحديداً . وقد دخلت الإمبراطوريتان القديمتان فى مصر والصين إلى مرحلة إقطاعية ، أصبحت فيها أسرات كانت فى أصل أمرها من الموظفين ، أسرات نبيلة استقلت ردحاً من الزمان . وإنا لنجد فى مراحل المدنية البابلية الأخيرة طبقة متزايدة العدد من أصحاب الأملاك ، تنبت فى تركيبها الاجتماعى ، وما هم بالأرقاء ولا الزارعين ولا الكهنة ولا الموظفين ، وإنما هم أرامل وسلالة أمثال هؤلاء جميعاً ، أو هم تجار أو أشباه تجار ممن حالفهم التوفيق وكلهم حر لا سيد له .

ولطالما توافد التجار من الخارج على بابل ، فكانت المدينة غاصة بتجار الآراميين الذين أنشأوا بها مؤسسات عظيمة حاشدة بالأرقاء والمتحررين من الرق والموظفين من جميع الأصناف . وكان مسك الدفاتر عملية مربكة خطيرة فى مدينة لا ورق فيها . فكان ذلك مما يستلزم اختزان عدد كبير من ألواح الفخار فى خوابى ضخمة من الفخار . وإلى هذا الخليط المتجمع من رجال يتفاوتون فى مدى حريتهم وانفصالهم عن سادتهم ، يعيش أقوام آخرون ما بين بياع وتاجر وبائع صغير ، ممن يعرون بها يطلبون حاجتهم من الزاد . ومما يثبت ذلك أن (سايس) ينقل إلينا تفاصيل عقد اتفاق لإقامة فندق ومشرب للجمعة ، وتموينها بما يلزمها . وكأنى بهذا مؤذناً بوجود عابر السبيل ، أى الرجل الذى يتفق وجوده عرضاً فى الناحية .

وكان أقل أنواع الرق شفقة ورحمة على الدوام هو الاسترقاق بالجملة ، أى استرقاق العصائب . ولئن لم يكن كبير الظهور فى المدن القديمة ، لقد كان بيّناً واضحاً فى مواضع أخرى . ولنبدأ بصاحب التاج فإنه أكبر أصحاب المشروعات ، فهو الذى يحفر الترع وينظم الرى ؛ مثال ذلك (مشروعات حامورابى المذكورة فى الفصل السابق) ويستغل المناجم . وكأنى به (فى كنوسوس مثلا) ينظم الصناعات توطئة للتصدير . وكان فراعين الأسرة الأولى يستخرجون النحاس والفيروز من مناجم شبه جزيرة سينا . وكانت عصابات السكان من أهل البلد المقهور أطوع فى كثير من هذه الأغراض قياداً وأرخص أجوراً ممن كانوا يجمعون من رعايا الملك من أفراد الجنس الحاكم .

ولقد ارتبط الأسرى أيضا من زمان مبكر بمجاديف السفن القديمة ، وإن كان المستر « طرْ » (فى كتابه السفن القديمة) يلحظ أنه حتى عهد بركليس (٤٥٠ ق م) لم يترفع الأثينيون الأحرار عن هذا العمل على مشقته ونصبه . كذلك وجد الملوك فى الأرقاء خير من يقوم لهم بحملاتهم الحربية . ذلك أنهم كانوا رجالا منتزعين من ذويهم ، وأنهم لا يهددون أحداً بالعودة إلى أوطانهم ، إذ لم تكن لهم أوطان يذهبون إليها . وكان الفراعنة يتصيدون الأرقاء من النوبة ، ليحصلوا على جيوش من السود فى حملاتهم السورية . وممن يتصل بهؤلاء الأرقاء اتصالا وثيقاً أولئك المرتزقة من الجنود الهمج المتبربرة ، الذين كان الملوك يقبضون عليهم ويضمونهم إلى خدمتهم ، لا بالإجبار الإيجابى ، بل برشوتهم إياهم بوفرة الطعام وكثرة الأسلاب فيقبلون على خدمتهم تحت إلحاح الحاجة . ولما أن تطورت المدنية القديمة حلت هذه الجيوش المرتزقة محل أبناء البلاد فى الجيوش القديمة حلولا تدريجيا ، وأصبح شغل عصائب الأرقاء الخسيس أمراً يزيد أهمية يوماً بعد يوم ، كما أصبح عاملا خطيراً فى النظام الاقتصادى . وأخذت عصائب الرقيق الذليل تنتقل من استغلال المناجم وبناء الجدران إلى الزراعة . فاستعمل النبلاء والمعابد نظام عصائب الأرقاء فى مزارعهم .وأخذت عصائب الزراعات الكبيرة تقضى على ما لموالى الأرض الصغيرة من زراعة الرقاع الخاصة بالفلاحين فى حالة بعض المحصولات الرئيسية .

٣ — أول الأشخاص المستقلين

على هذه الشاكلة نتأثر تطور التركيب الاجتماعى البسيط فى المدن السومرية القديمة ، حتى نصل إلى جموع الأفراد المختلفين جنساً وتقاليد وتربية وعملا ، والمختلفين ثراء وحرية ،

وسلطاناً ونفعاً ، فى المدن العظيمة ، إبان الألف سنة السابقة للميلاد . وأهم ما يستحق الذكر فى هـذا الصدد ما لحق من قد يسمون (الأفراد الأحرار) وسط ذلك الخليط الحاشد من زيادة تدريجية ، أولئك أشخاص يقفون بمفردهم ، وما هم بالكهنة ، ولا هم بالملوك ، ولا هم بالموظفين ، ولا هم بعـوالى الأرض ، ولا هم بالرقيق . وليس لهم من دافع قوى يحملهم على العمل . وأمامهم فسحة من الزمان تتيح لهم القراءة والتساؤل ، وهم يظهرون فى ظلال الطمأنينة الاجتماعية والملكية الخاصة .

وقد تطورت أساليب الحساب وأدت عمليات الآراميين ومن إليهم من الشعوب السامية المتجرة ، إلى تنظيم الديون والاطمئنان على النقد . ومن قبـل ذلك الأوان كادت الملكية الوحيدة فيما عدا بعض المنقولات أن تـكون حقوقاً للنـاس على الأرض والمنازل . واستطاع المرء فيما بعد أن يودع المـال عند غيره ، وأن يعيره ضمانته ، كما كان يستطيع أن يرحل ، ثم يعود فيجد عقاره محفوظا له فى أمن وسلام .

وكان العالم بأجمعه عند قرابة منتصف زمن الإمبراطورية الفارسية لا يضم إلا فرداً حراً واحداً ، هو (هيرودوت) وهو شخصية تشوقنا كثيراً ، لأنه من أوائل كتاب التاريخ نقداً وذكاء بالقياس إلى كتاب التاريخ عند الكهنة ، وفى البلاطات الملكية ممن كان كل همهم التدوين . ويخلق بنا أن نلقى على ظروف حياته نظرة عجلى وجيزة ، وإنا لمقتبسون فيما بعد شيئاً من التاريخ الجليل الذى كتب .

أسلفنا عليك أن الفرس الآريين قد فتحوا بابل تحت قيادة كورش (٥٣٩ ق . م) ، ولاحظنا عدا ذلك أن الإمبراطورية الفارسية امتد ظلها إلى مصر ، وإن كان امتداداً مزعزعاً قصير الأمد ، وانبسط سلطانها أيضاً على آسيا الصغرى . وقد ولد هيرودوت قرابة ٤٨٤ ق .م. بمدينة إغريقية بآسيا الصغرى هى (هالى كارناسوس) التى كانت تحت سيادة الفرس العليا ، وكان حاكمها المباشر زعيما سياسياً أو طاغية . وليس هناك ما يدل على أنه كان من الفقر بحيث يضطر إلى أن يشتغل للحصول على قوته ، ولا كان من الغنى بحيث يقضى زماناً طويلا فى إدارة ممتلكاته . فلسنا ندرى تفاصيل شئونه الخاصة . ومن الواضح أنه استطاع فى هذه البلدة الإغريقية الصغيرة ، ورغم هـذا الحكم الأجنبى أن يحصّـل ويقرأ ويدرس كل ما بلغته يده : من مخطوطات سطرت قبل زمانه فى اللغة الإغريقية .

وإنا لنرى على قدر ما نستطيع أن نستنتج أنه قد سافر ممتعاً بالحرية والراحة فى أنحاء الأرخبيل اليونانى . فـكان يقيم أنى شاء أن يقيم ، وكأنى به وقد وجد فى ربوعها قدراً لا بأس

به من وسائل الراحة والاستجمام ، ثم انطلق إلى بابل وسوسا وهى العاصمة الجديدة التى أقامها الفرس فى (بابلونيا) شرقى نهر الدجلة ، وتنقل على طول ساحل البحر الأسود ، وأصاب حظاً جسيما من العلم بالاسكيذيين وهم الشعب الآرى ، الذى كان منتشراً آنذاك فى جنوبى الروسيا . وكذلك ذهب إلى جنوب إيطاليا ، كما ارتاد آثار « صور » القديمة ، وسار بمحاذاة ساحل فلسطين ، ثم ألقى مراسيه فى غزة وهبطها ، ولبث فيها طويلا ، وأطال فى مصر المكوث . وتنقل فى أرجائها يشهد معابدها وآثارها ، ويجمع أخبارها .

ونحن نعرف — لا منه وحده ، بل من شواهد أخرى ، أنه فى تلك الأيام كانت المعابد القديمة والأهرام (وكانت عند ذاك بلغت من العمر ثلاثة آلاف سنة تقريباً) — تزار كلها ، تزورها أفواج من السائحين ، وكان بها جماعة خاصة من الكهنة تشتغل بإرشاد هؤلاء السائحين . ولا تزال الكتابات التى حفرها هؤلاء النظارة على الجدران باقية إلى يومنا هذا ، وقد حلت رموز كثير منها ونشرت على الناس .

فلما أن استوى له قدر وفير من المعرفة ، فكر فى أن يكتب تاريخا عظيما يؤرخ به محاولات الفرس إخضاع بلاد الإغريق . ولكنه جعل مقدمة ذلك التاريخ بيانا عن ماضى بلاد الإغريق وفارس وآشوريا وبابلونيا ومصر واسكيذيا وعن جغرافية تلك الأقطار وشعوبها . ثم نصب نفسه فيما يقولون لإطلاع أصدقائه فى (هالى كارناسوس) على تاريخه ، وذلك بتلاوته عليهم ، ولكن فاتهم أن يقدروه حق قدره . وما لبث أن حمل نفسه إلى آثينا ، أشد مدن الإغريق ازدهارا فى ذلك الزمان . وهناك قوبل مؤلفه بعاصفة من الاستحسان . وهناك نجده يتوسط حلقة من القوم المتوقدى الذكاء الناشطى الأذهان . واعترافا بفضله الأدبى منحته سلطات المدينة جائزة قدرها عشرة تالنتات (وهو مبلغ من المال يعادل ٢٤٠٠ من الجنيهات) .

على أننا سوف لا نتم سيرة ذلك الرجل الشائق الخلاب ، ولن ندخل كذلك فى حلبة النقد لتاريخه المسهب الثرثار ، الحاوى للأعاجيب ، اللذيذ المسلى ، فإنه كتاب لا بد أن يَرِدَهُ كل قارئ ذكى ، إن عاجلا وإن آجلا ، وإن كان حافلا بالأخطاء التى تستثير البحث ، والمديح المفتون الذى يشبه مافعله بوزول حين تكلم عن الدكتور جونسون . ونحن نزجى إليك هذه التفصيلات لمجرد إظهارك على أنه فى القرن الخامس ق م ، كان عامل جديد قد أخذ يبدو جليا فى شئون البشرية ، إذ كانت القراءة والكتابة قد أفلتت من دائرة المعبد وانجذبت حولية من أيدى كتبة البلاط . ولم يعد التسجيل بعد ذلك قاصرا على البلاط والمعبد . إذ أخذ

طراز جديد من الناس من أهل الدعة والفراغ والموارد المستقلة يسألون الأسئلة ويتبادلون المعرفة ووجهات النظر ويأخذون الأفكار بالتقدم والترقى . وهكذا ترانا نلحظ من دون مسير الجيوش ، وسياسات الملوك ومن فوق الحياة العادية للأميين وغير محبى الاستطلاع بدايات ما قد أخذ يصبح آخر الأمر فى زماننا هذا قوة متسلطة فى شئون البشرية : « هى ذكاء الإنسانية الطليق » .

ولدينا عن ذلك الذكاء الطليق الأول القول المستفيض عندما نتكلم فى فصل تال عن الإغريق فى دول المدن بالأرخبيل وفى آسيا الصغرى .

٤ — الطبقات الاجتماعية منذ ثلاثة آلاف سنة

قد نستطيع أن نلخص هنا النقاش الذى دار فى الفصلين الأخيرين بعمل قائمة بأهم عناصر هذا التجمع المعقد للمخلوقات الإنسانية ، الذى كان قوام المدنيتين البابلية والمصرية المتأخرتين اللتين وجدتا منذ ألفين وخمسمئة أو ثلاثة آلاف من السنين . ترعرعت هذه العناصر وتميز أحدها عن الآخر فى وديان الأنهار العظيمة فى العالم فى مدى خمسة أو ستة آلاف من السنين وتمخضت عن ميول عقلية وتقاليد وأشكال للفكر ، يستجيب بعضها للبعض ويؤثر بعضها فى البعض الآخر . فالمدنية التى نتفيأ ظلالها اليوم إنما هى استمرار لهذه العلاقات ، هـذا إلى أنها لا تفتأ تحدث فيها التطورات وتستعملها وتعاود تنظيمها من جديد . فهذا هو العالم الذى نرث . ولسنا بقادرين بغير دراسة أصولها دراسة اليقظ الحريص أن ننزع من أنفسنا التحامل والفكرات المباشرة الخاصة بالطبقة المخصوصة التى قد ننتمى إليها ، وأن نشرع فى فهم مسائل عصرنا نحن اجتماعية كانت أو سياسية .

(١) جاءت الكهانة إذن أولا (أى ظهر نظام المعبد) ، وكان النواة وشعلة الذكاء المرشدة التى من حولها نمت المدنيات البدائية . وكانت لا تزال فى تلك الأيام الأخيرة قوة عظيمة فى العالم ، وكانت أهم مستودعات العرفان والتقاليد ، وكانت سيفا منتضى على حياة كل إنسان ، وكانت قوة تمسك أجزاء المجتمع بعضها إلى البعض . بيد أنها لم تعد بعد على أقصى غاية قوتها ، لأن طبيعتها جعلتها محافظة لا تتكيف وفق الظروف ولم تعد بعدُ تحتكر العرفان أو تبتده الفكرات الجديدة . بل كانت العلوم قد سبقت فتسربت إلى أقوام آخرين أقل من الكاهن ارتباطا بالعهود والمواثيق وأبعد من الرقابة ممن كانوا يفكرون لأنفسهم . ومن حول نظام المعبد كان يجتمع كهنته وكاهناته وكتبته وأطباؤه وسحرته وإخوانه

العلمانيون ، وخزنته ، ومديروه ومن إليهم . وكانت له ممتلكات عظيمة وكثيراً ما كان يختزن كنوزاً ضخمة .

(٢) قام نظام البلاط قبالة الكهانة ناشئاً فى الأصل منها ، وعلى رأسه ملك أو (ملك ملوك) هو فى آشوريا المتأخرة وفى بابلونيا ضرب من القائد ومتصرف علمانى فى الشئون ، وهو فى مصر (رجلٌ ربٌّ) أطلق نفسه من أيدى كهنته . وكان يلتف حول الملك كتبته ومستشاروه وحفظة سجلاته ، ومندوبوه وقواده ، وحراسه . وكان تحت أيدى الكثير من موظفيه وعلى الأخص موظفيه فى الأقاليم مؤسسات عظيمة تابعة له ، وكان هؤلاء ينزعون على الدوام إلى الاستقلال . ولقد نشأت طبقة النبلاء فى مدنيات وديان الأنهار القديمة عن نظام البلاط . فكانت لذلك شيئاً يختلف فى أصوله عن طبقة النبلاء عند الآريين الأوائل ، وهى طبقة جمهورية من النبلاء تتكون من الشيوخ والقادة .

(٣) وفى قاعدة الهرم الاجتماعى كانت توجد أكبر الطبقات عدداً ، وأشدها لزوماللمجتمع وهى طبقة (حراث الأرض) وحالتهم تختلف من عصر إلى عصر كما تختلف باختلاف البلاد . فهم إما فلاحون إحرار يدفعون الضرائب ، وإما موالى الأرض وإما موالى أرض أو مستأجرون لدى ملك أو نبيل أو مالك خاص يدفعون له الإيجار . وكانت الضريبة أو الإيجار تدفع فى غالب الحالات عينا من المحصول . كانوا فى دول وديان الأنهار زراعا مقتدرين يزرعون ممتلكات صغيرة نسبياً . ويسكنون بعضهم مع بعض فى قرى طلبا للسلامة ، وكانت لهم مصلحة مشتركة فى الاحتفاظ بقنوات الرى ، كما كان متجليا فى حياتهم القروية الشعور بروح المجتمع . وزراعة الأرض حرفة لها مستلزماتها الدقيقة . فإن الفصول وغروب الشمس والحصاد لا تنتظر أحداً . ومن الممكن استخدام الأطفال فى أى سن مبكرة ، ولذا كانت طبقة الزراع فى عمومها طبقة ضئيلة الحظ من التعلم كدحها متلاحق يغلب عليها الاعتقاد بالخرافات بسبب انتشار الجهالة وعدم استقرار الفصول على حال واحدة ، تنتشر بينها قالة السوء والآراء الخاطئة ويسهل خداعها . وقد تقدر فى الأحايين على المقاومة السلبية العظيمة ولكن ليس لها فى حياتها من غاية على مر السنين غير المحاصيل ثم المحاصيل ، وغير أن تصون نفسها من الديون ، وتكتنز زمن الرخاء ما ينفعها أوان الشدة . هكذا ظلت طبقة الفلاحين حتى أيامنا هذه فى معظم أجزاء أوربا وآسيا .

(٤) وتختلف طبقة الصناعين (أى مهرة الصناع) اختلافاً بعيداً فى الأصل والصنف عن طبقة حراث الأرض . وقد ابتدأ أمر هذه الطبقة فى الراجح بأن كان جزء منها يتكون

من طبقة أرقاء المدن ، كما تتكون من ناحية أخرى من فلاحين تخصصوا فى بعض المهن . ولعل كل نوع من أنواع المهن قد أنتج حول نفسه قدراً معيناً من الاستقلال ، وإحساساً خاصاً بث فيهم الشعور ، بأنهم مجتمع خاص ، حين كانت طوائف هؤلاء المهـان تنشئ فنها وسرها الخاص بها ، والأسلوب الذى لا بد من دراسته قبل ممارستها حرفها ممارسة عملية . وكان فى مكنة مهرة الصناعين أن يجتمعوا ، وأن يتناقشوا فى شئونهم فى سهولة وسرعة ، تفوقان ما فى مستطاع من يشتغلون فى الأرض ، وكان فى مكنتهم أن ينشئوا النقابات لتحديد الإنتاج والاحتفاظ بمعدل الأجور ، ولحماية مصالحهم المشتركة .

(٥) وبينما كانت قوة الحكام البابليين تنتشر إلى ما وراء المتسعات الأصلية للزراعة الجيدة أى إلى أقاليم الرعى وإلى النواحى الأقل خصبا ، ظهرت طبقة من الرعاة وكان هؤلاء الرعاة فى حالة (بابلونيا) قوما من الساميين الرحل هم البدو ويشبهون بدو هذا الزمان . وكانوا فى الراجح يرعون قطعانهم فى متسعات فسيحة على نحو ما يفعل رعاة الأغنام فى كاليفورنيا . وكانوا يتقاضون أجوراً أعلى بكثير مما كان يناله رجال الفلاحة .

(٦) وكان أول (التجار) فى العالم من أصحاب السفن من أمثال أهل صور وكنوسوس البحريين أو كانوا من الرحل الذين يحملون السلع ويتجرون فيها أثناء تجوالهم من أرض حضارة بدائية — إلى أرض حضارة أخرى . وكان المتجهون فى العالم البابلى والآشورى فى غالبية أمرهم من الآراميين الساميين وهم أسلاف السوريين العصريين . فأصبحوا بذلك عاملا متميزاً فى حياة المجتمع . وأسسوا لأنفسهم دوارات كبيرة . وقد تطور الربا تطوراً كبيرا فى الألف السنة السابقة للميلاد . وكان الناس يمارسونه حتى فى زمن سومر . وكان المتجرون فى حاجة إلى القروض . وكان الزارعون يرغبون فى بيع محاصيلهم سلفا (قبل نضجها) . ويعطينا سايس بيانا عن دار الصرف البابلية الخاصة بشخص اسمه (اجيبى) التى استمرت أجيالا عدة وامتدت إلى ما بعد الإمبراطورية الـكلدانية .

(٧) ولا بد لنا من الزعم بأن طبقة من صغار تجار القطاعى قد ظهرت فى عالم الوجود مع تعقد الجماعة الإنسانية أثناء الأيام الأخيرة للإمبراطوريات الأولى ولـكن لم يكن لها فيما يرجع كبير وزن .

(٨) وثمة طبقة متزايدة من (أصحاب الأملاك المستقلين) .

(٩) ونمت مع زيادة رفاهية الحياة فى البلاط وفى المعابد وفى بيوت الثراة الخاصة طبقة

من « خدمة المنازل » ، ومن الأرقاء أو الأرقاء المعتوقين ، أو الفلاحين الذين أضيفوا إلى صفوف خدم الدوارات .

(١٠) عصائب العمال : كان هؤلاء من أسرى الحرب أو أرقاء الديون أو الأذلاء أو الرجال المنقولين من أوطانهم إلى بلاد أخرى .

(١١) الجنود المرتزقة : كان هؤلاء أيضا فى غالب أمرهم من الأسرى أو من الأذلاء . وكانوا فى بعض الأحيان ممن ينخرطون فى سلك الجندية ، تطوعا ورغبة، من أبناء الشعوب الأجنبية الصديقة التى كانت الروح العسكرية ما تزال غالبة عليها .

(١٢) اللاحون : نحن فى مناقشاتنا العصرية حول الأمور السياسية والاقتصادية ، عرضة للتكلم بطريقة تقارب الثرثرة عن العمل والعمال . ولقد أقيم وزن كبير لموضوع تماسك العمال وما فيه من معنى المجتمع . ومن المستحسن أن نلحظ أنه فى تلك الدنيات الأولى كان ما نسميه العمال يُمثل بطبقات خمس متمايزة بعضها عن البعض ، ومختلفة فى أصلها وفى تقاليدها وفى نظرتها إلى المستقبل ، وأعنى بها الطبقات رقم ٣ و ٤ و ٥ و ٩ و ١٠ والجزء الذى يشد المجداف من البند الثانى عشر . فأما تماسك العمال فإنه كما سنرى عندما ندرس الثورة الميكانية فى القرن التاسع عشر الميلادى ، فكرة جديدة واحتمال جديد فى الشئون الإنسانية .

٥ — جمود الطبقات فى شكل طوائف

علينا الآن قبل أن نغادر هذا البحث فى الطبقات الاجتماعية التى كانت تتطور فى تلك الدنيات الأولى ، أن نوجه شيئا قليلا من عنايتنا إلى ثباتها . فإلى أى مدى ظلت بمعزل إحداها عن الأخرى ؟ وإلى أى حد اختلطت بعضها ببعض ؟ ومهما يبلغ شأن الطبقات التى أدرجناها لك تحت ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ فإن الخدم وعصائب العمال والأرقاء ، وعصابات الجنود ، يضاف إليهم على قلة ، البحرة وبخاصة المجدفون فى السفن الشراعية — كانوا فى معظم أمرهم طبقات مجندة مجموعة ، فلم يكونوا يكوّنون لأنفسهم منازل بسرعة وسهولة . ولذا لم تكن طبقاتهم كذلك طبقات تمتاز بإنتاج الأطفال . بل كانوا فيما يرجح يتجددون جيلا بعد جيل من بين صفوف الأسرى ، وممن ينحدرون من الطبقات الأخرى ، وعلى الخصوص من فاشلى طبقة صغار تجار القطاعى ، وبطريق الإقناع والتسخير والإذلال من بين صفوف الزراع . ومهما يكن الحد الذى يصل إليه اللاحون ، فإنه لزام علينا أن نميز بين المجدف البسيط وبين

الملاحين الماخرين للبحار المالكين السفن فى مرافىء من أمثال «صوروصيدا» فإن ملاك السفن كانوا ولا مراء ينتقلون فى تدرج غير محسوس إلى طبقة التجار . على أنه لا بد أن يكون الملاحون قد كونوا لأنفسهم مجتمعا خاصا بهم فى المرافىء البحرية الكبيرة ، حيث يقيمون منازلهم وحيث يُدلون إلى أبنائهم بأسرار الصناعة البحرية . وكانت الطبقة الثامنة التى تبيناها طبقة متقلقلة ولا ريب ، تزداد على مر الزمان بدخول الوارثين والتابعين والأيامى والمتقاعدين من الأغنياء وذوى النفوذ . وكانت إلى ذلك دائبة النقصان إما بالموت وإما بالخسران فى للضاربات أو توزيع الممتلكات . ولم يكن الكهنة والكاهنات أيضا حسبما نعرف من أحوال هذا العالم الواقع فى غرب الهند ، طبقة كثيرة العقب . إذ كان العزاب قوام كثير من الكهانات . فيمكن والحالة هذه أن تدرج هذه الطبقة أيضا فى عداد الطبقات المجندة المجموعة .

كذلك ليس الخدم فى العادة منتجين للأولاد . فهم يعيشون فى دور أناس آخرين . وهم لا يملكون لأنفسهم بيوتا ولا يكونون عائلات كبيرة . وبذلك تبقى لنا الطبقات الآتية بوصف كونها الطبقات الحيوية حقا فى المجتمع المدن القديم :

(ا) الطبقة الملوكية والأرستقراطية والموظفون والضباط العسكريون ومن إليهم .

(ب) طبقة التجار .

(حـ) طبقة صناع المدن .

(ء) زراع الأرض .

(هـ) الرعاة .

وكان كل من هذه الطبقات يربى أطفاله على منواله الخاص . وطبيعى جدا أن كلا منها حافظت على انفصالها على الدوام عن الأخريات . ولم يكن التعليم العام منظما فى تلك الدول القديمة ، إذ كان التعليم فى الغالب شأنا منزليا (كما لا يزال حاله فى كثير من أرجاء الهند إلى اليوم) وإذن فقد كان طبيعيا ولزاما على الأبناء أن ينشأوا متتبعين خطى والديهم وأن يتزوجوا نساء ضَريات بأنواع بيوتهم الخاصة . وتبعا لذلك لا بد أن يحدث تفريق طبيعى مستمر بين الطبقات لا ينقطع إلا أيام الاضطرابات السياسية العظيمة . وهو أمر لا يمنع مع ذلك بعض شُذاذ الأفراد من التزاوج أو الانتقال من طبقة إلى أخرى . فقد يتزوج بعض فقراء الأرستقراطية من أعضاء أغنياء من طبقة التجار . ويصبح الطامحون من الرعاة والصناعين أو الملاحين من أثرياء التجار . وعلى قدر ما استطعنا أن نجمع من المعلومات نستنتج أن قد كان هذا هو الحال فى كل من مصر وبابل . ولطالما اعتقد الناس من قبل أن الطبقات فى مصر

كانت فى جمود . ولكن يبدو أن هذا رأى خاطئ تسبب عن خطأ فى قراءة هيرودوت . فالطبقة المنعزلة الوحيدة التى لم تكن تتزاوج مع غيرها فى مصر هى العائلة الملكية الشبيهة بالمقدسة .

وفى نواح عدة من النظام الاجتماعى كانت تجرى فيما يرجح تطورات لعملية الانعزال ، أو كانت الجهود تبذل للحيلولة الفعلية دون المندسين المتطفلين . فمثلا كان مهرة الصناعين فى بعض الحرف ذات الأسرار الخاصة ، ينزعون ، فى جميع الأجناس وفى كل العصور إلى ترقية أنظمة النقابات التى تقصر ممارسة صناعتهم وتحظر زواج الأعضاء خارج نقابتهم . كذلك كانت الشعوب الغازية تميل – وخاصة إذا كان هناك فروق فى الجنس ملحوظة – إلى إبقاء نفسها بمعزل عن الشعب المغلوب . وتطور فى نفسها سمة الانعزال الأرستقراطى . فمثل هذه التنظيمات الرامية إلى حصر الاختلاط الحر قد ظهرت وذوت على صور عدة فى جميع المدنيات الطويلة الأمد .

وكانت الحدود الطبيعية التى تحد الوظيفة والعمل ماثلة للأذهان على الدوام . على أنها كانت فى بعض الأحيان تقام بشكل قوى حاد ويوجه إليها التشديد والتدقيق . وكانت فى بعض الأحايين الأخرى لا يؤبه بها . وكانت هناك نزعة عامة بين الشعوب الآرية للتمييز بين عائلات البطارقة النبلاء وبين عائلات عامة الشعب . وإن آثارها لظاهرة بينة فى كل الأدب الأوربى والحياة الأوربية فى العصر الحاضر . وقد تلقت من علم الأنساب والشعارات شيئا من التقوية الجميلة الجذابة . وهذا التقليد ما زال فعالا حتى فى أمريكا الديموقراطية . ثم إن ألمانيا وهى أشد دول أوربا اتباعاً للأساليب المقيدة كان لها فى القرون الوسطى فكرة غاية فى الوضوح عن ثبات مثل هذه الفوارق المميزة . فكان يأتى من دون الأمراء (الذين كانوا يؤلفون فيما بينهم طبقة منعزلة لا تتزوج فيمن دونها) :

(ا) الفرسان وطائفة العسكريين والموظفين ذوى الدروع الحديدية التى عليها شعار الأسرة .

(ب ، حـ) البرجرستاند : وهم التجار ، وأرباب السفن والصناعون .

ثم (ء) الباورستاند : وهم الموالى المزارعون أو الفلاحون .

ولقد قطعت ألمانيا فى القرون الوسطى ، نفس الأشواط التى قطعها ورثة الحضارات العظيمة الأولى الغربيون فى اتجاههم إلى تثبيت الطبقات . وهذه الفكرة لا تتسق إلا أضأل الاتساق مع طبيعة كل من الناطقين بالإنجليزية والفرنسيين والإيطاليين ، إذ يؤثرون الانتقال الحر من طبقة إلى طبقة – يدفعهم فى ذلك شىء أشبه ما يكون بالغريزة .

بدأت مثل هذه الأفكار الداعية إلى الانعزال فى أول مرها بين ظهرانى الطبقات العليا على الخصوص وهم الذين زكوها ، على أنه من الاستجابة الطبيعية ومن الانتقام الإلهى الطبيعى أن تضم كتلة المبعدين المعزولين نفسها فى صف واحد معادٍ لسادتها. ذلك أن ألمانيا كانت كما سنرى فى الفصول الختامية لهذه القصة ، المسرح الذى نشأت عليه فى مبدأ الأمر فكرة النضال الطبيعى الضرورى ، (وتلك هى حرب الطبقات) بين الجماهير المخلطة الشتى ، جماهير المحرومين من الحقوق الموروثة (وهم الرعاع المدركون لطبقتهم المنضمون إلى ماركس) وبين الحكام والتجار . كانت فكرة يتقبلها العقل الألمانى أكثر مما يتقبلها العقل البريطانى أو الفرنسى . على أنا قبل أن نصل إلى هذا النزاع ، يجب علينا أن نخترق تاريخا طويلا يمتد قرونا عديدة .

٦ — الطوائف فى الهند

فإذا اتجهنا الآن شرقا منصرفين عن هذا التطور الرئيسى للمدنية فى العالم بين آسيا الوسطى والمحيط الأطلسى ، إلى التطور الاجتماعى الهندى فى الألفى سنة التالية التى تسبق العهد الميلادى ، لوجدنا بعض فروق إجمالية عظيمة اللذة . وأول هذه هو أننا نجد ثبات الطبقات وهو آخذ بأسباب الاستقرار ؛ وهو ثبات شاذ عجيب لايستطيع أى جزء من العالم أن يقدم له شبيها . فهذا الثبات فى الطبقات يعرف لدى الأوربيين باسم نظام الطوائف وكلمة Caste الإنجليزية مشتقة من كلمة (كاستا) البرتغالية الأصل . والكلمة الهندية هى (فارنا) أى (اللون) . ولا تزال أصول الطوائف يغشاها الغموض التام ، على أنها كانت ولاشك راسخة الأساس فى حوض نهر الكنج قبل زمان الإسكندر الأكبر . وهذا النظام تقسيم أفقى معقد للتركيب الاجتماعى يقسمه إلى طبقات أو طوائف لا يستطيع أعضاؤها أن يأكلوا ولا يتزاوجوا مع أفراد طائفة أدنى من طائفتهم ، حتى لا يقعوا تحت طائلة أن يصبحوا من المنبوذين . وربما حرم الأعضاء أيضا (طائفتهم) عقابا لهم على أنواع شتى من إهمال الطقوس أو أمور مخلة بالشرف . وإذا فقد الرجل طائفته لم ينحط إلى طائفة أدنى منها بل يخرج من المجتمع ويصبح منبوذا .

وفروع الطائفة المتعددة شديدة التعقيد . والكثير منها إنما هى من الناحية العملية تنظيمات للحرف . ولكل طائفة تنظيمها المحلى الذى يحفظ النظام . ويوزع الصدقات المتنوعة ، ويعنى بحالة فقراء الطائفة ، ويحمى مصالح أعضائها العامة . وتفحص مستندات الجدد القادمين من مناطق أخرى . وأنى لهم أن يتثبتوا من صدق مدعيات هندوسى مسافر يدعى أنه

من طائفة أعلى مما تتيحه له الشرائع ؟ ويبدو أن الطوائف الرئيسية الأربعة كانت فى الأصل البراهمة وهم الكهنة والمعلمون — والكاشاتيرياس . أى المحاربون . والفايسياس — وهم الرعاة ، ومقرضو النقود والتجار وأصحاب الأراضى والسيدراس . ومن خارج الطوائف توجد الباراياس .

على أن هذه الأقسام الأولى تعقدت من زمن طويل بالتفريع إلى عدد كبير من الطوائف الصغرى ، وكلها انعزالية النزعة تمسك كل واحدة منها بأعضائها وتوجههم إلى طريق محددفى العيش وإلى مجموعة واحدة من الخلطاء . فى البنغال زالت طائفتا الكشاترياس والفايسياس إلى حد كبير ... على أن هـذه مسألة معقدة حتى لا نستطيع أن نعالجها بكثير من التفصيل

ولزام علينا أن نلحظ بعد الذى شهدناه فى هـذا الجسم الاجتماعى من عجيب الانقسام والتعقيد أن البراهمة أى كهنة العالم الهندى ومعلميه يخالفون الكثير من الكهانات الغربية ، فى أنهم طبقة تتزوج وتنتج البنين وتنعزل عمن سواها ، ولا تضم أى أفراد جـدد من أى طبقة اجتماعية أخرى .

ومهما تكن البواعث الأصلية إلى هذا الجمود الشديد فى الطبقات الهندية ، فليس هناك أقل ريب فى الدورالذى لعبه البراهمة بوصف كونهم سدنة التقاليد والمعلمين الوحيدين للشعب ، فى الاحتفاظ بها . ويزعم البعض أن الطوائف الثلاث الأولى من الأربعة الأصلية المعروفة أيضا باسم (المولودة مرتين) إنما هم سلالة غزاة الهند الفيديين الآريين الذين أقاموا هـذه الفوارق الصلبة الجامدة ليحولوا دون اختلاط بنى جنسهم بالمغلوبين من (السيدراس والباراياس) ويقدم إلينا (السيدراس) بوصفهم موجة سابقة من غزاة شماليين ، فأما (الباراياس) فهم سكان الهند الدرافيديون الأصليون . على أن هذه النظريات لا تلقى من العلماء قبولا عاما ، ويكاد يكون الحال أن ظروف الحياة المتسقة التى لا تتغير فى حوض نهر الكنج خلال قرون طويلة قد ساعدت على رسوخ فوارق فى الطبقات لم يكن لها مثل هذا الرسوخ ، فى حالة الظروف الأكثر تعددا وتغيرا ظروف العالم الأعظم الموجود فى الغرب .

وعلى كل فإن الطبقات قد نشأت ، ولن يخالجنا أى شك فى تمكنها العجيب من العقل الهندى.فقد نهض فى القرن السادس ق.م. معلم البوذية الأعظم (جوتاما) ، معلنا.. «أنه مثلما تفقد الروافد الأربعة،التى تفيض فى نهر الكنج،أسماءها فورمزجها مياهها فى النهر المقدس،فإن كل من يعتقدون فى بوذا لا يعودون بعدذلك براهمة ولا كشاترياس ولا فايسياس ولا سيدراس » وقد عمت تعاليمه الهند بضعة قرون . وانتشرت فى الصين والتبت واليابان وبورما وسيلان

والتركستان ومنشوريا . وهى اليوم عقيدة يدين بها جزء كبير من الجنس البشرى ، على أنها غلبت آخر الأمر وطردت من الحياة الهندية طردا ، بفعل قوة حيوية البراهمة وإصرارهم وأفكارهم الطائفية .

٧ — نظام الماندرين

يوجد فى الصين نظام اجتماعى يسير هو أيضا فى طريق آخر ، يكاد يحاذى نهج المدنيات الهندية والغربية وإن على قلة . والمدنية الصينية كالمدنية الهندية فى كونها منظمة من أجل السلام بل تكاد تفوقها فى هذا المنحى ، لذا كان دور المحارب فى خطتها الاجتماعية هذه صغير الشأن . فهى مثل المدنية الهندية فى كون الطبقة القائدة طبقة مفكرة . ولكنها طبقة أقل كهانة من البراهمة وأقرب إلى الموظفين . على أن الماندرين وهم رجال الصين المتعلمون يخالفون البراهمة فى أنهم ليسوا طائفة . فليس المرء من الماندرين بمولده ، بل بتربيته . فالماندرين يؤخذون بالتربية والامتحان من جميع طبقات المجتمع ، وليس لابن الماندرين أى حق مكتسب فى أن يخلف أباه . ونتيجةً لهذه الفوارق نجد أنه بينما براهمة الهند بوصفهم طائفة ، يجهلون حتى ما فى بطون كتبهم المقدسة ، ونجدهم متقاعسين فى عقليتهم ، مملوئين بالاطمئنان الذى يقوم على الادعاء ، نجد لدى الماندرين الصينى النشاط الذى ينتج عن الشغل العقلى الشديد . ولكن لما كان تعليمه حتى وقتنا هذا يكاد يكون بأسره من نوع دراسة كبار الطلبة للقديم الكلاسيكى من الأدب الصينى ، فإنه ينشأ محافظا تمام المحافظة . فقبل أيام الإسكندر الأكبر كانت الصين قد كونت نفسها وركزت قدميها فى نفس السبيل التى كانت ماتزال تسير فيها فى ١٩٠٠ م . وقد تقلب عليها الغزاة والأسرات ولكن نمط الحياة فى الحضارة الصفراء ظل بلا تغيير .

اعترف نظام الجماعة الصينية التقليدى بأربع طبقات كبرى تلى الإمبراطور والكاهن .

(ا) طبقة الأدباء (المتعلمين) التى تعادل من ناحية موظفى العالم الغربى ، وتعادل من ناحية أخرى معلميه ورجال دينه ، وكانت تربيتها فى زمان (كونفوشيوس) تتضمن الرماية وركوب الخيل ، وكانت مناسك الدين وشعائره والموسيقى والتاريخ والرياضيات يتم بها فى الفرد (الكامل الستة) .

(ب) زراع الأرض .

(ج) مهرة الصناعين .

(د) طبقة التجار .

بيد أنه لما كانت قد جرت عادة الصينيين منذ أقدم الأزمان بأن يقسموا ما يملكه الرجل من الأرض بين أولاده جميعا ، لم تظهر فى التاريخ الصينى أية طبقة من كبار ملاك الأراضى الذين يؤجرون أرضهم للمستأجرين ، على نحو ما كان موجودا فى معظم الممالك الأخرى . فأرض الصين كانت نتيجة لذلك ، دائمة الانقسام إلى ملكيات صغيرة ، كانت فى أكبر شأنها ملكيات حرة يزرعونها زراعة استقصاء واستنهاك شديدة . أجل فى الصين ملاك يملكون مزرعة أو أكثر ويؤجرونها للمستأجرين ، ولكن ليس هناك مزارع عظيمة مستدعة . وإذا ما أصبحت رقعة الأرض — بتكرار التقسيم — أصغر من أن تقيم أود رجل ، بيعت إلى أحد الجيران الأثرياء . وعند ذلك ينحدر المالك السابق إلى إحدى مدن الصين العظيمة لكى ينضم هناك إلى كتلة العمال الذين يكتسبون أجورهم بعرق الجبين . ولقد وجدت فى الصين طوال قرون كثيرة هذه الجموع من سكان المدن الذين لا يكادون يملكون قط شيئا يذكر ، وهم رجال لا هم بموالى الأرض ولا بالأرقاء ، ولكن تربطهم بعملهم اليومى رابطة الفاقة والإدقاع الشديد . من مثل تلك الجموع تجند الجنود التى تحتاج إليها الحكومة الصينية ، ومنها أيضا تجمع عصائب العمال التى يحتاج إليها فى إنشاء الترع ، وإقامة الجدران وما إلى ذلك . فأما أسير الحرب وطبقة الأرقاء فإنهما يلعبان فى التاريخ الصينى دورا أقل شأنا مما يلعبانه فى أى بلاد أكثر جنوحا إلى الناحية الغربية فى تلك العصور أى قبل الحقبة المسيحية

وقد يلحظ هنا أن هناك حقيقة عامة مشتركة بين تلك القصص الثلاث الخاصة بالتركيب الاجتماعى المتطور ، وهى القوة الهائلة التى كانت تستمتع بها الطبقة المتعلمة فى المراحل الأولى قبل أن يبدأ التاج أو عامة الشعب فى تعلم القراءة ، وبالتالى قبل أن يشرعا فى التفكير لأنفسهما . وقد احتفظ البراهمة وهم الطبقة المتعلمة فى الهند — بسبب نزعتهم الانعزالية — بنفوذهم إلى يومنا هذا . فأما جموع الصين فقد تسلطت عليها طبقة الماندرين بانتهاجها مناهج تخالف ما للهند تمام المخالفة وبسبب تعقيدات اللغة المكتوبة . ولقد كان تنوع الأجناس والتقاليد فى عالم الغرب الأكثر تنوعا وأحداثا ، عاملا على تأخير — بل لعله عاق إلى الأبد — كل تنظيم من نوع هذه العناصر العقلية الممتازة فى المجتمع ، يضمها ويحولها إلى طبقة ذات سيادة .

وقد بكر التعليم فى العالم الغربى كما ألمعنا فانساب فى أرجائه فامتصته تربته فأضحى ولا تسيطر عليه أية طبقة خاصة : وبذلك أفلت من أغلال الطوائف والكهانات والتقاليد ،

وتسرب إلى حياة المجتمع العمومية . فالكتابة والقراءة قد بُسطتا إلى الحد الذى لا يستطاع بعده تكوين أى نحلة وأسرار خفية منهما . وربما لم يحدث مثل ذلك الشيء إلى مثل ذلك الحد فى الصين ، بسبب الأحكام الخاصة والصعوبة التى تحيط بالكتابة الصينية ، أكثر منه بسبب أى فارق عنصرى .

٨ — خلاصة لعشرة آلاف من السنين

أجملنا عليك فى هذه الستة الفصول الأخيرة تعقّبنا لكل العملية ، التى تم بها فى مدى اثنتى عشرة ألف أو عشرة آلاف من السنين ، أعنى فيما يتراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ من الأجيال — أن كف الإنسان عن أن يكون حيوانا نادرا جائما متربصا طالبا للفريسة يكاد يكون غير اجتماعى ، ضئيل الانتشار فى أجزاء العالم الدفيئة ، — حتى أصبح مخلوقا اجتماعيا وفير العدد تحتشد جموعه كثيفة متزاحمة فى الأقاليم الأكثر ملاءمة فى العالم القديم . ابتدأ عهد الكدح والرق ومعهما الطمأنينة والسلامة . وفى تلك المدة مضى الإنسان من مرحلة الزراعةالنيوليثية المبكرة التى كانت القبائل العائلية البدائية المكتسية بالجلود تجتنى فيها وتختزن فى أكواخها الطينية الخشنة الصنع الملف البرّى والأعشاب الحاملة للحبوب ، تقطعها بمناجل من الحجر — مضى الإنسان متنقلا من هذه الحال النيوليثية إلى أيام القرن الرابع ق . م ، التى انتشرت فيها حقول الزراعة الإنسانية حول سواحل البحر الأبيض كلها وعلى ضفتى النيل وعبر آسيا حتى الهند ثم على متسعات الصين الرسوبية الغرينية أيضا كما انتشرت المدن الحافلة بالأعمال والمعابد العظيمة وكثر ذهاب التجارة ومجيئها . وكانت الفلك القديمة والسفن ذوات الشرُع المثلثة تدخل ثم تغادر المرافئ المزدحمة ، متخذة فى حيطة وحذر طريقها من رأس من رءوس الأرض إلى رأس آخر ومن رأس إلى جزيرة مع محافظتها على الدنوّ دائما من الساحل . وكانت ملاحة الفينيقيين لحساب بعض أصحاب السفن المصريين تخترق المجاهل حتى بلاد الهند الشرقية ، بل ربما وصلت إلى أقصى من ذلك فى المحيط الهادى . ولدينا الآن فى جنوبى أفريقيا نقوش (للبوشمن) على الصخر تمثل رجالا من البيض لهم لباس رأس من طراز استعملته آشور بعض الزمان ، وعرف كذلك فى شمال أوربا ، ولكن لم يعرف عنه أنه أصيل فى أفريقيا . وكانت القيروانات تقبل بتجارتها القاصية عبر صحارى افريقيا وبلاد العرب أو مخترقة التركستان . وكان الحرير قد أخذ يشق طريقه من الصين ، والعاج من افريقيا الوسطى ، والقصدير من بريطانيا إلى مراكز هذه الحياة الجديدة فى العالم . وكانت دمشق

أنتجت من قبل الدمقس كما أنتجت الصلب الدمشقي . وكان الرجال تعلموا نسج الكتان الناعم ، والأنسجة الرقيقة من الصوف المصبوغ . وكانوا يستطيعون أن يبيّضوا النسيج وأن يصبغوه ، وكان لديهم الحديد كما كان لديهم النحاس والبرونز والفضة والذهب ، وكانوا قد صنعوا أجمل أنواع الخزف والقيشانى . ولم يكد يكون هناك ضرب من الأحجار النفيسة فى العالم فاتهم أن يجدوه وأن يقطعوه وأن يصقلوه . وكان فى مكنتهم القراءة والكتابة ، وتحويل مجارى الأنهار ، وأن يرفعوا الأهرام ، ويشيدوا أسوارا طولها ألف ميل . ولقد تبدو المئة قرن أو ما يقاربها التى توصل فيها الإنسان إلى كل هذا ، زمنا طويلا بمقارنتها بالسبعين سنة التى هى حياة الفرد البشرى ، لكنها فى الواقع تافهة كل التفاهة لدى مقارنتها بآماد الزمن الجيولوجى . فإذا نحن اتجهنا نقيس إلى الخلف مبتدئين بالمدن الإسكندرانية ومتراجعين إلى أيام الآلات الحجرية الأولى ، وأعنى بها الآلات فى العصر البلايوسينى ، لأتاح لنا هذا القياس امتدادا زمنيا يصل طوله إلى مثل ذلك المقدار مئة مرة كاملة .

ولقد حاولنا فى بياننا هذا وبمساعدة الخرائط والصور والخرائط الزمنية ، أن نعطيك فكرة عادلة عن ترتيب تلك القرون الحافلة بالأحداث وأشكالها وهى قرون تطور الإنسان . ولن نشغل أنفسنا إلا بهذه المعالم دون سواها لأنها كل ما يعنينا من الأمر . ولم نذكر لك سوى أسماء أفراد قلائل ، وإن وجب أن تزيد أسماء الأشخاص عددا منذ الآن . على أن محتويات هذه المعالم التى رسمناها لك ها هنا فى رسوم بيانية وخرائط قليلة لا تستطيع إلا أن تمس الخيال وتتصل به . فلو أننا استطعنا أن ننظر نظرة أكثر تدقيقا لرأينا خلال هذه القرون الستين موكبا لأحياء تزداد شاكلتهم من شاكلتنا على مر الزمان قربا . ولقد أريناك كيف خلّى المتوحش الباليوليثى المنقوش الأديم ، مكانه للزارع النيوليثى ، وهو طراز من الرجال ما زال يوجد فى أماكن العالم المتأخرة . وأعطيناك صورة للجنود السومريين منقولة عن حجر محفور أقيم قبل أن يفتح سرجون الأول السامى البلاد بزمن بعيد . لقد واصل بعض الرجال المكدودين الضارب لونهم إلى السمرة نقر هذه الأشكال يوما بعد يوم ، وكان ولا ريب يصفر بفمه أثناء نقره . وكان سهل الدلتا المصرية فى تلك الأيام ، غاصا بعصائب الفعلة السمر الذين يفرغون الأحجار التى انحدرت فى النيل لإضافة مدماك جديد إلى الهرم الجديد . وقد يستطيع المرء أن يصور لتلك العصور ألف منظر ومنظر : فهذا أحد الباعة الجوالين فى مصر وقد نشر سلعة من الثياب البابلية أمام ناظرى إحدى السيدات الجميلات الموسرات . وهذا جمهور مختلط يحتشد عند مدخل أحد المعابد فى يوم عيد بمدينة (طيبة) ، وهذا جمهور متحمس من النظارة الكريتيين

السود العيون يشهدون على النحو الذى يفعله الأسبانيون الحاليون ، مصارعة الثيران وقد ارتدى المصارعون السراويل وتمنطقوا بالأحزمة المشدودة ، شأن أى مصارع عصرى للثيران بالضبط . وهؤلاء أطفال يتعلمون علاماتهم المسمارية (إذ وجدت فى نيبور قراميد الطين الخاصة بتمارين إحدى المدارس) . وهـذه صورة لمرأة أمامها زوجها المريض فى بيتها . وهى تدخل إلى أحد المعابد العظيمة فى قرطاجنة لكى تنذر للرب نذرا إن هو شفاه .

وربما كانت الصورة لأحد الأغريق الجفاة وقد لبس ثياب الجلد وتسلح ببلطة من البرونز ، ووقف بلا حراك على إحدى قنن الجبال الإلّيرية وقد أذهلته رؤيته لأول مرة ، إحدى السفن الكريتية الكثيرة المجاديف وهى تزحف زحف إحدى الحشرات العظيمة على صفحة البحر الأدرياتى البنفسجية ، فعاد إلى منزله يقص على قومه قصة عجيبة عن وحش هو برريوس ذى المئة ذراع . ومن ملايين من مثل هاتيك الخيوط والحلقات فى كل من هذه الأجيال المئتين تكوّن نسيج ذلك التاريخ المحبوك . ولئن لم نشر إلى وجود حلقة بدائية أو وصلة ، فلسنا بمستطيعين الآن أن نقف لنفحص أيّا من تلك الحلقات .

٩ — فن التشكيل والتصوير فى العالم القديم

ومهما يكن من شىء فإن علينا الآن قبل المُضىّ بتاريخ ما حدث فى الألف السنة التالية من التنازع والتفاعل بين الآرى والسامى فى العالم الغربى ، التى هى قوام المادة الرئيسية للكتب الثلاثة التالية من هذا الكتاب ، علينا أن نقدم قسمين موجزين نسجل بهما ظهور البحث المتعمَّد عن الجمال فى حياة الناس . وقد بينا فى كتابين سابقين كيف ارتفع الإنسان من حالة حيوان جوال نادر إلى حياة المدنية ذات الجماهير الغفيرة وذات المتاعب الكثيرة ، وإن كانت أكثر أمنا ووفرة . فإن المدنية عند الأقلية السعيدة كان معناها إطلاقاً عظيماً للنشاط . وكان معناها للكافة قدرا من الحرية يطلقهم من عقال الحرج الشديد والضرورة الماسة . وكان النشاط المطلق من عقاله ينساب إلى ناحية إطالة « اللعب » وإلى حياة البالغين وإلى بحث متعمّد عن الملذات . ثم كفّ الإنسان عن أن يكون مشغولا الشغل التام بالبحث عن الطعام والمأوى . فشخص بناظريه إلى الجمال . حتى الحيوان النياندرتالى نفسه لم يكن وحشا بكلّيته ، فكان يجمع الأصداف والأحجار العجيبة ، وما إليها من غريب الأشياء ، وكان يلبسها رغبة فى السرور والزينة فيما يبدو .

وقد حدث فى العصر الباليوليثى الأخير كما لاحظنا من قبل ، انقلاب جسيم فى نواحى

الرسم والنحت . وكانت هذه الأشياء تتخذ طلبا للذة . ولا شك أنه كانت لها أيضا معانى تمتّ إلى السحر بسبب وكان ذلك أمرا لا محيد عنه . فإن فى الذهن الإنسانى نزوعا لا علاج له يحدوه إلى إتقال الأشياء بمعانى شخصية . ولا يزال الناس حتى يومنا هذا يرون فى بعض زينتهم من الجواهر المجلبة للحظ والشؤم . والرجل الباليوليثى كان يظن ولا مراء أن تصويره للحيوانات له أثره فى استرضاء الصيد واستجلابه ، على أن بعض تماثيله الصغيرة كانت كما يظهر مجونية تبعث على السخرية . ولقد توخى الناس التشديد فى أن نسبة عظيمة من النقوش والرسوم الباليوليثية التى بقيت حتى الآن ، إنما هى فى كهوف مظلمة وفى زوايا معتمة . على أن هذه لم تزد على أرجح الظن عن بقايا الزخرفة التى كان يغطى بها الرجل البدائى الأشجار والأحجار فى زمانه . وبديهى أن القسم الظاهرى المعرض لعوامل الجو لا بد أن يبلى فى بضع سنين. وكان الرجل الباليوليثى المتأخر يرسم وينحت وكان يرقص كما تشهد بذلك رسومه ، وكأنى بالرقص يتضمن الصرخات والضربات الإيقاعية . وهنا تتجلى أول عوامل الفن الرفيع والموسيقى. ومع هذا فإن المأوى الذى كان يبنيه الرجل النيوليثى الأقدم والأكواخ والأحجار التى كان يلجأ إليها كانت انتفاعية بشكل شديد . ولم يحدث إلا عند انشقاق فجر المدنية وعند الوصول إلى تجمع السكان تجمعا جسيما ، أن أخذت المقصورة المقدسة وكوخ الرئيس يصبحان أكثر من مجرد مأوى . وابتدأ فن العمارة المتعمد . ووصل الناس غير مدركين إلى الإحساس بأنه ربما كان للبنيـّة كرامة وسر خفى . وربما أثرت فى الناس رشاقتها وجمالها .

وربما كان أعظم مجهودات الإنسان فى البناء (العصر الحجرى) على كرّ الدهور ، هى القبور (التلعات) التى كان يدفن فيها العظماء . وتحتوى التلعة على الدوام مخدعا مركزيا من الأحجار الكبيرة المرصوصة يتلوه طوب من اللبن . وإن أهرام مصر ، تلك الكتل الضخمة غير الرشيقة إنما هى بالطبيعة تلعات ضخمة من الحجر . وما تل سلبورى فى انجلترا إلا هرم من التراب . وكانت هذه الآكام المرصوصة توجه فى عناية عظيمة إلى الجهات الأصلية . وتدل الأهرام المصرية على مهارة ميكانيكية جسيمة كما تدل على مجهود جمعى يكاد يذهب بالألباب . على أن الإنسان لا يكاد يتكلم عن فن العمارة مرتبطا بهذه الأكوام .

ولقد بدأ مهندسو العمارة فى إقليم الجزيرة وزملاؤهم فى وادى النيل عملهم وكل لا يكاد يعرف عن إنتاج الآخر شيئا ، فكان تأثير أحدهما فى الآخر ضئيلا نادرا يبلغ حد العدم . وكان أول ما اختطوه من أشكال مقيدا فى كل من القطرين بخصائص الطين المجفف فى الشمس والطوب والخشب . ومهما يكن من شىء فلم يكن فى متناول السومريين غير النزر القليل من

الأحجار . فأما المصريون فكانوا على العكس من ذلك فى متناول أيديهم الكثير المتنوع من الأحجار اليسيرة القطع من محاجرها الهينة التوصيل إلى النيل . والطوب المجفف فى الشمس قابل للضغط وهو يستلزم زيادة فى عرض الجدران عند القاعدة ، والمبانى السومرية البابلية والمصرية لها فى الحائط الخارجى ذلك الانحدار الذى يخلع عليها ماتمتاز به من جو خلود كريم وكانت الدهاليز الداخلية ضيقة بسبب ما كان يعترضهم فى رفع السقوف من صعوبات لم يكن إلى التغلب عليها عند ذاك من سبيل . وقد تطورت المبانى الهامة فى سومر إلى الشكل الزيجوراتى الذى ظل من خصائص هذا الإقليم . والزيجورات بناء مدرج كثير الطوابق ، يكون كل طابق فيه أضيق من سابقه وله من حوله شرفة فيها سلالم . والطوب (الأخضر) فيه مكسو بالقرميد وبالطوب الأحمر الأكثر صلابة . والآثار التى تكشف عنها الحجب الآن فى تلك الأقاليم إنما هى (قص) المبانى الأصلية ، التى كثيرا ما ارتفعت إلى سبعة وثمانية طوابق . ولم تستعمل العمد إلا نادرا ، أو هى لم تستعمل قط فى فن العمارة الأولى بأرض الجزيرة — إذ لم تكن هناك مادة تصلح لهذا الغرض . ويلوح أن الحجرات كانت فى عمومها مقبوة لا بالأحناء (البواكى) وإنما بجعل مدماك من الطوب من فوق الجدار الضخم يدخل قليلا عن المدماك الذى تحته. وهناك مع ذلك عمدان ضخمة من الطوب فى المبانى السومرية فى أور وفى كش . وكانوا يعملون الزخارف بوساطة الركائز[1] وبانوهات[2] الآجر . ويلعب المصيص والفخار دورا كبيرا فى عمل الزخارف . ويبدو الحجر فى لوحات منقورة أو مستعملا فيما يقارب ذلك من استعمالات خاصة ولسنا نعثر إلا عند وصولنا إلى فن العمارة الآشورى ، على منطقة حجرية ، وعند ذلك تبدأ المبانى فى أن تكسى واجهاتها بالحجر المشغول وأن تزان بالأحجار زينة حرة سخية . ولم يظهر العمود الحجرى فى إقليم الدجلة والفرات إلا عندما تقدمت المواصلات مع مصر فى الألف الثانية ق . م .

ولم ينتج فن العمارة المصرى قط أكواما كثيرة الطوابق من الطراز الزيجوراتى .وفيما عدا الأهرام والمسلات ومداخل المعابد وأفنيتها ، فإن العمارة المصرية دامت عريضة منخفضة .

ويبدأ الحجر لأول وهلة بديلا من الخشب . وإن اسكفات[3] الحجر وعروقه ليعتاض بها عن مثيلاتها من الخشب مع تقليدها أشكالها. وتخلى الدعائم الخشبية مكانها للعمد الحجرية المدورة وسرعان ما أخذت صور الرجال والحيوانات تنقش أو تنقر نقرا بارزا على تلك العمدان . وإن معبداً مبكراً هو معبد أبى الهول القريب من الأهرام والمعاصر لها إنما هو فى معظم أمره منحوت

(١) Buttresses (٢) Panels (٣) الأسكُفَّة عتبة الباب الفوقانية

من الصخر الحيّ . فليست به عمدان . إذ ظهرت العمدان وأبهاء الأعمدة قرب عهد الأسرة الثانية عشرة .

وكان عهد الأسرة الثامنة عشرة أزهى عصور الطراز المصرى . ونحن مدينون لتلك الفترة بالمجموعة الضخمة من مبانى المعابد فى طيبة . كذلك كانت الأسرة التاسعة عشرة أسرة عظيمة من البناة . وكان فنا النحت والنقش فى مبدأ الأمر إضافيين تماما يلحقان بالفن الرئيسى : أى فن العمارة ، فى كل من مركزى المدنية .

وقد ابتدأ النحت على صورة النقش البارز والمدخل المنقور ، وكان النقش علاً البانوهات ويغطى الجدار الخالى . ونحن مدينون لجو مصر الجاف بحفظ مساحات عظيمة من السطوح المنقوشة نقشا رائعا ، والممثلة لألف مظهر من مظاهر الحياة اليومية المصرية ، والكاشفة عن قدر عظيم من فكر هؤلاء الناس وخيالهم . وإن سجلات آشور وبابل لقليلة بالموازنة .

ولفن العمارة الإيجى صفة مميزة خاصة به ، ولكنه فى جملة الأمر أقرب فى الروح إلى المصرى منه إلى البابلى . وقد بكروا فاستعملوا الأعمدة . وللمبانى تنظيم تيهى (لابيرانتى) تصميمه تام الاختلاف عن كل من التخطيطات الأرضية لدى المصريين والبابليين على السواء ونقش الفرسكو والسليزلى : أى الفسيفساء قد حُملا إلى مستوى عال جدا .

وعلى حين كانت هذه الفنون الثلاثة تتطور ، كان هناك أيضا فى كل هذه المدنيات إنتاج هائل فى الجواهر المقطوعة والمحفورة وفى صوغ الذهب وأشغال المعادن الأخرى ، وفى التماثيل الصغيرة والنماذج وما إليها من لعب وحلى وكراسى وأسرّة وعروش ، وفى رشيق الأثاث . وكان الحفر على الخشب والآبنوس حفرا جميلا أنيقا . وكانت كريت منتجة على الخصوص فى أشغال الذهب الجميلة وفى الخزف . وكانت الزهريات الكريتية تباع فى كافة أنحاء الشرق القديم .

١٠ — الأدب والمسرحيات والموسيقى فى العالم القديم

ليس يبدو أن قد وصل الأدب الخيالى والموسيقى الخيالية فى المدنيات القديمة إلى تلك الدرجة العالية من التطور ، التى وصلت إليها الفنون التى تلذ الأعين . وكانت رواية القصص شيئا حيا هاما فى الحياة الإنسانية منذ أن نطق الإنسان ، وإن أهم عناصر الأدب المنثور ، وهى الإحساس بالعبارة ، والاختراع ، ودراسة الشخصيات ، لتوجد أنّى جلس ثلاثة من النسوة من أى جنس يتحدثن . وكانت الأحلام — وهى فى كثير من الأحيان فظيعة مروّعة

وتحتوى على صدى وردّ فعل السكبت الضرورى فى الجماعات البدائية ، منهلا مترعا لعنصر الوهم فى القصة المبكرة . وكانت القصة تُمط على الدوام بما يصحبها من الإشارات التمثيلية والمقدمات إلا عند أرزن الناس وأكثرهم تحرزا ، ومنذ العصور المبكرة وذكرى الأحداث العظيمة ومراسم المناسبات الجسيمة ، تؤكّد فى الأذهان برقص دورى قصصى ، ويمتزج فيه الكلام والغناء والتقليد والحركات الإيقاعية وأصوات الآلات بعضها مع بعض امتزاجا لا يستطاع معه فصل أحدها من الآخر .

كانت هذه الأشياء موجودة فى الحياة الإنسانية قبل المدنية . وقد استمرت أشكال القصص المألوفة والقصص المختصرة والرقص العادى لا غرو ، بين عامة الناس فى المدنيات القديمة ، عندما كانت إقامة الذكريات الدورية تسمو حتى تصبح من طقوس المعابد . ومع أن الكهنة كانوا يختصون بضروب متعددة من الأساطير ، كقصة الخليقة مثلا ، كما وسّموا كثيراً من القصص الخرافية البدائية فأصبحت علمَ رطازات مركبا ، فليس يبدو عليهم أنهم أفرغوها فى قوالب من اللغة الجميلة ، إذ كان المنظر هو الشىء . ولم يحدث فى مصر ولا فى بابل أى تطور جدّى لفن التمثيل كما يجب أن يكون فن التمثيل . وربما كان للفلاحين حفلات سمرهم ولكن لم يكن ليأبه بها أحد غيرهم . ولسنا نفهم حتى اليوم ما كان يمكن أن يكون لدى الأهالى الإيجيين من تمثيليات حتى نستطيع أن نناقشها . ولعله لم تكن لديهم أية تمثيلية . بل كانت لهم مشاهد ينعمون فيها بلذات أكثر قساوة وأشد عنفا . إذ كانت مصارعة الثيران ملهاتهم الأثيرة . (والأزتسك) الذين لعلهم من أقارب هؤلاء — كانوا شأن أهل المدنيات الأمريكية قبل الأوربيين ، يسلون أنفسهم بذبح الأرقاء وإرغام الأسرى على القتال لتنجية حياتهم قدّامهم .

ولم يستطع المؤلف أن يعثر قط على أى سجل مدون به المحترفون من القصاصين ومنشدى القصص فى تاريخ حياة هذه المدنيات القديمة، حتى ولا فى حياة القرى . فإن لم يكن هناك محترفون من حفظة الذكريات ومعيديها حية ماثلة ، فإن حظ الفن الأدبى من الاتساع كان حتى وقت أن تطور فن الكتابة ، ضئيلا تافها . وربما جالت بخواطر الناس بارقات من التعبيرات الجزلة السعيدة ، على أنها لم تكن تحفظ حتى تنمو وتصبح أسلوبا أدبيا وتقاليد أدبية . ولعل أقدم الكتابات المصرية تعويذات ورقى ، ووصفات أخرى وحكم أدبية أخلاقية ومسجلات مجردة . إذ كان الناس فى كل من مصر وسومر فيما يرجح يلزمون أنفسهم بالأمور الواقعة وقلما كانوا يمتعون أنفسهم بعد اجتيازهم مرحلة الطفولة بالتعجب من عالمهم أو الحلم بالمغامرات فيه . كأنما

شعبين بسيطين عمليين . حتى فى شئون الموت كان المصريون عمليين بشكل يذهل الألباب ، فكانوا يزودون الموتى بكل أسباب العناية والراحة . وكانت أعظم القصص المصرية هى الحكاية ، التى يذكرونها مع مئة تبديل وتغيير — عن رحلة روح (أوزوريس) الراحلة ، ذلك هو كتاب الموتى وهو أشبه بدليل للعالم الآخر من أمثال كتب (بدكر) ويمتاز بالبساطة والروح الأخلاقية والخلو من كل أثر متافيزيقى .

وكان لا يزال على اليهود أن ينشئوا كتابهم ، وهو أول كتاب ينضح بالقوة فى العالم وأعنى به الكتاب المقدس الذى بفضله اجتمع شتات كثير من عناصر العالم النبامى القديم الممزقة كما سأبين ذلك فيما بعد . وكان الآريون ينشدون محفوظهم فى غاباتهم ، على أنهم ما كانوا قد تعلموا بعد أن يسطروا أقاصيص وتراتيل مغنيهم .

ولم يحدث قط أن أصبحت الموسيقى شيئا منفصلا وفنا قائما بذاته فى كل العالم القديم ، فكانت على الدوام من خدم الإنشاد أو الرقص . وكان للموسيقى القديمة إيقاع ، وكان فيها ألحان شجية على أنها لم تكن تحتوى على (الهارمونيات) ، فكانت يصاح بها أو تدق أو تنفخ فى ألفة صوتية تتفاوت زيادة ونقصانا ، وكان النساء والشبان يغنون غناء أعلى من الرجال بمقام كامل وكان الدق بالأرجل ، والتصفيق بالأيدى والطبل البدائى معوانا مساعدا . وهذا صحيح أيضا فى انطباقه على الموسيقى اليهودية والإغريقية حتى بدايات الحقبة المسيحية .

ولا تزال موسيقى العرب بمنأة عن (الهارمونى) . وهى مكونة من أوزان موسيقية إيقاعية معها لحن ميلودى . يكاد يكون رتيبا مملولا وتسير الأصوات والأوتار والصنوج فى ألفة على دقات الدفوف المتواصلة . ولعل فى هذا صورة حيـة باقية بأكملها من الموسيقى فى مصر وبابل .

فالصور والمنحوتات التى تمثل العزف الموسيقى فى المدنيات القديمة تحدثك بهذا بالضبط فالطبلة ترسم فى ضروب من الأشكال وكذلك الدف أو الرق . وكانت الصنوج تصك وتنقلها إلينا الرسوم الآشورية البارزة — وكان الصلاصل (السيستروم) المصرى يعطى جلجلة خفيفة سفلية من أصوات لحنية ميلودية . وكانت هناك نايات مفردة ومزدوجة القصبات وصافرات وأراغين فية . وكانت هناك أبواق وبوارى معدنية ، وهى بوارى بسيطة كل همها أن تعطى أصواتا عالية فى أوقات بارزة معينة . وقد نشأ آخر الأمر من القوس النيوليثى عدد من الآلات الوترية ، كان العازف يحرك عليها أصابعه أو ريشة أو منقرا . وكانت هذه هى اللير والهــرب والسالترى والعود والدوليسيمر . وكان العود يقوى صوت أوتاره بجسمه الرنان المقعر الذى

يشبه اليقطين أى القرع ، وللماندولين مثل هذا الشكل أيضا . والبانجو هو سليل العود الصغير السوق الساذج . ولعل الهَـرْپ هو أ كبر الآلات الموسيقية القديمة وأحسنها تطورا . وكان (الدولسيار) آلة موسيقية وترية ذات إطار أفقى .

وكما أن الأدب فى العالم القديم لم يتمكن من أن يتطور التطور الكامل ، بسبب تطور الكتابة تطورا غير كامل ، فإن الموسيقى قد عاقها افتقارها إلى تدوين عملى لنوتتها . وكان للناس عند ذاك نفس الآذان والأخيلة التى لهم الآن ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون أن يحتفظوا بالمادة الموسيقية أو أن يسلموا ما حصّلوه لكى يزودوا خلفهم بنقاط ارتحال جديدة يبدأون منها .

تم الكتاب الثالث ويليه الكتاب الرابع

ويتضمن

تاريخ الإغريق القـــدماء ومن عاصروهم